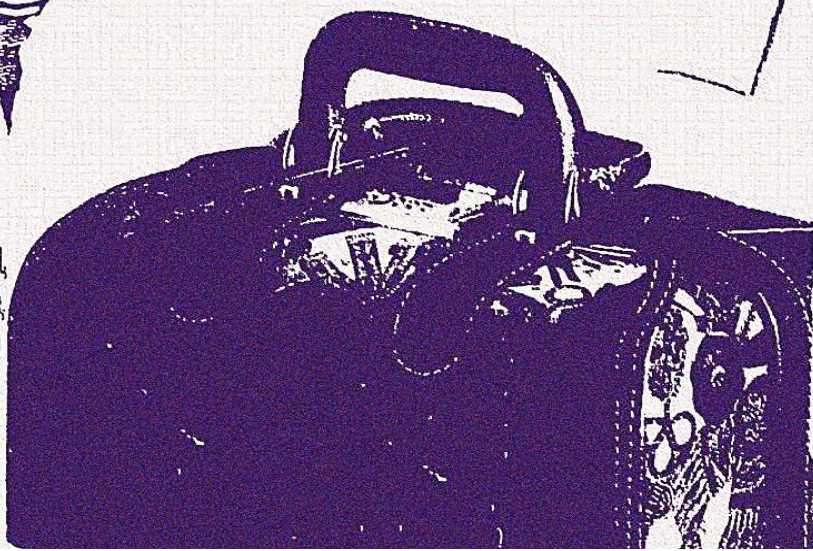


جوستاف فلوبر

مدام بوقاری

ترجمة : محمد مندور



Bibliotheca Alexandrina



0018452

» ... ثم تبدأ رقصة - على
نغمات « الفالس » المنبعثة
من أرغن يديره الرجل - في
صالون دقيق صغير ، لا
يتجاوز كل راقص فيه حجم
الإصبع ! ... يدورون
ويدورون بين المقاعد الوثيرة
و الأرائك و الموائد ، وتنعكس
حركاتهم مراراً في مرايا
التصق بعضها إلى بعض
بشريط من ورق مذهب ...
و الموسيقى الحزينة المتباطئة
تارة ، والمرحة تارة أخرى ،
تنبعث من صندوقه خلال ستارة
من « التافاته » وريدية
اللون ، علقت بمشجب نحاسي
ذي زخرف عربي . وكانت
هذه الموسيقى بالذات تعزف
فوق المسارح ، أو في
الصالونات حيث يدور الرقص
على وقعها في السهرات ،
وتحت الثريات المتلألئة ،
فكانت بمثابة أصداء تصل إلى
« إيما » من المجتمعات
الراقية التي تهفو إليها ! «



دار شرقيات للنشر والتوزيع

مدام بوقاری

هذه ترجمة لرواية

Madame Bovary

تأليف

Gustave Flaubert

الطبعة العربية الأولى

جميع الحقوق محفوظة

© ١٩٩٣ ، دار شرقيات

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع صدقي ، من هدى شعراوي

باب اللوق - القاهرة ت ٣٩٣٠٣٣٥

الغلاف والاشراف الفنى على الكتاب :

محمى الدين اللباد

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية

للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة



جوستاف فلوبر مدام بوقاری

ترجمة: محمد مندور

القسم الأول

الفصل الأول

كنا في حجرة الدراسة، عندما دخل الناظر يتبعه تلميذ جديد لا يرتدي الزي المدرسي، وفراش يحمل قمطراً كبيراً، فاستيقظ من كان نائماً، وانتصب كل منا واقفاً، وكأنه فوجئ على حين غرة برقيب على عمله!

وأشار إلينا الناظر بالعودة إلى الجلوس، ثم التفت إلى المدرس قائلاً في صوت خفيض: «مسيو روجيه، هذا تلميذ أوصيك به. لقد التحق بالسنة الخامسة، ولكن إذا بدا عمله وسلوكه مريضين فسوف ينقل إلى الفرق العليا التي تناسب سنه».

وفي الزاوية الواقعة خلف الباب، حيث لا يكاد يرى، لاح التلميذ الجديد. كان عملاقاً ريفياً في نحو الخامسة عشرة من عمره، أطول قامته منا جميعاً. وكان شعره منسقاً ومستوياً فوق جبهته، كمغني القرية، وقد ظهر عليه التحفظ والارتباك. وبالرغم من أنه لم يكن عريض المنكبين، فإن سترته الخضراء ذات الأزرار السوداء كانت تضايق حركاته، وقد انحسر كماها عن معصميه اللذين ألفا العربي، كما كانت قدماء - اللتان يكسوهما جوربان أزرقان - تبرزان من بنطلون أصفر، تشده الحماله شداً قوياً، وفي طرفيهما حذاءان سيئاً التلميع، تنتشر فيهما المسامير بكثرة ملحوظة.

وبدأ اختبار التلاميذ فيما لديهم من دروس، فأخذ التلميذ الجديد ينصت إليهم بكل جوارحه، وكأنه يصغي إلى موعظة في الكنيسة، دون أن يجسر حتى على أن يضع ساقاً على ساق، أو أن يتكئ بمرفقيه على القمطرا وعندما دق الجرس في الساعة الثانية، اضططر المدرس إلى أن ينبهه كي يتخذ مكانه في الصف!

وكان من عادتنا، إذا ما دخلنا حجرة الدرس، أن نلقي بقلنسواتنا أرضاً، كي تتحرر أيدينا لأداء الصلاة، فكنا نقذف بها تحت المقاعد بمجرد بلوغنا عتبة الباب، وبقوة تجعلها تصطدم بالخائض فتثير كثيراً من الغبار، وكانت هذه الحركة من «الأصول المرعية» التي نتباهى بها!

غير أن التلميذ الجديد لم يلاحظ هذه الحركة، أو لعله لاحظها ولكنه لم يجرؤ على اتيانها، فانتهدت الصلاة وقلنسوته ما تزال على ركبتيه. وكانت قلنسوة من طراز معقد، تجمع بين «الطاقية» ذات الوبر، و«اللبدة»، والقبعة المستديرة، وقلنسوة الفراء، والطاقية القطنية؛ وبالجمل، كانت من تلك الأشياء المزرية التي يحمل قبحتها الصامت من التعبيرات العميقة ما يحمله وجه الأبله! كانت بيضاوية، يرفع جوانبها هيكل مضلع في داخلها يكسيها الشكل المنتفخ، وتبدأ بثلاث كريات صغيرة، تتلوها قطع من المخمل ومن فراء الأرنب على شكل «المعين» الهندسي، يفصل بينها شريط أحمر، ويعقب ذلك شيء يشبه الكيس، ينتهي بقطعة من الورق المقوى متعددة الأضلاع، تكسوها رقعة مطرزة بأشرطة

معقدة الأشكال، ويتدلى منها حبل طويل جد رفيع، في نهايته صليب صغير من خيوط مذهبة يشبه «الشرابة»! كانت قلنسوة جديدة ذات حافة براقّة!

وقال الأستاذ للفتى: «قفا» فوقف. وسقطت القلنسوة، فانفجر التلاميذ جميعاً ضاحكين، بينما انحنى هو فالتقطها، ولكن جاره أسقطها مرة أخرى بضربة من مرفقه، فعاد الفتى إلى التقاطها من جديد. وكان المدرس حاضر النكتة، فقال له: «تخلص يا أخي من خوذتك!».

وانطلق التلاميذ في ثورة من الضحك المجلجل، أربكت الفتى المسكين، حتى لم يعد يدري أيحتفظ بقلنسوته في يده، أم يلقيها على الأرض، أم يضعها على رأسه. وأخيراً، جلس ووضعها على ركبتيه.

وعاد الأستاذ يقول له: «قفا ما اسمك؟» وتتم التلميذ الجديد باسم غير مفهوم، فهتف الأستاذ: «أعد!» وكرّر التلميذ المقاطع ذاتها، في تتممة طغت عليها قهقهة زملائه جميعاً. فصاح الأستاذ: «ارفع صوتك! ارفع صوتك!».

واستجمع التلميذ الجديد كل عزيمته، وفغر فاهاً مترامي الأبعاد، وعباً رثيته ثم قذف باسم «شاربوفاري» وكأنه ينادي شخصاً!

وانفجر التلاميذ في ضجيج صاخب، حاد، مضطرد، فأخذوا يصيحون وينبحون، ويدقون الأرض بأقدامهم مرددين: «شاربوفاري، شاربوفاري!»، في نغمات مسترسلة، لم تكن تهدأ - بعد مشقة بالغة - إلا لتعود في ناحية من حجرة الدراسة، أو في صف بأكمله من صفوف التلاميذ، تتخللها - هنا وهناك - ضحكة مكتومة، كصاروخ لم يخمد بعد تماماً.

وأخيراً، عاد الهدوء إلى حجرة الدراسة رويداً، بعد وابل من العقاب، وتمكن الأستاذ من التقاط اسم «شارل بوفاري»، بعد أن طلب إلى صاحبه أن يوضحه كتابة، وهجاء، وتلاوة! ثم أمر المسكين بأن يذهب فيجلس على «مقعد الكسالى» تحت حافة المنصة مباشرة، فشرع صاحبنا يتحرك. بيد أنه تردد قبل أن يبرح مكانه، فسأله الأستاذ: «عم تبحث؟».

وأجاب التلميذ الجديد وهو يتلفت حوله بنظرات قلقة:

«قلنسو...»! ولم يتم كلمته، إذ انفجرت العاصفة من جديد، فصاح الأستاذ في غضب هادر: «على كل منكم أن ينسخ خمسمائة بيت من الشعر». وكانت صرخته أشبه بصيحة «نبتون» - إله البحار - التي أطلقها متوعداً الرياح إذ ثارت دون أمر منه، على ما جاء في الأساطير! وما لبث أن أضاف وهو يجفف جبينه بمنديل أخرجه من بين ثنايا ردائه المهلهل: «كفى! الزموا السكون!» ثم التفت إلى التلميذ الجديد قائلاً: «أما أنت، فعليك أن تنسخ لي عبارة «أنا مضحك» عشرين مرة. ثم أردف في صوت أكثر رقة:

« لسوف تجدد قلنسوتك، فإن أحداً لم يسرقها »!

وعاد كل شيء إلى هدوئه، وانحنت رؤوس التلاميذ فوق الأدراج، بينما ظل التلميذ الجديد ساعتين في جلسة مثالية، وإن أخذت تنطلق - بين وقت وآخر - كرة من الورق الملوث بالمداد لتلطخ وجهه. وكان يسمح المداد بيده، ويستأنف جلسته بغير حراك، وهو منكس البصر!

وفي حجرة الاستذكار - في المساء - أخرج من درجه الكُمين الأسودين اللذين يُلبسان لصيانة كمي السترة وقت العمل، ورتب أدواته البسيطة، وأنجز في عناية كتابة العبارة التي فرضها عليه الأستاذ كعقاب، ثم عكف على عمله في اخلاص، باحثاً في القاموس عن جميع الكلمات، غير مدخر جهداً. ولا شك أن هذه الإرادة الطيبة هي التي حالت دون نقله إلى فرقة دراسية أدنى من التي أُلحق بها! ومع أنه كان ملماً بقواعد اللغة إلى حد ما، إلا أنه لم يؤت رشاقة التعبير، فقد كان قس قريته هو الذي بدأ تلقينه اللاتينية، إذ أرجأ أهله إرساله إلى المدرسة أطول فترة ممكنة، اقتصاداً للنفقات!

كان أبوه «شارل دني بارتلومي بوفاري» مساعد جراح سابق في الجيش، تورط في بعض المسائل المتصلة بالتجنيد في سنة ١٨١٢، واضطر إلى ترك الخدمة. بيد أنه كان قد وفق في استغلال مواهبه الشخصية، فظفر بصداق - «دوطة» - قدره ستون ألفاً من الفرنكات، حملته إليه ابنة صاحب مصنع للقبعات عشقت هيبته! فقد كان فارح القوام، يحسن التهريج والشنشة بمهمازده، وقد أرسل لحية متصلة بشاريه، واعتاد أن يزين أصابعه دائماً بالخواتم، وأن يتخير للملابسه الألوان الصارخة! وكان له مظهر الرجل الشجاع، مع خفة المندوب الكثير الأسفار. وقد ظل يعيش - بعد الزواج - عامين أو ثلاثة على ثروة زوجته، ينعم بالغذاء الطيب، ويستيقظ متأخراً، ويدخن في غلايين كبيرة من الخرف، ويرتدد على المقاهي، ولا يعود إلى منزله في كل مساء إلا بعد أن تغلق المقاهي أبوابها. حتى إذا مات والد زوجته، أحققه أن الرجل لم يخلف ثروة تذكر، فحاول أن يدير المصنع من بعده، لكنه خسر بعض المال، فأثر الانسحاب إلى الريف حيث حاول أن يعمل في الانتاج الزراعي. غير أنه لم يكن أكثر دراية بالزراعة منه بالصناعة، وكان يمتطي الخيل بدلاً من أن يرسلها للحرث، ويشرب النبيذ بالزجاجة بدلاً من أن يبيعه بالبرميل، ويأكل خير ما في حظيرته من دواجن، ويؤثر حذاءي الصيد بشحم خنازيره، فلم يلبث أن تبين أن من الخير له أن يتخلى عن استثمار ما بقي له من مال.

واستطاع أن يجد في إحدى القرى المتاخمة لمقاطعتي (كو) و (بيكاردي)، مسكناً - يشبه دور الفلاحين بقدر ما يشبه دور السادة - مقابل مائتي فرنك في العام، فاحتبس فيه نفسه منذ كان في الخامسة والاربعين من عمره، وقد استبد به الغم، وأخذ الندم يتهشه، وراح يسب القدر، ويحسد الناس، ويعلن أنه قد سئم البشر أجمعين، وقرر أن يعيش في هدوء!

وكانت زوجته في البداية مدلهة في هواه، فأبدت له من مظاهر الاستكانة والخضوع ما زاده منها نفوراً، وكانت في فجر شبابها مرحلة، منطلقة، تفيض نفسها حباً، فأمست بمضي الأعوام عصبية المزاج، كثيرة الصباح، ثائرة، وكأنها النبيذ الذي تخلخل غطاء دنه فاستحال إلى خل!

كانت قد تحملت أشد الآلام في باديء الأمر، دون أن تشكو من جريه وراء عاهرات القرية، ليعود إليها في المساء - بعد أن تلفظه عشرات المواخير - وريح الخمر تهب منه! فلما ثارت كبرياؤها، لم تملك سوى أن تكتم الغضب في صدرها، ولاذت بنوع من الصمت الفلسفي لازمها حتى الموت! وكانت دائمة الحركة، تذهب إلى موثقي العقود، وتسعى إلى العمدة، وترقب مواعيد استحقاق الصكوك فتسعى لرجاء دفعها واستمهال الدائنين. أما في البيت، فكانت تنهمك في الكي والحياكة والغسيل، وتراقب العمال، وتنقدهم أجورهم، في حين لم يكن السيد يعياً بشيء، بل كان يستغرق في اغفاء عابس واجم، لا يفيق منه إلا ليوجه إليها عبارات جارحة، ثم ينصرف إلى التدخين بجوار المدفأة، باصقاً بين الفينة والفينة على رمادها!

وعندما أنجبت طفلاً، اضطرت إلى أن تعهد به إلى مرضعة، حتى إذا عاد «المحروس» إلى أبويه، أسرفا في تدليله كما لو كان أميراً، فكانت الأم تغذيه بالحلوى والمربي، وكان الأب يتركه يرتع حافي القدمين، ويتعلل - متفلسفاً - بأن طفله قادر على أن يظل عارياً كصغار الحيوانات! وكان الأب - على العكس من اتجاهات الأم - يتخيل في ذهنه صورة لما ينبغي أن تكون عليه رجولة الطفل، فحاول لتحقيقها - أن ينشئ ابنه نشأة خشنة على غرار الطريقة «الاسبوطية»، فكان يرسل الطفل إلى الفراش دون منار تدفئ حجرته، ليقوي بنيته! وكان يعوده على تناول جرعات كبيرة من «الروم»، ويلقنه السخرية من الطقوس الدينية! أريد أن الطفل كان هادئاً بفطرتة، فلم يستجب لهذه التوجيهات.

وكانت أمه تجره خلفها دائماً، وتصنع له من الورق المقوى لعباً، وتروي له القصص، وتؤثره بأحاديث لا نهاية لها، يمتزج فيها المرح بالكآبة والمناجاة والتدليل. وفي تلك العزلة التي كانت تعيش فيها، صبت في مخيلة الطفل كل ما كان يخالج نفسها من طموح مشئت، كانت تطمح في أن ترضي به كبرياءها المحطمة. كانت تحلم له بأرفع المناصب، وتتصوره وقد كبر، وغداً جميلاً، حاضر البديهة، متربعاً في إحدى مناصب مصلحة الطرق والجسور، أو في أحد مراكز القضاء. ومن ثم تولت تعليمه القراءة، ولقنته اغنيتين أو ثلاثاً، كانت تعزف له ألحانها على معزف قديم تملكه.

على أن مسيو «بوفاري»، لم يكن يحفل كثيراً بالثقافة، فلم ير في كل هذه الجهود شيئاً ذا قيمة. كان كل ما يعنيه هو التفكير فيما إذا كان سيقدر لهما يوماً أن يجدا ما يكفل لهما تعليم الطفل في مدارس الحكومة، أو ما يمكنهما من أن يبتاعا له مكتباً أو

متجراً. وكان - فوق ذلك - يعتقد أن الانسان يستطيع أن ينجح في الحياة بالصفاقة! أما مدام «بوفاري» فكانت تعض شفتيها حنقاً، وهي ترى ابنها يتسكع في القرية، إذ كان يحلو للطفل أن يتبع المزارعين في حرثهم وأن يطارد الغربان بالطوب، وأن يقتطف التوت من فوق الأشجار، ويرعى الديكة الرومية بقصبة طويلة، ويتولى في أوقات الحصاد، تقليب الحزم لتجف، ويرتع في الغابة، ويلعب «الحجلة» في فناء الكنيسة في الأيام المطيرة! وكان يتوسل إلى خادم الكنيسة ليتركه يدق الأجراس في الأعياد الكبيرة، فيتعلق كل جسمه بالحبل الضخم، وينعم بالإحساس بنفسه محمولاً على الهواء والحبل يتأرجح به!

وهكذا نشأ الصبي نشأة طبيعية، كشجرة البلوط، فأوتي يدين قويتين، ولوناً بديعاً!

وإذ بلغ الثانية عشرة من عمره، ألحت أمه في أن يبدأ دراسته، فتعهده قس القرية، غير أن الدروس كانت من القصر وعدم الانتظام بحيث لم يكن يرجى منها نفع كبير. فقد كان القس يلقنه هذه الدروس في مخزن الكنيسة، كلما سنحت له فرصة عابرة بين صلاة تعميد وصلاة جنازة! وكان الطفل يتلقاها وهو واقف على قدميه. بل أن القس كان يرسل في استدعاء تلميذه - في بعض الأيام - عقب فراغه من صلاة الغروب، إذا لم يكن لديه ما يدعو للخروج. فكانا يصعدان إلى حجرة القس، ويجلسان للدرس على ضوء مصباح يحوم حوله الذباب وفراشات الليل، وكان الجو الحار يغري الصبي بالنوم، كما يغفو القس ويده فوق بطنه، فلا يلبث أن ينبعث الغيط من فمه المفتوح! كذلك كان القس أثناء عودته من تقديم البركة لأحد المرضى في قرية مجاورة يلتقي أحياناً بشارل وهو يتسكع في الحقول، فيدعوه إليه، ويقضي ربع الساعة في وعظة تحت شجرة، ثم ينتهز الفرصة ليحمله على تصريف الفعل الذي كلفه باستذكاره. وكثيراً ما كان يقطع عليهما الدرس سقوط المطر، أو مرور أحد المعارف. وكان القس - بعد ذلك - يبدي رضاء عن الصبي، بل أنه كان يقول إن له ذاكرة قوية!

ولم يكن لشارل أن يكتفي بهذا القدر من الدراسة، إذ كانت أمه قوية في إصرارها على تعليمه. ولم يشأ الوالد أن يقاوم، إذ غلبه الخزي. أو - بالأحرى - التعب. ولكنهما تربيًا - أما آخر، ريثما يتاح للصبي أن يتناول «القرآن المقدس» الأول في حياته. وما أن انقضت ستة أشهر على ذلك، حتى تقرر نهائياً إرساله إلى مدرسة (روان)، وصحبه أبوه بنفسه في أواخر شهر أكتوبر، إبان موسم «القدّيس رومان».



يستحيل على أحد منا أن يتذكر الآن شيئاً عن «شارل بوفاري». على أنه عادي المزاج والطابع، يلعب في فترات الفراغ، ويستذكر في الحجرة المخصصة لذلك، ويصغي

بانتباه في حجرة الدرس، ويأكل في المطعم، وينام في «العنبر»، شأن أي تلميذ آخر! وكان ولي أمره في (روان) تاجراً يبيع الحديد والحردة بالجملة، في شارع (جانتيري)، وقد اعتاد أن يسمح له بالخروج من المدرسة في يوم واحد من أيام الأحاد في كل شهر. فكان يقد - بعد أن يغلق متجره - ليصحبه إلى النزهة ومشاهدة السفن في الميناء، ثم يعود به إلى المدرسة في الساعة السابعة، قبيل موعد العشاء. وفي مساء كل يوم خميس، كان الصبي يكتب لأمه خطاباً طويلاً بالمداد الأحمر، يغلفه جيداً، ثم يستذكر دروس التاريخ، أو يقرأ في كتاب قديم - عن رحلة «أنا كارسييس» - يعثر به مهملاً في غرفة الدرس. كما كان يحلو له - أثناء «الفسحة» - أن يتحدث إلى الخادم الذي كان من أبناء الريف مثله!

واستطاع بفضل اجتهاده أن يحتفظ دائماً بترتيب متوسط بين تلاميذ الفرقة. بل أنه وفق مرة إلى الحصول على جائزة في التاريخ الطبيعي، بيد أن والديه ما لبثا أن سحبا من المدرسة، وهو لم يزل بعد في الفرقة الثالثة، ليحملاه على دراسة الطب فقط، إذ كانا يؤمنان بقدرته على أن يستكمل دراسته دون ما معونة!

واختارت له أمه حجرة في الطابق الرابع من منزل يطل على ترعة (روبيك)، عند رجل من معارفها يشتغل بالصباغة. وبعد أن دبرت أمر إقامته، حصلت له على بعض أثاث تمثل في منضدة ومقعدين، كما أحضرت من دارها سريراً قديماً من خشب الكرز. وابتاعت قرص مدفاة من الحديد الزهر، وكمية من الأخشاب لتدفئة صغيرها المسكين! ثم رحلت في نهاية الأسبوع، بعد أن أزجت إليه مئآت الوصايا بأن يحسن السلوك، بعد أن غدا طليقاً بغير رقيب.

على أن «شارل» كاد يصعق، حين رأى برنامج الدراسة في لوحة الاعلان. كانت هناك دروس في التشريح، ودروس في علم الأمراض (الباثولوجيا)، ودروس في علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، ودروس في الصيدلة (الفارماكوبيا)، ودروس في الكيمياء، وفي النبات، وفي التشخيص، والعلاج، عدا علم الصحة، وعلم الطب... أسماء كان يجهل اشتقاقاتها ومعانيها جميعاً، فبدت له كأبواب هياكل تكتنفها الظلمات!

ولم يفهم من هذه الدروس شيئاً! بل أنه لم يستطع - رغم إصغائه في انتباه تام - أن يدرك لها مغزى! وكانت لديه كراسات مجلدة واطب على تدوين دروسه فيها باجتهاد، ولم يتخلف يوماً عن الطواف بأسرة المرضى في المستشفى. كما كان يؤدي واجباته اليومية على نحو ما يفعل حصان الطاحونة، إذ يدور في مكانه وهو معصوب العينين، لا يعرف عن نوع الحبوب التي يسخر لطحنها شيئاً!

وكانت أمه ترسل إليه في كل أسبوع قطعة من اللحم المشوي، فكان يتناول منها غداءه - إذا ما عاد من المستشفى - وهو جالس ينقر الحائط بحذائه، ثم لا يلبث أن يعود إلى الدروس في قاعة الجراحات أو «عنابر» المستشفى. حتى إذا أفل النهار، عاد إلى داره سالكاً الطريق الطويل عبر البلدة، فيتناول ما يقدمه له صاحب المنزل من عشاء ثم يصعد

إلى حجرته ليعكف على الاستذكار أمام المدفئة والبخار يتصاعد من ملابسه المبللة.
وفي أمسيات الصيف الجميلة، حين تقفر الطرقات الحارة من المارة، وتلهو الخادومات
بكرات من الفلين أمام الدور، كان «شارل» يفتح نافذته، ويتكئ بمرفقيه على حافتها،
ليطل على الترتعة، التي تجعل من هذا الحي من أحياء (روان) ما يشبه مدينة (بندقية)
صغيرة، متواضعة. وكانت الترتعة تنساب تحت بصره بين القناطر والأسوار، تنعكس على
صفحتها الألوان الصفراء، والبنفسجية، والزرقاء، وقد جثا العمال على حافتها يغسلون
أذرعهم بمائها.

وعلى أسطح المنازل المقابلة، كان يرى ضفائر غزل القطن وقد علقت إلى عصي طويلة
لتجف. وخلف تلك الأسطح، كانت السماء الصافية تمتد، والشمس تجرر أذيالها نحو
الغروب. لكم كان الجو يبدو له جميلاً، والهواء منعشاً، في ظلال الأشجار. فكان يفتح
طاقتي أنفه بشدة، ليجتذب على البعد روائح الريف التي لم تكن تترامى إليه!
وأخذ جسمه ينحف، وقده يستطيل، واكتسى وجهه وجوماً ساجياً أضفى عليه شيئاً
من الجاذبية! وبدأ حماسه للدرس يفتّر، فكان من الطبيعي أن يتحلل من العهود التي
قطعها على نفسه، وفي اليوم التالي تخلف عن إحدى المحاضرات. وشيئاً فشيئاً، استساغ
الكسل حتى انتهى به الأمر إلى الانقطاع عن الدروس تماماً! وأدمن ارتياد المقاهي، وشغف
بلعب «الدومينو». وخيل له أن في احتباس نفسه هكذا، كل مساء، في حانة قذرة، حيث
يقرع رخام المناضد بقطع «الدومينو» المصنوعة من عظام الخراف وقد حفرت فيها نقط
سوداء، خيل إليه أن في هذا العمل مظهراً للحرية يرفع من تقديره لنفسه! كان هذا - في
نظره - مقدمة للحياة الدنيا، وسبيلاً إلى اللذات المحظورة! فكان يشعر عندما يضع يده
على مقبض الباب - بعد عودته إلى غرفته في المساء - بنشوة تكاد تشبه اللذة الحسية.
وتفتحت نفسه عن أشياء كثيرة كانت مكبوتة، فحفظ عن ظهر قلب بعض الأغنيات
التي كان يستقبل بها الزائرات، وتحمس لبرامجيه، مؤلف الأشعار الغنائية، وتعلم كيف
يمزج أنواع الكحول، وأخيراً، عرف الحب!
وبفضل هذه الأعمال التحضيرية، كان رسوبه في الامتحان شنيعاً، بينما كان والده
يرتقبانه في دارهما ليحتفلا بنجاحه!



وعاد «شارل» سائراً على قدميه، حتى إذا بلغ مدخل القرية، توقف وارسل في طلب
أمه، وقص عليها ما أصابه. فالتمست له الأعذار، وعزت رسوبه إلى ظلم الممتحنين، وأولته
بعض التشجيع، آخذة على عاتقها تدبير الأمور! ولم يعلم مسيو «بوفاري» بالحقيقة إلا
بعد خمس سنوات، وكانت قد فقدت جدتها، فتقبلها في تسليم، وإن لم يتصور أن من

الممكن أن يكون في سلالة ابن خائب!

على أن «شارل» تحول إلى الجدة مرة أخرى، فاقبل يراجع دروسه بغير توان، واستظهر جميع المواد، ففاز في الامتحان النهائي بدرجة لا بأس بها. وما كان أسعد أمه يوم نجاحه! فلقد أولت يومذاك وليمة كبيرة!

والآن، ترى أين يباشر مهنته؟ أفي (توست)؟ لقد كان هناك طبيب طاعن في السن تتوقع مدام «بوفاري» موته منذ أمد طويل، فلم يترث «شارل» حتى يودع الشيخ الحياة، بل استقر في مواجته كخليفة له!

ولكن الأمر لم ينته بتربية الابن، وتعليمه الطب، واتخاذ (توست) مقراً يزاول فيه مهنته، إذ كان لابد له من امرأة! ووجدت له أمه الزوجة المنشودة، أرملة أحد محضري (دييب)، لها من العمر خمس وأربعون سنة، ومن الدخل ألف ومئتا فرنك!

ومع أن مدام «دوبيك» هذه كانت دميمة، عجفاء كالرود، تملأ البثور وجهها كما تنتشر البراعم في الأشجار في فصل الربيع، إلا أن فرص اختيار الزوج كانت واسعة أمامها، مما حدا بالأم «بوفاري» إلى أن تجاهد كي تغلب على الساعين للفوز بيدها! وبالفعل، استطاعت أن تحبط ألاعيب قصاص كان رجال الدين يؤازرونه!

وكان «شارل» يخال أن الزواج سيمكنه من تحسين حاله، فيغدو أكثر حرية وقدرة على التصرف في شؤونه الشخصية والمالية. بيد أن زوجته لم تلبث أن غدت صاحبة الأمر والسلطان، حتى لقد كانت قلبي عليه ما ينبغي أن يقول أمام الناس وما يجب أن يمتنع عن قوله! وفرضت عليه أن يصوم أيام الجمعة، وأن يرتدي من الثياب ما تحب هي، وأن يلح في مطالبة العملاء الذين لا يدفعون اتعاباً! بل إنها كانت تفتح خطابات، وتراقب حركاته، وتسترق السمع خلال ثقب الباب، إذا ما حضرت إلى العيادة بعض السيدات لاستشارته!

وفضلاً عن هذا، كانت في حاجة إلى كوب من «الكاكاو» كل صباح، وإلى أنواع من الرعاية لا حصر لها، وكانت دائمة الشكوى من أعصابها، وصدرها، ومفاصلها! يؤذيها وقع الأقدام، وتثقل عليها الوحدة إذا غادرها، فإذا سعى أحد إلى جوارها، ظنت أنه لم يأت إلا ليشهد احتضارها! وكانت إذا ما عاد «شارل» في المساء، تخرج من تحت أغشية الفراش ذراعيها العجفاوين لتطوق رقبتة، وما أن يجلس على حافة الفراش، حتى تنطلق تبث همومها: فهو ينساها، ويحب غيرها! ولقد تنبأوا لها بأنها ستشقى! ثم تنتهي من فيض الهموم والهواجس إلى أن تسأله زجاجة من دواء يقوي صحتها، وقدراً أكبر من الحب!!

الفصل الثاني

حوالي الساعة الحادية عشرة من إحدى الليالي، استيقظ «شارل» وزوجته وخادمهما على وقع حوافر جواد مسرع، لم يلبث أن وقف أمام باب دراهم. وفتحت الخادم نافذة المخزن، وتبادلت حديثاً قصيراً مع رجل كان تحت النافذة. وإذا أنبأها بأنه حضر لاستدعاء الطبيب، وأنه يحمل رسالة إليه، هبطت درجات السلم وهي ترتجف من البرد، وفتحت الأقفال ثم رفعت المزاليج تباعاً.

وترك الرجل جواده، وسار خلف الخادم مقتحماً المخدع دون انتظار، ثم أخرج من قلنسوته الصوفية ذات «الشرايات» الرمادية، رسالة ملفوفة في اطواء قطعة خلفة من القماش، وقدمها بأدب إلى «شارل» الذي اتكأ بمرفقيه على الوسادة ليقرأها، بينما وقفت «نستازي» - الخادم - إلى جوار السرير تحمل الضوء. ودفع الحياء زوجة الطبيب إلى أن تظل مولية وجهها نحو الحائط، وظهرها إليهم.

وتضمن الخطاب - الذي كان مغلقاً بخاتم صغير من الشمع الأزرق - رجاء ضارعاً إلى السيد «بوفاري» كي يبادر فوراً إلى مزرعة (برتو) ليجبر ساقاً مكسورة. وكانت المسافة بين (توست) و(برتو) تزيد على ستة فراسخ، في طريق زراعي تمر بكل من (لونجفيل) و(سانتا فيكتور)، وكان الليل حالكاً، والسيدة الزوجة تخشى أن يحل بزوجها أي مكروه. لذلك استقر الرأي على أن يرسل الرسول، ثم يتبعه «شارل» بعد ثلاث ساعات - حين يشرق القمر - على أن يوفد الرجل غلاماً للقائه فيرشده إلى المزرعة، ويرفع ما قد يكون في طريقه من حواجز.

وفي الساعة الرابعة صباحاً، بدأ «شارل» رحلته إلى (برتو)، متدثراً بمعطفه. ولم يكن قد تخلص تماماً من سلطان الكرى ودفء السرير، فترك دابته تحمله في خطوات هادئة تؤرجحه، حتى إذا وقفت من تلقاء نفسها عند الحفر المحاطة بالأشواك - التي كان الفلاحون يحفرونها على حدود المزارع - استيقظ من اغفائه منتفضاً، وتذكر صاحب الساق المكسورة، فأخذ في استعراض كافة أنواع الكسور التي عرفها.

وما لبث المطر أن كفَّ عن السقوط، وأخذ النهار يدنو. وعلى غصون أشجار التفاح العارية، وقفت العصافير جامدة، وقد نفشت ريشها لريح الصباح الباردة. وكان الريف يمتد على مرمى البصر، ومجموعات الأشجار المحيطة بالمزارع تبدو كبقع بنفسجية داكنة على الفضاء الرمادي الشاسع الذي كان يختلط عند الأفق بظلمة السماء.

وكان «شارل» يفتح عينيه بين الفينة والفينة، يلبث النعاس أن يغلبه، ويستسلم لسنة حاملة يختلط فيها حاضره بذكرياته، حتى لقد خال لنفسه شخصيتين في وقت واحد: فهو طالب، وزوج معاً، وهو نائم على فراشه كما كان منذ هنيهة، ثم هو يجوس في قاعة

الجراحات كما كان يفعل أيام الدراسة، واختلطت في رأسه رائحة العقاقير بأريج الخضرة الندية، وبحفيف حلقات الستائر وهي تنزلق على قضبان السرير، وزوجته تغط في نومها، وإذا بلغ (فاسونفيل) لمح فتى صغيراً يجلس على العشب، عند حافة حفرة.

وهتف الغلام إذ رآه: «أأنت الطبيب؟»

وإذا أجابه «شارل»، خلع الغلام نعليه وأمسك بهما بين يديه، وانطلق يعدو أمامه ليرشده إلى الطريق.

وأدرك الطبيب من دليله اثناء سيرهما، أن ساق مسيو «روو» - الذي كان ولا بد من أثره المزارعين - قد كسرت مساء اليوم السابق، وهو عائد من حفل لدى أحد جيرانه، وأن زوجة هذا السيد قد توفيت منذ عامين، وليس له إلا ابنة تساعده في شئون المنزل.

وتخللت الطريق آثار عجالات أخذت تزداد عمقاً إذ اقتربا من (برتو) وما لبث الغلام أن اختفى خلال فرجة في سياج المزرعة، ليعود بعد هنيهة إلى الظهور عند نهاية السياج، فيفتح الباب. وسار الحصان وحواضه تنزلق على العشب المبتل، واحنى «شارل» رأسه ليتجنب الأغصان، وإذا دخل الضيعة، أخذت كلاب الحراسة تنبح وتشد السلاسل التي تربطها إلى مأويها، فأجفل الجواد في فرع شديد.

كانت ضيعة بدیعة. ومن خلال الأبواب المفتوحة، كانت ثمة خيول ضخمة للحرث تأكل مطمئنة في مزاود جديدة، بينما تكدست على طول الجدران أكوام السماد التي تتصاعد منها الأبخرة. وبين الدجاج والديكة الرومية، بدت خمسة طواويس أو ستة تلتقط الحبوب، وينم مظهرها على أنها حقيقة مفخرة حظائر متقاطعة (كو).

أما حظيرة الأغنام فكانت طويلة، والمخزن عالياً مصقول الجدران. وتحت المظلة، كانت ثمة عربتان كبيرتان، وأربعة محارث كاملة بأسواطها، وأطواقها، وسروجها التي اتسخ كساؤها الصوفي الأزرق، لفرط ما كان يتساقط عليها من غبار المخازن. وكان الفناء يرتفع تدريجياً، وقد تخللته أشجار غرست على أبعاد منتظمة، ومن ناحية البحيرة، انبعثت أصوات الاوز.

ولاحت لدى عتبة باب المنزل سيدة شابة في ثوب من الصوف محلى بثلاثة أفواف (كرانيش)، فاستقبلت السيد «بوفاري» وقادته إلى المطبخ، حيث كانت ثمة نار كبيرة يغلي فوقها طعام الفطور، في قدور من جميع الأحجام. وإلى أحد جانبي المدفأة، كانت ثمة ملابس مبتلة نشرت لتجف على الوهج، وبدت المجرفة وقابضة الجمر والمنفاخ ضخمة الحجم، تلمع كالصلب المصقول، بينما رصت على طول الجدار أدوات للطهو كثيرة العدد، انعكس عليها لهب الموقد، تخالطه طلائع أشعة الشمس التي أخذت تنساب خلال زجاج النوافذ.

وما لبث «شارل» أن صعد إلى الطابق الأول من الدار، ليرى المريض، فالفاه في فراشه ينضج بالعرق تحت الغطاء، وقد ألقى طاقيته القطنية جانباً.

كان رجلاً بديناً، قصيراً، في الخمسين من عمره، أبيض البشرة، أزرق العينين، أصلع مقدم الرأس، ويزين أذنيه بقرطين! وعلى مقعد قريب منه كانت ثمة قنينة خمر أخذ برفعها الى فمه بين الفينة والفينة، ليشد من عزمه، ويرفع من روحه المعنوية!

ولم يكد الرجل يرى الطبيب حتى خفف من هياجه، وبدلاً من أن يمضي في سبيل الشتام التي كان يطلقها بسخاء منذ اثنتى عشرة ساعة، تحول يثن أنيناً خافتاً.

وكان الكسر بسيطاً، لم تصحبه أية مضاعفات، بل أن «شارل» لم يكن يطمع في كسر أسهل منه! وتذكر لفوره مسلك أساتذته بجوار أسرة الجرحى، فأخذ يشجع المريض بكل ما يعرفه من الكلمات الطبية، وبما تعلمه عن الجراحين من مواساة لطيفة تشبه الزيت الذي يدهنون به مباضعهم (مشارطهم)!

وأخذ أهل المريض يبحثون في المخزن حتى جمعوا حزمة من السدابات الخشبية ليتخذوا منها جباثر، فتناول شارل واحدة منها شقها الى قطع عكف على صقلها بلوح مكسور من زجاج النوافذ، بينما كانت الخادم تمزق بعض الملاءات ليتخذوا منها أريطة. والآنسة «إيما» - ابنة الرجل - تحيك وسادات صغيرة، وكانت قد اضاعت وقتاً طويلاً في البحث عن صندوق أدوات الحياكة، فلما استحشها والدها لم تجده بنت شفة، وإنما أقيلت على الحياكة، وكانت كلما شكت الإبرة أصابعها، ترفع هذه الأصابع إلى فمها وقصها! وأعجب «شارل» ببياض أظافرها اللامعة، الدقيقة الأطراف. كانت أكثر تصوعاً من عاج (ديبب)، وقد قصت على شكل اللوز! على أن يدها لم تكن - رغم ذلك - جميلة، ولعل بشرتها كانت أقل صفاء مما ينبغي، كما كانت باذية الجفاف عند مفاصل الأصابع. كانت يداً مسرفة في الطول، يعوزها شيء من ليونة الثني! ولكن جمال الفتاة كان يتركز في عينيها العسليتين اللتين كانت أهدابهما تضيء عليهما صبغة السواد، واللتين كانت تنبعث منها نظرات توحى للمرء بالصراحة المشوبة بالسذاجة الجريئة!

وإذا انتهت عملية التجبير، دعا مسيو «رو» الطبيب إلى بعض الطعام قبل رحيله، فهبط «شارل» إلى بهو الطابق الأرضي، حيث ألقى المائدة معدة لشخصين، إلى جوار سرير كبير ذي غطاء من قماش محلى برسوم قتل أشخاصاً من الأتراك. وكان المكان يتضوع بشذى زهر السوسن، وقد بدت بعض الملاءات التنظيفة في صوان من خشب البلوط في مواجهة النافذة. وفي الأركان، رصت جوانات الحنطة التي ضاقت بها جنبات المخزن المجاور المتصل بالبهو بثلاث درجات حجرية.

وكان يزين البهو رأس لمنيرفا^(١) رسم بالقلم الأسود، وأحيط باطار مذهب كتب تحته بالحروف القوطية: «إلى أبي العزيز»، وقد علقت الصورة إلى مسمار في وسط الحائط الذي تساقط طلاؤه الأخضر بفعل الرطوبة.



وجلست الفتاة إلى المائدة مع «شارل»، وجرى الحديث: عن المريض - أولاً - ثم عن الجوع وموجات البرد القارس، والذئابة التي تعدو خلال الحقول في الليل. وكانت الآنسة «روو» لا تستطيع الإقامة في الريف، لا سيما بعد أن غدت تضطلع وحدها - تقريباً - برعاية شئون المزرعة، وكانت تترجف أثناء تناول الطعام، لفرط رطوبة الصالة، مما كشف قليلاً عن شفثيها المكتنزين اللتين اعتادت أن تعضهما في أوقات الصمت.

كانت رقبتها تظهر خلال ياقة مزدوجة، وضفيريها السوداوان الناعمتان تبدوان - لفرط نعومتها - قطعة واحدة، تنشق إلى شعبتين - عند منتصف الرأس - بخط مستقيم يتبع استدارة الرأس، ثم تعود الشعبتان إلى الالتقاء خلف الرأس في كعكة سميكة تنحدر منها خصلتان نحو الصدغ، لا تكاد أذنا الفتاة تبيينان خلالهما. وكانت هذه أول مرة يرى الطبيب الشاب فيها شعراً منسقاً بهذا الشكل! أما وجنتا الفتاة فكانتا متوردتين، وكانت ثمة عويطة في إطار من الصدف تتدلى من زرين في صدرها، على نحو ما يفعل الرجال!

وصعد «شارل» ليدودع الأب - «روو» - ثم هبط إلى البهو ثانية، فإذا الفتاة واقفة إلى النافذة، وقد اسندت إليها جبهتها، وأخذت تتأمل الحديقة، حيث أطاحت الريح بالعصي الخشبية الصغيرة التي كانت تسند شجيرات الفاصوليا.

وحين شعرت به، التفتت إليه متسائلة: «أتبحث عن شيء؟» فأجاب: «سوطي، من فضلك!».

وراح يبحث فوق السرير، وخلف الأبواب، وتحت المقاعد غير أن السوط كان قد سقط على الأرض بين الجدار والجوالات. وما لبثت «إيما» أن لمحته، فانحنى فوق جوانات القمح لتلتقطه، ودفعت الشهامة «شارل» إلى أن يسرع فيمد ذراعه ليلتقطه قبلها، فإذا به يحس بصدره يمس ظهر الفتاة المنحنية أمامه. وبادرت هي إلى الاعتدال وقد تضرج وجهها، ثم التفتت إليه من فوق كتفها وهي تناوله سوطه المصنوع من عصب الثور.

وبدلاً من أن يعود «شارل» إلى (برتو) بعد ثلاثة أيام كما وعد، جاء في اليوم التالي مباشرة، ثم أخذ يتردد على الضيعة مرتين في الأسبوع بانتظام، عدا الزيارات غير المتوقعة التي كان يقوم بها من آن إلى آخر، وكأنها محض مصادفات!

وسارت الأمور على ما يرام، وتم شفاء المريض. وعندما رُوي الأب «روو» - بعد ستة وأربعين يوماً - يحاول السير وحده في بيته العتيق، اعتبر الناس مسيو «بوفاري» نطاسياً بارعاً، لا سيما حين أخذ الأب «روو» يردد أنه ما كان من الممكن أن يحظى بعلاج من أكبر أطباء (ايفتو) - أو (روان) - يفوق العلاج الذي حظي به على يد مسيو «بوفاري»!

ولم يفكر «شارل» في أن يسائل نفسه عن سر المتعة التي يستشعرها في التردد على (برتو). ولو أنه حاول التساؤل لما كان ثمة شك في أن يعزو هذا الاسراف إلى خطورة

حال المريض، أو إلى الكسب الذي كان يرتقيه. ولكن، أحقاً كان هذا هو السبب في أن زيارته لتلك الضيعة كانت تبدو - خلال شواغل حياته - كأحداث غير عادية ذات جاذبية وفتنة؟



كان في أيام تلك الزيارات يستيقظ مبكراً، ويرحل في عجلة مستحثاً دابته، حتى إذا ترجل أمام الدار، مسح تعلية بالحشائش، ولبس قفازيه الأسودين قبل أن يلج. وكان يحس بالنشوة، إذا ما بلغ الفناء، وشعر بباب السياج يدور بجوار كتفه ليسمح له بأن يدخل، وحين يسمع صياح الديكة فوق الجدار، ويرى الأولاد مقبلين لاستقباله! وأحب الأب «روو» الذي كان يربت يده ويدعوه بمنقذه! كما أحب وقع حذاءي «إيما» على أرض المطبخ النظيفة. كان كعباها العاليان يضيفان طولاً إلى طولها، وكان النعل الخشبي يرتفع - إذا ما سارت أمامه - ليصطك بجلد الخدائين في صوت مكتوم.

وكانت الفتاة ترافقه دائماً عند انصرافه حتى بداية السلم الخارجي، ثم تظل واقفة ريثما يحضر جواده، وكانا يظلان صامتين - إذ يكونان عادة قد تبادلنا تحية الوداع من قبل - والهواء الطلق يهب حولهما فيبعث ببعض خصلات الشعر الخائرة على عنق الفتاة، ويهز طرفي حزام مرولتها على رديفها فيرفرفان كما ترفرف الأعلام.

وحدث في إحدى المرات أن ذاب الجليد - وهي تقف عند مدخل الدار - فبلل الماء المنساب جذوع الأشجار، وأخذ يتساقط من أسطح مباني الضيعة، فتحولت «إيما» إلى الداخل واحضرت مظلتها ففتحتها. وكانت المظلة من الحرير الموج المتعدد الألوان، المعروف باسم «رقبة الحمامة». فلما نفذت خلاله أشعة الشمس، عكست على بشرة الفتاة الناصعة أطيافاً متأرجحة من الضوء، وانبسبت أسارير وجهها وهي تستمرئ الدفء الذي بعثته الشمس في جسمها، بينما كانت قطرات الماء تتساقط على حرير المظلة المشدود، محدثة طرقات متتابة.

وكانت زوجة «شارل» لا تغفل - في الفترات الأولى لتردده على (برتو) - السؤال عن المريض، بل أنها افردت لمسيو «روو» صفحة بيضاء، بديعة، في مفكرة الحسابات التي كانت تحتفظ بها.

بيد أنها لم تكد تعرف أن له ابنة حتى أخذت تتحرى، فعلمت أن الآتسة «إيما»، التي نشأت في رعاية راهبات «الأورسلين»، قد حظيت بما يسمونه «تربية راقية»، ومن ثم فهي على دراية بالرقص والجغرافيا والرسم، كما تحذق التطريز والعزف على «البيانو»، وتلك كانت الطامة!

وأخذت الزوجة تردد لنفسها: «هذا إن مبعث كل هذا الاشرار الذي يتجلى على

وجهه كلما ذهب لزيارتها! وهو السبب في حرصه على ارتداء صداره الجديد، مجازفاً بتعريضه للمطر الذي قد يتلفه آه، هذه المرأة! هذه المرأة!...» وكرهتها بالغريزة!

وقد كانت في بداية الأمر تسري عن نفسها بتلميحات لم يفهمها «شارل»، ثم بإشارات عارضة كان يتجاهلها خشية العاصفة، ثم - أخيراً - باستجابات مباغتة لم يكن يدري كيف يجيب عليها. «لماذا يتردد على (برتو) ما دام مسيو «رو» قد شفي، وما دام القوم لم ينقدوه بعد اتعاباً؟ آه... لا بد أن ذلك يرجع إلى وجود شخص هناك، شخص يحسن الحديث ويحذق تنميقه، شخص لبق حاضر البديهة، وهذا هو ما يجتذبه، إنه يتوق إلى فتيات المدن!»

وقضي في مساجلتها قائلة: «وهل ابنة الاب «رو» من فتيات المدن؟.. هذا غير معقول! لقد كان جدكم راعي غنم، ولهم ابن عم أوشك أن يقدم إلى المحاكمة لاشتراكه في نزاع مشين، ففيم إذن التعالي، وفيم إذن ارتداء الحرير للذهاب إلى الكنيسة في أيام الآحاد، وكأنها كونتة؟ لولا محصول اللفت لعجز أبوها المسكين عن سداد ديونه في العام الماضي!».

وسئم «شارل» هذه النغمة البغيضة، فكف عن التردد على (برتو)، لا سيما بعد أن حملته «هلوز» - زوجته - على أن يقسم بالكتاب المقدس على أن لا يعود إلى تلك الزيارات، وبعد أن غمرته بفيض من النحيب والقبلات في ثورة عاتية من الحب! بيد أن الرغبة القوية لم تلبث أن تمرت على استكائته وخنوعه. وفي نوع من الرياء الساذج، أخذ يؤول قسمه، فحظر رؤيته الفتاة لا يجرده من الحق في أن يحبها، لا سيما وأن زوجته عجفاء، كبيرة الأسنان، لا تتخلى قط - وفي جميع فصول السنة - عن الشال الاسود الصغير، الذي كانت أطرافه تتدلى بين لوحى كتفيها، وكان قدها محشوراً دائماً في ثوبها وكأنه مغيب في غمدا! ثم أن أثوابها كانت قصيرة، تكشف عن ساقين معروقتين، غاب قدماهما في جوربين رماديين عقدت فوقهما سيور حذاءيهما.

وكانت أم «شارل» تفد لزيارتها بين آن وآخر، ولكنها لم تلبث أن أحست - بعد زمن - أن زوجة ابنها أخذت تستثيرها ضده، إذا أصبحت المرأتان كسكينين تنحراهما بملاحظاتهما وتأنبياتهما. فهو مخطئ! اذ يلتهم كل هذا الطعام! ثم لماذا يقدم الشراب لكل وافداً ولماذا يركب رأسه ويرفض باصرار ارتداء الفانلات؟!



وحدث في مستهل الربيع، أن هرب أحد وكلاء الأعمال من (المجوفيل)، حاملاً معه كل ما كان مودعاً في مكتبه من أموال، ومن بينها جل ثروة الأرملة «دوبيك». على أن «هلوز» وإن ظلت تملك دارها الخاصة في شارع (سان فرانسوا)، فضلاً عن حصّة في

إحدى السفن تقدر بستة آلاف فرنك، إلا أن هذه الثروة المزعومة - التي كان لها دوي عال - لم يبد من آثارها في بيت الزوجية سوى بعض الأثاث والملابس الخاصة.

ولم يكن بد من مناقشة هذا الأمر واستجلاته، بعد هرب وكيل الأعمال. فإذا بالمنزل قد استغرقه الرهن، وإذا مصير ما كان مودعاً لدى وكيل الأعمال قد بات لا يعمل إلا الله وحده، وإذا نصيبها في السفينة لا يعدو - في الحقيقة - ألف فرنك! إذن فقد كذبت السيدة الفاضلة! وفي سورة الغضب، هشم مسير «بوفاري» الأب مقعداً على البلاط، واتهم زوجته بأنها كانت السبب في شقاء ابنتهما، إذ ربطته إلى تلك الفرس العجفاء التي لا يفضل سرجها جلدها! وكان الأبوان قد وقدا على (توست) لبحث هذا الموضوع، فدارت معارك ارتقت «هلويز» خلالها على صدر زوجها وهي منهمة الدمع، تناشده أن يحميها من أبويه، فلما أراد «شارل» أن يدافع عنها، غضب والداه ورحلا.

غير أن الصدمة كانت قد أحدثت أثرها. فبينما كانت «هلويز» تنشر الغسيل في صحن الدار - بعد ثمانية أيام - أصابتها نوبة جعلتها تبصق دماً، وفيما كان «شارل» منهمكاً في اسدال الستار على النافذة - في اليوم التالي - وظهره نحوها، هتفت: «آه يا إلهي!»، وأرسلت زفرة غابت بعدها عن الوعي، وماتت! ويا للعجب!

وإذا انتهت كل مراسم الدفن، عاد «شارل» إلى المنزل، ولم يجد أحداً بالطابق الأرضي، فصعد إلى الطابق الأول، وولج غرفة النوم، حيث رأي ثوب زوجته الراحلة معلقاً بجانب الفراش. واستند رأسه إلى مكتبه مستغرقاً في حلم حزين حتى المساء، فلقد كانت تحبه على أية حال!!

الفصل الثالث

أقبل الأب «روو» ذات صباح يحمل إلى «شارل» أجر علاج ساقه: خمسة وسبعين فرنكاً من القطع فئة الأربعين سنتاً، وديكاً رومياً؛ وكان قد علم بمصابه فراح يواسيه ما وسعه، قائلاً وهو يريت كتفه: «إنني أدرك مدى مصابك، فقد مرت بي نفس التجربة لقد كنت أنطلق في الحقول - بعد أن فقدت زوجتي المسكينة - لأخلو إلى نفسي، فأجثو عند ساق إحدى الأشجار أبكي وأنادي الله، وأهرف له بأقوال سخيفة... وكم وددت لو أنني أصبحت مثل أكل الحشرات المعروف باسم «الخلد»، الذي أراه على الأغصان والديدان تتلوى في بطنه! بل لقد ذهبت إلى حد أن تمنيت لو أنني نفقت كالدابة؛ وكنت إذا ما ذكرت أن سواي من الأزواج يضمنون بين أذرعهم - في تلك اللحظة - زوجات لطيفات صالحات، أدق الأرض بعصاي في عنف! كنت شبه مجنون، حتى لقد أمسكت عن الطعام. وكان مجرد التفكير في الذهاب إلى المقهى يثير اشمزازي! لعلك لا تصدق! على أن الأيام تتابع، يطردها كل منها الآخر في رفق، وأقبل ربيع في أعقاب شتاء، وخريف في ذيل صيف، وما لبث كل شيء أن تسرب رويداً وزايلني قطرة أثر قطرة، أو بالأحرى، رسب في أعماقي، إذ لابد من أن يبقى شيء في أغوار النفس، أو لابد - كما يقولون - من أن يبقى فوق الصدر ثقل جائم! على أننا يجب أن لا نسلم أنفسنا لليأس، أو نطلب الموت، إذا ما مات أحد من أحبائنا، ما دام هذا مصيرنا جميعاً! فانفض الحزن عن نفسك يا مسو «بوفاري» تجده يفارقك! وتعالى لزيارتنا! أتعلم أن ابنتي تفكر فيك بين وقت وآخر، وتتساءل: «أهكذا نسيني؟» ها هو ذا الربيع مقبل عما قريب، وسنشارك معنا في اصطیاد الأرانب لتسرى عن نفسك قليلاً»

وأخذ «شارل» بالنصيحة، فذهب لزيارة (برتو)، حيث ألقى كل شيء على ما كان عليه قبل خمسة أشهر، وكانت أشجار الكمثرى قد أزهرت، واستطاع الأب «روو» أن يسير على قدميه، فكان يغدو ويروح باعثاً الحياة في المزرعة ورأى الرجل أن من واجبه أن يبالغ في اكرام الطبيب إلى أقصى حد، نظراً لنكبته المحزنة، فطلب إليه ألا يرفع قبعته، وأخذ يتكلم إليه بصوت خفيض - وكأنه يتحدث إلى مريض - بل أنه أظهر غضبه لأنهم لم يعدوا للزائر شيئاً أخف من المعتاد، كقدور القشدة والكمثرى المطبوخة. وأخذ يروي له النوادر، فإذا بشارل ينسى نفسه ويضحك، ثم لا يلبث أن يذكر زوجته فيعود إلى وجومه. وعندما قدمت لهما القهوة، لم يعد يفكر فيها!

وأخذ تفكيره فيها يتضائل كلما ازداد اعتياده على الحياة بمفرده. بل أن لذة الحرية التي عادت إليه حديثاً، جعلته أكثر احتمالاً للحياة الوحيدة، فقد أصبح في وسعه أن يغير مواعيد طعامه، وأن يخرج ويدخل دون أن يضطر إلى تقديم حساب عن حركاته، وأن يمد

أطرافه على طول السرير وعرضه إذا ما شعر بالتعب. وهكذا أخذ يعنى بنفسه ويدللها، ويستمرئ ما كان يوجه إليه من عبارات التعزية

ولقد عاد عليه موت زوجته - فوق كل هذا - بنفع في مهنته ليس بالقليل، إذ ظل الناس شهراً بعد وفاتها يرددون: «يا للشباب المسكين! ويا لتكيتها» وذاع اسمه، فازداد عملاؤه، كما أصبح يذهب إلى (برتو) كلما شاء، كان لديه أمل بغير ما هدف واضح، وفي نفسه سعادة غامضة! وأخذ يلاحظ، كلما سوى لحيته بالفرجون أمام المرأة، أن وجهه يزداد سعادة!



وفي ذات يوم وصل إلى (برتو) حوالي الساعة الثالثة، والقوم في الحقول، فدخل إلى المطبخ، ولم يفتن في البداية إلى أن «إيما» كانت هناك، إذ كانت النوافذ مغلقة. ومن خلال المصاريع، كانت الشمس تلقي على الأرض خيطاً من اشعتها طويلاً، دقيقاً، يتكسر على زوايا قطع الاثاث، ويتذبذب على السقف. وكان الذباب يتسلق جدران الأكواب الزجاجية التي كانت موضوعة على المائدة، ويرسل طنيناً وهو يفرق في بقايا التفاح المتخلفة فيها. وكان الضوء المنساب من المدخنة يضفي على بقايا الفحم - المتخلفة على قرص المدفأة المعدني - لمعة مخملية، ويخلع على الرماد البارد غلالة زرقاء.

وكانت «إيما» تجلس بين النافذة والمدفأة، وهي منهمكة في الحياكة. ولم تكن ترتدي وشاحها، فلاحظ «شارل» أن قطرات دقيقة من العرق تنتشر على كتفيها العاريتين. وعرضت عليه - كعادة أهل الريف - أن تأتبه بشيء من الشراب، فتمنع، وألحت، ثم دعتة أخيراً - ضاحكة - إلى أن يتناول معها كأساً من الخمر. وأحضرت من الصوان زجاجة بها شراب خفيف وكأسين صغيرتين، ملأت إحداهما حتى الحافة، بينما لم تكد تسكب في الأخرى شيئاً، وقدمت إليه الأولى، وبعد أن قرعتها بالثانية، رفعت هذه إلى شفيتها.

وإذا كانت الكأس شبه فارغة، فقد اضطرت إلى أن تطرح رأسها إلى الوراء، لترشف ما بها من قطرات. وأخذت تضحك - وهي على هذا الوضع، وشفاتها ممدودتان إلى الأمام، وقربتها مشدودة - إذ لم تكد تشعر بشيء من الشراب في فمها، بينما امتد لسانها من بين أسنانها الدقيقة ليعلق ما في القاع!

وعادت إلى الجلوس، مستأنفة عملها في رفو جورب أبيض من القطن، وقد نكست رأسها، وكفّت عن الكلام. وظل «شارل» صامتاً هو الآخر. وكان الهواء ينساب من أسفل الباب، حاملاً بعض الغبار، فأخذ يرقب قمرجاته، وهو لا يسمع سوى وجيب النيص في رأسه يختلط بنقنقة دجاجة تضع بيضة في مكان ما بأقصى الفناء. وكانت «إيما» ترطب ريجنشيها

- بين آن وآخر - بكفيها اللتين كانت تبردهما على حديد المدفأة الخاملة.

وكانت منذ أوائل الموسم تعاني دواراً، فسألت «شارل» عما إذا كان الاستحمام في البحر يفيدها، ثم تطرقت إلى الحديث عن الدير الذي تعلمت فيه، فتحدث «شارل» بدوره عن مدرسته. وهكذا اتصل الحديث بينهما. وما لبثا أن صعدا إلى غرفتها، حيث أطلعتها على كراسات الموسيقى، والكتيبات التي نالتها كجوائز، والتيجان المجدولة من أوراق البلوط التي كانت تحتفظ بها في قاع صوان، كما حدثت عن أمها، وعن المقبرة، بل لقد أرشدته - في الحديقة - إلى الحوض الذي كانت تجمع منه الزهور في يوم الجمعة الأول من كل شهر، لتضعها على قبر أمها، بيد أن البستاني الذي يعنى بالحديقة، لم يكن ليفهم عن الأزهار شيئاً، كذلك كان الخدم جميعاً، أغبياء، لا تفهم من ورائهم إلا المتاعب!

وكانت تتمنى أن تعيش في المدينة، ولو خلال الشتاء - على الأقل - وإن كان نهار الصيف الطويل قد يجعل الريف أكثر مللاً في هذا الفصل منه في الشتاء. وكان صوتها يتغير تبعاً لما تقول: فهو تارة صاف، وأخرى حاد. وقد يسري فيه فجأة خمول ينتهي به إلى ما يشبه الهمس حين تخاطب نفسها، ثم إذا به بعد لحظة قد انقلب مرحاً. وعيناها! كانتا تحدقان في براءة، ثم إذا بهما في نصف إغماضة، إذ يشرد فكر صاحبهما أو تغرق في السأم!

وأخذ «شارل» - أثناء عودته في المساء - يستعيد عباراتها واحدة إثر واحدة، يحاول أن يتذكرها، وأن يربط بعضها ببعض، ليستكمل صورة واضحة للحياة التي كانت تحياها قبل أن يعرفها. غير أنه لم يستطع قط أن يتمثلها في صورة تغاير تلك التي رآها عليها في اللقاء الأول، أو تلك التي تركها عليها في الوداع القريب. وساءل نفسه عما قد تصير إليه إذا ما تزوجت، ثم، بمن تتزوج؟ وأأسفاه! إن الأب «روو» واسع الثراء. وهي! كم هي جميلة!

وكان وجه «إيما» لا يلبث أن يعود في اصرار ليستقر أمام عينيه. وأخذ يتردد في أذنيه صوت رتيب، في طنين مستمر لحوح: «هب أنك تزوجت! نعم، ماذا لو تزوجت!»



ولم يجد إلى النوم سبيلاً في تلك الليلة كان يحس بضيق وظماً وما لبث أن نهض ليشرب من الأبريق، وفتح النافذة، وراح يتطلع إلى السماء المليئة بالنجوم، كان النسيم دافئاً، وتناهى إليه من بعد نباح الكلاب، ثم أدار رأسه في اتجاه (برتو).

وخطر له أنه لن يخسر شيئاً على أية حال. فمضى نفسه بالتقدم لطلب يدها عندما تسنح الفرصة. غير أن تهيئه وحيرته في اختيار العبارة المناسبة، كان يعقدان لسانه كلما وائته الفرصة.

ولم يكن ليضير الأب «روو» أن يتخلص من ابنته التي لم تكن ذات نفع كبير في بيته، وكان يلتصق لها - في قرارة نفسه - العذر، إذ يدرك أنها أذكى من أن تشتغل بالزراعة، تلك الحرفة التي لعنتها السماء، حتى أن أحداً لم يصبح - باشتغاله بها - من أصحاب الملايين! لقد كان يخسر كل سنة، بدلاً من أن يجني من ورائها ثراء، فالبرغم من تفوقه في المساومة، والمامه بأساليب التجارة الماكرة، كانت الزراعة بمعناها الكامل - وما تنطوي عليه من فنون إدارة المزارع - أقل ملاءمة له منها لبقية الناس. فما كان ليخرج يديه من جيوبه ويشمر عن ساعديه طواعيه واختياراً. وكان في اتفاقه بعيداً عن الاقتصاد، حرصاً على الغذاء الطيب، والمسكن الدافئ، والفراش الوثير. كان يحب نبيذ التفاح، والافخاذ المحمرة، والشاي المزوج بالخمير مزجاً جيداً. وكان يتناول وجباته في المطبخ وحيداً، أمام المدفأة، على منضدة صغيرة تعد مقدماً ثم تحمل إليه، كما يحدث على المسرح!

وإذ لاحظ أن وجنتي «شارل» كانتا تتوردان كلما اقترب من ابنته، توقع أن يطلب منه يدها يوماً ما، فأخذ يتدبر الأمر بأكمله مقدماً، كان يراه وضيعاً بعض الشيء، لا يتمثل فيه الصهر الذي كان يتمناه. غير أنه كان يعرف عنه حسن السلوك، والاقتصاد، وكان متعلماً ويلوح أنه لن يساوم كثيراً فيما يتعلق بالصدّاق الذي سيقدّمه الأب لابنته! وإن كان مضطراً إلى أن يبيع اثنين وعشرين فداناً من أرضه، ليتخفف من دين كبير عليه للبناء والتجار، ولإصلاح دولاّب المعصرة، فقد أسر لنفسه قائلاً: «لسوف أعطيه «إيما» إذا طلبها!»



وذهب «شارل» إلى (برتو) ليقضي ثلاثة أيام، في عيد القديس ميخائيل. وانقضى اليوم الأخير كسابقه، في تردد وارجاء فلما تاهب للرحيل، رافقه الأب بعض المسافة، وسلكا طريقاً كثير الحفر، حتى إذا أوشكا على الافتراق، دار بخلد «شارل» أن الساعة قد حانت، إذ كان قد حدد لنفسه مهلة تنتهي عند السياج الخارجي للضيعة. ولم يكذبجاوره، حتى تقم قائلاً: «مسيروو... أريد أن أفاتحك في أمر» ووقف السيد، ولكن «شارل» اخلد الى الصمت!

وقال الأب ضاحكاً في رافق: «حدثني بأمرك. أو تظن أنني لم أدرك كل شيء؟» فتمتم «شارل» قائلاً: «أيها الأب روو، أيها الأب روو!» وواصل المزارع حديثه قائلاً: «إنني شخصياً لا أتمنى أفضل منك. ولكن للمنية رأيها، ولابد من سؤالها، فابطئ في مشيتك ريثما أعود إلى البيت، وليس من الضروري أن ترجع - إذا ما أجابت بالقبول - حتى لا يفطن الناس إلى شيء، وحتى لا يشتد بالفتاة الاتفعال

ولكن، لا تنفس على اعصابك، سأدفع مصراعي النافذة الى الجدار، وافتحهما على وسعهما، اشارة بذلك وتستطيع أن تتبين هذه الاشارة من الخلف اذا ما انحنيت على السياج».

وابتعد الأب.

وربط «شارل» جواده إلى شجرة، وهرع إلى الطريق الخلفي الضيق، وأخذ ينتظر وانقضى نصف ساعة، وأحصى بعده تسع عشرة دقيقة، وفجأة، سمع صوت ارتطام بالجدار، فقد فتح مصراعا النافذة، وظلا يهتزان أثر اصطدامها بالخائط!

ولم تحن الساعة التاسعة من الصباح التالي، حتى كان في المزرعة! وتضرج وجه «إيما» حين دخل الدار، وإن حاولت أن تضحك قليلاً لتبدو متمالكة لنفسها. وقبل «شارل» صهر المستقبل، ثم أخطوا يتحدثون في المسائل المالية، وإن كانت أمامهم فسحة من الزمن، إذ لم يروا ان يتم الزواج قبل أن ينتهي حداد «شارل»، أي حوالي ربيع العام التالي.

وانقضى الشتاء في ترقب، وشغلت الآنسة «روو» بجهازها الذي أرسل في طلب بعضه من (روان). وحأكت لنفسها أقمصه وقلنسوات للنوم على غاذج استعارتها، وكانوا - خلال زيارات «شارل» للمزرعة - يتحدثون عن تدابير العرس، ويتساءلون عن القاعة التي ستقام فيها وليمة الزفاف، ويحملون بأصناف الطعام التي ستقدم، ويتناقشون في الصنف الذي ستفتتح به المائدة!

وكانت «إيما» تفضل أن يتم الزفاف في منتصف الليل، على ضوء المشاعل. بيد أن الأب «روو» لم يستسغ هذه الفكرة.

وهكذا أقيمت وليمة العرس أخيراً، فحضرها ثلاثة وأربعون شخصاً، ظلوا حول المائدة ست عشرة ساعة، ثم استأنفوا الوليمة في اليوم التالي، والأيام التي أعقبته، إلى حد ما!

الفصل الرابع

أخذ المدعوون يتوافدون منذ ساعة مبكرة، في عربات متباينة، منها ذات المقعد الواحد والجوادر الواحد، ومنها ذات العجلات الأربع والمقاعد المتقابلة، ومنها عربات عتيقة الطراز بغير مظلات، وعربات مقفلة بستائر من الجلد، ومن القرى المجاورة اقبل شبان في عربات نقل مكشوفة، اصطفوا عليها مستندين بأيديهم إلى حوافها الخارجية كي لا يسقطوا منها وهي تخب بهم مهتزة في عنف. وجاء مدعوون من قرى تبعد عشرة فراسخ عن المزرعة، مثل (جودرفيل) و(نورمانفيل) و(دو كاني)، إذ كان أهل العروسين قد دعوا جميع أقارب الاسرتين، ووصلوا ما انقطع بينهم وبين بعض الأصدقاء، وكتبوا إلى معارف لم يكونوا قد رأوهم منذ زمن طويل!

وكانت فرقة السباط تسمع من وقت إلى آخر خلف السياج، فيفتح الباب، لتنفذ منه عربة تسير حتى الدرجة الأولى من سلم المدخل، حيث تقف فجأة، ويخرج ركبائها من كل جانب يدلكون ركبهم، ويمطون أذرعهم، وقد توجت السيدات رؤوسهن بالقبعات الصغيرة، وارتدين أزياء المدن، وتحلين بسلاسل تنتهي بساعات ذهبية، واتسحن بحرامل تتقاطع أطرافها عند الحضور، أو بشيلان صغيرة ملونة تثبت أطرافها إلى الظهور بدبلييس. وكان الأطفال في ثياب شبيهة بثياب الرجال، وقد لاح عليهم أنهم كانوا يضيقون بملابسهم الجديدة.. بل كان الكثيرون منهم يخطرون في أول زوج من الأحذية الجلدية حصلوا عليه في حياتهم! وسارت إلى جوارهم فتيات تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة، لا شك في أنهن أخواتهم أو بنات أعمامهم وأخوالهم، وقد ارتدين ملابس حفلة «التناول» الأول، بعد أن أطيلت أطرافها لتصلح للمناسبة الراهنة، وكن يسرن صامتات، متوردات الخدود، مبهورات ولاحت شعورهن لزجة لما عولجت به من دهان معطر بالورد، كما بدا عليهن الحرص على أن لا يعرضن قفازاتهن للنساخ.

ولما لم يكن عدد السياس كافياً، فقد شمر الرجال عن سواعدهم، وياشروا بأنفسهم حل الخيل من العربات، رغم ثيابهم التي تباينت تبعاً لمراكزهم الاجتماعية - بين «ردنجوت»، وملابس سهرة، ويزكات فاخرة أو عادية، وكلها من الملابس التي تعنى بها الأسرات فلا تخرجها من الخزانات إلا في المناسبات! وكانت بينها «الردنجوت» ذات الذيل الضافية تداعبها الريح، أو ذات الياقة الاسطوانية والجيوب الواسعة كأنهم الحقايب، وبينها يزات من الصوف السميك، يرتدي أصحابها قلنسوات أحيطت حوافها باطارات من نحاس، ومعاطف قصيرة ثبتت في خاصرتها من خلف زران متقاربان كأنهما عينان، وقد بدت ذيولها وكأنما سوتها بلطة نجار! وكان الرجال الذين سيجلسون في ذيل المائدة يرتدون «أقمصة المناسبات» ذات الياقة المسدلة على الكتفين، والثنيات الرفيعة في الظهر، وقد شدت تحت الخصر بحزام

مثبت في ثناياها، كما شددت فوق الصدور - بفعل النشاء والكي - فبدت كأنها دروع!
وظهر واضحاً أن الجميع قصوا شعورهم حديثاً، إذ كانت الأذان بارزة على جوانب
الرؤوس.. كما كانت الذقون حلقة ناعمة. وكان بعضهم قد اضطر إلى أن يبدأ رحلته في
مطلع الفجر، فلم تكن ثمة اضاءة كافية وهم يحلقون ذقونهم، مما ترك خدوشاً ممتدة تحت
الأنف، أو جراحاً متسعة بحجم العملة فئة الفرنكات الثلاثة، وقد ألهبها نسيم الصباح
البارد أثناء الطريق، فاذا الوجه البيضاء المشرقة، تتناثر فيها بقع وردية!



وكانت دار العمدة تقع على مسافة نصف فرسخ من المزرعة، فذهبوا إليها على
الأقدام، وعادوا بالطريقة عينها بعد أن تم الاحتفال في الكنيسة. وكان الموكب متماسكاً
في باديء الأمر، فيدا كأنه شال موشى بالألوان، يتموج على طول الطريق الضيق المتعرج
بين الحقول الخضراء، ثم لم يلبث أن استطال، وتجزأ إلى مجموعات ألهاها الحديث عن
اللاحق بغيرها.

أما العازف فكان يسبق الموكب بقيثارته التي حليت بالأشرطة، يتبعه العروسان، ثم
الأهل، فالأصدقاء، دون ما ترتيب وفي المؤخرة، سار الأطفال يلهون بقطف زهور الشوفان،
أو يلعبون فيما بينهم دون أن يفتن إليهم أحد.

وكان ثوب «إيما» مسرف الطول، فكان ذيله يتجرر خلفها، فتقف بين وقت وآخر
لترفعه، ولتنزع عنه - باصابعها الدقيقة المكسوة بالقفاز - ما علق به من أعشاب خشنّة
وأشواك، بينما يقف «شارل» ساكناً في انتظارها.. وكان الأب «روو» يرتدي قبعته
الحريرية الجديدة، ومعطفه الأسود الذي بلغ كماه اظافر يديه، وقد تأبط ذراع السيدة
«برقاري» الأم. أما السيد «برقاري» الأب - الذي كان يحتقر في قرارة نفسه كل هؤلاء
الناس، والذي لم يرتد سوى «ردنجوت» ذات صف واحد من الأزرار، على غط الملابس
العسكرية - فقد أخذ يغازل ريفية شقراء أثرها بمداعبات ماجنة كانت وجنتها تتضرعان
لها، دون أن تدري بماذا تحجب! في حين انصرف بقية الحضور إلى الحديث في شؤونهم، أو
إلى التغامز خفية - بعضهم على بعض - أو إلى استثارة المرح في أنفسهم تأهباً للحقل
المرتقب.

وكانت أنغام العازف - الذي واصل العزف خلال الحقول - تعلو إذا ما جنحوا إلى
الصمت.. فإذا ما أحس بأنه سبق المركب بمسافة طويلة، وقف ليسترد انفاسه، وليعالج قوس
قيثارته بـ «القفونية» ليشد أوتارها، ثم يستأنف سيره رافعاً مقبض القيثارة تارة،
وخافضة أخرى، والضجة المنبعثة تحمل الطيور الصغيرة على مبارحة مكانها.

ومدت المائدة تحت مظلة العربات، وعليها أريع قطع من «بيت الكلاوي»، وستة

أطباق من «صلصة» الدجاج، و «كباب الحلة» المصنوع من لحم العجول، وثلاث فخذات مشوية! وترى في وسط المائدة خنزير صغير السن، بديع المنظر، جيد الشواء، تحيط به أربعة حبال من «سجق» الخنزير المطبوخ! وفي أركان المائدة، استقرت قوارير الخمر، بينما كانت زجاجات نبيذ التفاح الفاتر تبعث زبداً كثيفاً حول سداداتها. وارتعت الأقداح مقدماً بالنبيذ إلى حوافها، وكانت القشدة الصفراء تترجرج في أطباقها الكبيرة لأثقل حركة تصيب المائدة، وقد نقشت عليها الحروف الأولى من أسمى العروسين في زخرفة عربية جميلة.

وكانوا قد عهدوا بأعداد الحلوى والفطائر إلى صانع من (أيفتو) استقر بالبلدة حديثاً، فبذل عناية فائقة، حتى لقد احضر بنفسه كتلة مزينة بالزخارف، انتزعت صيحات الإعجاب من الحاضرين، إذ كانت لها قاعدة من الورق المقوى تمثل معبداً أروقة وأعمدة تحف بها التماثيل، وتناثرت في الفجوات نجوم صنعت من الورق المذهب، وفي الطابق الثاني منها، صنع الرجل برجاً من فطير «سافوا»، تحيط به تحصينات صغيرة من الحلوى واللوز والزبيب وفصوص البرتقال، وفوق سطح هذا الطابق، صنع من الحلوى ما يمثل حقلاً أخضر به صخور غارقة في بحيرات من المربى، تعلو سطحها زوارق من قشر البندق، وفي الحقل أرجوحة من الشكولاتة تعلق بها تمثال صغير للحب، وقد توج عامودا الأرجوحة ببرعمين من الورد الطبيعي!!

وظل القوم يأكلون حتى المساء. وكلما أمضهم طول الجلوس، نهضوا يتمشون في الأفنية، أو يمارسون بعض الألعاب في المخزن، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى المائدة! وغلب النوم بعضهم قبيل الختام، فتصاعد غطيظهم، بيد أن النشاط لم يلبث أن سرى فيهم من جديد حين تناولوا القهوة، فراحوا يرددون الأغاني، ويتبارون في ألعاب القوى وحمل الأثقال والحيل التي تعتمد على المهارة اليدوية، وتبارى بعضهم في رفع العربات فوق أكتافهم، وفي تبادل النكات، وتقبييل السيدات!!

وفي المساء، تاهبوا للرحيل. ولكن شد الخيول إلى العربات - بعد أن اتخمت بالشوفان - كان من أصعب العمليات، إذ راحت تركل، وتتمرد، وتكسر الأعنة، وأصحابها يسبون أو يضحكون وكنت ترى طوال الليل - وفي ضوء القمر - عربات انطلقت على طول الطريق، تعدو خيولها الجامحة، فتتهبط بها في الحفر حيناً، وتقفز بها فوق أكرام الأحجار حيناً آخر.. ثم إذا بها تتسلق المنحدرات، وقد أطلت من جنباتها النساء يتشبثن بالأعنة!



أما من بقي في (برتو) من ضيوف العرس، فقد قضوا الليل يشربون في المطبخ، بينما نام الأطفال تحت المقاعد.

وكانت العروس قد سألت أباهما أن يجنبها المداعبات التي تعرض لها العرسان في ليلة الزفاف بيد أن سماكاً من أبناء عمومتهما راح ينفث الماء من ثقب باب مخدع العروسين، رغم أنه لم يحمل إليهما هدية ما سوى زوج من سمك «موسى»! على أن الاب «روو» أقبل في لحظة مناسبة ليصده عن المضي في نغث الماء، مبيناً له أن دقة الموت لا تسمح بمثل هذه الدعاية المستهجنة، ومع أن ابن العم انصرف عن دعايته، إلا أنه لم يقتنع تماماً بمنطق الاب «روو»، واتهمه في قرارة نفسه بالصلف والكبرياء. وما لبث أن انضم - في أحد الأركان - إلى أربعة أو خمسة من المدعويين كانت المصادفات قد ساقت إليهم أراداً قطعة من اللحم حملتها المائدة، فخيل إليهم أن ثمة تعمداً لاساءة إكرامهم، وراحوا يتهايمسون مغتابين مضيفهم، متحينين له - في ألفاظ غير صريحة - كل شراً!

أما السيدة «بوفاري» - الأم - فقد ظلت طيلة اليوم صامتة، إذ لم يحفل أحد باستشارتها بصدد ثوب العروس، أو اعداد الوليمة. وما لبثت أن أوت إلى فراشها في وقت مبكر.. وبدلاً من أن يتبعها زوجها، أرسل في طلب عدد من السيجار من (سان فيكتور)، وبقي حتى الصباح يدخن، ويحتسي مزيجاً من الخمر - «كوكتيل» - لم يكن مألوفاً لدى أهل الريف، مما رفع من شأنه في أعينهم!

وما كان «شارل» يوماً حاضراً للنكتة والفكاهة، ومن ثم لم يتألق في حفل عرسه، بل أنه كان يرد في غباء، على ما وجهه المدعوون إليه من غمزات وفكاهات ومجاملات ومداعبات منذ جمعتهم الوليمة.

على أنه لاح في اليوم التالي رجلاً آخر يناقض ذاك الذي كانه في الليلة السالفة، وكأنما كان ليلتذاك عذراء يلجمها الخفر!

أما المعروس، فلم يظهر عليها ما ينم عما كان يجول في نفسها، حتى أن أكثر الحاضرين فراسة لم يستطع أن يتكهن بشيء عن حالتها النفسية، واكتفوا بأن راحوا يمنعون في التحديق في وجهها كلما مرت على مقربة منهم.. على أن «شارل» لم يعمد إلى شيء من التكلف، بل أخذ يدعوها بزوجته، ويخاطبها في غير كلفة، ويسأل عنها كل إنسان، ويبحث عنها في كل مكان - دون ما حرج - كلما افتقدها! وكثيراً ما كان يقتادها إلى الأبنية ودروب الحديقة، وكان يشاهد عن كثب وقد طوق خصرها بذراعه، أو وهو يسير إلى جوارها، وقد مال نحوها ورأسه يفسد استواء صدارها المكوي!



ورحل العرسان بعد الزفاف بيومين، إذ لم يكن «شارل» ليملك أن يغيب عن مرضاه أمداً أطول مما غاب.

وصحبهما الاب «روو» في عربة حتى (فاسونفيل)، حيث قبل ابنته مودعاً، ثم عاد

ادراجه. ولم يكد يخطو مائة خطوة تقريباً حتى توقف، ثم التفت الى العربة، فلما رآها تبتعد وقد أخذت عجالاتها تثير الغبار، أرسل زفرة طويلة، وذكر عرسه، والأيام الخوالي، وارتدت إلى ذهنه ذكرى أول حمل لزوجته، وتصور ما كان عليها من سعادة وغبطة يوم جاء بزوجته من منزل أبيها إلى منزله، إذ أرادفها خلفه على جواده وانطلق على الجليد. فقد تم عقد القران في رأس السنة، والحقول مكسوة جميعها بالجليد الناصع، وكانت تتشبث به بإحدى ذراعيها، بينما أمسكت باليد الأخرى سلتها، والريح تداعب أشرطة شعرها - المنسق على طريقة أهل (كو) - فتدفع اطرافها لتلمس قمه. ومن آن لآخر، كان يلتفت إليها، فيلمح فوق كتفه وجهها الوردى الصغير، الذي أشرق بابتسامة صامته، تحت قرص ذهبي ازدانت به قبعته، وكانت تدس اصابعها في صدره بين الفينة والفينة، التماساً للدفء!

آه! لقد تلاشى كل ذلك في ادراج الزمان! لو أن طفلهما الأول عاش، لكان اليوم في الثلاثين من عمره!

والتفت خلفه فلم ير شيئاً في الطريق. وغشيته كآبة موحشة، وقد خيل إليه أن نفسه غدت كالبيت الخاوي المهجور! وامتزجت الذكريات العذبة بالذكريات الألمية، في رأسه الذي اثقله الشراب. وأحس برغبة في أن يعرج على الكنيسة، بيد أنه خشي أن تزداد شجونه، فيم صوب داره رأساً.

ووصل السيد «شارل» وزوجته إلى (توست) في نحو الساعة السادسة، فإذا الجيران في النوافذ يرتقبون الزوجة الجديدة لطبيبهم.

وتقدمت الخادم العجوز فحيتهما، واعتذرت لأن العشاء لم يعد بعد، ثم سألت السيدة أن تتفقد منزلها، ريثما تعد المائدة.

الفصل الخامس

كان المنزل مشيداً من الطوب، وواجهته نحو الطريق، وخلف الباب، كان ثمة معطف ذو ياقة صغيرة، معلقاً مع عنان جواد، وقلنسوة من الجلد الأسود، وعلى الأرض قبع في أحد الأركان زوج من أحذية الركوب ذات الرقاب الطويلة، يعلوه بعض الطين الجاف، وإلى اليمين، امتدت الردهة الوحيدة التي كانوا يأكلون فيها ويجلسون، وقد عُلقت إلى أحد الجدران الرديئة اللاء، ورقة صفراء اللون، وفي طرفها الأعلى باقة من الزهر الباهت اللون. وكانت الستائر القطنية البيضاء - المحلاة بشرائط حمراء - تتقاطع على النوافذ، بينما كان يلعب على حافة المفدأة الضيقة، يندول ساعة يعلوه رأي «ابقراط»^(١)، وقد قام إلى جانبه شمعدانان من الفضة، تحت مظلتين بيضاويتين الشكل.

وفي الناحية الأخرى من المدخل، كان مكتب «شارل» حجرة صغيرة عرضها ست خطوات تقريباً، تضم منضدة وثلاثة مقاعد فضلاً عن مقعد خاص للمكتب، واحتل الأرفف الستة في مكتبة من خشب القرو، قاموس العلوم الطبيعية بأجزائه التي لم تفص صفحاتها بعد، رغم ما لحق بغلافاتها من تلف، بسبب عمليات بيعها المتتالية! وكان عبير الطعام ينساب من المطبخ متسرباً خلال جدران غرفة المكتب أثناء فحص المرضى، كما كان سعال المرضى المنبعث داخل غرفة المكتب يسمع في المطبخ، فضلاً عن قصصهم بحذافيرها!

وكانت تلي غرفة المكتب مباشرة، حجرة كبيرة، مهدمة تطل على الفناء الذي يضم الحظيرة. وكانت تحوي فرنًا، غير أنها كانت تستخدم كمخزن للحطب، والأغذية، والمهملات، وقد أمتلات بقطع الحديد القديمة، والبراميل الفارغة، وآلات الزراعة المهملة، واكداس من أشياء أخرى مغبرة، كان من المستحيل التكهن بما تستخدم فيه.

أما الحديقة فكانت مستطيلة، يحدها جدران من الطين - حفت بهما أشجار المشمش - وتنتهى بسياج من الأشواك يفصل بينها وبين الحقول. وكانت تتوسطها «مزولة» - ساعة شمسية - من الاردواز، أقيمت على قاعدة حجرية، وأربعة أحواض من نبات «النسرين» تحيط - في انتظام - بحوض خامس زرعت فيه نباتات أكثر نفعاً، وتحت شجيرات السرو، في الطرف الأقصى للحديقة، قام تمثال من الجص يمثل قساً يقرأ في كتاب الصلوات!

وصعدت «إيما» إلى الطابق العلوي، فإذا بأولى حجراته تكاد تكون خالية من الأثاث تقريباً! أما الحجرة الثانية - وهي مخدع العروسين - فكانت تضم سريراً من خشب

(١) ابقراط هو أبو الطب عند الاغريق.

«الأكاجو» داخل فجوة في الجدار أحاطت بها ستائر حمراء! وكان يزين خزانة الثياب صندوق من الصدف، وإلى جوار النافذة مكتب عليه أنية باقة من زهور البرتقال الجافة ضمتها أشربة من «الستان» الأبيض، وكانت باقة عروس، العروس الأولى!

ولاحظ «شارل» اتجاه نظرات «إيما» إلى الزهور، فتناولها وذهب بها إلى المخزن، وجلست «إيما» في مقعد مريح أثناء ترتيب حاجياتها، وقد سرح خاطرها إلى باقة عرسها التي وضعت في صندوق من الورق المقوى. وساءت نفسها - وهي مسترسلة مع أحلامها - عما يمكن أن يحل بتلك الباقة، لو أنها ماتت بدورها!



أنفقت «إيما» الأيام الأولى في تدبير التعديلات التي شاءت أن تجريها في البيت، فنزعت المظلات - «الاباجورات» - عن المشاعل والصقت بها كساء جديداً من الورق، وأعادت طلاء السلم، ووضعت حول المزولة - في الحديقة - بعض المقاعد. بل إنها راحت تفكر في الحصول على نافورة وحوض تسبح فيه الأسماك!

وإذ كان زوجها يعلم أنها تحب النزهة في العريات، فقد وفق إلى عربة مستعملة، زودها بمصابيح جديدة، و«رفارف» من الجلد.

وأصبح «شارل» هانيء البال، لا يحمل همّاً. حياته وجبات يتناولها مع «إيما»، ونزهات مسائية برفقتها في الطريق العام. وكان يستشعر متعة في العيب بضفاثرها، وفي رؤية قبعاتها الخوصية معلقة إلى مزلاج النافذة، وفي كثير من الأمور الشبيهة، التي لم يخطر له يوماً ببال أنها يمكن أن تكون مبعث سرور!

وكان، إذا ما استيقظ في الصباح وظل مستلقياً إلى جوارها على السرير، يزمّل ضوء الشمس وهو يتخلل زغب وجنتيها البضتين اللتين كان جناحا قلنسوة النوم ينسدلان إلى منتصفيهما. وكان إذا حدق في عينيها عن قرب، خالها أكثر اتساعاً، لا سيما وهي تفتح جفنيها وتطبقهما مرات متباعدة، ريشاً تألفان الضوء عند اليقظة! وكانت تبدوان سوداوين في الظلال، وزرقاوين قاتمتين في ضوء النهار، بل لقد يخالهما تتألفان من طبقات متباينة من ألوان تبدو كثيفة في اغوار الحديقة، ثم تشف شيئاً فشيئاً كلما اقتربت من السطح!

وكانت نظراته تضل في أعماق هاتين العينين، عينيها! وكان يرى صورته - حتى الكتفين - تنعكس مصغرة على حدقتيهما، وقد لف مندبلاً حريراً حول رأسه، وترك صدر قميصه مفتوحاً.



فإذا ما نهض وتهبأ للخروج، وقفت «إيما» عند النافذة تودعه، ثم تظل مستندة إلى حافتها بين آتيتين من زهور «الجيرانيوم»، وهي في ثوب فضفاض وبينما ينهمك «شارل» -وهو في الفناء- في تثبيت مهمازه، رافعاً قدميه تبعاً إلى حافة السور، كانت تأخذ في الحديث إليه من أعلى، وهي تلتقط بفمها نتفاً من الزهر أو من العشب الأخضر، ثم تنفثها نحوه، فتتطاير في الهواء مرفوفة في حركة نصف دائرية كالعصفور، حتى تعلق بالشعر الأشعث المنتثر فوق عنق الفرس العجوز البيضاء التي تقف لدى الباب بلا حراك وما إن يعتلي «شارل» صهوة الجواد، حتى يرسل إليها قبلة في الهواء، فتد بايماً، ثم تغلق النافذة، بينما يشرع هو في رحلته، فينطلق في محاذاة الجسر الذي ينبسط أمامه كشريط من غبار لا نهاية له، ويمضي في دروب بين الأشجار الوارفة، وأزقة ضيقة يرتفع الفتح على جوانبها إلى الركبة، والشمس تستلقي على منكبيه، وهواء الصباح يملأ خياشيمه، وقد أنعم فؤاده بما ناله في ليله من لذات، وسرت الطمانينة إلى نفسه، والراحة إلى جسده!

وكان يواصل السير وهو يجتر سعادته في تذوق من يتلمظ بعد الغداء بما خلفه «عش الغراب» في قمه من طعم! متى كانت الحياة رفيقة به كما هي الآن؟ أفي أيام الدراسة، حين كان محبوباً بين جدران المدرسة، وحيداً وسط زملاء يفوقونه ثروة واستيعاباً للدرس، ويسخرون من لهجته الريفية وهن ملابسه، ويعيرونه بأن أحداً لا يزوره كما كانت أمهاتهم يقدن لرؤيتهم -في حجرة الاستقبال بالمدرسة- وقد حملن لهم الفطائر؟! أم في فترة دراسة الطب، عندما لم تكن حافظته تضم من النقود ما يمكنه من صحبة تلك العاملة الصغيرة التي كان من الممكن أن تغدو عشيقته؟! أم في الشهور الأربعة عشر التي عاشها زوجاً لتلك الأرملة التي كانت قدماها تستحيلان -في السرير- إلى قطعتين من الثلج؟! ما أبعد كل هذا عن خاضره، وقد أصبح يمتلك -ما عاش- هذه المرأة الجميلة التي يعبدها! لقد أصبح العالم في نظره لا يتجاوز محيط «جولتها» الحريية!

وكان يلوم نفسه إذ يخيل إليه أنه لا يحبها كما يجب! وما كان ليطبق عنها بعداً، فيتعجل العودة، ويصعد سلم الدار بقلب خافق، ثم يتسلل إلى حجرتها في هدوء ليفاجئها وهي تتزين، فيطبع على ظهرها قبلة قبل أن تحس بوجوده، فتصرخ جزعاً! ولم يكن يقوى على كبح يديه عن أن تتحسسا دوماً مشطها وخواتمها وشالها. وكان يطبع على وجنتيها أحياناً قبلات كبيرة، يملء فمه، أو يغطي ذراعيها بقبلات خفيفة من أطراف أصابعها حتى كنفها، وهي تدفعه إلى مزيج من الضيق والابتسام، كما نفعل بالطفل إذ يتشبث بنا!

والواقع أن «إيما» كانت تعتقد قبل الزواج أنها قد وقعت في الحب. فلما لم تحصل على ما كانت تخاله مرتباً على هذا الحب من سعادة، توهمت أنها كانت على خطأ، وأخذت تسائل نفسها عما تعببه عبارات النشوة والعاطفة والهيام التي كانت تقرأها في الكتب فتبهرها!

الفصل السادس

كانت قد قرأت قصة «بول وفرجينى»، فحملت بالبيت الصغير المقام على أعواد الغاب، وبالعبد «دومينجو» والكلب «أمين». كما أحست - بوجه خاص - بتلك الصداقة الرقيقة التي نلمسها في أخ صغير يسعى ليجتلب لنا فاكهة وردية من أشجار ضخمة يفوق ارتفاعها أبراج الكنائس أو يعدو على الرمال حافياً وقد حمل إلينا عش عصفورا ولما بلغت الثالثة عشرة من عمرها، اصطحبها أبوها إلى المدينة ليلحقها بالدير، فنزلا في فندق بحي (سان جرفيه)، حيث قدم لها العشاء في صحاف موشاة برسوم تمثل حياة «مدموازيل دي لافالير». وكانت التفصيلات الخرافية - التي تناهت إلى أذنيها خلال صليل السكاكين عن حياة تلك الأنسة - تنطوي على تمجيد البلاط الملكي، وإظهاره في إطار من التدين، ورقة المشاعر، وأبهة المنظر!

ولم تستشعر سأمًا من حياتها بالدير - في الأيام الأولى - بل إنها استطابت صحبة الراهبات الطيبات، اللاتي كن يعملن على التسرية عنها تلعب في أوقات الفراغ الا نادراً، إذ كانت تحرص على استذكار أصول الدين عن ظهر قلب، حتى غدت تنفرد دائماً بالإجابة على الأسئلة الصعبة الدقيقة التي كان القس يوجهها إلى الفتيات!

وهكذا عاشت في جو حجرات الدراسة الدافئ، لا تجارزه، وبين أولئك السيدات الناصعات البياض، ذوات المسابح التي تتدلى منها الصلبان النحاسية. وفي رفق ولين، أخذت تستسلك لذلك الاسترخاء التصوفي الذي ينبعث من عطور المذبح، وأحواض مياه التبرك، وأضواء الشموع! وكانت تشغل عن تتبع القديس بتأمل الصور الدينية المحوطة بآطار سماوي اللون، في كتاب الدين، فأحبت (الحمل المريض)، و(القلب المقدس) الذي تخترقه السهام، والمسيح المسكين الذي يسقط، وهو سائر، تحت الصليب. وكانت تحاول أن تصوم عن الطعام يوماً بأكمله لتروض روحها، وتجهد رأسها في ابتداع ألوان من النذر لتعمل على تحقيقها!

وكانت حين تذهب إلى «كرسي الاعتراف» تبتكر خطايا صغيرة تزعمها لكي تطيل في فترة ركوعها في الظلال، فتصغي إلى همس القس، ويدها مضمومتان، ووجهها أمام السياج المحيط بالكرسي!! وكانت الأوصاف المجازية التي تتناول «الخطيب»، و«الزوج»، و«العاشق الإلهي»، و«الزواج الأبدي»، والتي كانت تتردد في المواعظ وتثير في أعماقها نشوة غريبة!

وفي المساء، كانت الفتيات يقرأن في قاعة الاستذكار - قبل الصلاة نصوصاً دينية، كن يخرننها في أيام الأسبوع من بعض ملخصات التاريخ المقدس، أو من محاضرات الراعي «فرايسينوس» أما في أيام الأحاد، فكن يقرأن فقرات من «عبقرية المسيحية»

على سبيل الترويح وكم كانت تنصت في البداية للمراثي الربانية المفعمة بالكآبة والشجن العاطفي، والتي كانت اصداؤها تتردد بين الأرض والابدية!!

ولو أنها عاشت طفولتها في جوف حانوت بحري تجاري، لتفتحت نفسها لنغمات الطبع الخلاية، التي لا تسري إلينا عادة إلا إذا ترجمها لنا الكتاب. ولكنها عاشت تلك الطفولة في الريف، فعرفت ثغاء القطعان، والالبان، والمحارث! ولما كانت قد ألفت المناظر الهادئة، فقد أخذت تتجه الى نقيضها، الى المناظر المثيرة! ومن ثم لم تعد تحب في البحر إلا أنواءه، ولا تعجب بالخضرة الا منتشرة وسط الخرائب. كان لابد لها من الحصول على منفعة شخصية من الأشياء، فلم تكن ترى نفعاً لما لا تجد فيه غذاء مباشراً لقلبها، اذا كان مزاجها حسياً عاطفياً، أكثر منه فنياً. وبعبارة واحدة: كانت تبحث عن العاطفة أكثر مما تبحث عن المنظر!!



وكانت تفد على الدير عانس تقضي أسبوعاً من كل شهر، تعنى خلاله بكل ما يتعلق بالملابس والأغطية. ولما كان المطران يرعاها لانتماؤها إلى أسرة عريقة من أسرات النبلاء التي حطمتها الثورة، لذلك كانت تتناول الطعام في القاعة المخصصة لذلك مع الراهبات، ثم تجاذبن الحديث قبل أن تصعد إلى عملها. وكثيراً ما كانت التلميذات يتسللن من قاعة الاستذكار الى حيث تعمل، إذ كانت تردد في همس - وهي تحرك إبرتها في القماش - بعض اغنيات غرامية من القرن الماضي، تحفظها عن ظهر قلب! وكانت تقص انوار، وتروي الانباء، وتقضي الحاجات من المدينة، وتغير التلميذات الكبيرات - سرّاً - روايات كانت تحتفظ بها دائماً في جيب مروطها. ولا تكف عن «التهام» فصول طويلة منها، بين فترات عملها! وما كان أمثال الروايات ليدور إلا عن الحب والمحبين، ونساء معذبات يغمى عليهن في خلوات منعزلة، وسياس يقتلون في كل رحلة، وخيل تنفق في كل صفحة، وغابات مظلمة، وشجون تفعم القلوب، وعهود، وزفرات، ودموع، وقبيلات، وزوارق في ضوء القمر، وبلابل في الخمائل، وسادة في شجاعة الأسود ووداعة الحملان، اوتوا من الشهامة قدراً لا مثيل له، محتفظين باناعتهم دائماً، ويكون، فتسيل دموعهم كالسيل الهتون!

وهكذا ظلت «إيما» خلال أشهر ستة من عامها السادس عشر، تنفض باصابعها الغبار عن تلك الروايات العتيقة. ثم ارشدها «والتر سكوت» - بعد ذلك - إلى التاريخ، فراحت تحلم بالاثاث والرياش، وقاعات الحرس، والشعراء الذين يغنون أشعارهم على القيثارة. وكانت تتمنى لو أنها عاشت في أحد تلك القصور القديمة التي كانت تقرأ عنها، كأولئك النبيلات ذوات الصدار الطويل، اللاتي كن يقضين أيامهن تحت الأقواس ذات الطراز القوطي، وقد اعتمدن بمرافقهن على الأحجار، واسندن ذقونهن إلى راحات أيديهن، وسرحن

البصر يرقب مقدم فارس ذي ريشة بيضاء يركض بن الحقول على صهوة جواد أسوداً. وأنزلت «إيما» الملكة الانجليزية «ماري ستيوارت» من نفسها منزلة القداسة، وأكبرت - في حماس - النساء الشهيرات، المنكوبات: فكانت «جان دارك»، و«هليويز»، و«آنييس سوريل»، و«فيرونيير» الفاتنة، و«كليمانس هيزور». كل أولئك كن - في نظرها - كواكب في ظلمات التاريخ اللاتهاية، وكانت تبرز لها من جوف الظلمات صور أخرى غامضة، مبهمة، لا رابط بينها، قتل «سان لويس» وبلوطته التي كان يجلس تحتها، واحتضار «بايار»، وفطائع لويس الحادي عشر ولمحات من «سان بارتلمي»، وغطسة «كونت بيارين» ثم - ودائماً - ذكرى الصحاف التي نقشت عليها صور قمع لويس الرابع عشر!

ولم يكن في الاغنيات - التي كانت تغنيها أثناء دروس الموسيقى - سوى ملائكة صغار، بأجنحة ذهبية، وعذارى مقدسات، وقنوات يسبح فيها الجنود اغان ساذجة كانت تلمح - خلال اسلوبها الركيك وموسيقاها الضعيفة - صوراً متلاحقة للحقائق الحسية. وكانت بعض الزميلات يحمان إلى الدير ما يهدى إليهن في عيد رأس السنة من كتب أنيقة، كان اخفاؤها مشكلة عويصة!

وكن يقرأنها في «عنبر» النوم، فكانت «إيما» تقلب بين يديها - في رفق - تلك الكتب المغلفة بالحرير، ثم تقف ببصرها عند أسماء المؤلفين المجهولية الذين كان يسبق توقيعاتهم - في نهايات القصص - لقب «كونت» أو «فيكونت» وكانت تعتربها رغبة حين تنفخ في رفق لترفع الورق الشفاف عن الصور، فلا يلبث أن يتثنى ثم ينزلق مستوياً عل الصفحات!

كان بين الصور منظر يمثل سور شرفة وقف خلفه شاب في معطف قصير، يضم بين ذراعيه فتاة في ثوب أبيض، ثبتت إلى حزامها كيس الصدقات كما كانت هناك صور بعض الانجليزيات المجهولات، ذوات الشعور الشقراء، اللاتي يرمقنك من تحت قبعات الخوص المستديرة، بأعين واسعة صافية، وقد اضطجع بعضهن في عربات تنساب وسط الحدائق، يقود خيولها سياس في سراويل بيضاء، وتجري أمامها كلاب الصيد الرشيق، بينما استقلت أخريات على الارائك مستغرقات في الأحلام، وإلى جوارهن رسائل غرام مفتوحة، وقد سرحت أبصارهن نحو القمر الذي يطل خلال نافذة أخفت نصفها ستارة سوداء! كما كانت بعض الصور تمثل فتيات ساذجات يطعمن اليمام خلال قضبان اقفاص من الطراز القوطي، وقد سال الدمع على وجناتهن، وأخريات يبتسمن وقد ملن برؤوسهن على أكتافهن، وأخذن ينثرن أوراق زهر المرجريت بأصابعهن المذبذبة التي تشبه مناقير الصقور!!

هذا، فضلاً عن صور تبين سلاطين يدخنون الغلايين الطويلة، وقد استلقوا تحت الحماثل مخدورين بين احضان الراقصات، ثم السيوف والرماح التركية، والقلنسوات اليونانية، وأخيراً تلك المناظر الباهتة التي تمثل بلاذاً يسودها جو شاعري، فتريك في وقت

واحد النخيل وأشجار الصنوبر، وغراً إلى اليمين، واسداً إلى اليسار، ومآذن التتر عند حافة الأفق، وخرائب الرومان في المقدمة، وإبل «انيحت» بين هذه وتلك، وقد أحاطت بالجميع غابة عذراء، اجهد الرسام نفسه في ابدائها نظيفة! وقد سقط شعاع عمودي من الشمس، وأخذ يترجرج على صفحة الماء التي صبغت بلون رمادي كلون الفلواز، وقد غشيتها خدوش بيضاء على مسافات متباعدة، تمثل البجع العائم!

وكان المصباح المعلق إلى الحائط فوق رأس «إيما» يضيئ كل هذه اللوحات التي تمثل مناظر الدنيا، فتتابع أمام بصرها، و«عنبر» النوم غارق في صمت، يعكسه في بعض الأحيان ضجيج يتناهى من بعيد، منبعثاً من عربة تذرع الطريق، بعد أن تقدم الليل! وقد بكت «إيما» كثيراً في الأيام الأولى لوفاة أمها، وأوصت بصنع لوحة حزينة مطرزة بخصلة من شعر «الفقيدة». وأرسلت خطاباً إلى (برتو) مليئاً بأفكار قائمة عن الحياة، طلبت فيه أن تدفن - إذا ما حان أجلها - في المقبرة التي ضمت أمها. وجزع أبوها إذ ظنها مريضة فبادر بزيارتها، وأحست «إيما» في أعماقها بالرضى، إذ رأت نفسها تقفز فجأة إلى ذلك اللون الباهت من الحياة المثالية النادرة، التي لا تتطلع إليها النفوس التافهة! وهكذا، ألفت نفسها تنزلق إلى ألوان الخيال «اللامارتينية» - أي التي كانت تسود مؤلفات «لامارتين» - فتنصت إلى القيثارات على البحيرات، وأنشيد البجع المحتضر، وإلى صوت سقوط الأوراق الذابلة، ورفرفة العذارى الطاهرات الصاعدات إلى السماء وإلى صوت الله يتردد في الوديان!!

وما لبث أن ملت كل هذا، ولكنها لم تشأ في البداية أن تعترف بالملل، بل استموت في هذه الخيالات - بحكم العادة، في أول الأمر، ثم بدافع من الزهو بعد ذلك! - ولكنها وجدت السكينة تغمرها في النهاية، فلا حزن في الفؤاد، ولا تجاعيد في الجبين! وكانت دهشة الراهبات - اللاتي أحسن الظن باستعدادها - بالغة، إذ لاحظن أن الآنسة «روو» قد أخذت تفلت من رعايتهن. والواقع أنهن كن قد سخون عليها بالطقوس والخلوات والمواعظ، واسرفن في تلقينها التبجيل الواجب نحو القديسن والشهداء، وفي إزجاء النصائح التي تستهدف اخضاع الجسد وخلاص الروح، حتى أصبحت الفتاة كالفرس التي تسحب بالعنان، ثم قدر لها أن تقف وأن يخرج العنان من بين أسنانها!

ذلك لأن تلك الروح الايجابية التي نمت في جوانحها وسط هذا النشاط الديني، تلك الروح التي أحبت الكنيسة من أجل زهورها، والأغاني بسبب كلماتها العاطفية، والأدب من أجل مثيراته الحسية. هذه الروح لم تلبث أن تمردت على أسرار الايمان، كما تمردت على ذلك النظام الذي كان يتعارض مع مزاجها، حتى أن أحداً لم يأسف لرحيلها حين سحبها أبوها من الدير. بل أن الرئيسة شكت من أنها غدت في الأيام الأخيرة قليلة الاحترام لراهبات الدير!

ووجدت «إيما» في الفترة الأولى التي تلت عودتها إلى البيت - لذة في أن تصدر
الأمواكر إلى الخدم. بيد أنها لم تلبث أن ابغضت الريف، وحنّت إلى الدير مرة أخرى!
وعندما وفد «شارل إلى (برتو) لأول مرة، أحست بخيبة أمل، إذ لم يسفر ظهوره
عن جديد تتعلمه أو تحس به! بيد أن شوقها الملهوف إلى شيء جديد، والقلق الذي ساورها
لتغير ظروفها - أو لعله الاضطراب الذي بعثه ظهور هذا الرجل - كانا كافيين لكي
يحملها على أن توقن بأنها قد أصابت أخيراً تلك العاطفة الخارقة، التي كانت تتراءى لها
- حتى ذاك الحين - كعصفور كبير ذي ريش وردي، يحلق ببهاء في سماءات الشعر،
عاطفة الحب! وما استطاعت حينذاك أن تتصور أن تلك السكينة الناعمة التي كانت تعيش
فيها، هي، السعادة التي كانت تحلم بها!

الفصل السابع

على أنها كانت تغال أحياناً، أن الأيام المقبلة هي أجمل أيام حياتها، أيام شهر العسل، كما يسمونها! بيد أنها كانت ترى لزماً - لكي تتذوق حلاوة ذلك «العسل» كاملة - أن ترحل إلى البلاد ذات الأسماء الرنانة، التي تتسم فيها فترة ما بعد الزواج بلذة الدعة والاسترخاء والتي يصعد المرء فيها - على مهل - طرقات وعرة، في عربات ذات ستائر زرقاء، وهو ينصت إلى أنشودة السائس ترددها قمم الجبال، ويختلط بها رنين الأجراس الملتفة حول أعناق الماعز، وخيرير الماء المتساقط، ومع غروب الشمس، يتنسم المرء - عند حواف الخلجان - عبير أشجار الليمون، حتى إذا أرخى الليل سدوله، خلا العروسان إلى نفسيهما في الشرفة يحدقان في النجوم وقد اشتبكت أصابعهما، وأخذاً يرسمان الخطط للمستقبل!!

بل لقد خيل إليها أن في الدنيا بقاعاً تنبت السعادة، كما لو كانت السعادة شجرة لا تنبت إلا في تربة معينة لا نمو لها في غيرها!

ولطالما سألت نفسها: لماذا لم يقدر لها أن تتكبيء على حافة شرفة منزل خشبي على جبال سويسرا، أو أن تجلس شجونها في كوخ باسكتلندا، مع زوج يرتدي حلة من المخمل الأسود ذات ذيل سابغ، وحذاءين طريين، وقبعة مدببة، واكماماً منشأة؟! لكم تمنّت لو تفضي لأحد بهذه الخواطر جميعاً ولكن، كيف السبيل إلى الانصاح عن ذلك الضيق الذي يتعذر التعبير عنه، والذي تتبدل صورته كالسحاب، ويعصف بنفسها كالرياح؟ وهكذا، كانت تعوزها الألفاظ، كما اعوزتها الفرصة والجرأة!

ومع ذلك آه، لو أراد «شارل»، لو خطر بباله، لو التقت نظراته مرة بخواطرها، إذن، لتفتح قلبها - فيما تحسب - عن فيض مفاجيء، كما تتساقط الثمار الناضجة عن الأشجار بمجرد أن تمسها الأيدي! بيد أن الأمر كان يجري على النقيض من ذلك. فكلما ازدادت الألفة بينهما، ازداد شعورها بانطواء روحي، واتسعت الهوة التي تفصلها عنه!

كان حديث «شارل» سطحيّاً، كسطح أفرز الطريق، تمر عليه آراء الناس في لباسها العادي، فلا تثير فيه انفعالات، أو ضحكاً، أو خيلاً! فهو لم يحس بحب الاستطلاع - كما كان يقول - يدفعه لأن يذهب إلى المسرح لمشاهدة الممثلين الباريسيين، أيام كان يقيم في (روان) ولا كان يعرف السباحة، ولا استخدام السلاح، ولا إطلاق الرصاص، وعجز مرة عن أن يفسر لها عبارة من مصطلحات الفروسية، صادفتها في إحدى الروايات!

ألم يكن من الواجب أن يسير الأمر على العكس من ذلك، فيعرف الرجل كل شيء، أن يكون مبرزاً في كثير من نواحي النشاط ليدرب زوجته عليها، أن يبصر المرأة بخبايا العواطف ومتع الحياة، وبكل الأسرار؟! لقد كان «شارل» على العكس من هذا كله، فلا هو

بصرها بشيء، ولا كان يعرف شيئاً، بل أنه لم يكن يطمح إلى شيء!!

كان يظنها سعيدة، وهي في الواقع تنقم عليه هذا السكوت الخامل، وذلك الركود المطمئن، بل تنقم عليه أن حظى بتلك السعادة التي أتاحتها له!

وكان يحلو لها أحياناً أن ترسم، فكان «شارل» يجد تسلية ممتعة في أن يقف جامداً يتأملها وهي عاكفة على لوحتها، أو وهي تنعم النظر إلى الرسم وقد ضاقت حدقتها إمعاناً في الدة، أو هي تبعث بقطعة من لباب الخبز تكورها بين أصابعها أما إذا عزفت على «البيانو»، فكان أعجابه يزداد كلما ازدادت حركات أناملها سرعة! كانت توقع النغمات في ثقة، وتحجري أصابعها على المفاتيح من أعلى إلى أسفل دون توقف، فتتهز أوتار الآلة القديمة، حتى ليصل صوتها إلى أقصى القرية إذا كانت النافذة مفتوحة. وكثيراً ما يحدث أن يكون محضر القرية ماراً في الطريق، فيتوقف عن السير، ويأخذ في الاصغاء وهو عاري الرأس، وأوراقه في يده!



وكانت «إيما» - من ناحية أخرى - تحسن تدبير المنزل، وتكتب للمرضى رسائل لينة تذكرهم فيها بأنعاب الاستشارات الطبية، دون أن يشتموا منها رائحة المطالبة، وعندما يصادف وجود ضيف من الجيران على مائدة الغداء - في أيام الآحاد - كانت تنتهز الفرصة لتعرض بعض آيات الأناقة في تقديم أصناف الطعام - كأن ترص أهرامات من البرقوق لى ورق العنب، أو تصوغ الحلوى في قوالب تصبها على الأطباق، بل انها أخذت تعرب عن رغبتها في شراء «سلاطين» قلاً بالماء، لتغمس فيها الأصابع بعد تناول الحلوى، وكان كل هذا مدعاة إلى رفع شأن أسرة «بوقاري» في انظار الناس!

وانتهى الأمر بشارل إلى أن ازداد تقديره لنفسه إذ وفق إلى مثل هذه الزوجة! وكان يطلع زائريه مزهواً على لوحتين صغيرتين رسمتهما «إيما» بالفحم، وصنع لها اطارين عريضين، وعلقهما إلى الحائط بشريطين اخضرين. وكثيراً ما أصبح يرى واقفاً أمام باب منزله - بعد مبارحة الكنيسة - وفي قدميه خفان بديعا التطويز يختال بهما فخوراً!

وكان في بعض الأحيان يعود إلى المنزل متأخراً - في الساعة العاشرة، وربما في منتصف الليل - فيطلب الطعام، بينما تكون الخادم قد أوت إلى فراشها، وعند ذاك كانت «إيما» تتولى اعداد المائدة له، فيخلع سترته لكي يتناول عشاءه في ارتياح، وينطلق في سرد اسماء جميع من قابل من الناس، وما زار من قرى، وما وصف لمرضاه من أدوية، ثم يأتي - وهو راض عن نفسه - على ما تبقى أمامه من «يخنى»، ويعقب بقطعة من الجبن، ثم يأخذ في قضم تفاحة، وفي افراغ ابريق النبيذ في جوفه، ولا يلبث أن يذهب إلى السرير فينطرح عليه، ويمضي في الغفط!

وكان قد عدل عن «الطاقية» القطنية التي اعتاد لبسها في السرير، وألف أن يلف حول رأسه وشاحاً لا يكاد يستقر على أذنيه، فيصحو في الصباح وشعره متهدل، مبعثر على وجهه، وقد علق به بعض حشو الوسادة التي تكون اشترطتها قد انحلت أثناء الليل. كذلك مان يرتدي في النهار حذاءين كبيرين، لكل منهما رقبة عالية، تعلو سطحها نيتين سميكتان تنحرفان نحو كعب القدم، أما وجه الحذاء فكان دائماً مستوياً في خط مستقيم، وكأنه مشدود على خشب. وكان يردد دائماً: «هذا هو النوع المناسب للريف»!

وكانت أمه تؤيده في هذا الاقتصاد، إذا ما جاءت لزيارته - كلما اشتبكت في خلاف مع زوجها - كما كانت تفعل أيام الزوجة الأولى! وكانت تبدو برمة بالزوجة الجديدة أيضاً، إذ كانت ترى أساليبها مدعاة لاسراف يفوق مستوى ثرائهم. فالخشب والسكر والشموع تستهلك بكميات تعادل ما يستهلك في البيوت الكبيرة، وكمية الجمر التي كانت تحرق في المطبخ تكفي لطهو عشرين صنفاً من الطعام! وكانت تعمد إلى ترتيب «بياضات» زوجة ابنها في الصوان، وتعلمها كيف تحاسب الجزار إذا ما أحضر اللحم، فكانت «إيما» تتقبل بصبر ما تجود به الأم من دروس! وكانت كلمتا «ابنتي» و«أمي» تتبدلان طوال النهار، مصحوبتين برعشة في الشفاه، إذ كانت السيدتان تلفظان أعذب كلمتين، بلهجة تهتز بالغضب!!

كانت الأم العجوز تشعر في عهد مدام «دوبيك» بأنها مازالت الأثيرة المفضلة لدى ابنها أما الآن، فقد بدا لها حب «شارل» لإيما بمثابة فرار من حنانها، أو عدوان على ما كان لها، فأخذت ترقب سعادة ابنها في صمت كثيب، كأنسان أفلس قراح ينظر خلال زجاج النوافذ إلى أغراب احتلوا داره القديمة. وكانت تروي له مشقاتها وتضحياتها - على سبيل الذكرى - وتقارنها باهمال «إيما» عسى أن يستنتج أن ليس من الحكمة أن «يعبد» السيدة الشابة، على هذا النحو الذي يملك عليه كل عواطفه!

ولم يكن «شارل» يدري كيف يتصرف فهو يحترم أمه، كما يحب زوجته حباً لا حد له وكان يعتبر أمه معصومة من الخطأ، ولكنه - مع ذلك - لم يكن يرى في مسلك زوجته مدعاة للوم! وكان يستجمع جرأته - بعد أن ترحل مدام بوفاري - فيردد في استحياء - وينفس ألفاظ أمه - بعضاً من أهون المآخذ التي يكون قد سمعها منها. ولكن «إيما» كانت - بكلمة واحدة - تقنعه بأنه على خطأ، وترسله إلى مرضاه! ومع ذلك فقد ظلت تحاول أن تقنع نفسها بأنها تحبه وفقاً للنظريات التي كانت تؤمن بها! كانت تردد على مسمعه - في الحديقة، وفي ضوء القمر - ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب، وتغني له - وهي تتنهد - بعض الألحان المشجية، بيد أنها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف، كما أن «شارل» لم يكن يبدو أكثر حباً ولا انفعلاً مما كان قبل الشعر والغناء!

وهكذا لم تلبث - بعد أن قدحت زناد قلبها فلم تنبعث منه شرارة - أن انسأقت إلى اقناع نفسها بأن حب «شارل» خال من الحرارة! فقد أصبحت أوقات انطلاقه وتحلله منتظمة، وهو يقبلها في «مواعيد» معينة، وكأنه يمارس «عادة» من العادات! أو كأنه يتناول حلوى

مرتقية بعد عشاء ممل!!

وحدث أن عالج الطبيب أحد الحراس من التهاب رئوي، فأهدى الحارس زوجته كلبة إيطالية صغيرة أخذت تصحبها في نزهاتها، إذ كانت تخرج أحياناً كي تخلو إلى نفسها، وحتى تريح بصرها بعض الشيء من النظر إلى تلك الحديقة العتيقة، والطريق المترية كانت تمضي حتى غابة الزان عند «بنفيل»، على مقربة البناء المهجور الذي تؤلف جدرانه زاوية عند منعطف الطريق المفضية إلى الحقول. وهناك، وسط الأعشاب النامية في الخندق، وأعواد البوص ذات الأوراق الحادة، كانت تتأمل ما حولها لتبتين ما إذا كان قد ألم بالمكان أي تغير عما كان عليه في آخر مرة جاءته، فكانت ترى زهور «الريجتالا» والقرنفل في نفس منابتها، والنباتات الشوكية تحيط بالأحجار الكبيرة، والطحالب على طول النوافذ الثلاث - في المبنى المهجور - التي كانت مصاريعها مقللة باستمرار، يتسرب خلالها التراب ليتراكم على قضبانها الحديدية التي علاها الصدأ.

وكانت أفكارها لا تليث أن تهيم غاية، مثل كلبتها التي كانت تجري في حلقات خلال الحقول، وترسل نباحها خلف الفراشات الصفراء، وتطارده الجردان أو تعضض الحشاش النامي على حافة حقل القمح. ثم تأخذ أفكارها في التركيز شيئاً فشيئاً، فتردد لنفسها وهي تفترش الحشاش التي كانت تعبت بها بطرف مظلتها: «يا إلهي! لماذا تزوجت؟!»

وكانت تسائل نفسها: «أو لم تجد المصادفات طريقاً آخر تدفعها خلاله لتلقي برجل آخر؟» ثم تمضي في تخيل الأحداث التي كانت تترتب على ذلك، الأحداث التي ل تقع، والحياة التي تغاير حياتها الحالية، والزوج الذي لم تعرفه فلا مرأ في أن الأزواج ليسوا جميعاً مثل زوجها! كان من الممكن أن يكون زوجها جميلاً، مرحاً، أنيقاً، جذاباً، مثل أولئك الأزواج الذين ولا بد قد حظيت بهم زميلاتهن في الديرة! ترى ماذا تفعل أولئك الزميلات الآن في المدينة، وسط ضجيج الشوارع، وأضواء المسارح، وصخب المراقص؟ إنهن ولا ريب يحظين بحياة يتفتح بها القلب، وتنتعش الحواس. أما هي، فإن حياتها باردة كالخزن الذي أوتي نافذة شمالية!

والملل؟! ذلك العنكبوت الصامت الذي كان يعزل نسيجه في الظلال، في كل ركن من أركان قلبها!

وتذكرت أيام توزيع الجوائز - أثناء الدراسة - حين كانت تصعد إلى المنصة لتتسلم نصيبها من التيجان الصغيرة، وقد بدت بديدة بشعرها المجذول، وثوبها الأسود، وحذاءيها الصوفيين الخفيفين. وكان السادة ينحنون ليسمعوها عبارات التهنتة، إذا ما عادت إلى مكانها، ويطلون من نوافذ العربات التي قملأ صحن الدبر ليودعوها عند انصرافها! كما كان مدرس الموسيقى يحييها إذ يمر بها حاملاً قيثارتة. أواه! لكم أصبح كل هذا بعيداً آه، شد ما بعد!



وكانت تنادي كلبتها «جالي» فتضعها على ركبتيها، وتقر بأصابعها فوق رأسها الصغير، وتهمس لها: «هيا قبلي سيدتك! قبليها يا من لا تثقل الهموم قلبها!» وتأخذ في تأمل وجه هذا الحيوان الرشيق، الواجم، الذي يتشاءب في بطنه، فيلين قلبها، وتروح تقارن بين نفسها وهذا الحيوان، وتحذته بصوت مسموع، وكأنها تعزي شخصاً منكوداً!

وكانت الريح تهب أحياناً قوية، تأتي من ناحية البحر فتكتسح هضبة (كو) بأسرها، وتحمل إلى الحقول المترامية رطوبة ملحة، فيصدر من البوص صفيح خافت، وهو يميل على سطح الأرض وبين أغصان الزان تسري رعشة سريعة، بينما ينبعث على قممها همس عميق، فتشد «إيما» شالها حول متفيتها وتنهض منصرفة.

وكان ضوء النهار ينبعث خلال أوراق الشجر، مستعيراً لونها الأخضر، فينعكس على العشب القصير الذي يثن في رفق تحت قدميها ولا تلبث الشمس أن تجنح للمغرب، فتحمر السماء إذ تلوح بين الغصون، وتبدو جذوع الأشجار النامية بانتظام في خط مستقيم، كأنها أعمدة قائمة على صفحة من الذهب وتسري الرهبة إلى نفس «إيما» فتنادي كلبتها «جالي»، وتسرع إلى (توست)، ثم تستلقي على مقعد مريح، وتظل صامتة بقية الليل!



واعترض حياتها - في أواخر سبتمبر - حادث غير عادي. فقد دعيت إلى (فوبيسار) لزيارة مركز «أندرفيلية»! ولما كان المركز قد تولى الوزارة من قبل - عند عودة الملكية - فإنه أخذ يتطلع للعودة إلى الحياة السياسية، ويكر بالتمهيد لترشيح نفسه لمجلس النواب. فكان في الشتاء يوزع الخطب، وكان في مجلس المقاطعة يطالب متحمساً باصلاح الطرق في دائرته، فلما جاء الصيف بحره اللافح، أصيب بدمل في فمه، استطاع «شارل» أن يريحه منه - بما يشبه المعجزة - بحركة من مبضعه على وجهه في الوقت المناسب!

وعندما عاد المندوب الذي أرسله المركز إلى (توست) ليدفع أتعاب الطبيب، ذكر لسيدة أن في حديقة الطبيب نوعاً ممتازاً من «الكريز» الذي غمر بذوره متعذراً في حدائق (فريبسار)، فطلب المركز بعض «العقل»، وعني بأن يذهب بنفسه إلى الطبيب ليشكره وهناك وقع بصره على «إيما»، فلاحظ قوائها الأهيف واسترعى انتباهه أنها لا تتحني بالتحية كالفلحات، ولم ير أي مغالاة في التواضع أو أي خرق للتقاليد، في دعوة الزوجين الشابين إلى قصره!

وفي الساعة الثالثة من أحد أيام الأربعاء، رحل السيد والسيدة «بوفاري» إلى (فريبسار) في عربة شدت إلى سطحها حقيبة كبيرة، ووضع أمام مقعدها صندوق

للقبيعات، فضلاً عن أن «شارل» حمل على فخذه صندوقاً من الورق المقوى.
ووصلاً عند هبوط الليل، عندما كانت مصابيح الحدائق تضاء، لتنير الطريق للعربات.

الفصل الثامن

كان القصر مبنياً على الطراز الايطالي الحديث، يمتد منه جناحان، وله ثلاثة مداخل تفضي إلى شرفات ذات درجات. وكان يقوم في نهاية مرج واسع ترعى فيه بعض الأبقار، بين مجموعات متباعدة من الأشجار الضخمة، التي بسطت أوراقها المتفاوتة الخضرة على أحواض الورد، وأحواض الزهر المسمى بكراث الجليد، والتي انتشرت على طول الطريق الرملي المتعرج. وكان هناك جدول يجري تحت قنطرة، ومن خلال الضباب كانت تلوح مبان مفروشة بالقش، تنتثر في المروج التي حفت بها هضبتان تنحدران انحداراً هيناً، وتكسوهما الغابات. وعلى البعد، بدا وسط الأحراش صفان متوازيان من المخازن والحظائر، هما كل ما تبقى من القصر القديم المتهدم.

ووقفت عربة «شارل» أمام السلم الأوسط، فظهر الخدم، وتقدم المركز فاعار زوجة الطبيب ذراعه وقادها إلى البهو، الذي رصفت أرضه ببلاط من الرخام، وارتفع سقفه إلى علو شاهق، فكان يتردد لوقع الأقدام والأصوات فيه صدى كالذي يتردد في الكنائس. وفي أقصى البهو يوجد سلم مستقيم، وإلى اليسار كانت ثمة شرفة تطل على الحديقة، وتؤدي إلى قاعة «البلياردو» التي كانت أصوات ارتطام الكرات العاجية تنبعث خلال بابها.

وبينما كانت «إيما» في طريقها إلى قاعة الاستقبال، وقع بصرها على رجال تبدو عليهم سماء الوقار والعظمة، وقد استقرت ذقونهم فوق أرطبة رقابهم العالية، وكانوا جميعاً يحملون الأوسمة، وبيتسمون في صمت وهم مكبّون على مائدة «البلياردو» وفوق الخشب الداكن الذي يكسو الجدران، كانت ثمة اطارات مذهبة، نقشت على حوافها السفلى أسماء بحروف سوداء، فرأت «إيما» منها «جان انتوان دواند فيليبي دي ايفريونفيل، كونت دي فريسار، وبارون دي فريناي، الذي قتل في موقعة (كوترا) في ٢٠ أكتوبر سنة ١٥٨٧». وقرأت تحت اطار آخر: جان انتوان هنري جي دي اندفيلبي دي فويسار، اميرال فرنسا، وحامل وسام فروسية القديس ميشيل، الذي جرح في موقعة (هوج سان فاست) في ٢٩ مايو سنة ١٦٩٢، ومات في (فويسار) في ٢٣ يناير سنة ١٦٩٣». أما بقية الأسماء، فلم يسهل على «إيما» تبينها، إذ كانت أضواء المصابيح المنعكسة من مائدة «البلياردو» الخضراء تلقي ظلالاً قائمة حول القاعة، وعلى اللوحات الافقية، فتظهر التشققات التي كانت تتخلل سطوحها كخطوط دقيقة. ومن خلال هذه المربعات الكبيرة السوداء، المحاطة باطارات من ذهب، كانت تبدو هنا وهناك أجزاء أكثر وضوحاً في اللوحة: جبهة شاحبة، أو عينان حادتان، أو شعر مستعار يتهدل على الأكتاف فوق ملابس حمراء، أو عقدة ربطة الساق فوق الريلة.

وفتح المركز باب الصالون، فنهضت إحدى السيدات - وهي المركيزة نفسها -

واستقبلت «إيما» وأجلستها في مقعد إلى جوارها، ثم أخذت تؤثرها بحديث ودي، كما لو كانت تعرفها منذ زمن بعيد! كانت سيدة في نحو الأربعين، أوتيت كتفين بديعتين، وانفاً حاداً، وصوتاً ليناً وكانت تطرح فوق شعرها الكستنائي - في ذلك المساء - شالاً من «الدانتيل»، ينسدل على ظهرها في شكل مثلث، وإلى جوارها، كانت تجلس شابة، في مقعد عالي الظهر، ورجال حليت عرى ستراتهم بورود صغيرة، وقد اشتبكوا في الحديث مع السيدات حول المدفأة.



وأعد الطعام في الساعة السابعة، فجلس الرجال - وكانوا أكثر عدداً من السيدات - حول المائدة الأولى في قاعة الطعام، بينما جلست السيدات حول المائدة التي كان يرأسها المركيز والمركيزة.

وأحست «إيما» عند دخولها القاعة بجو دافئ: مزيج من أريج الزهور، والملابس الجميلة، وأبخرة اللحم، ورائحة «عش الغراب» وشموع المشاعل التي انعكست ألسنة لهيبها الطويلة على الأواني الفضية والأكواب البلورية المضلعة التي احاطتها الأبخرة بغلالة خفيفة ينبعث خلالها بريق باهت. وتناثرت الزهور على طول المائدة، واستقرت المناشف - التي طويت على شكل قلنسوات رجال الدين - على الأطباق ذات الحواف العريضة، وبرزت خلال ثناياها أرغفة بيضاوية صغيرة ورصت الفاكهة الكبيرة الحجم بعضها فوق بعض طبقات، على فراش من العشب الأخضر داخل سلال مفتوحة الجوانب، والأبخرة تتصاعد، القصير، ورباط رقبته الأبيض، وقميصه الذي وشى صدره بالدانتيل - يمر بالطبق بين اكتاف المدعويين في وقار القضاة، ويغمره واحدة من ملعقة بين أجزاء الصنف الذي يحمله - وقد قسمت من قبل - تقفز اليك القطعة التي تختارها! وفوق المدفأة الخزفية ذات القضبان النحاسية، كان ثمة قشال لامرأة مدثرة حتى الذقن، تنظر في صمت من القاعة التي حفلت بالناس!

.. ولاحظت «إيما» أن كثيراً من السيدات لم يضعن قفازاتهن في أكوابهن^(١)!



وجلس في أقصى المائدة - وحيداً بين السيدات - شيخ انحنى على طبقه المليء وقد ربط منشفته إلى صدره كالطفل، وأخذت قطرات «الصلصة» تتساقط من فمه وهو يأكل، وكانت عيناه محتقتين بلون الدم ذلك كان والد زوجة المركيز: «دوق فردبير» المسن، الذي

(١) كانت هذه هي عادة سيدات المجتمع في فرنسا في القرن الماضي.

كان ذا خطوة لدى «كونت دارتوا» فيما مضى، أيام نزعات الصيد في (فودري) عند
المركز «دي كونفيان»، والذي قيل إنه كان عشيقاً للملكة «ماري انتوانيت» إلى جانب
عشيقها الآخرين «دي كويني» و«دي لوزون»!

وكان الدوق قد عاش حياة عريضة صاخبة، حفلت بالمبارزات والمهرنات، وبالنساء
اللواتي كان يغويهن، وقد بدد ثروته، وازعج أسرته كلها!

وكان يقف خلف مقعده خادم يهتف في أذنه بأسماء الأطباق التي يشير إليها باصبعه
مغمفاً في تهتهة. وأخذت عينا «إيما» ترتدان باستمرار - وبحركة تلقائية - إلى هذا
الشيخ ذي الشفة المتدلّية، لتحققا فيه، وكأنه شخص فذّ جليل! كيف لا وقد عاش في
البلاط الملكي، ونام في فراش الملكات!!

وكانت الكؤوس تترع بالشمبانيا المثلجة، التي كانت ترسل في جسد «إيما» كله
رعدة، كلما مست شفيتها!! لم تكن قد رأت الرمان في حياتها من قبل، ولا أكلت
الأناناس! بل أن مسحوق السكر الناعم بدا لها انصع بياضاً وأكثر نعومة منه في أي مكان
آخر!

وما لبثت السيدات أن صعدن إلى حجراتهن ليتخذن اهتتهن للحفلة الراقصة. فعنيت
«إيما» بزيتها في دقة المثلثة التي تستعد لليلة ظهورها الأول ونسقت شعرها وفقاً لنصائح
الحلاق، وأخذت ترتدي ثوبها الصوفي الخفيف الذي كان مبسوطاً على السرير، بينما كان
«شارل» يشد بنطلونه إلى وسطه.

وقطع «شارل» الصمت قائلاً: «لسوف يضايقني السير الجلدي - الذي يشد الحذائين
إلى البنطلون - أثناء الرقص».

فهتفت في استنكار: «الرقص؟!»

وإذ أجاب: «نعم»، قالت: «هل طاش عقلك؟ لسوف يسخرون منك! إلزم مقعدك!»
ثم أردفت: «إن هذا أليق بمكانتك كطبيب!!»

ولزم «شارل» الصمت، وراح يلذع الغرفة ريشاً تفرغ «إيما» من ارتداء ثيابها كان
يراها من الخلف - على صفحة المرأة - بين مشعلين، وقد لاحت عينها أشد سواداً مما
عهدهما، وخصلات شعرها المتسدلة في تموج على أذنيها تلمع ببيريق أزرق، وقد ثبتت في
لفاقة تناثرت على أوراقها قطرات من الماء! أما ثوبها، فكان ذا لون أصفر شاحب، تحليه
ثلاث باقات من ورد صناعي أحيط بالخرصة.

وتقدم «شارل» فطبع على كتفها قبلة. ورّذ ذاك هتفت: «ابتعد عني لئلا تتلف
اتساق ملابسي!»



وسمعت «إيما» أنغاماً من قيثارة، ودوي بوق، فهبطت السلم وهي تمسك نفسها بعناء عن الجري، وكانت حلقات الرقص الرباعي قد بدأت، وأخذ المدعون يتدافعون، فجلست في مقعد مستطيل الى جوار الباب.. حتى إذا انتهت الرقصة، خلت الحلبة إلا من رجال أخذوا يتحدثون وهم وقوف، والخدم يروحون ويغدون في زهم الرسمي وقد حملوا الصحف الكبيرة. وعلى طول الصف الذي ضم النساء، كانت المراوح تهتز، وباقات الورد تحجب جانباً من الوجوه الباسمة، وقنينات العطر ذات الأغطية الذهبية تدار في الأيدي التي شفت قفازاتها البيضاء عن أناملها، وضغطت على معاصمها. وكان وشي «الدانتيل» والمشابك الماسية، والاساور ذات الزوائد المدلاة، يتأرجح فوق الأثواب، ويلمع فوق الصدور وحول الأذرع العارية!.. وكان الشعر المصفف بعناية فوق الجباه، والمعقود في مؤخرات الرؤوس، يحمل زهور الفل أو الياسمين أو الرمان أو البازلاء، أو السنابل التي عقدت على شكل تيجان أو عناقيد أو أغصان.. وكانت الأمهات يجلسن ساكنات بوجوه عابسة، تتوج رؤوسهن عمام حمراء!

وخفق قلب «إيما» قليلاً عندما تقدمت تتخير لنفسها مكاناً في الصف، انتظاراً لحركة قوس عازف القيثارة، ايذاناً ببدء الرقص، وقد أمسك زميلها بأطراف أناملها. وما أن انسابت الانغام حتى زایلها الانفعال، فتحركت إلى الأمام على إيقاع الموسيقى وهي تهز رقبتها هزاً خفيفاً، وأخذت ترتسم على شفيتها ابتسامة، تزداد اتساعاً كلما أبداع عازف القيثارة، حين ينفرد بالعزف أحياناً وتكف الآلات الأخرى عن مشاركته!.. كانت نغماته رقيقة، هادئة، حتى ليتمكن معها سماع رنين الجنيهات الذهبية على الجوخ الأخضر، فوق موائد الميسر في الغرفة المجاورة، ثم لا تلبث الفرقة الموسيقية أن تعود إلى العزف المشترك فجأة، ويرسل البوق أنغامه الزنانة، فتدق الأقدام في إيقاع، وترفرف أطراف «الجونلات» وتتلامس، بينما تتشابك الأيدي ثم تفترق، والعيون التي تغض عنك لا تلبث أن تعود الى التحديق في عينيك!

وكان ثمة نحو خمسة عشر رجلاً، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والاربعين، ينتشرون بين الراقصين، أو يتبادلون الأحاديث عند الأبواب، وقد امتازوا عن الباقين - على تباين أعمارهم وزيناتهم وأشكال وجوههم - بسماء عراقية الأصل! وكانت ثيابهم البديعة الصنع تبدو أرق نسيجاً من سواها، وشعورهم تنسدل على الاصداع في قموجات، وهي تلمع بأطيب الدهون! وكانت لهم بشرة المترفين، بشرة بيضاء، يزيدها رواء ما ينعكس عليها من جو الحجرة وما فيها من خرف شاحب، وحرير يتموج، وأثاث جميل لامع! بشرة يضفي عليها رونق الصحة نظام دقيق في التغذية! وكانت رقابهم تتحرك في يسر فوق أربطة منخفضة. وكانوا يحسحون شفاهم بمناديل طرزت عليها حروف أسمائهم، وتتضوع بشذى مختلف العطورا وبينما كانت امارات الشباب تبدو على من ناهز منهم الشيوخوخة، كانت وجوه الشبان منهم تتسم بمسحة من نضوج، أما نظراتهم غير المكترثة، فكانت تنطق بهدوء حدة الشهوات التي تجدد كل يوم رأ واشباعاً! ومن خلال حركاتهم الرشيقة، كان ينبثق

ذلك الاعتداد الذي يولده اعتياد السيطرة على ما في اليد من أشياء، كما هو الحال في رياضة الخيل الأصلية، ومصاحبة الغواني!

وعلى بعد ثلاث خطوات من «إيما»، أخذ أحد فرسان حلبة الرقص - وكان في ثياب زرقاء - يتحدث عن إيطاليا، إلى شابة شاحبة اللون تتحلى بالآلتي. وراحا يعبران عن إعجابهما بضخامة أعمدة كنيسة القديس برس، والتريفولي، وبركان فيزوف، والكاستلاماري، والكاسين، وورود جنوا، والكوليزيوم في ضوء القمر!

وبالاذن الثانية، أخذت «إيما» تنصت إلى حديث زاخر بالفاظ لم تكن تفقهها.. إذ أحاطت جماعة بشاب غض كان جواده قد فاز في سياق الاسبوع الماضي، وكسب ألفي جنيه في مباراة للقفز فوق حفرة في المجلثرا وكان بعض أفراد الشلة يشكون من ازدياد أوزان بعض خيولهم، بينما كان فريق آخر يشكو من أخطاء مطبعية حرفت أسماء جيادهم في الصحف!



ونقل جو المرقص، وأخذت أضواء المصابيح تخفت، والجمع ينصرف إلى قاعة «البلياردو».. وصعد خادم فوق مقعد فكسر لوحين من الزجاج. واذا أدارت مدام «بوفاري» رأسها على الصوت، لمحت خلال النافذة وجوه الفلاحين في الحديقة تتطلع إلى ما يجري بداخل القصر، فتذكرت (برتو)، وعادت الى مخيلتها صور المزرعة، والبحيرة، وأبيها تحت أشجار التفاح مرتدياً قميصه! بل انها رأت نفسها - كما كانت في الماضي - تنتزع القشدة بأصابعها من قدور اللبن! غير أن حياتها الماضية - التي كانت واضحة المعالم حتى تلك اللحظة - سرعان ما تلاشت عن آخرها في بريق ساعتها الراهنة، حتى كادت ترتاب في أنها عاشتها يوماً! ولم تعد تعيش إلا في حلبة الرقص، بينما كانت الظلال تلف ما عداها. وأخذت تتناول المثلجات في كأس مطعمة بالذهب امسكتها بيسراها، وراحت تسبل جفניה وهي ترفع المعلقة إلى فمها!

وكانت إلى جوارها سيدة تركت مروحتها تسقط، ثم قالت لأحد الراقصين وهو يمر بها: «هل لك يا سيدي أن تتفضل بالتقاط مروحتي التي سقطت وراء هذه الأريكة» وأنحنى السيد، وفيما كان يلتقط المروحة، لمحت «إيما» السيدة تلقي في قبعته بشيء أبيض مطوي على شكل مثلث. وما لبث السيد أن قدم المروحة باحترام إلى السيدة، فشكرته بهزة من رأسها، وتحولت تنشق عبير باقة من الزهور كانت تحملها!

وبعد وجبة العشاء - التي حوت الكثير من نبيذ اسبانيا، ونبيذ الراين، وحساء السمك، وحساء اللوز، وعصيدة جبل طارق، وشتى أنواع اللحم البارد المحوط بالجيلاتين - أخت العربات ترحل تباعاً، وأضواء مصابيحها تبدو - من خلف الستائر الحريرية -

مترنحة في جوف الظلام. وبدأت المقاعد تخلو، غير أن بعض المقامرين تخلفوا، وراح الموسيقيون يعلقون أطراف أصابعهم ليربطوها، واستسلم «شارل» إلى شبه اغفاء وقد أسند ظهره إلى أحد الأبواب.

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، بدأ رقص «الكوتيون». ولم تكن «إيما» على دراية برقصة «الفالس»، بينما راحت بقية الحاضرات - حتى مدموازيل دي أندفيليه والمركيزة نفسها - يرقصنها، ولم يكن قد بقي غير اثني عشر شخصاً تقريباً هم نزلاء القصر. على أن أحد راقصي «الفالس» - وكان شاباً يرتدي صداراً واسع الفتحة يلتصق بصدرة كالفالب، ويدعوه القوم بلقب «الفيكونت» - تقدم من مدام «بوفاري» يدعوها لمراقصته، مؤكداً لها أنه سيرشدها فلا تلبث أن تتقن الرقصة!

وشرعا يرقصان في بطة، ثم ازدادت السرعة. وأخذا يدوران فيدور معهما كل ما حولهما من مصابيح، وأثاث، وجدران، وأرضاء! وعندما مرا على مقربة من ابواب، التف ذيل ثوبها حول بنظلوته، فتداخلت أرجلهما، وخفض بصره نحوها. ورفعت هي بصرها نحوه. وعلى الفور أحست بدبيب محذر يسري في أعصابها! وتوقفا عن الرقص لحظة، ثم استأنفاه. وإذا «الفيكونت» يقود «إيما» بحركة رشيقة إلى نهاية البهو، حيث اختفى معها. وكانت قد أوشكت أن تسقط لاهثة الانفاس، فأسندت رأسها هنيهة إلى صدره، عاودا الدوران في حركة أهدأ من ذي قبل، حتى عاد «الفيكونت» بها إلى مكانهما الأول، فتهاكت على مقعد بجوار الحائط، وغطت عينيها براحتيها!

وعندما فتحت عينيها من جديد، رأت سيدة تجلس على مقعد في منتصف الصالون، وقد انحنى أمامها ثلاثة من الراقصين يتنافسون على الفوز بها زميلة في الرقص. ولم تلبث السيدة أن اختارت «الفيكونت» وعادت القيامة إلى العزف، واتجهت الانظار إلى الراقصين اللذين أخذا يروحان ويجيئان، وجسم السيدة ثابت في استقامته، وذقنها منكسة إلى اسفل. كذلك كان الفيكونت مشدود القامة، مقوس الذراع، وقد رفع رأسه. ولم يكن ثمة شك في أن السيدة تجيد «الفالس» وقد استمر في الرقص وقتاً طويلاً حتى انهكا بقية الراقصين!



وانتهى الرقص، ودار الحديث ليضع دقائق، ثم تبادل القوم تحيات الوداع، أو بالأحرى تحيات الصباح، ثم انصرف نزلاء القصر إلى مخادعهم.

وصعد «شارل» السلم وهو يجر نفسه جراً، وقد كادت ساقاه تعجزان عن حمله، بعد أن ظل واقفاً خمس ساعات متوالية يشاهد لعب الورق دون أن يفقه منه شيئاً! وتنفس الصعداء حين حرر قدميه من حذاءيهما!

أما «إيما»، فقد لفت كتفها بالشال، وفتحت النافذة على حافتها.

كان الليل دامساً، والمطر يتساقط رذاذاً، وأخذت «إيما» تستنشق - في نهم - الهواء الرطب الذي أرسل في كيائها انتعاشاً. وكانت موسيقى الرقص ما تزال تطن في أذنيها، وجهدت لتظل ساهرة، كي تتمكن خيالها من أن ينعم، أول وقت ممكن، بالحياة المترفة التي لم يكن بد من تركها عما قليل!

وبزغ الفجر، فرمقت نوافذ القصر بنظرات طويلة، محاولة أن تتصور ما كان يجري في مخادع أولئك الذين لفتوا نظرها في الليلة السالفة، وكأنها تود لو عرفت حياتهم، وتسلمت إليهم! ثم فطنت إلى أنها كانت ترتعش من البرد، فخلعت ثيابها، واندست تحت الأغطية إلى جوار «شارل»، الذي كان قد استغرق في النوم.

وفي اليوم التالي، حضر الغداء عدد كبير، ولكن جلوسهم إلى المائدة لم يتجاوز عشر دقائق وادهش الطبيب أن لم تقدم خلال الوجبة من الخبز في سلة لتحملها إلى البجع في بركة الماء، بينما انصرف القوم للنزهة في البيوت الزجاجية التي أعدت لانماء نباتات المناطق الحارة! وكانت ثمة نباتات غريبة ملبدة بالزغب، صفت على شكل أهرامات، تحت اصص معلقة تشبه أوكار الأقاعي، تدلث من حوافها اشربة طويلة من الورق الأخضر المتشابك. وكان بستان البرتقال القائم في طرف الحظائر يمتد في طريق مسقوف حتى مرافق القصر. وقاد المركيز زوجة الطبيب الشابة إلى حظائر الخيل، على سبيل التسلية وقتل الوقت وكانت ثمة لافتات من الخزف، فوق المذاود الشبيهة بالسلال، تحمل الخيول بحروف سوداء، وكانت كل دابة تتحرك في مأواها، وتقعقع بلسانها، عندما يمر أحد على مقربة منها، وبدت أخشاب أرض الحظائر لامعة كأنها أرضية صالون، وكانت اطقم العربات مصفوفة في الوسط فوق عامودين ملتفين، بينما رتبت الأعنة والسياط والسلاسل في خط مستقيم على طول الحائط.

وفي تلك الأثناء، ذهب «شارل» يرجو خادماً أن يعد عربته التي كانت قد اقتيدت إلى المدخل، حتى إذا حملت إليها الحقائق، قدم الزوجان «بوفاري» تحياتهما إي المركيز والمركيزة، ثم استقلا العربة عائدين إلى (توست).



راحت «إيما» ترقب في صمت العجلات وهي تدور، بينما كان «شارل» يقود العربة وقد جلس على حافة المقعد منفرج الذراعين، والجواد الصغير يخب بين ذراعي العربة الخشبيتين، والعنان المرتخي يضرب عجز الحصان فيبتل بالزبد، بينما كان الصندوق الذي ربط خلف العربة يرتطم بجدارها في ضربات منتظمة.

وعندما وصلا إلى مرتفعات (تيبورفيل)، مر أمامهما فجأة عدد من الفرسان

يتضحكون ولفافات السيجار في أفواههم، وخيل لإيما أنها تعرفت بينهم على «الفيكونت» فالتفتت، غير أنها لم تر في الأفق سوى رؤوس تتحرك في ارتفاع وانخفاض، مع حركات الخيل في عدوها وخبيها.

وما أن قطعاً نصف الفرسخ حتى اضطر إلى الوقوف، كي يصل بالخيال ما انقطع من «السير» الذي يربط الجواد إلى العربة. وفيما كان «شارل» يلقي نظرة أخيرة على الطاقم بعد أن أصلحه، لمح بين أقدام الجواد - على الأرض - حافظة سيجار من الحرير الأخضر المطرز، يتوسطها شعار ينم عن أنها لشخص من ذوي الألقاب، فقال: «إن بها سيجارين، سأدخلهما بعد العشاء الليلة».

فتساءلت «إيما»: «أذن فأنت تدخن؟»

قال: «أحياناً. عندما تسنح فرصة لذلك».

ووضع «غنيمته» في جيبه، ثم هوى بسوطه على ظهر الجواد الذي اندفع بالعربة.

ولم يجدا العشاء معداً حين بلغا دراهما، فاحتدت «إيما» ولما اجابتها الخادم «نستازي» في قحة، صاحت بها:

- أخرجني من هنا! هذه وقاحة مشينة! أنت مطرودة من هنا! وتحولت تعد العشاء بنفسها، وكان يتكون من حساء بالبصل، وقطعة من لحم العجول. وجلس شارل أمام «إيما» يفرك يديه ويقول في غبطة: «ما امتع المرء أن يعود إلى داره»

وتناهى إليهما صوت «نستازي» وهي تكي، وكان «شارل» ينزل الفتاة المسكينة من نفسه منزلة طيبة، إذ شاطرته الأمسيات الطويلة التي مرت به أيام حزنه، كما كانت أول من عرفه من أهل المنطقة، حين بدأ يمارس مهنته فيها، فلم يلبث أن سأل زوجته: «أحقاً طردتها؟»

وردت «إيما» في حنق: «أجل، من يمنعني من ذلك؟!»

وبعد العشاء، التمسا الدفء في المطبخ، حيث أخذ شارل يدخن وهو يحيط شفثيه ويبصق في كل لحظة، ويضطجع في استمراء عند كل نفثة دخان! فما لبثت «إيما» أن قالت له في استهجان: «لسوف تؤذي نفسك!» ومن ثم وضع السيجار جانباً، ثم جرى إلى المضخة - «الظلمية» - ينشد كويماً من الماء البارز، وإذا ذاك تناولت «إيما» حافظة السيجار فقذفت بها في قاع الصوان.



ولاح لها اليوم التالي طويلاً، فرخذت تتمشى في حديقته الصغيرة جيئة وذهاباً، متوقفة من آن إلى آخر أمام الأحواض أو عرائش الكروم أو قماش القش المصنوع من الجص،

تأمل في دهشة هذه الأشياء القديمة التي ألفتها وعرفتها من قبل، لكم لاحت لها ليلة الرقص بعيدة! ترى منذ الذي أقام هذا الحاجز الكبير بين صباح أمسها ومساء يومها؟! لقد تركت رحلتها إلى (قوبيسار) ثغرة في حياتها كتلك الثغرات الواسعة التي تخلفها العاصفة في الجبال أحياناً، في ليلة واحدة!

على أنها تقبلت الواقع في استسلام، وطوت في وجوم ثيابها الجميلة داخل الصوان، وبينها حذاءها الحريريان، وقد أصفر نعلاهما من أثر الشمع الذي كانت تنزلق عليه فوق أرض حلبة الرقص. تماماً كما انطبع في قلبها - بعد احتكاكه بالشراء - أثر لا يزول!

وهكذا غدت ذكرى تلك الليلة الراقصة شغلها الشاغل، فكانت - حين تستيقظ في صباح الأربعاء من كل أسبوع - تهمس لنفسها: «آه! لقد انقضى عليها أسبوع، مضى أسبوعان، مرت ثلاثة أسابيع، منذ كنت هناك!» وشيئاً فشيئاً، أخذت معالم الحفلة تختلط وتتداخل في ذاكرتها، فنسيت ألحان الرقص، ولم تعد تذكر الملابس والحجرات في وضوح، فقد ذهبت بعض التفاصيل، وبقيت لها الحسرة!

الفصل التاسع

كثيراً ما كانت «إيما» تسعى إلى الصوان - إذا ما غادر «شارل» المنزل - فتخرج حافظة السيجار الحربية الخضراء من ثايبا الثياب التي دسها بينها، وتروح تتأملها، وتفتتحها، بل إنها كانت تننسم رائحة بطانتها التي جمعت بين العطر والتبغ؛ ترى لمن كانت تلك الحافظة؟ أتراها كانت للفيكونت؟ لعلها هدية من عشيقته نسجتها وطرزتها على إطار من خشب الورد، لتكون تحفة صغيرة يحتفظ بها بعيداً عن أعين الفضوليين جميعاً؛ ولعل الحائكة الحاملة شغلت بصنعها ساعات طوالاً، كانت خصل من شعرها تتهدل خلالها على النسيج، ولابد أن نسمة من الحب سرت بين خيوط الرقعة، والفتاة تثبت مع كل غرزة من إبرتها أملاً أو ذكرى؛ كان الخيوط الحربية في امتدادها وتقاطعها، انعكاس لما كان في فؤادها من هيام صامت؛ حتى إذا فرغت منها في النهاية، حملها «الفيكونت»؛ ترى فيم كان يدور الحديث حين كان يضع هذه الحافظة فوق المدفأة ذات الإطار العريض بين أصص الزهور وساعات «مبادور» البنيدولية؛ وكانت «إيما» ترتد من هذا الحلم إلى التفكير في نفسها. ها هي ذي في (توست) و«الفيكونت» في باريس، بعيداً؛ ترى كيف تكون باريس؟ يا للأسم الضخم؛ وراحت تردده لنفسها هامة، وهي تستشعر متعة في تكراره؛ كان يرن في أذنيها رنين ناقوس الكنيسة، بل بدا كما لو كان يبعث شعاعاً يترامى حتى يصل إلى البطاقات الصغيرة المصقة على علب الدهان والمساحيق؛ وكان صياد السمك يمرن في الليل تحت نوافذ الدار، وهم يرددون أناشيدهم، فكانت تستيقظ من نومها، وتصغي إلى قرعة العجلات الحديدية حتى يتلاشى ضجيجها في النهاية، بعد أن تبارح العربات البلدة، وعندئذ تحدث نفسها قائلة: «لسوف يصلون إليها غداً». وكانت تتابعهم بخيالها، وهم يصعدون الرابي، ويهبطون الوهاد، ويجتازون القرى، وينسابون في الطريق العريض الممتد تحت أضواء النجوم، ولا تلبث، بعد مسافة لا تدري مداها، أن تعجد نفسها في مكان غامض ينتهي عنده حلمها؛ وابتاعت خريطة لباريس، فكانت تتابع معالمها بأصبعها وتقوم بجولات وهمية في أحيائها؛ تسير في الشوارع الكبيرة، وتقف عند الأماكن التي تتقاطع عندها خطوط الشوارع أمام المربعات البيضاء التي تمثل المنازل، حتى إذا كانت عيناها، أطبقت جفنيها، وإذ ذلك، كانت ترى على صفحة الظلام صور المشاعل والرياح تعبث بألسنتها، وأبواب العربات تفتح في صخب أمام أيها المسارح؛ واشتركت في صحيفة «لاكوربي» - النسوية - ومجلة «سيلف» أي «حوريات الصالونات» - الاجتماعية - وأخذت تلتهم ما كان ينشر فيهما، دون أن تغفل كلمة من أبناء حفلات العرض الأول للمسرحيات، وحفلات السباق والسهرات. وكانت تهتم بظهور مغنية جديدة، أو بافتتاح متجر؛ وأخذت تتعرف على الأزياء الحديثة، وتحفظ عناوين أمهر الحائكين والحائكات، والأيام التي اعتاد المجتمع الباريسي أن يخرج فيها للنزهة في الغابة، أو

للسهر في الاويرا. وراحت تدرس في «أوجين سوية» أوصاف الأثاث، وقرأت لبلزاك وجورج صاند وهي تنشداشباعاً وهمياً لمطامعها الشخصية وبلغ من شغفها هذا، أن كانت تحمل كتابها معها إلى المائدة وتقلب صفحاته، بينما يكون «شارل» منهمكاً في الأكل والحديث وكانت ذكرى «الفيكونت» لا تفتأ تعاودها أثناء قراءاتها، فتقارن بينها وبين الشخصيات التي تصادفها في الروايات. على أن الدائرة التي كانت تحيط بشخصيته راحت تتسع شيئاً فشيئاً، وأخذت هالة الرواء، التي احاطت بها، تفارقه رويداً لتمد إلى مسافات أبعد، حيث تضيء أحلاماً أخرى! وهكذا باتت «إيما» ترى باريس أكثر اتساعاً من المحيط، وقد راحت تتألق أمام أعينها في جو قرمزي!



على أن ألوان الحياة المصطنخة في هذا الخضم، كانت - عند «إيما» - مقسمة إلى أجزاء، ومرتبطة في لوحات متباينة، ولم تكن «إيما» تتبين من العوالم التي تضمها باريس سوى اثنين أو ثلاثة تطغى على ما عداها، كما لو كانت الإنسانية يرمتها تتمثل فيها وحدها: دنيا السفراء، يخطر فيها فوق أرض لامعة، في صالونات كسيت جدرانها بالمرابا، ويجلسون حول موائد بيضاوية مغطاة بمفارش من المخمل المزركش بالقصب! وفي هذا العالم أثواب ذات ذبول جرارة، وأسرار خطيرة، ومأس تختفي وراء الابتسامات! ويلي ذلك عالم الدوقات، حيث تكتسي الوجوه شحوباً، ويستيقظ الرجال في الساعة الرابعة وترتدي النساء - أولئك الملائكة المساكين - «جينلات» وشيت ذبولها بالنقوش المطرزة، بينما يمتطي الرجال - أولئك الذين أوتوا كفايات مجحودة تتوارى خلف مظاهر تافهة - جيادهم، ويندفعون بها، حتى الموت، في سبيل التسلية، ويذهبون إلى مصيف (باد) لقضاء فصل الصيف، ثم يتزوجون في النهاية - إذا ما بلغوا الأربعين - من النساء الوارثات! وفي قاعات المطاعم التي تقدم العشاء بعد منتصف الليل، يضحك - في ضوء الشموع - جمهور مختلط الألوان من رجال الأدب والممثلات، قوم مسرفون كالمملك، تقتل نفوسهم بأنواع الطموح المثالي، والهذيان الخارق! وتختلف حياتهم عن حياة الآخرين، فهي معلقة بين الأرض والسماء، في غمرة العواصف، حياة فيها شيء من السما!

أما ما عدا هذه من عوالم، فقد كان في نظر «إيما» مضيقاً، تائهاً، لا مكان له ولا وجود!

وكانت «إيما» من أولئك اللاتي يزهدن في أقرب الأشياء إليهن. فكلما قربت الأشياء منها، ازدادت نفسها عنها أزوراراً، فكل ما يحيط بها مباشرة: من ريف ممل، وبورجوازية ضئيلة حمقاء، وحياة زرية... كل هذه كانت تلوح لها أشياء شاذة، ومصادقات خاصة «تورطت» فيها، بينما كان يمتد خلفها جميعاً - وإلى ما لا نهاية - عالم اللذات والانفعالات!

واختلطت في أحاسيسها لذات البذخ المادية بمسرات القلب، ورقى العادات برقي المشاعر، أفلا يحتاج الحب - كما تحتاج نباتات الهند - إلى تربة معينة ودرجة حرارة خاصة؟ فالزفرات في ضوء القمر، والعناق الطويل، والدموع التي تنهمر على الأيدي المستسلمة، وحمل الجسد، ورقة الحنان... كل هذه أمور لا انفصال لها عن شرفات القصور الكبيرة المليئة بأوقات الفراغ، ولا عن المخادع ذات الستائر الخيرية، والطنافس السمكية، وأحواض الزهور، والأسرة المقامة على منصات مرتفعة عن سطح الأرض، ويريق الأحجار الكريمة، وأشرطة ازياء الخدم!!



وكان السائس يفد كل صباح ليعنى بالفرس، فيعبر المدخل في حذاءيه الخشبيين الكبيرين - اللذين يضمّان قدميه العاريتين - وسترته التي تتخللها الثقوب، وسرواله القصير الذي لم تكن ثمة حيلة سوى الاكتفاء بها فإذا انتهى من عمله، انصرف إلى حيث لا رجعة له بقية النهار، إذ أن «شارل» كان يتولى بنفسه - عند عودته - إيواء الفرس في الحظيرة، ورفع سرجها عنها، بينما تحمل إليها الخادم حزمة من القش ترميها في المذود كيّفما اتفق!

وكانت «نستازي» قد غادرت (توست) أخيراً، وهي تذرف الدمع مدراراً، فاستعاضت «إيما» عنها بفتاة في الرابعة عشرة، يتيمة، مليحة القسمات. وحظرت عليها لبس «الطاقية» القطنية، وعلمتها كيف تخاطبها في احترام، ودريتها على أن تحمل كوب الماء في طبق، وأن تطرق الباب قبل الدخول، وأن تكوي الثياب وتكسيها بالنشاء استواءً، وأن تساعد على ارتداء ثيابها. كل ذلك لأنها أرادت أن تجعل منها وصيفة لها! واعتادت الخادم الجديدة أن تطيع في غير تذرّح حتى لا تطرد! وإذا كانت السيدة قد ألفت أن تترك المفتاح في «البوفيه»، فإن «فيليسيتيه» - الخادم - كانت في كل مساء تأخذ قطعة صغيرة من السكر لتأكلها، حين تخلو إلى نفسها في فراشها، بعد أن تؤدي الصلاة! أما في الفترات التي كانت السيدة تلتزم فيها مخدعها في الطابق العلوي - بعد ظهر كل يوم - فكانت الفتاة تسعى أحياناً إلى السياس الموجودين في المبنى المواجه للمنزل فتجاذبهم الحديث!

وكانت «إيما» في تلك الفترات ترتدي «روب دي شامبر» مفتوحاً، تكشف قلابات صدره العريضة عن صدر ذي ثنيات وثلاثة أزوار ذهبية، يضم أطرافه حول الخصر حزام كالحبل المجدول، ينتهي بكرات كبيرة ذات «شرابات». أما قدمها، فكانت تغيبهما في خفين - «بانتوفلي» - في لون الرمان، تنتشر على سطحيهما أشرطة عريضة. وابتاعت أوراقاً للكتابة، وأوراق نشاف، وريشة، ومظاريف وورقاً للرسائل، وأن لم

يكن ثمة من تكتب إليه! وكانت تنفض الغبار عن الرف، وتتطلع في المرأة، ثم تتناول كتاباً فلا تلبث أن تراودها الأحلام بين سطورها فتشغل عنه ويسقط بين ركبتيها! وأخذت تتوق إلى القيام برحلات، أو إلى العودة للدير كي تعيش فيه! كانت تتمنى المتناقضات في آن واحد: أن تموت، وأن تعيش في باريس!

أما «شارل»، فكان ينطلق على جواده خلال الطرق الفرعية - المفضية إلى المزارع والقرى - تحت المطر والجليد، يأكل «العجة» على موائد الريف، ويدس يديه في الأسرة الرطبة التي يرقد فيها المرضى، ويتلقى على وجهه رشاش الدم الدافئ المنبثق من الفصاد، ويسمع الحشرجات، ويفحص البطون، ويرفع الثياب القذرة عن أجساد الملعولين! لكنه كان يجد في كل مساء ناراً مستعرة، ومائدة معدة، وأثاثاً مريحاً، وزوجة في أبدع زينة، تتضوع بأريج عطر كان يحار في التكهن بمكانه: أهو قميصها، أم بشرتها؟!

وكانت تفتنه بمبتكراتها، التي كانت تتمثل حيناً في مظلات جديدة من الورق تصنعها لتضعها فوق الشمعدانات، وتتمثل حيناً آخر في ثنية تغير موضعها في ثوبها، أو في اسم مبتكر للون بسيط من الطعام اخفقت الخادم في صنعه، فلا يصد اخفاقها «شارل» عن التهام الصنف حتى يأتي عليه!

ورأت «إيما» في (روان) سيدات يحطن ساعاتهن بعقود من الحلبي الزائفة، فابتاعت حلياً زائفة! ورأت أن تزين رف مدفاتها بأنيتي زهور كبيرتين من الزجاج الأزرق، لم تلبث أن ضمت إليهما صندوقاً من العاج لأدوات الحياكة، و«كستياناً» من العقيق! وكان «شارل» كلما ازداد عجزاً عن فهم كنه أسباب تلك الأناقة، ازداد انصياعاً لسحرها، إذ كانت تضفي على حواسه لذة، وعلى داره رواء، وكأنها غبار ذهبي ينتشر على طول طريق حياته الضيق!

وغدت صحته طيبة، ووجهه مشرقاً، وشهرته مستقرة منيعة! كان الريفيون يحبونه لأنه لم يكن متفطرساً بل كان يداعب أطفالهم! ولم يكن يغشى الحانات، وكان في خلقه - فوق ذلك - ما يوحي بالثقة والطمأنينة وقد نجح - بوجه خاص - في علاج نزلات البرد والأمراض الصدرية! والواقع أن «شارل» كان يخشى دائماً أن يقتل مرضاه، ولذلك لم يكن يوصي لهم إلا بالأدوية المهدئة للألم! وكان يوصي - بين آن وآخر - بشراب مقى، ويحمم القدم، وباستخدام العلق (الدود) الذي يمتص الدم الفاسد، وكان يسرف في قصدهم بالعلق في سخاء، وكأنهم جياد! أما في اقتلاع الأضراس، فقد كانت له قبضة حديدية!



وحتى يظل على دراية بما يستحدث في الطب، اشترك في مجلة «الخلية الطبية» بعد أن تسلم اعلاناً عنها. وكان يقرأ فيها بعض الوقت عقب العشاء، ولكن دفء الغرفة،

والاسترخاء الذي يدب في الجسم أثناء عملية الهضم، كانا لا يلبثان أن يسلماه إلى النوم بعد خمس دقائق، فيظل مسترخياً، وذقنه معتمدة على يديه، وشعره متهدل - كالعرف - حتى أسفل المصباح، و«إيما» ترقبه، ثم تهز كتفها! لماذا لم تحظ بزواج ولو من أولئك الذين يقضون الليل بين الكتب، ويحملون في النهاية - إذا ما بلغوا الستين، سن «الروماتيزم» - وساماً على شكل الصليب، فوق بزاتهم السوداء؟ لكم كانت تشتهي أن يغدو اسم «بوفاري» ذائعاً، وأن تراه معروضاً عند باعة الكتب، تردده الصحافة، وتعرفه فرنسا بأسرها!

بيد أن «شارل» لم يكن يعرف الطموح ابداً!

ولقد حدث أن اهانة يوماً طبيب من (ايف تو) - اجتمع معه للتشاور - أمام فراش مريض، وعلى مسمع من أقاربه المحيطين بهما، فلما روى الحادث لإيما في المساء، ثارت في حق على ذلك الزميل إلى درجة جعلت «شارل» يتأثر بالفعل، ويقبلها في جبينها وهو داعم العينين. ولكنها كانت تغلي لفرط احساسها بالخزي لما ناله، حتى لقد ودت لو تضربه ولكنها لم تملك إلا أن تسير إلى الردهة فتفتح النافذة لتعب الهواء العليل حتى تهدأ سورتها، وأخذت تعض شفتها وتردد في صوت خفيض: «يا له من رجل مسكين! يا له من رجل مسكين!»

والواقع أن ثورتها كانت ضد زوجها بالذات، فقد أخذت حركاته وتصرفاته تغلظ بتقدم السن. كان يلهو - عند تناول الحلوى - بتقطيع سدادات الزجاجات الفارغة، وكان بعد الأكل يلحق أسنانه بلسانه، كما كان يرشف الحساء بصوت منكر، ولما كانت البدانة قد أصابته، فإن وجنتيه المنتفختين دفعتا بعينييه الصغيرتين إلى أعلى نحو الصدغين!

وكانت «إيما» تسوي له أطراف صداره الحمراء في بعض الأحيان، وتصلح من وضع رباط عنقه، أو تطوح جانباً بقفازين قدرين يهم باستعمالهما. والواقع أنها لم تكن تفعل ذلك من أجله - كما كان يخال - وإنما كانت تفعله من أجل نفسها، ويدافع من اثرتها وتوتر من أعصابها! وكانت تحدثه أحياناً عن شيء مما تقرأ، كفقرة من رواية أو مشهد من مسرحية جديدة أو حادث من أنباء الطبقة الراقية المنشورة في الصحف. فقد كانت ترى أنه - علي أية حال - إنسان، له أذن تسمع باستمرار، وله استعداد للموافقة دائماً على ما يسمع! بل أنها كانت تبوح بأسرارها لكلبها، ولحطب المدفأة، وبندول الساعة!

وكانت في هذه الأثناء كلها لا تني تنتظر في أعماق نفسها حدثاً ما، كانت، كالملاح المكروب، تسرح بصرها القانط في وحشة حياتها، بحثاً عن شراع أبيض في ضباب الأفق البعيد! وما كانت تدري كنه ذلك الحدث، ولا أي ربح ستسوقه إليها، ولا إلى أي شاطئ سيدفعها. وهل هو زورق، أو سفينة ذات ثلاثة طوابق، وهل يكون مفعماً بالأسى، أو طافحاً بالهناء؟ ولكنها كانت إذا استيقظت في كل صباح تمنت لو يواتيها في يومها. كانت تنصت لكل صوت، وتقفز ناهضة تستجليه، ثم تشعر بصدمة لأن شيئاً لم يحدث! فإذا

جنحت شمس اليوم للمغيب، اشتد بها الأسى، وراحت تتمنى لو تعجل الغد وأقبل!
ووفد الربيع مرة أخرى، فغشيتها انقباضات من موجات الحر الأولى التي تهب حين
تزهو أشجار الكشمري، حتى إذا بدا شهر يوليو، أخذت تعد الأسابيع على اصابعها في
ارتقاب شهر أكتوبر، راجية أن يقيم «المركز دي اندفيليه» حفلاً راقصاً آخر في
(فويسار)؛ بيد أن شهر سبتمبر انصرم عن آخره دون ما خطابات أو زيارات!



واحست مرة أخرى - بعد انقضاء المرارة التي خلفتها خيبة الرجاء - بفراغ في
فؤادها. وبدأت من جديد سلسلة الأيام المتشابهة الرهيبة، التي لا تتغير، ولا تأتي بجديداً!
لقد كان يصادف حياة سواها - مهما تكن هذه الحياة خاوية مملة - حدث من الأحداث يتيح
لها فرصة الخروج عن المألوف. ولقد تؤدي مغامرة واحدة - أحياناً - إلى سلسلة لا تنتهي
من الأحداث التي تغير إطار الحياة، أما هي، فلم يكن يصادفها شيء، كما لو كانت تلك
هي إرادة الله! كان المستقبل يمتد أمامها كسرداب مظلم ينتهي بباب محكم الاغلاق!
واهملت الموسيقى، فلماذا تعزف، ومنذا الذي يسمعها؟! لم يكن ثمة ما يدعو إلى
بذل الجهد في المرن، ما دامت لن تستشعر همس النشوة يتصاعد حولها كالنسيم وهي تمس
بأناملها الرقيقة مفاتيح «البيانو» العاجية في حفل عام، وقد ارتدت ثوباً من المخمل قصير
الكمين! كذلك ابقت لوحات الرسم وقطع التطريز في الصوان، إذ ما جدواها؟ وأي نفع
منها؟ أما الحياكة، فقد أصبحت تثير أعصابها! حتى القراءة، انصرفت عنها قائلة لنفسها:
«لقد قرأت كل شيء!»

وأخذت تضع الملائق في النار لتحركها فتسهو عنها حتى تحمر، وترقب المطر وهو
يتساقط بنظرات جوفاء! ولشد ما كان يجتاحها الأسى إذا ما دق الناقوس لصلاة المساء في
يوم الأحد! كانت تصغى بذهن شارد إلى دقائق الجرس المشروخ وهي تتتابع، بينما يخطر
على سطح البنى القائم في مواجهتها قط أحنى ظهره لأشعة الشمس الشاحبة، والريح تثير
غيوماً فوق الطريق الرئيسية، وقد ينبعث من بعد نباح أحد الكلاب والناقوس مستمر
في دقاته المملة، يرسلها في ايقاع رتيب، فلا تلبث أن تتلاشى فوق الحقول.
ثم يخرج الناس من الكنيسة: النساء في أحذية لامعة، والرجال في أقمص جديدة،
يتقدمهم الأطفال يقفزون ورؤوسهم عارية، ويأوى الجميع إلى منازلهم فيما عدا خمسة رجال
أو ستة، كانوا دائماً يظنون - حتى يهبط الليل - أمام الحانة يمارسون فيها لعبة الفلين!



ثم أقبل الشتاء قارساً، وأخذ الجليد يكسو زجاج النوافذ في كل صباح، فيبدو - إذ يخرق الضوء - كالزجاج «المصنفر». وفي ذلك الجو المتجهم، كان لابد من اضاءة المصباح منذ الساعة الرابعة بعد الظهر.

وكانت «إيما» تهبط إلى الحديقة في الأيام الرائقة، فإذا الندى قد خلف فوق الكرنب وشياً من الفضة، تتخلله خيوط طويلة شفافة تمتد من كرنبة إلى أخرى، ولم تكن شقشقة العصافير تتردد، بل كان كل شيء يبدو مغلداً إلى النوم، والعرائش مكسوة بالقش، والكروم تمتد - ككعبان كبير مريض - تحت أقبية الجدران، حيث يرى الإنسان - إذا ما اقترب - الخنافس وهي تزحف! وإلى جوار السياج من ناحية غابة الصنوبر كان تمثال القس ذي القلنسوة ماضياً في قراءة كتاب الصلوات، وقد فقد قدمه اليمنى، بينما عبث الصقيع بطلاته فخلف على وجهه قرحاً بيضاً!

ولا تلبث «إيما» أن تصعد إلى مخدعها فتغلق الباب، وتبسط الوقود، حتى ترسل المدفأة حرارة تخدرها، وتبعث في نفسها مللاً تخاله ثقلاً فادحاً يجثم على صدرها، فتود لو هبطت لتأتنس بالحديث مع الخادم لولا أن يمنعهما الحياء!

وفي ساعة معينة من كل يوم، كان ناظر المدرسة ذو الطاقية الحمرية السوداء يفتح نوافذ منزله، ويمر حارس الحقل حاملاً سيفه فوق قميصه، وكانت خيل البريد تعبر الشارع - في الصباح والمساء - ثلاثة، ثلاثة، تسعى إلى البركة لترتوي. ومن وقت إلى آخر، يصلصل باب إحدى الخانات، فإذا هبت الريح، أنبعث صرير من اللافتات النحاسية المعلقة على جانبي حانوت الحلاق، الذي كانت كل زينته تتمثل في صورة الصقعة على لوح من زجاج النافذة، وتمثال نصفي من الشمع لامرأة ذات شعر زاه. وكان صاحب هذا الحانوت يندب - هو الآخر - موهبته التي تعطلت، ومستقبله الذي ضاع، ويعلم بحانوت في بلد كبير مثل (روان)، يقوم إلى جوار المسرح، مطلاً على الميناء! وكان يقضي نهاره يتمشى جيئةً وذهاباً بين دار البلدية والكنيسة، يرتقب العملاء في اكتئاب، فكلما أطلت مدام «بوفاري» ألفتة في سيره هذا كديبان في نوبته، وقد ارتدى ستره العمل التي لا يغيرها، وقلنسوة يونانية!

وكان يبرز - في أوقات العصر أحياناً - رأس رجل وراء زجاج البهو، رأس لفحته الشمس ويزينه شاربان اسودان، وقد أخذت أسايره تنفرج في تودة عن ابتسامة عريضة عذبة تكشف عن أسنان بيضاء، ثم تبدأ رقصة - على نغمات «القالس» المنبعثة من أرغن يديره الرجل - في صالون دقيق صغير، لا يتجاوز كل راقص فيه حجم الإصبع! راقصون بينهم نساء بعمائم وردية، ورجال من أبناء «التيرول» في معاطفهم التقليدية، وقردة في ملابس سوداء، ورجال في سراويل قصيرة، يدورون ويدورون بين المقاعد الوثيرة والارائك والموائد، وتنعكس حركاتهم مراراً في مرايا التصق بعضها إلى بعض بشريط من ورق مذهب. وكان عازف الأرغن يدير يد الآلة وهو يجيل بصره مئة ويسرة، ثم يتطلع إلى

النوافذ. وكان يرفع آلتَه - من وقت إلى آخر - بركبته، بعد أن تعي كنفه حمالتها الغليظة، وهو يرسل قدائف طويلة من بصاق بني اللون على أحجار الطريق، والموسيقى الخزينة المتباطئة - تارة - والمرحة السريعة - تارة أخرى - تنبعث من صندوقه خلال ستارة من «التافتا» وردية اللون، علقت بمشجب نحاسي ذي زخرف عربي، وكانت هذه الموسيقى بالذات تعزف فوق المسارح، أو في الصالونات حيث يدور الرقص على وقعها في السهرات، وتحت الثريات المتلاثلة، فكانت بمثابة أصداء تصل إلى «إيما» من المجتمعات الراقية التي تهفو إليها! وفي مخيلتها، كانت تتتابع مواكب راقصة لا تكاد تنتهي! وكان تفكيرها يقفز مع النغمات - كالراقص فوق بساط من زهور - متنقلاً من حلم إلى حلم، ومن شجن إلى شجن!

وكان الرجل - بعد أن يتلقى في قلنسوته ما يجود به أهل الشارع من صدقات - يطرح فوق الارغن غطاء قديماً من الصوف الأزرق، ثم يحمله على ظهره وينصرف في خطى ثقيلة، و«إيما» ترقبه وهو يبتعد!

وكان جلدُها يغدو أقرب ما يكون إلى النفاد والانهيار في أوقات الوجبات، في تلك القاعة الصغيرة بالطابق الأرضي، حيث الموقد الذي لا ينفك عن إرسال الدخان، والباب الذي يبعث صريراً، والجدران المنداة، والأرضية الرطبة، كان يخيل لها إذ ذاك أن مرارة الحياة بأسرها تخالط طعامها! ومع بخار الحساء، كانت تتصاعد من أعماق روحها نفثات من الالقاء والضيق! ولما كان «شارل» بطيئاً في الأكل، فقد كانت تنفق الوقت في قرض بندقة، أو تعتمد بمرفقيها على المائدة وتتسلى برسم خطوط بسن سكينها على المفروش! وأصبحت تهمل كل شيء في دارها، فلما أقبلت مدام «بوفاري» الأم إلى (توست) لتقضي بضعة أيام أثناء الصوم، راعها هذا التغير، فإن «إيما»، التي كانت فيما مضى شديدة العناية بنفسها، حريصة على أناقتها، أصبحت تمكث أياماً بطولها دون أن ترتدي ملابس زينتها، وهي تروح وتغدو في جوربين رماديين من القطن، كما أصبحت تقتصر على استخدام الشموع في إضاءة البيت، مرددة أن لابد من الاقتصاد لأنهم ليسوا من أهل الثراء! وكانت تضيف إلى هذا أنها سعيدة كل السعادة، راضية كل الرضى، وأن (توست) تروق لها وأمثال هذه العبارات الجديدة التي كانت تغلق فم حماتها عن اللوم!

على أن «إيما» اضحت - إلى جانب ذلك - تبدي عدم استعداد لتقبل إرشادات حماتها! وقد حدث مرة أن بدا لمدام «بوفاري» الأم أن تشير إلى أن من واجب المخدمين أن يعنوا بمراقبة احترام الخدم لشعائر الدين، فأجابتها «إيما» بنظرة تتقد غضباً، وابتسامة تفيض بروداً، مما حدا بالسيدة إلى أن تكف بعد ذلك عن كل احتكاك بها!

وأصبحت «إيما» حادة المزاج، كثيرة النزوات، غريبة الأطوار، فهي تطلب ألواناً معينة من الطعام ثم لا تقربها، وقد تصر يوماً على أن لا تتناول سوى اللبن الصافي، ثم تقبل في اليوم التالي على شرب عشرات من أقذاح الشاي! وكانت تقرر أحياناً عدم الخروج

فتضيق انفاسها وتفتح النوافذ ثم ترتدي ثوباً خفيفاً وكانت تعنف مع الخادم، ثم لا تلبث أن تسترضيها بالهدايا، أو ترسلها للنزهة لدى الجيران! كذلك كانت أحياناً تقذف للفقراء بجميع ما في كيسها من نقود فضية، رغم أنها لم تكن يوماً رقيقة القلب ولا سهلة التأثر بانفعالات الآخرين!



وحوالي نهاية شهر فبراير، حمل الأب «روو» - بنفسه - إلى صهره ديكاً رومياً بديعاً، رمزاً للذكرى شفائه، وأقام في (توست) ثلاثة أيام، وإذا كان «شارل» في تلك الاثناء مشغولاً بمرضاه، فقد بات على «إيما» وحدها عبء مصاحبته، فأ مضى منه أنه كان يدخل في الغرفة، ويبصق في المدفأة، ويتحدث عن الزراعة والعجول والابقار والدجاج والمجلس البلدي، حتى لقد عجبت من نفسها إذ أحست بشعور من الارتياح يداخلها حين أغلقت الباب خلفه عقب رحيله! والواقع أنها لم تعد تتخرج من أن تبدي احتقارها لشيء أو ازدراء لها لأحد وكانت تصدر عنها أحياناً آراء غريبة، فتعتقد ما يرضاه الناس، وتحبذ أموراً لا تستقيم مع الأخلاق، الأمر الذي كان يترك زوجها مذهولاً!

وكانت لا تفتأ تسائل نفسها: أيلأزمها هذا البؤس أبد الستين؟! أو ليس هناك من مخرج؟! إنها لا تقل عن أولئك اللاتي يعشن في سعادة، بل لقد رأت في (فوبيسار) دوقات أسوأ منها قواماً، وأقل رقة وتهذيباً، وأخذت تسخط على ظلم الأقدار، وتسند رأسها إلى الجدران لتبكي! كانت تحسد أولئك الذين يحظون بحياة صاخبة، ويقضون الليالي في حفلات تنكرية، وينعمون بتلك اللذات العنيفة التي يثير سماعها في نفسها مشاعر لا تدرك كنهها!

ومال لونها إلى الشحوب، واضطربت دقات قلبها، فأعطاه «شارل» دواء يهدي أعصابها، ووصف لها حمامات الكافور، ولكن محاولاته لم تزدها إلا هياجاً! وكانت في بعض الأيام تثرثر في فيض محموم، ثم لا يلبث أن يعقب هذا الانطلاق ركود مفاجيء، لا تنطق خلاله بلفظ، ولا تأتي بحركة، ولم يكن ينعشها إذ ذاك سوى زجاجة من ماء «الكولونيا» تسكبها على ذراعيها!

وإذا أخذت تشكو من (توست) بلا انقطاع، فقد حدس «شارل» أن مرضها ناشيء عن سبب محلي، ورسخ في نفسه هذا الرأي، حتى أنه أخذ يفكر جدياً في أن يبحث عن بلد آخر يقيم فيه.

ثم عمدت إلى شرب الخل لتزداد نحافة، فأصيبت بسعال بسيط بناف، وفقدت شهيتها إلى الطعام تماماً! وكان يعز على «شارل» أن يرحل عن (توست) بعد أن أقام بها أربع سنوات توطد خلالها مركزه، ولكنه مع ذلك لم يلبث أن خضع لاحكام الضرورة، عندما

صحابها إلى أستاذه القديم في (روان)، فتبين - بعد أن فحصها - أنها تعاني من مرض عصبي، لابد لعلاجها من أن تبدل الجو الذي تعيش فيه!

وأخذ «شارل» يتحرى هنا وهناك، حتى علم أن في مقاطعة (نيوشاتل) قرية كبيرة تسمى (أيونفيل - الدير) غادرها طبيبها - وكان من البولنديين اللاجئين - منذ أسبوع، فكتب إلى صيدلي القرية يسأله عن عدد سكانها، وعن المسافة التي تفصلها عن أقرب قرية بها طبيب، وعن الدخل الذي كان يصيبه سلفه في العام.. الخ. ووجد في الرد - حين جاءه - ما أرضاه، فقرر أن ينتقل إلى تلك القرية في الربيع التالي، إذا ظلت صحة «إيما» دون ما تحسن!

وفيما كانت «إيما» تستعد للسفر، أصيب أحد أصابعها بوخزة من سلك باقة زواجها، وهي ترتب أحد الأدراج ذات يوم. كانت براعم البرتقال - في الباقة - قد اصفرت لفرط تراكم الغبار عليها، وأخذت الأشربة الحريرية ذات الخواف الفضية تنسل، ولم تحجم «إيما» عن إلقاء الباقة في نار المدفأة، فإذا بها تشتعل بأسرع مما يشتعل القش الجاف، وما لبثت النيران أن التهمتها، فراحت تتقلص ببطء وقد تفجرت حبيبات الورق المقوى، والتوت الاسلاك، وانصهرت الأشربة المعدنية، وتيبست أوراق الزهر الصناعي، ثم أخذت اشلاؤها تتراقص فوق اللهب كالفراش الأسود، وما لبثت أن تطايرت خلال المدفأة!

وعندما غادر الزوجان (توست) في شهر مارس، كانت مدام «بوفاري» حاملاً

القسم الثاني

الفصل الأول

أخذت قرية (ايونفيل - الدير) هذا الاسم عن دير قديم للرهبان الكابوشيين، لم يتبق منه حتى الأطلال. وتبعد تلك القرية ثمانية فراسخ عن (روان)، وتقع بين طريق (أبفيل) وطريق (بوفيه)، عند نهاية واد يرويه نهر (الريبول)، وهو فرع صغير يصب في نهر (الانديل) بعد أن يدير ثلاث طواحين قامت بالقرب من مصبه. وبه بعض السمك من نوع «البلطي» يصيده الغلمان بالشص في أيام الأحاد.

فإذا ترك المرء الطريق الرئيسية عند (بواسير)، مضى في طريق مستوية حتى يصل إلى أعلى هضبة (لو)، حيث يشرف على الوادي، ويشق هذا الوادي نهر يشطره إلى قسمين مختلفي المعالم، فالشطر الممتد على الضفة اليسرى كله مراعى، في حين أن الشطر المترامي على الضفة اليمنى كله حقول، وتمتد المراعى تحت سياج من التلال المنخفضة حتى تتصل في أقصاها بمراعى مقاطعة (بريد)، بينما يصعد السهل في رفق من الناحية الشرقية، ثم يأخذ في الاتساع. وتمتد على مرامي البصر حقول القمح الشقراء، والماء يجري في خط أبيض يفصل بين المروج من ناحية، والأرض المزروعة من ناحية أخرى. وكان المنظر - في مجموعة - عباءة كبيرة بسطت أمامك ياقتها التي صنعت من مخمل أخضر حف بشريط من فضة.

وعند نهاية الأفق، تبدو للرائي أشجار البلوط في غابة (ارجي)، ومرتفعات هضبة (سان جان)، تتخللها - في خطوط تمتد من أعلى إلى أسفل - مسارب طويلة حمراء غير متساوية من آثار المطر. أما اللون الأحمر الذي يميز هذه الخطوط الدقيقة خلال لون الجبل الرمادي، فناشئ عن توفر مادة الحديد، التي تفيض بها العيون العديدة المتناثرة في المنطقة المحيطة.

هناك تقع الحدود الفاصلة بين (نورمانديا) و(بيكارديا) و(ليل دي فرانس)، مقاطعة تضم سكاناً من عناصر شتى، ولا تمتاز لغتها بلهجة خاصة، كما لا تمتاز مناظرها بطابع خاص. وهناك أيضاً تصنع اردأ أنواع الجبن الذي يصنع في مقاطعة (نيوشاتل) بأسرها فضلاً عن أن الزراعة في هذه المنطقة تتطلب نفقات باهظة، لأنها تحتاج إلى كثير من الأسمدة لتخصب تلك التربة الهشة المليئة بالرمل والحصى.

ولم يكن في هذه المنطقة - حتى سنة ١٨٣٥ - طريق ممد يفضي إلى (ايونفيل). بيد أن طريقاً ريفياً فرعياً انشئ في ذلك العام، فوصل بين طريقي (أبفيل) و(أميان)، وأصبحت تجري عليه أحياناً عربات النقل الذاهبة من (روان) إلى (الفلاتندر).

على أن (ايونفيل - الدير) ظلت على حالها، بالرغم من الإصلاحات الجديدة. فبدلاً من أن ينشط أهلها لتحسين الزراعة بها، ظلوا متشبثين بالمراعى علي انخفاض دخلها

وقيمتها. وأخذت القرية الكسول تنفصل بالطبيعة عن السهل، وتتبع في اتساعها مجرى النهر، حتى أن الرائي يلمحها عن بعد راقدة على طول النهر، كقطيع من البقر يقيل على حافة الماء!

وفي نهاية جسر مقام على النهر - في أسفل الهضبة - يمتد طريق تحف بجانيبه أشجار الحور الصغيرة، يفضي بك مباشرة إلى طليعة منازل القرية، وهي بيوت تحيط بها أسوار، وقد أقيمت وسط ساحات تناثرت فيها المعاصر ومخازن العربات ومعامل التقطير، تحت الأشجار المتشابكة التي تستند إليها سلالم متنقلة، أو تعلق بأغصانها (الخطاطيف) والمناجل.

وكانت الأسقف المصنوعة من القش تشبه طاقيات الفراء المنزلة على عيون لابسها، إذ كانت تكاد تخفي ثلث النوافذ المنخفضة، التي كان زجاجها السميك المحدودب يتجمع عند وسطه في عقدة كقاع الزجاجية. وعلى الجدران المشيدة من الجص، والتي تمتد بين زواياها المتقابلة أعمدة خشبية سوداء، كنت ترى أحياناً شجرة من شجرات الكمثرى الهزيلة، وعند الباب الخارجي لكل دار، كان ثمة حاجز به باب منخفض ليصد الدجاج الذي يتسلل إلى عتبة البيت لالتقاط فتات الخبز المنقوع في نبيذ التفاح، وكلما تقدمت في السير نحو القرية، صغرت أفنية الدور، وتقاربت المباني واختفت الحواجز بينها، وقد ترى هنا حزمة من نبات «السرخس» تهتز في نهاية عصا مكنسة تحت إحدى النوافذ، وهناك حانوت بيطار، أو محل نجار سدت الطريق أمامه عربتان أو ثلاث عربات جديدة، وعبر مسافة من الفضاء يلوح بيت أبيض تمتد أمامه رقعة معشوشبة يزينها تمثال «كيوبيد» وإحدى أصابعه على شفثيه، وإلى جانبي قمة الدرجات الأمامية أنبتان من النحاس، وعلى الباب تلمع لافتتان تمان عن أن هذا بيت موثق العقود، أجمل بيوت البلدة!

وعلى الجانب الآخر من الشارع، وعلى بعد عشرين خطوة، تقوم الكنيسة عند مدخل الميدان، تحيط بها مقبرة صغيرة، يحتضنها سياج في ارتفاع صدر الإنسان، وقد اكتظ بالقبور حتى أصبحت الأحجار القديمة في مستوى الأرض، تؤولف فيما بينها رصيفاً طويلاً، امتدت الحشائش خلاله تقسمه إلى مربعات، وكان مبنى الكنيسة قد جدد في عهد شارل العاشر، فأخذ سقفها الخشبي يبلى عند قمته، وفي المكان المخصص للأرغن - فوق الباب - أقيمت شرفة للرجال، تؤدي إليها سلم حلزونية تهتز تحت وقع الأقدام في نعالها الخشبية!

وكان الضوء الذي ينفذ خلال الزجاج غير الملون يسقط في انكسارات على المقاعد المصفوفة بطول الجدران التي زينت - هنا وهناك - بحصائر من القش كتب عليها بحروف ضخمة «مقعد السيد فلان». وعلى مسافة قليلة، يضيق دهليز الكنيسة، ثم يقوم كرسي الاعتراف إلى أحد الجانبين، وإلى الجانب الآخر تمثال للعداء في ثوب من الحرير، وعلى رأسها نقاب من التل مرصع بنجوم فضية، وقد طليت وجنتاها باللون الأحمر كما لو كانت وثناً من أوثان جزر «سندوتش»! وأخيراً، تطل على المذبح المرتفع صورة «الأسرة المقدسة

- مهداة من وزير الداخلية، بين أربعة شمعانات. أما مقاعد المرتلين المصنوعة من خشب الصنوبر فقد ظلت بلا طلاء.



وكانت السوق - أو بالأحرى السقف المصنوع من الآجر والمقام على عشرين عاموداً تقريباً - تشغل حوالي نصف الميدان العام في «ايونفيل» أما دار البلدية - التي شيدت وفقاً لرسم أعده مهندس من باريس - فكانت تشبه معبداً أغريقياً، وترسم مع حائوت الصيدلي شكل زاوية. وكانت في الطابق الأرضي ثلاثة أعمدة يونانية، وفي الطابق الأول بهو نصف دائري تعلوه قبة يشغلها قنّال «ديك الغال»، وقد اعتمد على ساق استقرت على وثيقة الدستور، بينما أمسك بقدمه الأخرى ميزان العدالة!

على أن أكثر ما كان يسترعي الانتباه، هو صيدلية السيد «هوميه» التي تقع في مواجهة فندق «الأسد الذهبي»، لا سيما في المساء حين يضاء المصباح فيرسل أشعته خلال القوارير الكبيرة الحمراء والخضراء، ثم يبعث عبر الشارع جدولين من الضوء الملون. وخلال هذا الضوء كان طيف الصيدلي وهو متكئ إلى مكتبه يبدو كما لو كان غارقاً في أضواء الصواريخ! وكانت داره مكسوة باعلاتات كتبت بخط اليد أو بالحروف الكبيرة بحروف الطباعة: «مياه فيشي وستنزر، وباريج، ومنقيات الدم، وعقار راسبيل، والمزيج العربي، و«باستيليا» دراسيه، ولبسم رينيو، وأرططة، وكماادات، وشيكولاته».. الخ. وفي مؤخرة الحائوت، وخلف النضد الذي حمل الميزان الكبير كانت كلمة «المعمل» تبدو على باب زجاجي تكرر على وسطه اسم «هوميه» بحروف ذهبية، فوق رقعة سوداء.

ولم يكن ثمة ما يشاهد في «ايونفيل» عدا ذلك، فإن الشارع الأوحـد - الذي لم يكن طوله يتجاوز مرمى المقذوف الناري والذي تقوم الحوانيت على جانبيه - كان لا يلبث أن ينتهي عند منعطف الطريق الزراعي، فإذا خلفه المرء وانحرف إلى اليمين في محاذاة منحدر هضبة (سان جان)، وصل إلى المقابر. وكان القوم، عندما تفشت «الكوليرا»، قد هدموا جانباً من جدارها، وضمو إليها بضعة أفدنة لتوسيعها، بيد أن القطعة الجديدة بقيت شبه خالية، وظلت القبور تتكدس على مقربة من الباب، كما كانت الحال من قبل. وقد استغل الحارس - الذي كان في الوقت ذاته شماساً، بما يمكنه من مضاعفة الانفاذة من موتى الابرشية - بقاء هذه الأرض على حالها، فراح يستنبت البطاطس فيها. بيد أن حقله الصغير أخذ يضيق سنة بعد أخرى، إلى أن تفشى الوباء، فلم يعد يدرى: أبيتج لكثرة المرضى، أم يحزن لامتداد المقابر؟ ولقد قال له القس يوماً: «إنك تعيش على الموتى يا لستيبودوا»، فحملته هذه الملاحظة الكثيبة على التفكير، وصدته زمناً عن حقله، ولكنه ما زال حتى اليوم - (أي حتى كتابة هذه القصة) - يواصل زراعة بطاطسه، بل ويزعم في صفاقة أنها تنمو من تلقاء ذاتها!

ولم يتغير شيء في «ايونفيل» منذ الأحداث التي سنرويها، فما زال العلم ذو الألوان الثلاثة، والمصنوع من الصفيح، يدور فوق الكنيسة، وما زالت ترفرف على متجر الأقمشة رايتان من البقعة، والأجنة التي يحتفظ بها الكيميائي محتطة كحزم الصوفان الأبيض آخذة في التحلل يوماً بعد يوم في كحولها المعكراً وما زال قنثال الأسد الذهبي الحائل اللون يجثم على الباب الأمامي للفندق، يطالع المارة بلبده الشبيه بفروة الكلب؛



وفي المساء الذي كان مقدراً أن يصل فيه «بوفاري» وزوجته إلى «ايونفيل»، كانت الأرملة «لوفرانسا» - صاحبة الفندق - كثيرة المشاغل إلى حد أن العرق أخذ ينضح منها في قطرات كبيرة وهي تروح وتغدو بأنية المطبخ؛ كان اليوم التالي هو يوم السوق، ولا بد من أن تقطع اللحم مقدماً، وتنظف الدجاج، وتعد الحساء والقهوة. كما كان عليها - فوق ذلك - أن تجهز للنزلاء غداً هم، وأن تعد للطبيب وزوجته وخادمهما العشاء. وكانت تتردد في قاعة «البلياردو» ضحكات صاخبة. وفي غرفة الجلوس، كان ثمة ثلاثة من الطحانين يصيحون في طلب الخمر؛ وكانت النار تتأجج في خشب الموقد، والآنبة النحاسية تنثر فوقها بعد أن بدأت محتوياتهم في الغليان. وعلى مائدة المطبخ الطويلة، وبين قطع اللحم الكبيرة النيئة، تكدست أكوام من الأطباق كانت تهتز باهتزاز اللوحة التي كانت «السبانخ» تقطع فوقها، ومن فناء المبنى كانت تنبعث صيحات الدجاج الذي كانت الخادم تطارده لتمسك به وتدق أعناقها؛

ووقف بجوار المدفأة - يدفيء ظهره - رجل على وجهه بقايا طفيفة من آثار الجدري، وقد ارتدى خفين أخضرين وقلنسوة من المخمل ذات «شرابات» ذهبية، ولم يكن وجهه ينم عن شيء اللهم إلا الرضى عن نفسه، وقد بدا أنه يطمئن إلى الحياة طمأنينة طائر الشرشر الصдах حين يدس رأسه بين قضبان قفصه. كان ذلك الرجل هو: الصيدلي؛

وعلى حين غرة، صاحت السيدة صاحبة الفندق: «ارقميز.. شقي بعض الخشب، واملائي الدوارق، واحضري بعض الخمر، وايقظي حواسك. أه، لشد ما أنا حائرة في اختيار حلوى أقدمها بعد العشاء للضيوف الذين ترتقبهم يا مسيو هوميه؛ يا للسماء الرحيم؛ ها هم الحمالون يستأنفون ضوضاءهم في غرفة «البلياردو» بعد أن تركوا عربتهم أمام الباب؛ إن «العصفورة» - (اسم العربية) - قد تصطدم بها إذا ما جاءت، فادعوا بوليت لتقودها إلى الحظيرة، تصور يا مسيو هوميه إنهم لعبوا نحو خمسة عشر دوراً منذ الصباح، وشربوا ثمانين قنينات من نبيذ التفاح؛ إنهم يوشكون أن يمزقوا كساء منضدة البلياردوا» وأخذت تتأملهم عن كثب، بينما أجاب السيد هوميه: «لن يكون الضرر كبيراً، فإنك مسوقة حتماً إلى شراء غيرها»؛

فتهتفت الارملة مأخوذة: «منضدة أخرى للبلياردو؟»

- أجل، إذ أن هذه أوشكت أن تتداعى يا مدام «لوفرانسوا». إنني أكرر ما قلت من قبل، فإنك تؤذين نفسك أبلغ ابذاء، ثم إن اللاعبين يطلبون الآن جيوباً ضيقة وعصياً ثقيلة للبلياردو، لأن الهواة لم يعودوا يقبلون على البلياردو الفرنسي الآن. لقد تغير كل شيء! يجب أن يجاري المرء الزمن! ألا انظري إلى تلميذه».

واحمر وجه صاحبة المنزل استياء، بينما استطرد الصيدلي: لك أن تقولي فيه ما شئت، ولكن «بليارده» خير من «بلياردك»، ولو أن أحداً فكر في أن ينظم مباراة من أجل اغاثة بولندا، أو ضحايا الفيضان في ليون! «

فقطعت عليه صاحبة المنزل حديثه قائلة، وهي تهز كتفيها السمينتين: «إن الصعاليك أمثاله لا يزعجونني، على رسلك يا مسيو هومييه! لسوف يفد الناس على فندق «الأسد الذهبي» طالما ظل على قيد الوجود، ليس لدينا ما يدعو إلى القلق، في حين أنك لن تلبث أن ترى فندق المقهى الفرنسي، يوماً مغلقاً، وقد سمرت أبوابه...! واستأنفت وكأنها تحدث نفسها: «أغير «بلياردي»! المائدة التي أعتمد عليها في طي الغسيل، والتي هيأت فوقها فراشاً لستة نزلاء في موسم الصيد! ولكن ذلك المتسكع «هيفير» لم يصل بعد...».

- أوترجئني العشاء لنزلائك حتى وصوله؟

- وهل املك هذا؟ ماذا يفعل السيد بينيه؟ ما أن تشرح الساعة في إعلان السادسة حتى تراه مقبلاً، فليس له مثيل تحت الشمس في دقة المواعيد! ولا بد من أن يكون مقعده معداً في قاعة الجلوس الصغيرة، فإنه يؤثر الموت على أن يتناول العشاء في أي مكان آخر، وهو حريص على الدقة، شديد العناية باختيار شرابه! فهو ليس مثل السيد ليون الذي يفد أحياناً في السابعة، بل وفي السابعة والنصف، ولا يكاد يأبه لما يقدم إليه من طعام، ما أظرفه! إنه ما تلفظ مطلقاً بكلمة نابية!

- لا أشك في أنك تدركين أن ثمة فارقاً شاسعاً بين الرجل المثقف وبين جندي متقاعد أصبح يعمل محصلاً!



ودقت الساعة مؤذنة بالسادسة، فدخل «بينيه» كان يرتدي «ردنحوت» أزرق يستوي على جسده الناحل في استقامة، وقلنسوة جلدية ثبتت إلى رأسه برباط، وقد بدا تحت حافتها المرفوعة جبين عريض، خلفت كثرة ارتداء الخوذات أثراً عليه! وكان يرتدي كذلك صداراً أسود وياقة من القرو وسروالاً رمادياً، ثم حذاءين بالغي النظافة، ينتقل بهما طوال العام، وقد برز في جانبيهما تنوعان يشيان بموقعي أصبعي قدميه الكبيرتين! ولم تكن ثمة

شعرة واحدة في سالفه تشد عن النظام! وقد كانت هذه السوالف تستطيل إلى فكيه على غط العشب الذي يحيط بالحديقة، محتضنة وجهه الجامد الطويل، ذي العينين الصغيرتين والأنف المعقوف، وكان بارعاً في جميع الألعاب، ماهراً في الصيد، ذا خط جميل، كما كان يملك مخرطة يصنع عليها حلقات مشاجب المناشف التي كان يحتفظ بها في غرفة الفنان وأنانية الثري، الحديث الثراء، حتى ملأ بها بيته!

وعم شطر قاعة الجلوس الصغيرة، ولكن.. كان لابد من اخراج الطحانين الثلاثة منها أولاً! وظل بينيه صامتاً في مقعده القريب من المدفأة طيلة الوقت الذي استغرقه إعداد المائدة، حتى إذا تم ذلك، أغلق الباب وخلع قلنسوته جرياً على عادته!

وما أن خلا الصيدلي إلى صاحبة النزّل ثانية، حتى بادر قائلاً: «ما كان لقاء التحية لينقص شيئاً من لسانه!».

فأجابته: «إنه لا يتكلم قط أكثر مما تدعو إليه الضرورة. لقد كان لدينا في الأسبوع الماضي نزيلان من تجار الأقمشة، وكانا مرحين، ظلا يرويان لنا في المساء من الفكاهات ما جعلني أبكي من كثرة الضحك، بينما كان هو قابلاً كالسمكة، فلم ينبس قط ببنت شفة!»

قال الصيدلي: «أجل، لا خيال، ولا فكاهة، ولا شيء مما يكون رجل المجتمع».

فقالت محتجة: «ومع ذلك، فإنهم يقولون إن له أصدقاء ومجالس!»

- مجالس! مجالس! من المحتمل أن تكون على شاكلته!

وما لبث أن استطرد قائلاً: «إنني أدرك أن التاجر ذا الصلات الواسعة، والقنصل، والطبيب والصيدلي، يجدون من أعمالهم ما يشغلهم ويلهمهم، حتى ليبدو الواحد منهم غريب الاطوار، أو جافاً. إن التاريخ حافل بقصص هؤلاء، ولكن المهم أن عذرهم في هذا راجع إلى أن لديهم ما يشغل تفكيرهم. فأنا مثلاً كثيراً ما أبحث عن قلمي على المكتب لأدون تذكرة، فلا ألبث أن أتبين في النهاية أنني وضعت خلف أذني!»

وفي تلك اللحظة، سارت مدام «لوفرانسوا» إلى الباب لترى إذا كانت العربة المرتقبة -«العصفورة»- مقبلة ولكنها اجفلت إذ ولج المطبخ فجأة رجل في ثياب سوداء، وكان في وسع المرء أن يتبين على ضوء آخر فلول الغسق، أن له وجهاً متورداً، وجسماً رياضياً.

وسألته ربة المنزل وهي تتناول من فوق المدفأة أحد الشمعدانات النحاسية التي كانت مصفوفة وقد ثبتت فيها الشموع: «أية خدمة أملك أن أؤديها لك يا سيدي القس، هل لك في تناول شراب ما؟ جرعة من نبيذ «كاسي» الأسود؟ أو زجاجة من النبيذ الأحمر؟»

وهز رجل الدين رأسه في أدب بالغ، وقال إنه جاء من أجل مظلمته التي نسيها منذ أيام في دير «ايرفو». وبعد أن سأل مدام «لوفرانسوا» أن تعمل على إرسالها إليه في دار «الخوري» في المساء، انصرف إلى الكنيسة التي كان ناقوسها يدق مؤذناً بصلاة المساء.

وما أن اطعمان الصيدلي إلى أنه لم يعد يسمع وقع قدمي القس في الميدان، حتى

أبدى رأيه في مسلكه قوصفه بأنه ناب! فقد بدا رفضه - في رأي الصيدلي - أبغض ألوان الرياء، إذ أن كل القساوسة يحسسون الخمر في الخفاء، ويحاولون أن يستعيدوا الأيام التي كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها!

وانبرت صاحبة النزول تدافع عن القس قائلة: «إنه رغم قولك يستطيع أن يطوي أربعة من أمثالك على ركبتيه! لقد ساعد رجالنا على تخزين العشب الجاف في العام الماضي، فبلغ من قوته أنه كان يحمل ستاً من الخزم في آن واحد!» فهتف الصيدلي: «مرحى! أرسلوا بناكم إذن ليعترفن أمام رجال من هذا الصنف! لو أنني كنت في مركز الحكم لأمرت بأن يفصد دم القساوسة مرة في كل شهر. أجل يا مدام لوفرانسوا، في كل شهر، وفصداً جيداً، في سبيل مصلحة البوليس والأخلاق!!»

- كف عن هذا يا مسيو هوميه، فأنت كافر، لا دين لك!

فأجاب الصيدلي: «بل لي دين، ديني الخاص، وإن لدي من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء الآخرين جميعاً، رغم نفاقهم ودجلهم. إنني على العكس أعبد الله، أو من بالكائن الأعلى، أو من بوجود خالق، كيفما يكن كنهه، ومهما يكن هذا الخالق الذي أوجدنا هنا لنؤدي واجباتنا كمواطنين وأرياب أسرات، ولكني في غير حاجة لأن أذهب إلى الكنيسة لأقبل أطباقاً فضية، ولأسمن من مالي رجالاً لا يصلحون لشيء ولا نفع منهم، ويحظون بمعيشة أنعم مما نحظى! إن المرء ليستطيع أن يهتدي إلى الله في غابة، أو في حقل، أو حتى بمجرد تأمل قبة الأثير، كما كان القدماء يفعلون! إن إلهي هو إله سقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه! إنني من أنصار الإيمان الذي دعا إليه «قس سافوا»^(١) ومن المؤمنين بمبادئ ثورة سنة ١٧٨٩ الخالدة! ولا أستطيع أن أعبد إلهاً مزعوماً، يسير في حديثه وعصاه في يده، ويودع أصدقاءه أجواف الحيتان، ويموت صارخاً، ثم يبعث بعد ثلاثة أيام! هذه جميعاً - في حد ذاتها - سخافات، تناقض تماماً كل قوانين الطبيعة، وفي هذا ما يوضح لنا - ضمناً - كيف أن القسس ظلوا دائماً متشبثين بجهل صلد لا يلين، يحاولون أن يدفنوا البشر معهم في جوفه!!»

وأمسك عن الكلام، وأجال بصره فيما حوله وكأنه يتأمل جمهوراً يحيط به فقد ظن الصيدلي في انفعاله أنه في قاعة المجلس البلدي! على أن ربة النزول لم تكن تنصت إليه، بل أصاحت بسمعها تحاول أن تستبين صوتاً أنبعث عن بعد، اختلطت فيه ضوضاء العجلات بسنابك حديدية تضرب الأرض، وما لبثت (العصفورة) أن وقفت أمام الباب أخيراً!



(١) يشير إلى فصل في كتاب «أميل» لجان جاك روسو، وفيه يقود القس تلميذه اليافع إلى أعلى جبال «سافوا» ليحدثه عن الله والإيمان، في غمرة من جلال الطبيعة.

كانت (العصفورة) تتكون من صندوق أصفر يقوم على عجلتين كبيرتين يصل محيطاهما إلى مستوى سقفه، فيحولان بين المسافرين ورؤية الطريق، ويلطخان أكتافهم بالقاذورات! وكان زجاج نوافذها الضيقة يهتز في إطاراته إذا ما أغلقت أبوابها، فضلاً عن أنها كانت ملطخة - هنا وهناك - ببقع من الوحل استقرت على طبقة من غبار قديم لم تستطع أمطار العواصف أن تزيلها تماماً وكان يجرها ثلاثة جياد، ربط أولها أمام زميليه، وعند انحدارها من المرتفعات، كان قاعها يمس الأرض فيرتج ارتجاجاً شديداً!

وأقبل على الميدان عدد من أهالي (ايونفيل)، أخذوا يتكلمون معاً في آن واحد: يتسائلون عن الأخبار، ويستفسرون عن سلال الهدايا. ولم يكن (هيفير) - السائق - يدري أيهم يجيب أولاً، فقد كان هو المنوط بقضاء حوائج القرية من (روان)، وكان يطوف بالخوانيت يجلب لفات الجلد لصانع الأحذية، والحديد للبيطار، وبرميل (الرنجة) لمخدومته - ربة المنزل - والقبعات من صانعها، والشعور المستعارة من الحلاق. وكان يوزع الخزم على طول الطريق وهو عائد، فيقف على مقعده ويقذف بها من فوق الاسوار صائحاً بملء فيه، والحيل ماضية!

وكان تأخره في العودة راجعاً إلى حادث بسيط، فقد هربت كلبة مدام (بوفاري) في الحقول، فقضوا ربع الساعة يصفرون لها بل أن (هيفير) رجع مسافة نصف الفرسخ أملاً في العثور عليها، متروهاً في كل لحظة أنه قد لمحها! وبكت «إيما»، وسخطت، واتهمت (شارل) بأنه كان السبب. وقد حاول السيد (البريه) - تاجر الأقمشة الذي كان يرافقهما في العربة - أن يواسيها، فضرب لها أمثلة بكلاب ضاعت ثم (اهتدت) إلى أصحابها بعد سنوات طويلة! بل لقد روى لها ما سمعه عن كلب عاد إلى باريس من القسطنطينية! وعن كلب آخر قطع خمسين ميلاً في خط مستقيم، وعبر أربعة أنهار سباحة وقمادى فذكر لها أن أباه كان يملك كلباً فقدته اثني عشر عاماً، ثم فوجئ به يقفز على ظهره ذات مساء، وهو في طريقه لتناول العشاء في المدينة!

الفصل الثاني

كانت «إيما» أول من هبط من العربة، وتبعتها «فيليسيتيه»، فالسيد «ليريه»، فمرسعة. واضطروا إلى أن يوقظوا «شارل» الذي كان قد استسلم في ركنه لنوم عميق، مذ أرخى الليل سدوله!

وقدم «هوميه» نفسه، مزجياً احتراماته للسيدة، وتحياته للسيد، معرباً عن شدة اغتيابه إذ اتيج له أن يؤدي لهما بعض الخدمات. وأضاف في لهجة الصديق أنه قد تجرأ فدعا نفسه لتناول العشاء معهما، إذ أن زوجته غائبة عن البلدة!

وعندما دلفت مدام «بوفاري» إلى المطبخ، اقتربت من الموقد، وامسكت بشويها عند الركبتين بأطراف أناملها فرفعته حتى حاذى ذيله عرقوبها، ثم مدت قدميها بحذاءيهما الأسودين نحو اللهب، فوق «الفخدة» التي كانت تنز، فإذا اللهب يضئ كل كيانهما، ويتغلغل نوره في نسيج ثوبها، ومسام جلدها البيض الأملس، بل وفي جفون عينيها اللتين أخذت تغمضهما من وقت لآخر! ودفعت الريح المتسللة من الباب المنفرج وهجاً دافئاً هب عليها، وكان ثمة شاب أشقر يرقبها في صمت من الجانب الآخر للمدقاة.

كان السيد «ليون دييوي» - الشاب الأشقر - ثاني النزلاء الدائمين في «الأسد الذهبي»، وقد اعتاد أن يؤخر تناول عشاءه في كل مساء على أمل أن ينزل بالفندق مسافر يستطيع أن يجازيه الحديث، إذ اشتد به السأم في «ايونفيل» حيث كان يعمل كاتباً لدى الأستاذ «جرومان» موثق العقود. غير أنه لم يكن يملك - إذا ما فرغ من عمله - سوى أن يعود إلى الفندق، ومن ثم يضطر إلى مصاحبة «بينييه» طوال العشاء، لهذا رحب مغتبطاً في تلك الليلة باقتراح ربة الفندق أن يتناول عشاء في صحبة القادمين في القاعة الكبرى، حيث افتتحت مدام «لوفرنسوا» في أعداد المائدة لأربعة أشخاص!

وأبدى «هوميه» رجاءه في أن يسمحوا له بأن يظل مرتدياً طاقيته الأفريقية خشية «الانفلونزا»، ثم التفت إلى جارته قائلاً: «لا ريب في أن السيدة متعبة فإن «عصفورتنا» ترج المرء رجاً».

وأجابت «إيما»: «هذا حق، بيد أن السفر يلد لي، فأنا أحب التنقل من مكان لآخر!» وتنهَّد كاتب الموثق قائلاً: «من أبشع ما يسقم النفس أن يظل المرء مرتبطاً بمكان واحد!» فسأله «شارل»: «وماذا كنت تفعل لو أنك كنت مثلي مضطراً إلى امتطاء جوادك دائماً؟» فأجاب ليون وهو يتجه بحديثه إلى مدام «بوفاري»: «ولكني لا أرى شيئاً أمتع من هذا، لو كان في إمكان المرء...».

وهنا قال الصيدلي: «على أن ممارسة الطب ليست بالغة المشقة في هذا الجزء من

العالم، إذ أن طرقنا تسمح باستخدام العربات، ولما كان المزارعون في حالة من اليسر، فإنهم يدفعون بسخاء عادة! ومن الناحية الطبية لدينا - فضلاً عن الحالات العادية كالتهاب الأعصاب والنزلات الشعبية والأمراض الناشئة عن الصفراء... الخ - بعض الحميات المتقطعة التي تظهر من وقت إلى آخر في موسم الحصاد. وبالإجمال ليس لدينا من الحالات الخطرة سوى القليل، وليس ثمة أحوال خاصة تستدعي الانتباه إلى كثرة الأمراض الناشئة عن غدد الرقبة. وهي كثرة مرجعها بلا شك إلى سوء الحالة الصحية في منازل الفلاحين. آه، لسوف تضطر يا سيد «بوفاري» إلى مكافحة كثير من المعتقدات الفاسدة والعادات المتأصلة التي تصطدم بها مجهوداتك العلمية في كل يوم فهم مازالوا يلجأون إلى الرقى والتائم، وإلى القس، بدلاً من أن يسلكوا الطريق الصحيحة فيأتوا إلى الطبيب أو الصيدلي! على أن الطقس ليس رديئاً عندنا في الحق، حتى أنك لتجد في المقاطعة أفراداً في الحلقة التاسعة من أعمارهم! وقد خرجت من ملاحظاتي بأن درجة الحرارة تهبط في الشتاء إلى الرابعة المئوية. أما في موسم الحر فترتفع إلى خمس وعشرين أو ثلاثين درجة مئوية على الأكثر، أي ما لا يتجاوز أربعاً وعشرين درجة بميزان «ريومير»، أو - بعبارة أخرى - ٥٤ درجة بميزان «فهرنهايت» الانجليزي! والواقع أننا في مأمن من رياح الشمال - من ناحية - بفضل غابة (ارجي)، ومن الرياح الغربية - من الناحية الأخرى - بفضل هضبة (سان جان). وفضلاً عن هذا، هناك الحرارة الناشئة من أبخرة الماء المتصاعدة من النهر، ومن الماشية الكثيرة التي تنطلق في المراعي وترسل - كما تعلم - الكثير من النواشدر - (الأونيا) - أو بالأحرى النيتروجين والهيدروجين والأكسجين... لا، بل النيتروجين والهيدروجين فقط، ومن ثم تمتص رطوبة الأرض، وتخلط جميع هذه العناصر الغازية معاً، وتوحدها في حزمة - إذا صح هذا القول - ثم تتحد مع الكهرباء المنتشرة في الفضاء إذا ما وجدت، فلا تلبث بعض الزمن أن تولد أبخرة عفنة، كما يحدث في البلاد الحارة! هذه الحرارة المتولدة كما ذكرت تجد تلطيفاً تاماً من حيث تنبعث، أو بالأحرى من حيث ينبغي أن تنبعث - في أي مكان من الناحية الجنوبية - بفضل الرياح الجنوبية الشرقية التي تصل إلينا باردة - بعد أن ترطب نفسها بالمرور فوق (السين) - وكأنها نسيمات من روسيا!

وفي ذلك الوقت كانت «إيما» تواصل حديثها مع الشاب قائلة: «... على أنك ولا بد تجد مجالاً للنزهة، في البقاع المجاورة على الأقل».

وأجاب الشاب: «إنها جد قليلة. فهناك مكان يسمونه (لاباتير) - أي المراعي - على قمة التل عند حافة الغابة، وإليه أسعى أحياناً، في أيام الأحاد، فأمكث في صحبة كتاب حتى أشهد مغيب الشمس».

قالت معقبة: «ما أحسب أن هناك ما هو أبعد من غروب الشمس، وخاصة عند شاطئ البحر».

فهتف مسيو ليون: «آه، إنني أعبد البحر»

- ثم، ألا ترى أن الذهن يكون أكثر تحملاً في الفضاء الذي لا حد له، والذي يسمو تأمله بالنفس، ويوحى بأفكار عن اللانهاية، والخيال المثالي؟

- كذلك حال المناظر الجبلية، فان لي ابن عم سافر إلى سويسرا في العام الماضي، وحين عاد قال لي إن المرء لا يستطيع أن يتصور ما في البحيرات من شاعرية، وما في مساقط المياه من سحر، ولا للأنهار من أثر هائل في النفس. فالمرء يرى هناك أشجار الصنوبر التي لا يتصور العقل حجمها، عبر الممرات التي حفرتها السيول، والأكواخ معلقة على حواف الوهاد، وتحت قدمي المرء بألف قدم، تبدو - إذا ما انقشعت السحب - وديان فسيحة. مثل هذه المناظر ولا ريب تحرك المشاعر، وتبعث الشوق في النفس إلى العبادة والتأملات السامية، ومن ثم لم أعد اعجب من ذلك الموسيقي المبرز الذي اعتاد أن يوقظ إلهامه بأن يجلس لوضع موسيقاه أمام منظر رائع يسيطر على المشاعر!

فسألته: «هل تعزف شيئاً من الموسيقى؟»

- لا، ولكنني جد مشغوف بها.

وقطع «هوميه» الحديث إذ قال وهو ينحني على طبقه: «آه! لا تلقي إليه سمعاً يا مدام «بوفاري» هذا مجرد تواضع كيف يا عزيزي وقد كنت منذ أيام تغني «الملاك الحارس» في إبداع يملك الحواس؟ لقد سمعتك من العمل، فإذا بك تؤديها كما لو كنت مغنياً محترفاً»

وبالفعل كان ليون يسكن حجرة صغيرة في الطابق الثاني من منزل الصيدلي تطل على الميدان. وتضرج وجهه لثناء صاحب البيت، الذي كان قد تحول إلى الطبيب وأخذ يحصي له أهم سكان «ايونفيل»، واحداً واحداً، ويروي له تفصيلات، ونوادر، فمثلاً لم يكن ثمة من يعرف على وجه التحديد ثروة موثق العقود، كما كان «آل توفاش» يظهرون في أفخم مظهر!

وعادت «إيما» تقول: «وأي موسيقى تؤثر؟»

- آه، الموسيقى الألمانية، تلك التي تسلمك إلى الأحلام!

- وهل ذهبت إلي الاوبرا؟

- لم أذهب بعد، ولكنني سأفعل في العام التالي، حين أسافر إلى باريس لأتم دراسة القانون...

وقطع الصيدلي الحديث مرة أخرى قائلاً: «إنكما ستجدان - بفضل فرار ذلك المسكين «يانودا» وبفضل حماقاته - أن بوسعكما، كما تشرفت بشرح الأمر للسيد زوجك، أن تستمتعا ببيت من أفضل بيوت «ايونفيل» وأبداع ميزاته بالنسبة لطبيب هي أن له باباً يفضي إلى الحارة، يستطع المرء أن يلج وأن يخرج عن طريقه دون أن يراه أحد، كما أنه

مستوف لكافة الاحتياجات المنزلية: من حجرة للغسيل، ومطبخ ألحقت به غرفة للتحضير، وقاعة للجلوس، وبستان للفواكه.. الخ، فلقد كان صاحبه فتى مسرفاً، لا يقيم وزناً للمال، وقد أقام في نهاية الحديقة، بجوار الماء، خيمة ليحتسي فيها «البيرة» في ليالي الصيف. وإذا كانت السيدة تهوى فلاحه البساتين، ففي وسعها...».

وإذ ذاك قال «شارل»: «إن زوجتي لا تحفل بهذه الأعمال، ومع أنه أشير عليها بالرياضة والحركة، إلا أنها تؤثر أن تقضي الوقت في غرفتها تقرأ!»

فقال «ليون»: «إنها مثلي.. فأى شيء أجمل في الواقع من أن يقضي المرء المساء مع كتاب إلى جوار المدفأة، والريح تلفح زجاج النافذة، والمصباح يشتعل؟»

قالت «إيما» وهي تحديق فيه بعينيها السوداوين الواسعتين: «أليس كذلك؟»

ومضى يقول: «إن المرء لا يفكر في شيء إذ ذاك، والساعات تمر متلاحقة ونحن ننتقل - دون أن نتحرك من مكاننا - بين بلدان نخال أننا نراها، وأفكارك تختلط بالخيال لترسم الدقائق، ولتوضح لك معالم المغامرات، إنها تندمج في الشخصيات حتى لتخال أن قلبك هو الذي ينبض تحت ثيابها!»

قالت: «هذا حق! هذا حق!»

واستأنف «ليون» الحديث قائلاً: «أو لم يحدث لك قط أن عثرت في كتاب على فكرة مبهمة كانت قد روادتك، أو على صورة معتمة تعود إليك من آفاق بعيدة وكأنها تعبر عن أدق أحاسيسك؟» فأجابت: «لقد شعرت بهذا فعلاً».

قال: «هذا هو السر في أنني أحب الشعراء، فإني أجد الشعر أكثر رقة من النثر.. إنه يشجى المرء بسهولة حتى يبيكه!»

قالت «إيما»: «على أن الشعر لا يلبث مع طول الوقت أن يثير السأم. إنني الآن أهيمن - على العكس - بالقصص التي تبهر الأنفاس، وتثير الخوف، وأكره الأبطال العاديين، والمشاعر المعتدلة، على نحو ما نرى في الطبيعة!»

قال الكاتب: «الواقع أنني أرى أن هذه الكتب - التي لا تمس القلب - تنحرف عن الغاية الحقيقية للفن. ما أعذب أن ينتقل المرء بفكره من مضايقات الحياة ليجول بفكره مع شخصيات نبيلة، وعواطف خلصة، وصور للسعادة. إنني - إذ أقيم هنا بمنأى عن الدنيا - أجد في هذا ملهاتي الوحيدة، بيد أن (ايونفيل) لا تتيح للمرء سوى موارد قليلة من هذا القبيل!»

فردت «إيما» قائلة: «إنها ولا بد مثل (نوست)، ومن ثم اشتركت في مكتبة تعير الكتب».

وسمع الصيدلي كلماتها الأخيرة فقال: «هل للسيدة أن تشرفني بالإفادة من مكتبتي الخاصة، إن لدي - تحت تصرفها - مكتبة تضم خيرة المؤلفين، مثل فولتير، وروسو،

ودليل، وولتر سكوت، وصحيفة «صدى الأدب»... الخ. كما انني أتلقى صحفاً كثيرة، بينها «منار روان» اليومية، إذ انني مراسلها في مناطق بوشي، وفورج، ونيوشاتل، وإيونفيل وما حولها.



وانقضت عليهم حول المائدة ساعتان ونصف الساعة، إذ كانت الخادم «ارتميز» تحضر طبقاً بعد آخر في بطة، وهي تجر خفيها في كسل فوق البلاط. وقد غفلت عن كل شيء، وأخذت في كل مرة تنسى إغلاق باب حجرة البلياردو، فيرتطم بالجدار.

وكان «ليون» قد وضع قدمه على أحد قضبان مقعد مدام «بوفاري» - أثناء الحديث - دون أن يشعر، وكانت «إيما» تلف حول عنقها وشاحاً حريراً أزرق صغيراً، يشد ياقة «مكشكشة» مجمعة من «الباتيستة». وكان الجزء الأسفل من وجهها يقوص برفق في ذلك الوشاح أو يرتفع عنه، تبعاً لحركات رأسها! وبينما كان «شارل» والصيدلي يثرثران، اندمج الشبان - اللذان تجاور مقعدهما - في أحد تلك الأحاديث المبهمة التي تقودك العبارات خلالها دائماً إلى مركز ثابت تلتقي عنده الميول والمشاعر. فتحدثنا عن مسارج باريس، وعناوين القصص، وأنواع الرقص الحديثة والمجتمع الذي لم يكونا يعرفانه، و«توست» التي كانت «إيما» تقيم فيها، و(إيونفيل) حيث كانا إذ ذاك، وتناقشا حتى نهاية العشاء في كل موضوع خطر لهما!

وبعد أن قدمت القهوة، ذهبت «فيليسيتيه» لتعد المخدم في المنزل الجديد، وما لبث الضيوف أن نهضوا بعد قليل، فإذا مدام «لوفرنسوا» قد أغت على مقربة من النار المحتضرة، بينما كان السائس في انتظار السيد «بوفاري» وزوجته، وهو يحمل مصباحاً ليرشدهما إلى منزلهما، وقد علقت شعره بعض أعواد القش وأخذ يعرج بقدمه اليسرى! وشرعوا في الانصراف عندما حمل بيده الأخرى مظلة القس.

كانت البلدة قد نامت، وأعمدة السوق تلقي ظلالاً كبيرة على الأرض الرمادية، كما كانت تبدو في ليالي الصيف. وإذا كان بيت الطبيب لا يبعد عن الفندق بأكثر من خمسين خطوة، فإن القوم سرعان ما تبادلوا تحية الوداع، ثم انفضوا.

وما أن ولجت «إيما» الردهة حتى أحست برطوبة الجص تهبط على كتفيها كقطعة مبتلة من قماش، وكانت الجدران جديدة، وللدرجات الخشبية صرير. وفي المخدم - بالطابق الأول - كان ثمة ضوء يميل إلى البياض، ينفذ خلال النوافذ التي لم تحجبها ستائر، ولاحت لها رؤوس الأشجار ومن خلفها الحقول تكاد تتوارى في أحضان الضباب الذي انتشر في ضوء القمر على طول مجرى النهر. وفي وسط الحجرة، تناثرت في غير نظام أدرج الدواليب، والزجاجات، وقضبان الستائر، وعصي من المعدن المطلي، وعلى المقاعد كانت

ثمة حشايا، وعلى الأرض أوان وأوعية، فقد ترك الرجلان حملًا الأثاث كل شيء في غير ترتيب.

تلك كانت المرة الرابعة التي تنام «إيما» فيها في مكان لم تألفه. كانت المرة الأولى يوم التحقت بالدير، والثانية يوم انتقلت إلى (ترست)، والثالثة في (فويسار)، وها هي ذي الرابعة وكانت كل مرة بداية لمرحلة جديدة، ولم تكن تعتقد أن الأمور تجري على وتيرة واحدة في كل مكان، وإذا كان الشطر الذي عاشته من حياتها سيئاً، فقد وقر في نفسها أن الشطر الباقي سيفضله!

الفصل الثالث

عندما استيقظت (إيما) في اليوم التالي، لمحت كاتب الموثق يسير في الميدان، وكانت في ثوب المنزل (الروب دي شامبر). ورفع الشاب رأسه إليها محبباً، فردت بإيماة سريعة، وأغلقت النافذة! وقضى (ليون) نهاره كله في ارتقاب الساعة السادسة، ولكنه حين ولج الفندق لم يجد سوي السيد (بينييه) يجلس إلى المائدة!

كان عشاء الليلة السالفة مناسبة هامة في نظره، إذ لم يقدر له قبل ذلك أبداً أن يقضي ساعتين متتاليتين في الحديث مع (سيدة)، فكيف إذن وسعه أن يكلمها بمثل تلك اللغة، وعن كل تلك الأمور التي لم يكن - من قبل - يجيد التعبير عنها على هذا النحو، وهو الذي كان في العادة خجولاً، يلتزم ذلك التحفظ الذي يجمع بين الحياء والتكتم في آن واحد! لقد كان أهل (ايوفيل) يعتبرونه (حسن التربية)، إذ كان ينصت للكبار حين يتكلمون، ولم يكن يبدو مصاباً بالهوس السياسي، وهذه خلة هامة بالنسبة لأي شاب! فضلاً عن أنه كان موهوباً، يرسم بالألوان المائية، وعلى إلمام بمبادئ الموسيقى، ويستطيع الحديث في الأدب بعد العشاء، إذا لم يلعب الورق. وكان السيد (هوميه) يحترمه لشقافته، ومدام (هوميه) تحبه لطيبته، إذ كثيراً ما كان يصحب ابناهما إلى الحديقة! وكانوا أطفالاً ملطخين دائماً بالقذارة، مدللين إلى درجة افسدتهم كثيراً، مبالغين للكسل والتراخي مثل أمهم! وكان يعنى بهم - إلى جانب الخادم - (جوستان) الشاب، مساعد الصيدلي، الذي كان من أبناء عمومة مسير (هوميه) فأواه هذا في البيت على سبيل الإحسان، وكان يستغله - في الوقت ذاته - كخادم!

واثبت الصيدلي أنه خير جار، إذ كان يرشد مدام (بوفاري) إلى الباعة، ويستقدم لها تاجر شراب التفاح، ويذوق بنفسه الشراب ثم يستوثق من أن القنينات وضعت كما ينبغي في قعر البيت! كما كان يرشدها إلى طرق الحصول على كميات من الزبد بثمن زهيد، ويتفق مع (ليستيبودوا) الذي كان - إلى جانب مهامه الكنسية والجنائزية - يتعهد حدائق الدور الكبرى في (ايونفيل) مقابل أجر يحسب بالساعة أو بالعام، وفقاً لرغبة العميل! زلم تكن الرغبة في مساعدة الغير هي الحافز الوحيد الذي دفع الصيدلي إلى كل هذا التودد والمروءة، بل أنه كان يخفي قصداً آخر، إذ كان قد خرق المادة الأولى من قانون ١٩ (فنتوز) من العام الحادي عشر للثورة - وهي المادة التي تحظر على كل من لا يحمل شهادة أن يزاول مهنة الطب - حتى أنه استدعي إلى (روان) بناء على بلاغات قدمت ضده من مجهولين، فمثل أمام وكيل النيابة في مكتبه الخاص، وقد استقبله النائب بوشاحة واقفاً، وعلى كتفه شريط القضاء، وعلى رأسه قلنسوته. وكان ذلك في الصباح، قبل أن تفتح المحكمة أبوابها، وكان يسمع وقع أحذية الشرطة الثقيلة في الردهة، وصوتاً ينبعث

عن بعد لأقفال ضخمة تفتح وتغلق. وأحس الصيدلي بطنين في أذنيه كذاك الذي يسبق نزلة الشلل، ورأى بعين الخيال أعماق الزنانات، وأسرتة في دموعها، والصيدلية وقد بيعت وتناثرت زجاجاتها، حتى لقد اضطر إلى أن يلجأ إلى مقهى تناول فيه كأساً من (الروم) الممزوج بماء (سلزر) ليطمأن قلبه.

بيد أن ذكرى هذا الإنذار ما لبثت أن أخذت في الاضمحلال، وعاد إلى ما كان يمارسه من قبل من تقديم المشورات الطبية لمن يطلبها في الغرفة الخلفية بالصيدلية. غير أن العمدة كان يحقد عليه، وزملاؤه يغارون منه، فكان لابد له من أن يحسب حساباً لكل شيء، ومن ثم رأى أن السيد (بوفاري) سيقدر ولا ريب ما يغمره به من مجاملات، وسيحملة الاعتراف بالجميل على أن يمسك لسانه إذا ما لمح شيئاً، ومن ثم اعتاد أن يحمل إليه الصحيفة في كل صباح، وأن يبرح الصيدلية بعد الظهر ليقضي فترة في الحديث مع الطبيب!

وكان (شارل) مكتئباً لأن العملاء لم يقللوا عليه. وكان يجلس ساعات طويلة دون أن ينبس ببنت شفة، أو يلجأ إلى مكتبه لينام، أو يتأمل زوجته وهي مستغرقة في الحياكة. ثم أخذ يعمل في البيت كالأجير ليتلهى عن أفكاره. بل أنه حاول أن يطلي جدران مخزن القمح ببقية من دهان تركه النقاشون. بيد أن الشؤون المالية كانت تشغل باله، فقد أنفق الكثير في الإصلاحات التي أدخلها على داره في (توست)، وفي توفير أدوات الزينة لزوجته، وفي نقل الأثاث، حتى أن البائنة - التي نالها عند زواجه - تسربت كلها خلال عامين، وكانت تتجاوز ثلاثة آلاف دينار. وكم من أشياء تلفت أو ضاعت أثناء نقلها من (توست) إلى (ايونفيل)، ناهيك بتمثال القس الذي هوى من العربة اثر عثرة عنيفة، فتحطم على طريق (كونيكامبوا) إلى ألف قطعة!



ثم أقبلت مهمة سارة تشغله عن أفكاره، تلك هي: حمل زوجته! وكان كلما اقترب موعد الوضع ازداد حذباً عليها. فهذه رابطة أخرى - من لحم - تعزز صلتها وتوجد فيهما احساساً مستمراً بالرباط المشترك. وكان إذا رآها عن بعد قمشي متثاقلة، وقوامها يلتف في طراوة فوق ردفها، بعد أن تحرر من الحزام الذي كان يشده تتلملم متقلبة بين الأوضاع في مقعدها، فتفيض به السعادة، فينهض فيقبلها، ويمسح وجهها بيده، ويناديها بالأُم الصغيرة، ويسعى لحملها على الرقص، ويروي لها - بين الضحك والبكاء - كافة النكات اللطيفة التي تتبادر إلى ذهنه! كانت تطربه فكرة محجاب طفل، ومن ثم لم يعد يعوزه شيء آخر، فقد أصبح يعرف الحياة البشرية من بدايتها إلى نهايتها، فكان يتدبرها في خاطره مطمئناً ساكن النفس!

وكانت (إيما) في دهشة بالغة - في البداية - ثم أصبحت تتوق إلى أن تضع حملها لتعرف كيف تكون الأمومة! ولما لم تكن تملك أن تنفق عن سعة لتعد للطفل مهداً متأرجحاً - على شكل زورق - ذا ستائر من الحرير الوردى، وطاقيات مطرزة، فقد عدلت - والمرارة قمضها - عن كل هذا، وعهدت إلى امرأة تشتغل بالتطريز في إحدى القرى بأعداد ما يلزم، دون أن تختار بنفسها شيئاً، وهكذا لم تستمتع بهذه الاستعدادات التي تذكى الحنان في الامهات، حتى لقد بدا أن حبها للصغير قد فتر - بعض الشيء - عنه في البداية! على أنها لم تلبث أن أخذت تفكر فيه باسترسال متواصل، إذ كان (شارل) لا يفتأ يتحدث عنه أثناء كل وجبة!

وقمت أن ترزق بولد، قوى، أسمر، تسميه (جورج)! وكانت ترمق الفكرة كما لو كان الحجاب الذكر انتقاماً مأمولاً من كل ما أصابها في الماضي من قصور واستضعاف. فالرجل حر، يستطيع على الأقل أن يجتاز كافة الانفعالات، وأن يجوب الاقطار، وأن يتخطى العقبات، وأن يتذوق أبعد الملذات منالاً! في حين أن المرأة تتعثر دائماً في المثبطات، فإذا نشطت وتذرعت بالمرونة، لا تلبث أن تجد ضعف جسدها والحياة التي فرضتها عليها الشرائع لتكون عالة على سواها، عوامل تقعد بها، وما أشبه عزيمتها بنقاب قبعتها المعلق بخيط، وهو يرفرف في الهواء!



وواتاها المخاض في نحو الساعة السادسة من صباح يوم من أيام الآحاد، والشمس تشرق، وما لبث (شارل) أن قال: (إنها بنت!) فأشاحت برأسها، وراحت في اغماء! وأقبلت مدام (هومية) ومام (لوفرانسوا) - صاحبة نزل الأسد الذهبي - مسرعتين لتقبلاها، فور سماعهما النبأ. أما الصيدلي، فقد اكتفى - كرجل مهذب، حيي! - بأن ازجى إليها بعض التهاني خلال الباب المنفرج، ثم رغب في رؤية الوليدة، وأعرب عن ارتياحه إلى حسن تكوينها!

وشغلت (إيما) كثيراً - خلال فترة النقاهة - باختيار اسم لابنتها. فالتجته في أول الأمر إلى الأسماء التي تنتهي بمقاطع معينة، على الطريقة الإيطالية، مثل كلارا، ولويزا، واماندا، واتالا، ومالت كثيراً إلى اسم (جالسويند)، وكانت أكثر ميلاً إلى (ايزولته) أو (ليوكادي). ورغب (شارل) في أن تحمل الطفلة اسم أمه، ولكن (إيما) عارضته، ثم راحا يستعرضان كل ما ضمه التقويم من أسماء القديسات، وأخذا يستشيران الأغراب. فقال الصيدلي: كنت أتحذّر منذ أيام مع السيد ليون، فأبدى عجبه لأنكم لا تختارون اسم (مادلين) الذي يقبل الجميع عليه في هذه الأيام!

ولكن مدام (بوفاري) الكبيرة، عارضت بصوت مرتفع هذا الاسم الذي كانت تحمله

إحدى الخاططات؛ أما السيد (هوميه)، فكان يفضل الاسماء التي تبعث إلى الدهن ذكرى عظيم، أو واقعة بهيجة، أو فكرة كريمة، وعلى هذا النحو سمى أبناءه الأربعة، فكان (نابليون) يمثل المجد، و(فرانكلين) رمزاً للحرية، وربما كان اسم (إرما) مظهرًا لتأثره بالخيال القصصي العاطفي، أما اسم (اتالي) فكان تحية لأعظم تحفة شهدتها المسارح الفرنسية؛ إذ أن عقائده الفلسفية لم تكن تتعارض مع ميوله الفنية، ولم تكن شخصية رجل الفكر تخنقها في نفسه شخصية رجل العاطفة، بل كان يعرف لكل حدودها، وكان يفرق بين الخيال والتطرف المتعصب، ففي مأساة «أتاليا» المسرحية - مثلاً - كان ينتقد الآراء، ولكنه يعجب بالأسلوب، يكره الموضوع، ولكنه يصفق للتفاصيل جميعاً، يزدري الشخصيات، ولكنه يزداد تحمسًا لموارها؛ وكان يسرح مع الخيال إذا ما قرأ فقرات بدعية، ولكنه كان يغمث إذا ما تذكر أن أهل المجون والمهرجين قد يستغلونها في ألاعيبهم على الغير؛ وفي خضم هذه المشاعر المتضاربة التي كانت تحتجحه، كان يود أن يتوج لفوره (راسين) - مؤلف المسرحية - بكلتا يديه، وأن يقضي ربع ساعة في نقاش معه!

وتذكرت (إيما) أخيراً أنها سمعت المركيزة في قصر (فويسار) تنادي شابة باسم (بيرت). ومنذ تلك اللحظة وقع الاختيار على هذا الاسم؛ ولما لم يستطع السيد (روو) الحضور، فقد سئل السيد (هوميه) أن يكون أشبيناً للطفلة، وكانت كل هداياه من المنتجات التي تحوّلها صيدليته: ست علب من ثمار العناب المحفوظة، وقنينة مملوءة باكسير مقو، وثلاث أنابيب من معجون الشيخ، فضلاً عن ست أصابع من سكر النبات عثر عليها في أحد الصوانات. وفي أمسية الاحتفال، أقيمت مأدبة عشاء كبيرة حضرها القس، وتخللها هرج ومرج. وعندما حان موعد الشراب، أخذ السيد (هوميه) ينشد: (الله رب العالمين)، وغنى السيد (ليون) إحدى أغاني الجنود، وألقت مدام (بوفاري) الكبيرة - وكانت أشبينه الطفلة - إحدى أغاني العصر الامبراطوري العاطفية؛ وأخيراً، أصر مسيو (بوفاري) - الكبير - على احضار الوليدة، وشرع يعمدها بأن سكب على رأسها كوباً من الشمبانيا وأثارت هذه السخريّة من أقدم الشعائر غضب الأب «بورنيزيان»، فرد عليه «بوفاري» الشيخ بفقرة من كتاب: حرب الآلهة؛ وهم القس بالخروج، فتضرعت إليه النسوة، وتدخل السيد (هوميه)، حتى أفلحوا في حمل القس على الجلوس، ومن ثم عاد يستأنف احتساء ما بقي في قديم القهوة، في هدوء!

ومكث مسيو (بوفاري) الكبير شهراً في (ايونفيل) بهر خلاله أهلها بخوذة فخمة من خوذات الشرطة، يتدلى منها زر فضي، كان يرتديها في الصباح وهو يدخن غليونه في الميدان؛ وإذ كان من عادته الإفراط في الشراب، فكثيراً ما كان يوفد الخادم (الأسد الذهبي) لتوافيه بزجاجة على حساب ابنه. واستنفذ - ليعطر مناديله - كل ما كان لدى زوجة ابنه من ماء (الكولونيا). بيد أن هذه لم تكن تضيق بصحبته إطلاقاً، إذ كان قد جاب الأقطار، فكان يحدثها عن برلين وفيينا وستراسبورج، وعن أيام الجنديّة، وعن العشيقات اللاتي احببته، والولائم الحافلة التي أقامها؛ ثم أنه كان لطيفاً، بل لقد كان في

بعض الأحيان يطوق خصرها بذراعه - على السلم أو في الحديقة - ويصيح: (شارل، احترس لنفسك!)

إذ ذاك خشيت السيدة (بوفاري) - الأم - على سعادة ابنها، وخافت أن ينتهي زوجها مع مرور الوقت إلى أن يترك أثراً غير خلقي في ما للمرأة من آراء وأفكار، فعملت على التعجيل بالرحيل. ولعلها كانت تكتم أسباباً أخطر من ذلك لقلقها، إذ أن السيد (بوفاري) لم يكن بالرجل الذي يحترم شيئاً!

وأحست (إيما) يوماً برغبة مفاجئة في أن ترى ابنتها - التي كانت قد اسلمت لزوجها النجار لتعنى بها وترضعها - وبدون أن ترجع للتقويم لتتبين ما إذا كانت أسابيع العذراء الستة قد انقضت، وانطلقت إلى بيت (روليه) - النجار - في الطرف الأقصى من القرية، بين الطريق الرئيسية والحقول، وكان الوقت ظهراً، وقد أوصدت أبواب الدور ونوافذها، وتألفت السقوف الازدوازية تحت ضوء السماء الباهر حتى كادت تقدح شراراً من أبراجها! وكانت الرياح تهب بشدة، وما لبثت (إيما) أن شعرت خلال سيرها بوهن، وأخذت أحجار الأرضفة تؤلم قدميها، وترددت بين أن تعود إلى البيت ثانية، أو تلوذ بأي مكان. وفي هذه اللحظة، برز السيد (ليون) من منزل مجاور، وقد تأبط حزمة من الورق، فحف لتحتيتها، ووقف تحت المظلة الرمادية الممتدة أمام حانوت (روليه).

وقالت مدام «بوفاري» إنها في طريقها لرؤية ابنتها، بيد أن التعب أخذ يشتد بها، فقال ليون: «هل لك...» ثم أمسك لا يجرؤ على أن يتم عبارته، فسألت: «هل لديك أي عمل يشغلك الآن؟» وإذا أجابها بالنفي، رجته أن يصحبها. فلم يحن المساء حتى كانت «ايونفيل» بأسرها قد عرفت النبأ. وصرحت مدام «توفاش» - زوجة العمدة - أمام خادمتها بأن «مدام بوفاري قد ورطت نفسها»!



كان لابد «إيما»، كي تصل إلى بيت المرضعة، من أن تعرج إلى اليسار بعد نهاية الشارع وكأنها تسعى إلى المقابر، ثم تسلك - بين الدور والأبنية - طريقاً ضيقة محفوفة بأشجار اللبغ والقيرونكا والنسرين وبنات النار المزدهرة، والعوسج المنبعث من الأحراش. وخلال ثغرات في الأسيجة، كانت الأبقار تلوح في الخرائب وهي تحك قرونها في جذوع الأشجار. وسارا في هوادة، جنباً إلى جنب، وقد استندت السيدة إلى زميلها الذي كان يضيق من خطأه كي تلائم خطأها! وكان يحوم أمامهما سرب من الذباب يطن في الهواء الدافئ.

وتعرفا على المنزل بفضل شجرة بندق قديمة كانت تظلله. وكان بيتاً منخفضاً، مغطى بقرميد بني اللون، تتدلى من كوة مخزن الغلال فيه حزمة من البصل. وخلف الحاجز

الشوكي، قامت عدة أغصان جافة تحيط بحوض زرع خساً، وبعض عقل من «اللاوندة»، وفروع من البازلاء المزهرة استندت إلى عصي صغيرة، والماء القذر ينساب على العشب حيث تناثرت عدة أشياء بالية غير واضحة المعالم: جوارب من نسيج اليد، وصدار من الحرير الهندي الأحمر، وملاعة من القماش السميك منشورة على طول السياج.

وعلى صوت صرير باب السياج خرجت المرضعة تحمل على ذراعها طفلاً يرضع، وتسحب باليد الأخرى طفلاً هزياً مسكيناً كست وجهه البشور، وكان ابن صانع قبعات في (روان)، تركه أبواه في الريف لفرط انصرافهما إلى تجارتهما. وقالت المرضعة: «تفضلي، إن طفلك نائمة هناك!»

وكانت الغرفة التي بالطابق الأرضي، هي الغرفة الوحيدة بالمسكن، وقد أقيم لصق الجدار - في أقصاها - سرير واسع بدون ستائر، بينما شغل حوض العجين الجدار الذي تخلفته النافذة، وقد ألصق في مكان الزجاج المكسور في هذه، ورق أزرق. وفي الركن القائم خلف الباب رصت أحذية ذات مسامير لامعة، تحت حافة المغسل، بجوار زجاجة دست في فوهتها ريشة. وعلى رف المدفأة المغبر كانت ثمة نسخة من تقويم «ماتيو لانزبرج» وسط قطع من الصوان وأعقاب الشموع والصوفان. وأخيراً، كانت آخر مظاهر الترف في المسكن، لوحة تمثل «الشهرة» تنفخ في بوق، يدل مظهرها على أنها قصت من إعلان للعطور، وثبتت إلى الجدار بستة من مسامير الأحذية الخشبية (القباقيب)!

وكانت طفلة «إيما» ترقد في سرير من الغاب، فحملتها في الغطاء الذي كان يلحفها وأخذت تغني لها وهي تهزها. ومضى «ليون» يذرع الغرفة، وقد بدا له من الغريب أن يرى سيدة جميلة في ثوب أنيق وسط كل هذا البؤس والفاقة، وتضربت وجنتا مدام «بوفاري»، فأشاح بصره إذ خطر له أن نظرة فضولية بدت في عينيه. وما لبثت الأم أن ردت الطفلة إلى مهدها بعد أن تقيأت على صدر مرولتها، فاقبلت المرضعة لمسح الرقي فوراً، مؤكدة أنه لن يخلف أثراً، وقالت: «كم من أفعال لها تشغلني، فإنني أحرص على تنظيفها باستمرار، ولو أنك تفضلت فأمرت «كاميس» البديل بأن يعطيني بعض الصابون، لكان هذا أدعى لراحتك، لأنني لن اضطر لأزعاجك!»

فقالت «إيما»: «حسناً.. ليكن! طاب يومك يا سيدة رولية».

وخرجت وهي تسمح نعليلها عند العتبة، وتبعتها المرضعة حتى نهاية الحديقة، وهي تحدثها طيلة الوقت عن العناية الذي تلاقيه طيلة الليل، قائلة: «إن الضنى يبلغ بي أحياناً أن استغرق في النعاس وأنا جالسة في مقعدي، واعتقد أنه يخلق بك أن تمحنيني رطلاً على الأقل من البن المجروش، يكفيني شهراً، لأتناول منه قحداً مع اللبن في كل صباح».

وانصرفت مدام «بوفاري» بعد أن استمعت مكرهة لعبارات الشكر. على أنها لم تكذب تبعد بضع خطوات حتى انتهت إلى وقع حذاءين خشبيين، وإذا بالمرضة، فسألتها: «ماذا هناك؟» وإذا ذلك انتحت بها الفلاحة جانباً خلف إحدى أشجار الدردار، وراحت تحدثها

عن زوجها الذي أوتي حرفة، لا تدر عليه غير النذر الضئيل، وقاطعتها «إيما» قائلة: «أسرعي!»، فاستأنفت وهي تتنهد بين كل كلمة وأخرى: «آه، أخشى أن يغم إذا رأيته تناول القهوة وحدي، فانت تعرفين الرجال...».

قالت «إيما»: لسوف تحصلين على البن، سأعطيك إياه... إنك تضايقينني! -
- اواه يا سيدتي العزيزة المسكينة! إنه يعاني - بسبب جراحة - من انقباضات مزعجة في الصدر، ويقول إن شراب التفاح يضعفه!
- عجلي ايتها الأم رولية!

فاستطردت المرضعة وهي تنحني احتراماً: «إذن، فإذا لم أكن قد قماذيت...»، وانحنت مرة أخرى «فلو تكرمت» وبدت في عينيها ضراعة، ثم أفضت بغايها أخيراً: «... بقنينة براندي! ولسوف أدلك منها قدمي طفلتك، فهما رقيقتان كاللسان!»



ما ان تخلصت «إيما» من المرضعة، حتى امسكت بذراع «ليون»، وسارت مسرعة بعض الوقت، ثم تباطأت. وفيما كانت تتطلع إلى الأمام، وقع بصرها على كتف الشاب الذي كانت لسترته ياقة من المخمل الاسود، يتدلى فوقها شعره الكستنائي الذي نسق في عناية، ولاحظت أن اظافره كانت أطول مما اعتاد الناس في «ايونفيل» أن يتركوا عليه اظافره! وكانت العناية بها من المهام الرئيسية التي تشغله، ومن ثم كان يحتفظ في درج مكتبه بمطواة خاصة لذلك!

وعادا إلى «ايونفيل» سائرين بمحاذاة مجرى الماء. كانت الضفة تتسع في الموسم الحار عنها في الأوقات الأخرى، فتكشف عن أساس جدران الحدائق، حيث تنحدر إلى مجرى النهر بضع درجات، وكان الماء يجري سريعا، هادئا، تكاد العين تلمس برودته! والأعشاب الطويلة النحيلة تتشابك وتتجمع، والتيار يدفعها، ثم تبسط نفسها على سطح الماء النмир كالشعر المسترسل، وكانت تبدو على قمم البوص أو على إحدى أوراق زنايق الماء - في بعض الأحيان - حشرة دقيقة الأطراف تزحف أو تقبع مستريحة. وكانت الشمس تخرق باسعتها الفقايع الزرقاء الصغيرة التي تخلفها الامواج، والتي كانت تتتابع متكسرة، وأشجار الصفصاف العتيقة العارية الأغصان، تعكس على الماء صور جذوعها المغبرة. وفي المؤخرة بدت المراعي محيطة بالمنظر، ممتدة على مدى البصر، خالية من كل شيء. كانت ساعة العشاء قد حانت في المزارع، فلم تسمع الشابة وزميلها أي صوت وهما يسيران، اللهم إلا وقع خطواتهما على أرض الطريق، والكلمات التي كانا ينطقان بها، وحفيف ثوب «إيما».

وكانت أسوار الحدائق - التي بدت من فوقها قطع الزجاج - ساخنة كزجاج نوافذ

بيوت تربية النباتات الحارة، وقد نبتت الزهور البرية بين أحجارها، فكانت مدام «بوفاري» تقس بعض هذه الزهور الجافة بحافة مظلتها المفتوحة، وهي تمر بها، فتتساقط تراباً أصفر، كما كان يشتبك بحافة المظلة أحياناً غصن من اللبلاب المتدلي، ويتأرجح فوق حريها لحظة.

وكانا يتحدثان عن فرقة من الراقصين الاسبانيين مرتقبة الوصول إلى مسرح (روان)، فسألته: «هل ستذهب لرؤيتها؟» فأجاب: «إذا استطعت!»

أو لم يكن لديهما ما يقال غير هذا؟! كانت عيونهما مفعمة بحديث أكثر جدية، وكانا، إذ يجهدان نفسيهما في البحث عن عبارات تافهة، يحسان بنوع واحد من الحذر يسري فيهما، ذاك كان همس الروح، همس عميق، مستمر، يطفئ على صوتيهما! وأخذهما العجب لهذه العذوبة الطارئة، فلم يخطر ببالهما أن يتكلما عن هذا الاحساس أو أن يبحثا عن سببه، فإن المسرات في إقبالها تلقي - كالشواطئ الاستوائية - على الفضاء الشاسع رخاوتها الفطرية، وتبعث في الجو نسيماً متضوعاً، فإذا هذه النشوة تسلمنا إلى اغفاء عذب يصرفنا عن التفكير في الأفق الذي نحمله!

وكانت الأرض قد ماتت في إحدى البقاع تحت أقدام الماشية، فكان لابد لهما من أن يقفزا على أحجار كبيرة خضراء تناثرت في الوحل. وكثيراً ما كانت «إيما» تترث لتستبين موقع قدمها، وهي تتأرجح على حجر مهتز، وقد بسطت ذراعيها في الهواء، وانحنى قامتها في حيرة، وراحت تضحك وهي تخشى أن تهوى في برك الماء!

وعندما بلغا حديقة دارها، دفعت مدام «بوفاري» الباب، وطوت السلالم عدواً، واختفت فعاد «ليون» إلى مكتبه - وكان رئيسه غائباً - فألقى على الملفات نظرة، وشحن لنفسه قلماً، ثم تناول قبعته أخيراً وانصرف متجهاً إلى المرج بأعلى هضبة (ارجي) - عند مدخل الغابة - حيث استلقى على الأرض تحت أشجار الصنوبر، وأخذ يتطلع إلى السماء من خلال أصابعه، ومحدثاً نفسه: «ما أشد ضجري!»

كان يحس أنه خليف بالرفاء لاقامته في هذه القرية، حيث لا صديق سوى «هوميه»، ومع السيد «جويومان» رئيسه وكان الأخير، بمنظاره ذي الاطار الذهبي ولحيته الحمراء وريطة عنقه البيضاء ينكب على عمله، ولا يفقه شيئاً من المتع الفكرية، وإن اتخذ لنفسه مظهرًا مجليزيًا صارماً بهر الكاتب في الأيام الأولى!

أما زوجة الصيدلي، فكانت خير زوجة في (نورمانديا)، ودیعة كالحمل، تحب أولادها وأبأها وأمها وبني عمومتهما، وتبكي لأحزان الآخرين، مهملة في الوقت نفسه كل شؤون دارها! وكانت تكره المشدات (الكورسيهات)، غير أنها كانت بطيئة الحركة، مملحة الحديث، مبتذلة المظهر، ضيقة الأفق، حتى ما كان أحد ليتصور أنها تصلح زوجة لغير الصيدلي، أو أنها أوتيت شيئاً من خصائص جنسها فيما عدا الثوب! وكانت هي في الثلاثين بينما كان هو - أي «ليون» - في العشرين، وكان مخدعه ملاصقاً لمخدعها،

ومن ثم كان يخاطبها يومياً!

ثم، ماذا كان هناك غير ذلك! «بينيه»، وبعض أصحاب الحوانيت، واثنان أو ثلاثة من أصحاب الحانات، والقس، وأخيراً مسيو «توفاش»، العمدة، وأولاده: وكلهم ثروة، متغطرسون، أغنياء، يزرعون الأرض بأنفسهم، يستأثرون بالولائم فيما بينهم، متزمتون، لا تطاق صحبتهم!

ولكن، ماذا عن «إيما»؟ لقد كانت تقف بمعزل عن كل الاطار العام الذي يضم هذه الوجوه البشرية، ويعيداً عنه هو الآخر، إذ كان يرى بينه وبينها هوة غامضة! كان قد زارها مع الصيدلي عدة مرات في البداية، فلم يبد «شارل» ميلاً واضحاً إلى أن يراه مرة أخرى، فلم يدر «ليون» ماذا يفعل، إذ حار بين الخوف من أن يبدو متطفلاً، والرغبة في ألفة جميلة تكاد تلوح مستحيلة!

الفصل الرابع

نقلت «إيما» - عندما بدأت أيام الشتاء - مخدعها إلى حجرة الجلوس. وكانت قاعة طويلة، منخفضة السقف، استقرت على رف مدفأتها - أمام المرأة - حزمة كثيفة من المرجان. وكانت تجلس في مقعدها الوثير بجوار النافذة، حيث تشهد أهل القرية وهم يرون على الأفريز.

وكان «ليون» يسعى بين مكتبه وفندق «الأسد الذهبي» مرتين في اليوم، فكانت «إيما» إذا سمعته عن بعد انحنت لتصيح السمع، بينما يمر الشاب دون أن يلتفت، فتراه من خلف الستائر في نفس المظهر والملبس دائماً. ولكنها عندما كانت تترك قطعة القماش التي تطرزها على ركبتيها، وتستند بذقنها إلى يدها اليسرى - عند الغروب - كانت تسري في جسدها رجفة لظهور هذا الشيخ ومروره بالبيت! وكانت لا تلبث أن تنهض، وتأمر بأعداد المائدة.

وكان السيد «هوميه» يصل أثناء العشاء، وطاقيته الأفريقية في يده، فيدخل بخطى مكتومة الوقع كي لا يزعج أحداً، وهو يردد نفس العبارة دائماً: «مساء الخير أيها الزملاء!» فإذا اتخذ مجلسه إلى مائدة الزوجين، سأل الطبيب عن أنباء المرضى، فيستشير هذا فيما يقدر من أعصاب، ثم يخوضان في الحديث عما جاء بالصحيفة التي يكون «هوميه» قد استظهر كل ما فيها تقريباً! فكان يرويه، مع التعليقات، كما كان يروي جميع النكبات الفردية التي وقعت في فرنسا أو في الخارج. ولم يكن يتوانى - إذ ما نضب موضوع الحديث - عن أن يلقي بعض الملاحظات عن أصناف الطعام التي يراها! بل أنه كان ينهض أحياناً عن مقعده ليرشد السيدة إلى أطرى قطع اللحم، أو يتحول إلى الخادم يوجه إليها إرشادات في معالجة اللحوم، والقواعد الصحية لاستخدام التوابل، ويتكلم عن البهار، والمغات، وأنواع العصير والهلام (الجيلاتين)، على نحو مذهش! ولما كان رأس «هوميه» يحفل بتركيبات تفوق في الكثرة ما تزخر به صيدليته من قنينات، فإنه كان يحذق صنع جميع أنواع المربى، والخل، والمشروبات الروحية الخفيفة، كما كان ملماً بكافة المخترعات الحديثة المتعلقة بأدوات الطهو الاقتصادية، فضلاً عن أصول صيانة الجبن، وعلاج النبيذ الفاسد!

وكان «جوستان» يأتي في الساعة الثامنة يستدعيه لاغلاق الصيدلية، فيمرقه السيد «هوميه» بنظرة خبيثة، لا سيما إذا كانت «فيليسيتيه» واقفة، إذ كان قد فطن إلى أن مساعده يميل إلى التردد على بيت الطبيب! وكان يقول: «إن هذا «الفحل» بدأ يفكر، وليأخذني الشيطان إذا كنت مخطئاً في ظني أنه يحب خادمتهما»

بيد أن أخطر عيب كان يثاخذ «جوستان» عليه، هو أنه كان ينصت دوماً إلى

الحديث، فلم يكن من السهل إبعاده عن «الصالون» في يوم الأحد مثلاً، عندما تناديه مدام «هوميه» لينقل الأطفال الذين ناموا في مقاعدهم، وأخذوا يسحبون بظهورهم مفارشها عنها؛ ولم يكن يحضر سهرات الصيدلي أناس كثيرون، إذ نجح ميله للخوض في الفضائح والآراء السياسية في تنفير مختلف الأشخاص المحترمين منه. أن الكاتب لم يتخلف قط عن سهراته، وكان إذا سمع جرس الباب بادر مسرعاً إلى استقبال مدام «بوفاري» فيأخذ عنها شالها، ويضع تحت نضد الصيدلي الخفين السميكين المزدانين بالشرائط، اللذين كانت ترتديهما فوق حذاءيها إذا كان الجليد يملأ الشوارع.

وكانوا يلعبون أدواراً من لعبه الورق المعروفة برقم ٣١، ثم يتفرد السيد (هوميه) باللعب مع (إيما)، و(ليون) من خلفهما يقدم لها النصائح، وقد وقف معتمداً بيديه على ظهر مقعدها، محدقاً في أسنان المشط التي تعض عقصة شعرها. وكان الجانب الأيمن من ثوبها يرتفع مع كل حركة تقوم بها لالقاء الورق، وينبعث من شعرها لون أسود ينساب على ظهرها، ويأخذ في الشحوب تدريجياً، حتى يتلاشى في الظلال، ثم يتهدل ثوبها على جانبي المقعد، منتفخاً، مليئاً بالثنايا، وينساب حتى يبلغ الأرض، فإذا أحس (ليون) بأن نعله وقع على طرف منه، ارتد مجفلاً وكأنا داس شخصاً!

وعندما كان ينتهي لعب الورق، كان الصيدلي والطبيب يلعبان (الدومينو)، فتنتقل (إيما) إلى مقعد آخر لتتكئ على المائدة وتقلب صفحات مجلة (الاستراسيون)، كما كانت تحضر معها مجلتها النسوية، فيجلس (ليون) يتأمل الصور إلى جانبها، ويتريث أحدهما عند نهاية كل صفحة ريثما يفرغ منها الآخر. وكثيراً ما كانت ترجوه أن ينشدها شعراً، فكان (ليون) يفعل بصوت متراخ كان يعني بخفضه عند العبارات الغرامية، لتطغى عليه جلبة (الدومينو)؛ وكان السيد (هوميه) بارعاً في هذه اللعبة، إلى حد أنه كان يفوز على (شارل) بدورين، حتى إذا فرغاً من الدور الثالث، اضطجعا معاً أمام المدفأة، فلا يلبثان أن يغفوا، وتموت النار، ويخلو إبريق الشاي، و(ليون) ماض في القراءة، و«إيما» تنصت إليه، وهي تعبت بمظلة المصباح في حركة آلية، وتحديق في الرسوم المنقوشة عليها: من عصافير في عريات، إلى راقصين على الخيال ممسكين بالعصي التي يحفظون بها توازنهم، وكان «ليون» لا يلبث أن يمسك عن القراءة ليشير بإيماء إلى النائمين، وإذا ذاك يشرعان في الحديث بخفوت، فكان هذا الحديث يبدو لها اعذب من أي حديث، لأن أحداً لم يكن يسمعه!

وهكذا توثقت بينهما رابطة من نوع خاص، وأخذا يتبادلان الكتب والروايات. ولم يكن السيد (بوفاري) ليشغل باله بهذا، فقد كان قليل الانسياق للغيرة!

وتلقى (شارل) في عيد ميلاده صورة لرأس رسم باللون الأزرق، لبيان الجهاز العصبي، وقد انتشرت عليه الأرقام والبيانات حتى القفص الصدري؛ تلك كانت هدية من الكاتب الذي أخذ يقدم الكثير غيرها من الهدايا والخدمات، حتى لقد كان يقضي للطبيب

حوائجه في (روان). وكان أحد الروائيين قد أورد في كتاب له فصلاً عن نبات (الصبار) جعله بدعة لقيت رواجاً، فابتاع (ليون) بعض نباتات منه لمدام بوفاري، وقد أدمى بعض أشواكها أصابعه، إذ حملها في (العصفورة) على ركبتيه وأقامت السيدة خارج نافذتها قاعدة من الخشب وضعت عليها الأصص، ولما كانت للكاتبة حديقة صغيرة معلقة، فقد أخذ كل منهما يشاهد الآخر وهو يعني بأزهاره عند النافذة!

ومن بين نوافذ القرية، كانت ثمة نافذة ينبعث منها أكبر قدر من النشاط، فطيلة أيام الآحاد - نهارها ومساؤها - وبعد ظهر كل يوم، حين يصحو الجو، كان المرء يرى خلال كوة مخزن الغلال منظراً جانبيّاً لوجه (بينيه) وقد انحنى على مخرطته فانبعث طينيتها الرتيب حتى صار يسمع في فندق (الأسد الذهبي).

ولج (ليون) غرفته ذات يوم، فألقى فيها سجادة من المخمل والصوف، نقشت عليها افنان على قاعدة شاحبة، فاستدعى مدام (هوميه) والسيد (هوميه) و(جوستان) والأطفال والطباخة ليشهدوها! وتحدث إلى رئيسه عنها، ورغب الجميع في أن يروا هذه السجادة، وهم يسائلون أنفسهم: ترى لماذا تقدم زوجة الطبيب للكاتبة هدايا؟ إنه لأمر جد عجيب! ووقر في نفوسهم أنها لا بد حييبتها، لا سيما وقد كان في مسلكه ما يبرر هذا الظن، إذ كان دائم الحديث عن سحرها وذكائها، حتى لقد رد عليه (بينيه) مرة في عنف قاس: «وماذا يعنيني من أمرها وأنا لست من أصدقائها؟!»

وأخذ «ليون» يعتصر ذهنه بحثاً عن وسيلة يعلن حبه لها، فقد كان يتردد بين الخوف من أن يشير استيائها وبين الخجل من جبنه! كان يبكي من الرغبة وعدم الجرأة، ثم لا يلبث أن يستجمع عزيمته ويعمد إلى كتابة خطابات يمزقها بهد أن ينتهي منها، ويرجئ الأمر إلى أوقات أخرى، ثم يعود فيرجئه من جديد! وكثيراً ما كان يهم بمواجهة الأمر في عزم، فلا تكاد تحضر «إيما» حتى يتبدد هذا العزم! وكان إذا دعاه «شارل» إلى مرافقته في عربته لعيادة مريض في قرية مجاورة لبي الدعوة لفوره، فيحيي السيدة وينصرف. ولم لا، أليس زوجها جزءاً منها؟

أما «إيما»، فلم تسائل نفسها قط عما إذا كانت تحبه، فهي تعتقد أن الحب ينفذ فجأة مصحوباً برعد وبرق، كما لو كان عاصفة تنقض من السماء على الأرض، فتقلب كيائها، وتنتزع الإرادات انتزاعها لأوراق الشجر، وتحرف القلب، ولم تفطن إلى أن المطر يحيل الشرفات بحيرات إذا كانت الميازيب مغلقة، وهكذا ظلت مطمئنة، حتى اكتشفت فجأة صدعاً في الجدار، جدار قلبها!!

الفصل الخامس

كان ذلك في أصيل يوم أحد من شهر فبراير، والجليد يتساقط، وهم جميعاً - السيد بوقاري وزوجته، وهوميه، والسيد ليون - على بعد نصف فرسخ من (ايونفيل)، وقد خرجوا في رحلة لمشاهدة مصنع لغزل الكتان كان العمل جارياً في اقامته في الوادي، وكان الصيدلي قد اصطحب معه «نابوليون» و«امالي» للرياضة، كما رافقهم «جوستان» حاملاً المظلات على كتفه.

بيد أنهم لم يجدوا فيما ذهبوا لرؤيته شيئاً يثير الفضول، مساحة أرض واسعة، خالية، تناثرت في أرجائها بين أكداس الرمل والحصى الملتقة في غير انتظام، بضع عجلات ذات تروس يعلوها الصدا. ووسط هذه الأرض قام مبنى مستطيل، يتخلل جدرانه عدد من النوافذ الصغيرة، ولم يكن البناء قد اكتمل، فكانت السماء ترى خلال هيكل السقف الذي علقت بأحدى كتله الخشبية حزمة من سنابل القمح والقش راحت ترفرف في الهواء بألوانها الثلاثة. وانطلق «هوميه» يشرح للجماعة ما سوف يكون لهذه المؤسسة من أهمية، وما ستكون عليه أرضها الخشبية من متانة، وجدرانها من سمك، وأبدى أسفه إذ لم يملك عصا للقياس كتلك التي كان السيد «بينيه» يكتنيتها لأغراضه الخاصة.

وكان يتأبط ذراع «إيما» التي راحت قميل معتمدة على كتفه بعض الشيء، لتتطلع إلى الشمس التي كان قرصها يرسل من بعد - خلال الضباب - ضوءاً أخذ يسطع في شحوب. وحانت منها التفاتة، فرأت «شارل» قد كبس قلنسوته حتى حاجبيه، وراحت شفتاه الغليظتان ترتجفان، بما أضفى عل وجهه مزيداً من الغباء، حتى ظهره، ظهره الساكن، كان يثير الاشتزاز، وكأنما انتشرت على «ردنجاته» مظاهر تفاهة شخصيته!!

وفيما كانت تتأمله، مستشعرة في اشتزازها لونها من المتعة الشاذة، اقترب «ليون» خطوة، وقد لاح أن البرد الذي أصابه بالشحوب قد أسبغ على وجهه استرخاء زاده بهاء. وكانت ياقة القميص واسعة بعض الشيء، تكشف - بين الرقبة ورباطها - عن بشرته، وبرز طرف أذنه من خلال خصلة من الشعر، وخيل لإيما أن عينيه الواسعتين الزرقاوين - اللتين تتطلعان إلى السحب - أكثر صفاء وجمالاً من البحيرات الجبلية التي ينعكس لون السماء على مياهها!

وهتف الصيدلي فجأة: «يا للشقي!». ثم عدا نحو ابنه الذي قفز إلى كومة من الجير ليطلق حدايه بلون أبيض، وراح «نابوليون» يصرخ إذ انهال عليه توبيخ أبيه، بينما أسرع «جوستان» ينظف له حدايه بحزمة من القش. بيد أنه احتاج إلى سكين، فقدم إليه «شارل» واحدة، وإذ ذاك حدثت «إيما» نفسها قائلة: «آه! إنه يحمل سكيناً في جيبه كالفلاحين!»

وتساقط الصقيع، فعادوا إلى «أيونفيل»، ولم تذهب مدام «بوفاري» لزيارة جيرانها في ذلك المساء. وإذا غادرها «شارل» وخلت إلى نفسها، عادت إليها المفارقة بوضوح الإحساس المباشر الذي يكاد يكون واقعاً، وبالعُمق الذي تخلعه الذاكرة على الأشياء، وتمثل لعينيها - وهي تتأمل من سريرها النار وهي تستعر صافية في المدفأة - المنظر الذي رآته هناك، وكأنه لا يزال أمامها: «ليون» وقد وقف يثني عصاه باحدى يديه، ويمسك «أتالي» باليد الأخرى، وهي تستحلب في هدوء قطعة من الثلج، وبدا لها فاتناً، ولما لم تستطع أن تنتزع نفسها عنه، أخذت تستعيد مواقف أخرى له في أيام غير ذاك اليوم، وكلمات صدرت عنه، وجرس صوته، وكل كيانه، ومضت تردد وهي تمط شفيتها كأنها تقبل أحداً: «أجل، فانتن، فانتن! ألا تراه قد أحب؟ ومن عساه أحب؟ أنا؟».

وأخذت الأدلة تنبعث أمامها، فقفز قلبها، وألقى وهج النار على السقف ضوءاً راح يتراقص في مرج، وانقلبت على ظهرها باسطة ذراعيها، وإذا ذاك بدا الرثاء الأبدى: «أواه، ليت السماء دفعتني إلى حبي، ولم لا؟ ما الذي يحول دون ذلك؟»

ولاحث - حين عاد «شارل» في منتصف الليل - وكأنها استيقظت لئوها، وشكت من صداع إذ أخذ يخلع ثيابه في جلية، ثم سألته عرضاً عما حدث في السهرة فقال: «لقد غادرنا السيد ليون مبكراً وآوى إلى غرفته!» ولم تتمالك أن ابتسمت، ونامت ونفسها مفعمة بلون من الغبطة جديد عليها!



وعند غروب شمس اليوم التالي، زارها السيد «لوريه» تاجر الأقمشة. وكان بائعاً ماهراً، ولد في (جسكونيا) ولكنه نشأ في (تورمانديا) كأحد ابنائها، فجمع بين لياقة أهل الجنوب وبين دهاء أهل (كو). وكان وجهه السمين، المتهدل، الحليق، يبدو وكأنه طلي بنقيع باهت من «العرقسوس» وقد زاد شعره الأبيض نظرات عينيه السوداوين الصغيرتين حدة ودهاءاً ولم يكن ثمة من يدري ماضيه، فهناك من يقول إنه كان بائعاً متجولاً، بينما يقول آخرون إنه كان صرافاً في (روتو)، على أن المحقق انه كان قديراً على أن يجري في ذهنه عمليات حسابية معقدة يدهش لها «بينيه» نفسه. وكان يغالي في التأدب نفاقاً، فيقف محدوب الظهر كمن ينحني للتحية أو الدعوة!

وبعد أن ترك لدى الباب قبعته المحلاة بالديباج، ووضع على المائدة صندوقاً أخضر من الورق المقوى، شرع يشكو للسيدة - في أدب جم - من أنه لم يحظ بعد بثقتها، قائلاً إن من الصحيح أن حانوته الفقير لم يكن أهلاً لأن يجتذب «سيدة أنيقة» - وضغط على هاتين الكلمتين - مثلها، ومع ذلك فليس لها سوى أن تأمر وهو قمين بأن يوافيها بأي شيء تبغيه من الخردوات أو الثياب الداخلية أو القبعات أو الكماليات، لأنه يتردد علي

المدينة بانتظام أربع مرات في الشهر، ويتعامل مع خير متاجرها، وتستطيع أن تسأل عنه في «التروا فريز» - (الاخوة الثلاثة) - «البارب دور» - (اللحية الذهبية) - و«الجران سوفاج» - (المتوحش الكبير) - فإن أصحاب هذه المتاجر جميعاً يعرفونه معرفتهم لما في جيوبهم، ومن ثم فهو قد جاء اليوم يعرض على السيدة - إذ مر بدارها - بضعة سلع قدر له أن يحصل عليها بمحض المصادفة النادرة. ثم أخرج من الصندوق ست ياقات مطرزة، فحصتها مدام بوفاري ثم قالت: «لست في حاجة إلى شيء»، وإذا ذاك عرض في رفق ثلاثة من شيلان الجزائر، وعدة مجموعات من الإبر الانجليزية، وزوجاً من النعال القش، وأخيراً، أربع كؤوس للبيض صنعت من الحاء جوز الهند وقد زانها نزلاء السجن بنقوش محفورة، مفرغة. ثم اعتمد على المائدة بيديه واشرب بعنقه، وراح يرقب «إيما» - التي كانت تجول بين سلعه مترددة - وقد انحنى إلى الأمام وفغرفاء. ومن وقت لآخر، كان يمس باظفره الشيلان الحريرية المبسوطة على سعتها - وكأنه ينفذ عنها غباراً - فكانت تهتز في حفيف ضئيل، وتبرق الخيوط المذهبة التي تتخلل نسيجها كنجوم صغيرة تومض في ضوء الغسق الضارب إلى الخضرة. وسألته أخيراً: «ما ثمنها؟» فأجاب: «لا شيء في الواقع، ثمن ضئيل لا يذكر، ولا داعي للعجلة، بل ادفعني حين يحلو لك، فلسنا يهوداً» وفكرت لبضع لحظات، ثم انتهت إلى رفض ما عرض المسيو «لوريه» من جديد، فأجاب غير آبه لرفضها: «حسناً، سيفهم كل منا الآخر شيئاً فشيئاً، لقد اعتدت دائماً أن أوفق إلى أرضاء السيدات، وإن لم أفلق في أرضاء زوجتي!»

وابتسمت «إيما» بينما استطرد قائلاً في طيبة قلب، بعد النكتة: «إنما أحببت أن انبئك بأن النقود ليست بالشيء الذي يقلقني، بل اني على استعداد لأن أقدم لك منها ما قد تكونين بحاجة اليه»

وبدرت منها حركة تتم عن دهشة، فبادر قائلاً بصوت خفيض: «آه لن اضطر إلى أن أذهب بعيداً للحصول على ما تريد، فاركني إلي!»

وتحول يسأل عن الأب «تيلييه» - صاحب «المقهى الفرنسي» - الذي كان السيد «بوفاري» يعالجه: «ما بال الأب تلييه؟ إنه ليسعل حتى يهز بيته بأسره، واخشى أن لا يمضي طويل وقت حتى يكون أكثر حاجة إلى كفن منه إلى صدار من «الفانيليا»! لقد كان في شبابه مسرفاً في العريضة هؤلاء الناس يا سيدتي لا يعرفون الاعتدال، لقد أحرق نفسه بكحول الخمر، على أنه من المحزن - مهما يكن الأمر - أن يرى المرء أحد معارفه ينفى»

ومضى يتحدث عن مرضى الطبيب، وهو يربط صندوقه، ثم أردف وهو يتأمل الارض عابساً: «إن الجو ولا ريب هو سبب هذه الامراض. فأنا الآخر أشعر بتوعك، وما أراني إلا مضطراً لأن استشير الطبيب يوماً ما بشأن ألم بظهري. حسناً يا مدام «بوفاري»، استودعك الله، إنني خادمك الخاضع في خدمتك»، وأغلق الباب في رفق.

وطلبت «إيما» أن يحمل إليها العشاء عل صفحة لتتناوله إلى جوار المدفأة في

مخدعها، وقضت وقتاً طويلاً في الأكل، إذ كانت راضية عن كل شيء، وقالت لنفسها وهي تفكر في الشيلان: «ما كان أحكم تصرفي!»

وسمعت خطي على السلم، فادركت أن القادم «ليون»، ونهضت فتناولت من الصوان أول صف من المنافض التي لم تكن اطرافها بعد، فلما وصل، بدت جد منهكة في العمل. ودار الحديث بينهما متراخياً، إذ كانت مدام «بوفاري» تنصرف عنه، بينما بدا الشاب نفسه مرتكباً، وأخذ يقلب عليه «الكستبان» العاجية بين أصابعه، وهو جالس على مقعد منخفض إلى جوار المدفأة، وهي ماضية في التطريز، تطوي - من آن لآخر - طرف القماش بظفرها، دون أن تتكلم. ومن ثم لزم هو الآخر الصمت، وقد أسره سكوتها، كما كان من الممكن أن بأسره حديثها! وقالت تحدث نفسها: «يا للشباب المسكين!

على أن «ليون» لم يلبث أن قال إنه مضطر لأن يذهب إلى (روان) يوماً في بعض مهام عمله، وأردف: «لقد انتهى اشتراكك في الموسيقى، فهل أجدده لك؟» فاجابت: «لا» وسألها «لماذا» فقالت: «لأن...».

ثم زمت شفتيها وأخذت تشد الحيط الرمادي في غرزة طويلة، وكان عملها هذا يضايق «ليون»، إذ بدا أنه يؤدي إلى تخشين أناملها، وخطرت له عبارة رقيقة، ولكنه لم يجرؤ على النطق بها، بل قال: «إذن فسوف تستغنين عنها؟» فقالت: «ماذا؟» ثم أردفت بسرعة: «الموسيقى؟ آه! أجل! أليس لدي بيتي أرعاه، وزوجي أعنى به، وألف شيء، وكثير من الواجبات التي يجب أن أؤديها أولاً؟»

ونظرت إلى الساعة، فإذا «شارل» قد تأخر، وإذا ذاك تظاهرت بالقلق، بل لقد رددت مرتين أو ثلاثاً: «لكم هو طيب!» وكان الكاتب يحب السيد «بوفاري»، ولكن حنان زوجته نحوه أدهشه وساء. ومع ذلك فقد أخذ يدحه ويقول إن كل امرئ - لا سيما الصيدلي - يثني عليه فعادت «إيما» تردد: «آه، إنه طيب!» وأجاب الكاتب: «حقاً» وشرع يتحدث عن مدام «هوميه» التي كان إسرافها في إهمال مظهرها يثير ضحكهما، فقاطعت «إيما» قائلة: «وما قيمة ذلك؟ إن ربة البيت الصالحة لا تحفل بمظهرها» ثم أخذت إلى الصمت! وتكررت الحال في الأيام التالية، حديثها ومسلكتها، وكل شيء فيها قد تغير.

وأخذت تبدي اهتماماً بشئون منزلها، وتذهب إلى الكنيسة بانتظام، وتحاسب خادماتها في مزيد من الشدة. واستردت طفلتها «برت» من المرضعة. وكانت «فيليسيتيه» تحملها - إذا وقد الضيوف - فتخلع مدام «بوفاري» عنها ثيابها لتعرض اطرافها، وتردد أنها تعبد الأطفال وتجد فيهم عزاءها وقرحها وهيامها، وتقرن مداعباتها للطفلة بانطلاقات شعرية كانت كفيلة بأن تذكر أي فرد - عدا سكان (ايونفيل) - بسايشيت في رواية «نوتردام دي باري»^(١).

(١) كانت سايشيت راهبة تحدث عنها «فيكتور هيجو» في روايته الخالدة: «أحدب نوتردام».

وأصبح «شارل» يجد خفيه - حين يعود إلى الدار - وقد وضعا إلى جوار المدفأة ليكتسبا دفئاً ولم يعد صدره يفتقد البطانة، ولا اقمصته تعوزها الازرار. وكان يسره أن يرى الطاقيات في الصوان وقد انتظمت في صفوف متساوية الارتفاع . ولم تعد «إيما» تنذمر من المساهمة في الحديقة كما كانت تفعل من قبل . وغدت تنفذ ما يقترح، وإن لم تفهم الرغبات التي كانت تنصاع لها دون قلمل . وكان «ليون» حين يرى الزوج إلى جوار النار بعد العشاء، ويداه على بطنه، وقدماه على حافة المدفأة، وخداه متضرجان من التغذية، وعيناه نديتان لفرط هناءته، والطفلة تزحف على البساط، وهذه المرأة ذات الخصر النحيل تسعى من خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة. كان «ليون» حين يرى هذا، يقول لنفسه: «يا له من جنون! وكيف السبيل إليها؟»

كانت بأعمالها هذه تلوح له جد فاضلة وموفرة الحصانة، حتى لقد فقد كل أمل، ولكنه - بهذا التحول - أنزلها مكاناً غير عادي، إذ أصبحت في نظره مجردة من مفاتيحها البدنية التي لم ينل منها شيئاً، ومن ثم أخذت تسمو في قلبه، وتبعد عن متناوله كروح إلهية تحلق عالياً، ودخله شعور من تلك المشاعر الطاهرة التي لا تمت إلى الحياة الدنيوية، والتي يتعهد المرء في نفسه لأنها نادرة، يخلف فقدها من الحزن أكثر مما يضيفه من اللذات!

وأخذت «إيما» تزداد نحولاً، وخداهما يزدادان شحوباً، ووجهها يستطيل . ألم تصبح بشعرها الأسود، وعينيها الواسعتين، وأنفها الأقبى، ومشيتها التي تشبه حجل الطير، والسكون الذي أصبحت تخلد إليه، أو لم تكن تبدو - بهذا كله - وكأنها تحتاز الحياة ولا تكاد تمسها، وتحمل على جبينها ميسم مصير قدسي؟! كانت جد حزينة وهادئة، وقد غدت فجأة جد رقيقة ومتحفظة، حتى ليشعر المرء إلى جوارها بأن فتنة جليدية استولت عليه، كما يحدث لنا في الكنائس حين يبعث أريج الزهور في امتزاجه ببرودة الرخام لشعيرية في أهداننا! بل أن الآخرين لم يفلتوا من هذه الفتنة، حتى لقد قال الصيدلي: «إيما» امرأة عظيمة المواهب، ما كان ينبغي أن تعيش في بلدة صغيرة!»

وكانت ربات البيوت يعجبن باقتصادها، والمرضى يعجبون بأدبها، والفقراء ببرها، ولكنها كانت تحترق بالشهوات، والغیظ، والبغضاء! كان هذا الثوب المستقيم الثنايا، يخفي قلباً حائراً، لا تنفجر تلكما الشفتان العفيفتان عن شيء من عذابه، كانت تهوى «ليون» وتنشد العزلة لتسعد بطيفه في طمأنينة! وكانت رؤية شخصه تعكر عليها متعة نجواها! كانت تهتز طرباً لوقع خطواته، ثم يخمد الانفعال في حضوره، ولا يتبقى لها بعد ذلك سوى دهشة عارمة تنتهي إلى أسى طاغ!



ولم يكن «ليون» يعلم أنها كانت - إذا غادرها قانطاً - تنهض بعد انصرافه لترقبه

في الطريق، وأنها كانت تشغل بتتبع روحاته وغدواته، بل أنها لفقت قصة محبوبة لتجد عذراً يبرر لها زيارة غرفته، وبدت لها زوجة الصيدلي سعيدة لأنها تنام تحت السقف الذي يأويه! وأخذت أفكارها تحوم دائماً حول ذلك البيت، كحمامة فندق «الأسد الذهبي» التي كانت تأتي لتغمس أرجلها الوردية وأجنحتها البيضاء في مياه ميازيبه . على أن «إيما» كانت تزدد كبتاً لحبها كلما ازدادات ادراكاً له، حتى لا يتجلى واضحاً، وحتى تستطيع أن تضرعه! كانت تود أن يحده «ليون» من تلقاء نفسه، وتتصور ما يمكن أن ييسر ذلك من مصادفات وكرارث . وما كان مانعاً من الاتيان بالخطوة الأولى سوى الكسل، والخوف، وشعور بالحياء أيضاً؛ وخيل إليها أنها قد قتلت في صده حتى فوتت الفرصة وضيعت كل شيء .. وإذا ذلك، كانت تجد في الكبرياء، وفي البهجة التي تراودها إذ تملك أن تقول لنفسها: «أنا امرأة فاضلة»، وأن تتأمل نفسها في المرأة متخذة أوضاع الأذعان والاستكانة، كانت تجد في كل هذا عزاء بعض العزاء عن التضحية التي اعتقدت أنها كانت تقوم بها!

ثم أخذت شهوات الجسد، وجشع المال، وأشجان العاطفة، تختلط جميعاً في نوع واحد من العذاب، كانت تزدد استكانة إليه - بدلاً من أن تنتزع نفسها منه - مستحثة نفسها على الشعور بالألم، باحثة في كل مكان عن فرصة لذلك . فكانت تنفعل إذا أسئ تقديم صنف من الطعام، أو إذا رأت باباً منفرجاً، وتندب ما لا تملكه من مخمل، وما ينقصها من سعادة، وما يبعد عن متناولها من أحلام، وما كان عليه بيتها من ضيق!! واغاظها أن «شارل» لم يبد أي انتباه إلى عذابها، وبدا لها اعتقاده بأنه حقق لها كل سعادة إهانة وقحة، وأطمئنانه إلى هذا الاعتقاد جحوداً، فمن أجل من إذن كانت عفتها وفضيلتها؟! أو لم تكن من أجله هو؟! هو الذي كان حجر العثرة في سبيل كل سعادة، والسبب في كل تعاسة، والذي كان كالمحبس المذهب يحكم إغلاق ذلك الطوق المعقد اللعين الذي يطبق عليها من كافة النواحي! لذلك صبت عليه وحده كل تلك الاحقاد العديدة التي تجمعت من ضيقها، وكان كل مجهود للتخفيف من هذه الاحقاد إنما يضاعفها، إذ كان المجهود الضائع يضيف سبباً جديداً لخبية الأمل، ويزيد الهوة بينهما عمقاً، وكان تلطفها مع نفسها يزيدها قرداً على زوجها، وضعة حياتها المنزلية تدفعها إلى أحلام ملؤها البذخ، كما كانت الملاحظات الزوجية تسلمها إلى شهوات داعرة! ولكم ودت لو أن «شارل» ضربها حتى تجد مبرراً لأن تكرهه وتعمل على الانتقام لنفسها منه! .. وكانت تذهل أحياناً للخيالات الفظيعة التي كانت تراود خاطرها . ومع ذلك لم يكن هناك بد من أن تستمر في الابتسام، وأن تسمع الادعاء بأنها سعيدة يردد على مسمعها في كل الأوقات، وأن تتظاهر بالسعادة، وتدع سواها يعتقدانها سعيدة!

على أنها كانت تشعر بامتناز من هذا النفاق . وتقلبها اغراء راح يزين لها الفرار إلى مكان ما، مع «ليون»، لتبدأ حياة جديدة، ولكن هوة غامضة مفعمة بالظلام، كانت لا

تلبث أن تنشق في أعماقها، فتذهب تردد لنفسها: «ثم انه - إلى جانب هذا - لم يعد يحبني، فماذا يصيبني؟ أي عون يرجى، أي عزاء، أية تسرية؟» وتخرج من هذا كله محطمة، لاهثة، عاجزة، فتنتحب في صوت خفيض، ثم تنساب دموعها مدرارة! وكانت الخادم تسألها إذا أقبلت عليها خلال هذه الأزمات: «لم لا تخبرين السيد بهذا؟» فتجيبها «إيما»: «إنها الأعصاب! لا تخبريه، حتى لا تتولاه الهموم».

وتقول «فيليسيتيه»: «آه، حسن! إنك مثل «لاجيرين» ابنه الأب «جيران» صياد السمك في (بوليه) - التي كنت أعرفها في (دييب) قبل أن آتي إليكما - كانت جد حزينة، مفرطة الحزن، حتى ليخالها المرء - حين يراها على عتبة دارها - كفنًا مبسوطاً أمام الباب! وكان مرضها على ما يبدو نوعاً من الضباب ينتشر في رأسها - ولم يستطع الأطباء، ولا القس، أن يفعلوا شيئاً، وكانت إذا اشتدت بها نوبات المرض تذهب وحيدة إلى شاطئ البحر، فكان ضابط الجمرک يراها كثيراً - أثناء طوافه - منكفئة على الحصى تبكي. ثم قيل أنها شفيت بعد الزواج!»

وتعقب «إيما» قائلة: «أما أنا، فقد بدأ مرضي بعد الزواج!»

الفصل السادس

بينما كانت «إيما» جالسة إلى جوار النافذة المفتوحة، في إحدى الأمسيات، رأت «ليستيبيدوا» - الشمس - يشذب أغصان حديقة القس . ولم تلبث أن سمعت الناقوس يدق معلناً صلاة المساء .

وكان ذلك في أوائل إبريل، حين تفتتح البراعم، وتهب ريح دافئة على أحواض الزهور التي تم حرثها منذ عهد قريب، والحدائق تبدو كالنساء تتزين لأعياد الصيف. ومن بين أعمدة العرائش، وحولها من كل النواحي، كان النهر يرى في الحقول، هائماً بين العشب في انحناءات مرجلة، وبخرة المساء تتصاعد بين أشجار الحور المجردة من أوراقها، فتضفي على أطوارها لوناً بنفسجياً، أشد شحوباً وشفافية من شاش رفيع يعلق بين أغصانها، وكانت الماشية تبدو عن بعد وهي تتحرك دون أن يسمع لها خطوة ولا خوار، والناقوس ماض في رنينه، ناشراً في الهواء شجاء وحزنه الوديح!

وعلى رنين دقاته المتواترة، هام فكر السيدة الشابة في ذكرياتها القديمة، أيام الشباب والدراسة في الدير . فتذكرت الشمعدانات الضخمة التي كانت تبدو من وراء الأواني المليئة بالأزهار فوق المذبح، والهيكل المقدس ذا الأعمدة الصغيرة، وقنت لو أنها ظلت كما كانت إذ ذاك، تائهة وسط صف الأوشحة البيضاء الذي كانت تتخلله - هنا وهناك - بقع سوداء متناثرة تمثل محارم الراهبات المنحنيات فوق المراكع . ثم قداسات أيام الأحد، حين كانت ترفع رأسها أثناء الصلاة فتلمح وجه العذراء العذب، وسط غلالات الدخان المائلة إلى الزرق، التي كانت تتصاعد من المبخرا! إذ ذاك جاشت عواطفها، فأحست بأنها ضعيفة، مهجورة، كريحة في مهب العاصفة، وسعت - دون وعي منها - إلى الكنيسة، تواقفة إلى أية فرائض تتاح لها، كي تذيب روحها فيها، فيتلاشى الوجود!

والتقت في الميدان المؤدي إلى الكنيسة بليستيبيدوا عائداً، فقد كان يؤثر أن يوقف عمله ثم يستأنفه، بدلاً من أن يتحيف ساعات العمل اليومية، حتى لقد كان يدق الناقوس لصلاة المساء كما يلائمه، فضلاً عن أن دقه مبكراً عن موعده كان ينبه الصبية إلى موعد درس الدين!

وكان بعض الصبية قد وصلوا فعلاً، وراحوا يلعبون «البلى» على بلاط المقابر، ويهزون أرجلهم فيحصدون بأحذيتهم زهور «بنات النار» التي نمت بين السور والمقابر المتاخمة له . هذا هو المكان الوحيد الذي تشيع فيه الخضرة . أما ما عداه، فلم يكن سوى أحجار يكسوها دوماً غبار ناعم، رغم مكنسة الشمس! وكان الصبية يعدون في أرجاء المكان بأحذيتهم ذات الأعناق الطويلة، وكأنه ساحة أعدت لهم، وأصواتهم تعلق خلال رنين الناقوس الذي أخذ يخفت رويداً تبعاً لاهتزازات الحبل الطويل الذي كان يتدلى من البرج،

فيتجرر طرفه على الأرض . وأخذت بعض الطيور تحوم، مرسلّة صرخات رفيعة، وتشقّ الهواء بحواف اجنحتها، ثم ترتد في رشاقة إلى اعشاشها الصفراء، تحت قرميد حافة البناء البارزة، وفي أقصى الكنيسة كان ثمة مصباح ينتقد، أو بالأحرى فتيلة في زجاجة معلقة يلوح ضوءها من بعيد كهالة بيضاء تهتز فوق الزيت، بينما امتد شعاع طويل من الشمس عبر صحن الكنيسة كله، فزاد من ظهور ظلام جانبيها واركانها.

وسألت مدام «بوفاري» صبيّاً كان يلهم بهز مزلاج الباب في عروته الواسعة: «أين القس؟» فأجاب الصبي: «ها هو ذا قادم».

وبالفعل، انبعث صرير من باب مسكن القس. وما لبث الأب «يورتيزيان» أن ظهر، فهرع الأطفال إلى الكنيسة في هرج، وبقم القس: «يا لهؤلاء الأوغاد! إنهم دائماً على هذا الحال!» ثم التقط نسخة مهلهلة من كتاب الصلوات تعثرت فيها قدمه، وقال: «إنهم لا يحترمون شيئاً»

على أنه لم يكذ بلمح مدام «بوفاري» حتى هتف: «معذرة! لم أتبينك!» ودس كتاب الصلوات في جيبه، ووقف وهو يعيث بمفتاح الهيكل الثقيل يحاول أن يوازنه بين أصبعيه. وفي ضياء غروب الشمس المنصب على وجهه، بدا مسوحه الصوفي حائل اللون، لامعاً عند المرفقين، بالياً عند الذيل، وكانت بقع الدسم والتبغ تتناثر على صدره العريض موازية لصف الأزرار الصغيرة، ثم تتكاثر عند فتحة العنق التي ارتكزت عليها ثنايا من جلد ذقنه الأحمر، المتهدل، الذي تناثرت فيه بقع صفراء توارت تحت شعر لحية خشنة وخطها المشيب، وكان قد فرغ لثوه من تناول العشاء، فراح يتنفس بصوت مسموع، وعاد يقول: «كيف حالك؟»

فأجابت «إيما»: «ليست طيبة، إنني مريضة» ورد القس قائلاً: «وأنا كذلك، إن أيام الحر الأولى هذه تضعف المرء بدرجة عجيبة، أليست كذلك! لكننا على كل حال خلقنا لنتعذب، كما يقول بولس الرسول . ولكن، ما رأي السيد بوفاري في مرضك؟» فبدرت منها حركة ازدراء، وقالت: «هو؟!» فقال الرجل الطيب وقد أخذته الدهشة: «ماذا؟ أو لم يصف لك دواء؟»

فقال «إيما»: «آه، ليس الذي احتاج إليه بعلاج دينوي!» ولكن القس كان ينظر من آن إلى آخر نحو الكنيسة، حيث ركع الأطفال وأخذوا يتدافعون بالمناكب، ويتهاوون كرقع من الورق. ومضت «إيما» تقول: «أريد أن اعترف...»

وهنا صاح القس في صوت غاضب: «حذار يا ريبوديه، لسوف ألهب أذنيك أيها الشيطان!» ثم قال إذ تحول نحو «إيما»: «إنه ابن بوديه النجار، والداه في يسر، ولذلك يتركانه يفعل ما بدأ له، على أن بوسعه أن يتعلم بسرعة لو أنه أراد، فهو شديد الذكاء،

وكيف حال السيد بوفاري؟»

ولاح أنها لم تكن تسمعه، فاستطرد قائلاً: «لا ريب أنه جم المشاغل دائماً، فهو وأنا أكثر الناس عملاً في الأبرشية، هو طبيب الأجسام» ثم أردف وهو يطلق ضحكة أجشة: «وأنا طبيب الأرواح»

وحذّجته «إيما» بعينين ضارعتين وهي تقول: «أجل إنك تخفف الأحزان»

— آه يا مدام بوفاري، لا تحدّثيني عن ذلك، فقد اضطرتت في هذا الصباح إلى

الذهاب إلى (باديوفيل) من أجل بقرة كانت مريضة، فظنوا أنها كانت تحت تأثير

الشیطان. كل أبقارهم هكذا، وإن لم أدر لهذا مبرراً؛ ولكن، معذرة. ثم التفت نحو

الصبية وصاح: «لونجمار وبوديه، هلا كفتما عن هذا؟» وقفز مسرعاً إلى داخل الكنيسة.

وكان الصبية قد تجمعوا حول القمطر الكبير، وتسلقوا مقعد المنشد، وفتحوا كتاب

القداس، بينما أخذ بعضهم يتسلل خلسة حتى كان يبلغ جوف «مقصورة الاعتراف» ولكن

القس انهال عليهم فجأة بوابل من الصفعات، ممسكاً بتلابيب ستراتهم، وأخذ يرفعهم عن

الأرض ثم يهبط بهم على ركبهم فوق بلاط ساحة المذبح بشدة، كما لو كان يريد أن يفرسهم فيها!

وقال حين عاد إلى «إيما» وهو ينشر منديله القطني، ويمسك بأحد أطرافه بين أسنانه:

«أجل، ما أجدر المزارعين بالثناء» قالت: وغيرهم أيضاً»

— بالتأكيد، هناك عمال المدن مثلاً.

— لست أقصدهم ...

— عقوا! لقد عرفت بينهم أمهات بائسات يعلن أسرات .. ونساء فاضلات — بل أؤكد

لك انهن قديسات فعلاً — لا يجدن الحبزا

فقالت «إيما» وقد أخذ جانباً فيها يختلجان وهي تتكلم: «ولكن أولئك، أولئك اللاتي

يجدن الحبز يا سيدي القس، لا يجدن ...».

قال: «النار في الشتاء؟»

— أواه، ما قيمة هذا؟

— ماذا؟ ما قيمته؟ يخيل إلى أنه إذا ما وجد المرء الدفء والغذاء، إذ ... على كل

حال ...

فتنهدت قائلة: «يا إلهي! يا إلهي!»

— إنك تعانين من عسر هضم ولا ريب، يجب أن تعودِي إلى دارك يا مدام «بوفاري»

فتشربي قليلاً من الشاي، فإنه يقويك، أو تناولي كوباً من الماء البارد المزوج بمحلول

السكر المركز (السكر المعقود).

وتساءلت «إيما» وقد بدت كمن يفيق من حلم: «لماذا؟» فقال: «ذلك لأنك كنت تضعين يدك على جبينك فخيبل إلي أنك تشعرين بدوار» ثم استدرك قائلاً: «ولكنك كنت تسألينني عن شيء، فما هو؟ إنني لا أذكره»

فرددت «إيما»: «أنا؟ لا شيء! لا شيء!». ووقع بصرها - إذ أجالته ببطء فيما حولها - على مسوح القس، ثم عاد كل منهما يحدق في الآخر صامتين. وما لبث أن قال في النهاية، «والآن، معذرة يا مدام بوفاري، فإن الواجب قبل كل شيء، كما تعلمين، ولا بد من أن اتولى علاج تلاميذي هؤلاء الذين لا يصلحون لشيء، فإن حفلة «التناول» الأولى قادمة عما قريب، وأخشى أن تدهمنا ولما نستكمل استعدادنا، ولذلك استبقيتهم ساعة بالاضافة إلى الفترة المحددة للدرس في يوم الاربعاء من كل اسبوع، منذ عيد الصعود، في مواظبة قاسية، يا للمساكين! إن المرء لا يملك أن يرشدهم بسرعة كبيرة إلى طريق الرب، كما أوصانا هو بذاته على لسان ابنه القدوس. لك تقنيات بالصحة الجيدة، ولزوجك احتراماتي!»

ودلف إلى الكنيسة وهو يثني ركبته احتراماً عند الباب. ورأته «إيما» يغيب بين صفي المقاعد، وهو يسير بخطى ثقيلة، ورأسه مائل على كتفه قليلاً، ويداه مبسوطتان، وقد أخرجهما من المسوح، وما لبثت أن دارت على كعبيها بكل جسمها - قطعة واحدة - كتمثال على قاعدة تدور، وعمت شطر بيتها. غير أن صوت القس المرتفع، وأصوات الأطفال الصافية، ظلت تصل إلى أذنيها وتلاحقها: «هل أنت مسيحي؟» «نعم، أنا مسيحي». «ومن هو المسيحي؟» «هو ذلك الذي عمد ... عمد ... عمد!»

وصعدت درجات السلم متشبثة بالحاجز (الدرابزين)، حتى إذا بلغت حجرتها القت بنفسها في مقعد مريح. وكان الضوء الشاحب المناسب خلال زجاج النافذة يهبط في تموجات خفيفة، ولاحت قطع الأثاث في أماكنها أكثر جموداً مما هي عادة، وأشد توارياً في الظلال وكأنها تغوص في بحر من الظلمات، والمدفأة مطفأة، والساعة سادرة في دقائقها. وساور «إيما» عجب غامض لهذا الهدوء الذي يسود كل الأشياء، بينما يفعم جوفها باضطراب صاحب! وقطنت إلى أن «برت» الصغيرة كانت هناك - بين النافذة ومنضدة الحياكة - تتأرجح على حذايها المنسوجين باليد (تريكو)، وتحاول أن تسعى إلى أمها لتمسك بأطراف أشرطة مزلتها. فقالت وهي تنحيها بيدها: «دعيني وشأنها»

على أن الصغيرة لم تلبث أن اقتربت من ركبتَي أمها، فاستندت إليهما بذراعيها، وتطلعت بعينيها الزرقاوين الواسعتين، وقد انساب من بين شفثيها خيط صغير من اللعاب أخذ يتساقط على مزلتها الحريرية. فكررت الشابة في ضيق: «دعيني وحدي!» وأقزع وجهها الطفلة، فأخذت تصرخ، ولكزتها الأم بمرفقها قائلة: «هلا تركتيني وحيدة؟» وسقطت «برت» عند قاعدة الصوان، فشق مقبض الدرج النحاسي خدها، الذي شرع ينزف دماً. ووثبت مدام «بوفاري» لترفعها، وقطعت جبل الجرس، فنادت الخادم بأعلى صوتها،

وعندما همت بأن تلعن نفسها ، ظهر «شارل» ، إذ كانت ساعة العشاء قد حانت، فعاد إلى البيت.

وقالت «إيما» في صوت هاديء: «انظر يا عزيزي! لقد وقعت الصغيرة وهي تلعب، فجرت نفسها» فطمأنها «شارل» إلى أن الأمر ليس خطيراً، وذهب ليحضر بعض الضمادات اللاصقة (البلاستر).

ولم تهبط مدام «بوفاري» إلى قاعة الطعام، إذ رغبت في أن تخلو للعناية بالطفلة. وإذا أخذت ترقبها وقد نامت، زایلها رويداً ما أحست به من قلق، وبدأ لها أنها كانت غيبة وساذجة إذ داخلها كل ذلك الاتزعاج لأمر بسيط كهذا. فالواقع أن «برت» لم تعد تشهق بنهنية البكاء، بل أن انفاسها أخذت ترفع في رفق الغطاء القطني الذي اسبغته عليها أمها، وعلقت قطرات كبيرة من الدموع بأركان اجفانها نصف المغمضة التي كان المراء يلح بين أهدابها حذقتين شاحبتين، غائرتين، والضمادة اللاصقة بخدها تشد جلدتها في خط منحرف. وعبر خاطر ببال «إيما»، فقالت لنفسها: «يا عجباً! ما أقبح هذه الطفلة!»

وعندما عاد «شارل» في الساعة الحادية عشرة من الصيدلية - حيث كان قد ذهب بعد العشاء ليرد ما تبقى من الضمادة اللاصقة - وجد زوجته وهي تقف إلى جوار المهد، فقال وهو يقبل جبينها: «قلت لك إنها أصابة تافهة، فلا تنزعجي يا حبيبتي المسكينة، وإلا اسلمت نفسك للمرض» وكان قد مكث طويلاً في بيت الصيدلي، إذ جهد «هوميه» في التسمية عند وتقوية روحه المعنوية، رغم أنه لم يبد كثيراً من القلق والتأثر. ثم أخذوا يتحدثون عن الأخطار العديدة التي يتعرض لها الأطفال، وعن إهمال الخدم. وكانت مدام «هوميه» على دراية بشيء من هذا، إذ كان صدرها لا يزال يحتفظ بآثار وعاء مليء بالحساء الساخن، اسقطته طاهية على صدر مرولتها فيما مضى، فتجثم أبواها من أجلها متاعب لما تكذب تنتهي! ومن ثم أصبحت السكاكين - في منزل الصيدلي - لا تشد قط، والأرض لا تدهن بالشمع، وأقيمت قضبان على النوافذ، وقضبان أخرى متينة من الحديد أمام المدفأة. وكذلك أصبح أبناء «هوميه» لا يكادون - رغم حريتهم - يتحركون دون رقيب يرعاهم. وكان أبوهم «يحشوهم» بأدوية الصدر عند أشفاء أصابة بالبرد، كما كانوا - حتى سن الرابعة - يقسرون في غير أشفاق على ارتداء طاقيات من الوبر، وكان هذا تطرفاً من مدام «هوميه» في الواقع، مما كان يبعث في نفس زوجها قلقاً، إذ كان يخشى آثار مثل هذا الضغط على أجهزة الرأس، حتى لقد كان يقول لها أحياناً: (اتريدين أن تجعلي منهم فرقة من الهنود الحمر أو من قبائل حوض البحر الكاريبي؟)

وحاول «شارل» أن يقطع الحديث أكثر من مرة، فهمس في أذن الكاتب: «أود أن أتحدث إليك في أمر» فتقدمه الكاتب صاعداً السلم وهو يسائل نفسه: (أتراه قد حدس شيئاً؟) وأخذ قلبه يخفق، وراح يرهق ذهنه بالافتراضات. وأخيراً رجاء «شارل» - بعد أن أغلق الباب - أن يسأل بنفسه في (روان) عن ثمن صورة فوتوغرافية بديعة، إذ كان يود

أن يعد لزواجه مفاجأة عاطفية، لفترة رقيقة تتمثل في صورة له وهو يرتدي الحلة السوداء. ولكنه أراد أولاً أن يعرف كم تتكلف، وما كان السؤال ليضايق السيد «ليون» في شيء، إذ كان يذهب إلى المدينة في كل أسبوع تقريباً.

ولكن، لماذا «ليون» بالذات ؟! حدس السيد «هوميه» أن وراء المسافة مغامرة من مغامرات الشباب أو مؤامرة! ولكنه كان مخطئاً، إذ أن السيد «ليون» لم يكن يسعى إلى غرام، بل أنه كان أكثر اكتئاباً منه في أي وقت مضى، كما لمست ذلك مدام «لوفرانسوا» من كمية الطعام التي أصبح يتركها في طبقه. وقد سألت محصل الضرائب علة يزيدا علماً وايضاحاً، ولكن «بينيه» أجابها في جفاء بأنه «لا يعمل في البوليس»!

ومع ذلك، فقد لاح له زميله في حال جد غريبة، إذ كثيراً ما كان «ليون» ينطرح في مقعده، ويمد ذراعيه، ويشكو من الحياة في اسلوب غامض! وقد قال له المحصل: «إنما يرجع ذلك إلى أنك لا تحصل على نصيب كاف من الراحة والتسلية».

- أية تسلية ؟

- لو كنت في مكانك لهويت العمل بالمخرطة.

قال الكاتب: «ولكني لا أعرف كيف أديرها» فرد الآخر وهو يحك ذقنه في مزيج من الترفع والرضى: «آه، هذا صحيح!»



كان «ليون» قد برم بالحلب الذي لا غاية له، ثم بدأ يشعر بذلك الضيق الذي يسببه مضي الحياة على وتيرة واحدة متكررة، دون ما هدف يوجهها، أو أمل يعززها. واشتد به الملل من «ايونفيل» وأهلها، حتى أصبحت رؤيته بعض الأشخاص والبيوت، تثيره إلى درجة لم يعد يحتملها! وقد كان الصيدلي رجلاً طيباً، إلا أنه أصبح لا يطيقه البتة. ومع ذلك فإن التفكير في نوع جديد من الحياة كان يفزعه بقدر ما كان يستهويه! وتحولت هذه الهواجس بعد قليل إلى نفاذ صبر، وإذ ذاك أخذت باريس تناديه - على البعد - بضجيج حفلاتها الراقصة الصاخبة، وضحكات عاملاتها اللعوبات، وإذ كان لابد من أن يتم دراسته القانونية هناك، فلماذا لا يرحل إليها لتوه؟ وما الذي يمنعه؟ وشرح يعد متاعه، ودبر أعماله مقدماً، واثق في خياله مسكناً يعيش فيه حياة فنان، فيتلقى دروسه في العزف على «الجيتر»، ويقتني «روب دي شامير»، وقلنسوة على غرار قلنسوات أهل (الباسك)، وخفين من المخمل الأزرق! بل أنه بدأ يتصور في اعجاب سيفين متقاطعين فوق مدفأة مسكنه وفوقهما «جيتار» تعلوها جمجمة!

وكانت العقبة تنحصر في الفوز بموافقة أمه. على أنه لم ير ما هو أحكم من هذا التدبير، بل أن رئيسه نفسه نصحه بأن يلتحق بمكتب آخر يستطيع فيه أن يحرز تقدماً

سريعاً في مرانه ودراسته. وإذ ذاك، انتهج «ليون» طريقاً وسطاً، فأخذ يبحث عن مكتب في (روان) يقبله ككاتب ثان، فلما لم يجد، كتب إلى أمه في النهاية خطاباً طويلاً مسهباً شرح فيه أسباب مبادرته للرحيل إلى باريس والاقامة فيها فوافقت! على أنه لم يتعجل، وظل «هيفير» شهراً بأكمله يحمل معه كل يوم من (ايونفيل) إلى (روان)، ومن (روان) إلى (ايونفيل) صناديق، وحقائب، وحزماً. حتى إذا أعد «ليون» ثيابه، وجد حشو مقاعده المريحة الثلاثة، واشترى عدداً من ربطات العنق، وقام - بالاختصار - باستعدادات تفوق ما يلزم لرحلة حول العالم، أخذ يرجئ سفره من أسبوع إلى آخر، حتى تلقى من أمه خطاباً ثانياً تستحثه فيه على الرحيل ما دام قد اعتزم أن يتقدم للامتحان قبل موسم العطلات.

وعندما حانت ساعة الوداع، بكى مدام «هوميه»، وانتحب «جوستان»، وأخفى «هوميه» تأثيره - كرجل قوي الأعصاب - ورغب في أن يحمل بنفسه معطف صديقه حتى باب مكتب الموثق الذي كان سيقبل «ليون» في عربته إلى (روان). ولم يتبق لليون سوى لحظات يودع فيها السيد «بوفاري». فلما بلغ قمة السلم، توقف وقد تتابعت أنفاسه لاهثة. وإذا دلف إلى المكان، نهضت مدام «بوفاري» في عجلة، فقال ليون: «ها انذا مرة أخرى». فقالت: «كنت متأكدة من هذا» وعضت شفتيها، واندفعت فيض من الدماء خلال بشرتها فاصطبغت - من منابت شعرها حتى طوق ثوبها - بالحمرة. وظلت واقفة، مستندة بكتفها إلى الخشب الذي كان يكسو الجدار، بينما مضى متسائلاً: «هل الطبيب هنا؟» فأجابته: «إنه في الخارج، في الخارج!» ثم سادها صمت. وأخذ كل منهما يرمق الآخر، وقد رزحت أفكارهما تحت ألم واحد، متعاقبة كصدرين ينبضان، ثم قال «ليون»: «أود أن أقبل برت» فهبطت «إيما» بضع درجات ونادت «فيليسيتيه»، وألقى نظرة طويلة على ما حوله من جدران، وزخارف، ومدفأة، وكأنه ينفذ خلال كل شيء! وعادت الخادم تحمل «برت» وهي تهز طاحونة هواء صغيرة مقلوبة رأساً على عقب ومعلقة في خيط. وطبع «ليون» عدة قبلات على عنقها وغمغم: «في رعاية الله أيتها الطفلة المسكينة! استودعك الله أيتها الصغيرة الحبيبة! وداعاً!» ثم ردها إلى أمها، فقالت للخادم: «أخرجي بها» وبقيا وحيدتين، وقد أولته مدام «بوفاري» ظهرها، وألصقت وجهها بزجاج النافذة، بينما أمسك «ليون» بقلنسوته يضرب بها فخذه برفق.

وقالت «إيما»: «السماء ستمطر!» فأجاب: «لدي معطف» قالت: «آه. ثم استدارت، وقد خفضت ذقنها، فبرز جبينها، وسقط عليه الضوء - كما يسقط على قطعة من مرمر - فأنحدر حتى حاجبها، دون أن يملك المرء أن يحس ما كانت «إيما» تراه عند الأفق، ولا ما كان يجول في سريرتها. وما لبث «ليون» أن تنهد قائلاً: «والآن وداعاً» فرفعت «إيما» رأسها بحركة سريعة وقالت: «أجل، وداعاً أذهب!» وتقدم كل منهما نحو الآخر، ومد يده، ولكنها ترددت، ثم قالت وهي تسلمه يدها، وتغتصب ضحكة: «فليكن على الطريقة الانجليزية إذن!» وتحسس «ليون» راحتها بين أصابعه، ولاح له أن روح كيانه كله قد

انسابت إلى يدها الرطبة ثم فتح يده، وتلاقت أعينهما مرة أخرى، ثم اختفى! حتى إذا بلغ السوق، انحرف متوارياً خلف عامود، وتزود بنظرة أخيرة من البيت الأبيض ذي النوافذ الخضراء. وخيل إليه أنه رأى طيفاً خلف نافذة حجرة «إيما»، ولكن الستارة انسابت على مشجبها، وكان شخصاً أخذ يزحزحها، فراحت تنسدل رويداً ناشرة ثنياتها الطويلة المائلة، ثم انبسطت كلها أمام النافذة وظلت مسدلة في استقامة ودون ما حراك، كجدار من الجص! وانطلق «ليون» يعدو، ورأى عن بعد عربة رئيسه على الطريق، وإلى جوارها رجل في مرولة سميكّة، يسك بالجواد، وكان «هوميه» والسيد «جويومان» يتحدثان، ريشما يصلان وقال له الصيدلي والدموع تترقق في عينيه: «قيلني! هاك معطفك يا صديقي العزيز خذ حذرک من البرد، واحترس لنفسك اعتن بنفسك!». وقال موثق العقود: «هيا يا ليون، اصعدا» وانحنى «هوميه» على «رفر» العربة، ونطق بهاتين الكلمتين الحزینتين بصوت يقطعه النشيج: «رحلة سارة!» فأجابه السيد «جويومان»: «عم مساء!». وتحركت العربة، وقفل «هوميه» عانداً.



كانت مدام «بوفاري» قد فتحت النافذة المظلة على الحديقة وأخذت ترقب السحب، فإذا هي تتجمع حول الشمس الغاربة في اتجاه (روان)، ثم تطوي بسرعة ذيولها السوداء، فتندفع من ورائها خيوط الشمس الطويلة كأنها سهام من ذهب في درج معلقة، بينما كانت بقية السماء خالية، بيضاء كالخزف. على أن الريح لم تلبث أن هبت فأحنت هامات شجر الحور، ثم سقط المطر فجأة، وأخذت قطراته ترتطم بالورق الأخضر في صوت مسموع، ثم عادت الشمس إلى البزوغ، فانبعث صوت الدجاج، وأخذت الطيور تنفض اجنحتها وسط الأعشاب الكثيفة المخضلة، وحملت المياه معها وهي تنحدر على الحصاء زهور اللبخ الوردية.

وحدثت «إيما» نفسها قائلة: «أها! ما أبعد المسافة التي يكون ولا بد قد قطعها الآن!» وجاء السيد «هوميه» في منتصف الساعة، أثناء تناول العشاء - كعادته - وقال: «لقد ودعنا صديقنا الشاب!» فقال الطبيب: «علمت بذلك» ثم دار في مقعده وقال: «هل من أنباء عن الأسرة؟»

- لا شيء يستحق الذكر، اللهم الا أن زوجتي كانت متأثرة بعد ظهر اليوم، أنت تعرف النساء، يتأثرون لأنفهم الأمور، ولا سيما زوجتي، ونخطئ لو أننا عارضنا ذلك، إذ أن جهازهن العصبي أرق من جهازنا!

وقال شارل: «مسكين ليون! ترى كيف سيعيش في باريس؟ وهل يألفها؟» فتنهدت مدام «بوفاري»، وطقط الصيدلي بلسانه قائلاً: «يألفها! حفلات العشاء في المطاعم،

والمراقص التنكرية والشمبانيا أؤكد لك أن كل هذ سيحلوا لها» فاعترض «بوفاري» قائلاً: «ما أظنه سينزلني إلى الفساد» فأسرع السيد «هوميه» قائلاً: «ولا أنا وإن كان سيضطر إلى أن يجاري الآخرين خشية أن يظنوه من «الجزويت»! وما أراك تعرف أية حياة يمارسها أولئك «الكلاب» من شباب الحي اللاتيني مع الممثلات ثم أن الطلبة يحظون بنظرة طيبة في باريس، ويكفي أن يظهروا بعض المواهب حتى يقبلهم القوم في خير المجتمعات بل أن من سيدات الحي «سان جيرمان» من يتدلهن في هواهم، فيتحن لهم الفرص لزيجات طيبة جداً!»

قال الطبيب: «ولكنني أخشى عليه، هناك...»، فقاطعه الصيدلي قائلاً: «أصبت، هذا هو الجانب الآخر للموضوع. فالمرء هناك مضطر إلى أن يبقى يده فوق جيبه. إنك قد تكون في حديقة عامة - مثلاً - فيتقدم إليك شخص حسن الهندام - وربما كان يحلي صدره بوسام حتى ليحسبه المرء من رجال السلك الدبلوماسي - ويستدرجك، ويتلطف معك، ويقدم إليك قبضة من سعوط، أو يلتقط قبعتك إذا وقعت، ثم يزداد ودّاً فيصحبك إلى مقهى، ويدعوك إلى منزله الريفى. وبين كأسين من النبيذ يقدمك إلى كافة أنواع الناس. وفي ثلاث أرباع الحالات لا يكون ذلك إلا لينشل ساعتك، أو ليورطك في مأزق خبيث» فقال «شارل»: «هذا صحيح! على انني كنت أفكر بوجه خاص في الأمراض. حمى التيفوئيد مثلاً، التي تصيب الطلبة الواقدين من الريف!»

وارتعدت «إيما».. بينما قال الصيدلي: «هذا راجع إلى تغيير نظام الأكل، وما يترتب عليه من اضطراب في الجهاز كله. ثم، هناك ماء باريس، ألم تسمع عنه؟ وكل تلك الأطعمة التي تقدم في المطاعم كل تلك الأغذية الكثيرة التوابل، التي تنتهي إلى اشاعة الحرارة في الدم، وهي لا تعادل - مهما قال الناس عنها - حساء طيباً! لقد اعتدت - شخصياً - أن أفضل الطعام البسيط دائماً، فهو أكثر فائدة من سواء. لذلك أقمت - حين كنت أدرس الصيدلة في (روان) - في نزل خاص «بنسيون»، وكنت أتناول طعامي مع الاساتذة».

وهكذا استمر يعرض آراءه، وميوله الشخصية، حتى أقبل «جوستان» يدعوه فصاح: «أما من لحظة راحة؟ دائماً أراني مشدوداً إلى الصيدلية والعمل! أو استطيع أن أخرج دقيقة؟ هل أظل أكد وأكدح كالخصان المشدود إلى المحراث؟ يا لها من عبودية!» حتى إذا بلغ الباب، التفت قائلاً: بهذه المناسبة، هل عرفتما النبأ؟ - أي نبأ؟

أجاب «هوميه» رافعاً حاجبيه، متخذاً أكثر مظاهره جدية: من المحتمل جداً أن الاجتماع الزراعي - الذي كان يعقد عادة في مقاطعة السين السفلى - سيعقد هذا العام في (يونيفيل)، هذه هي الشائعة المنتشرة. وقد أشارت إليها الصحفية في هذا الصباح. وسيكون هذا أمراً بالغ الأهمية لمنطقتنا. على أننا سنتحدث عن هذا فيما بعد. شكراً، إنني أرى طريقتي، فإن «جوسان» يحمل المصباح».

الفصل السابع

كان اليوم التالي حزيناً بالنسبة لايما، إذ لاح لها كل شيء ملتفاً في جو أسود يطفو في اضطراب حائر على أسطح الأشياء ومظاهرها. وأخذ الأسى يغوض في أعماق نفسها في عواء واهن كالذي تبعثه رياح الشتاء في القلاع الخربة! كان ذلك صدى لمثل ذلك التفكير الحالم الحزين الذي نخلعه على الأشياء التي لا رجعة لها، أو الكلل الذي يعترك بعد الجهد المبذول، أو الألم الذي يسببه جمود حركة معتادة سادرة، أو التوقف الفجائي لأي اهتزاز طال به الأمد!

وكما حدث عند العودة من (فوبيسار) - حين كانت الرقصات تدور في رأسها - اعترتها كآبة قاتمة، وقنوط خدر نفسها، وعادوها طيف «ليون» أطول قامة، وأكثر ملاحظة، وفتنة، وغموضاً فهو لم يفارقها، وإن كان قد انفصل عنها. كان هناك، وكان جدران البيت ما زالت تحتفظ بشبهه! ولم تكن تملك أن تحول بصرها عن البساط الذي سار عليه، ولا عن تلك المقاعد الخاوية التي كان يجلس عليها. ولقد ظل النهر ينساب، ويدفع في بطن موجاته الصغيرة على طول الضفاف الزلقة. كم من مرة سارا هناك على الحصباء المكسوة بالطحالب، يرافقهما خريف الأمواج!؟ ما كان أشد تألق الشمس إذ ذاك! أية أصائل هائلة شهداها وحدهما في الظل عند نهاية الحديقة! كان يقرأ لها بصوت مرتفع، وهو عاري الرأس، وقد جلس فوق مقعد من الأغصان الجافة، وريح المروج الرقيقة تهز صفحات الكتاب وأزهار الخميلة. أواه! لقد ذهب! فتنة حياتها، والأمل الوحيد في السعادة المحتملة! لم لم تقتنص تلك السعادة حين واتتها؟ لم لم تتشبت بها بكلتا يديها، وكلتا ركبتيها، حين همت بأن تفر منها!؟ وأخذت تلعن نفسها لأنها لم تحب «ليون» لشد ما كانت ظامئة إلي شفتيه! واستولت عليها الرغبة في أن تفر وراءه وتلحق به، فتلقى بنفسها بين ذراعيه وتقول له: «ها أندي! إنني لك!» ولكنها ما لبثت أن تقاعست إزاء صعوبات المغامرة، ولم تزد شهواتها - التي ضاعفها الندم - إلا ضراوة!



ومنذ ذلك الحين غدت ذكرى «ليون» محوراً لسأمها. كانت تشتغل هناك، في أزيز يفوق أزيز نار خلفها المسافرين فوق الجليد، في سهول المراعي الروسية! وكانت تقفز نحوه، وتلتصق به، وتحرك في عناء النار المحتضرة وتبحث في كل ما حولها عن شيء يذكىها! وجمعت أبعد الذكريات، وأقرب المناسبات، وما خبرته، وما تخيلته، وشهواتها العريضة التي لم تحظ بالأشباع، ومشروعات السعادة التي تكسرت في الرياح كما تتكسر الأغصان

الذاوية، وفضيلتها العقيم، وآمالها المبددة، والألفة المنزلية. كل هذا جمعته - دون أن تفعل شيئاً - ثم اتخذته وقوداً لشجونها!

على أن اللهب لم يلبث أن خمد، إما لأن الوقود قد نفذ، أو لأنه تراكم أكثر مما ينبغي، وشيئاً فشيئاً، أخذ الحب يخمد بسبب الفراق، والندم يختنق بحكم الاعتياد، ووهج الحريق الذي اشاع في سمائها الشاحبة لوناً قرمزيّاً يخبر رويداً وفي غفلة ضميرها، ظنت أن اشمئزازها من زوجها إن هو إلا تلهف لحبيبها! بيد أن العاصفة ظلت هوجاء، حتى إذا احترقت الشهوة فصارت رماداً، دون أن تلتقي عوناً، ودون أن تشرق شمس، أطبق الليل على المسكينة من كل جانب، وضلت في البرد الفظيع الذي كان يخترمها. ثم عاودتها ذكرى أيام (توست) البغيضة، وأصبحت ترى نفسها أكثر تعاسة، إذ كانت قد خبرت الحزن، فأيقنت أنه لن ينتهي!

وإن امرأة تفرض على نفسها مثل هذه التضحيات، لخليقة بأن تسمح لنفسها ببعض النزوات! وبالفعل، ابتاعت «إيما» مقعداً قوطياً للصلاة، وانفقت خلال شهر واحد أربعة عشر فرنكاً في شراء ليمون لتنظيف أظافرها، وكتبت إلى (روان) في طلب ثوب من الكشمير الأزرق، واختارت شالاً من ابدع شيلان «لوريه»، واعتادت أن تعقده حول خصرها على الثوب الكشمير، ثم تغلق النوافذ، وتستلقي في هذا الزي على أريكة، وفي يدها كتاب! وكثيراً ما أخذت تبدل طريقة تصفيف شعرها، فأحياناً تصففه على الطريقة الصينية، أو ترسله في خصلات رخوة تجدلها في صفائر، أو تفرقه على جانب الرأس مقصوصاً من أسفل كما يفعل الرجال!

وأرادت أن تتعلم الايطالية فابتاعت معاجم وكتاباً في النحو، وكمية من الورق الأبيض، وجريت القراءة الجدية في التاريخ والفلسفة. وكان «شارل» يستيقظ مجفلاً أثناء الليل أحياناً، ظاناً أن أحداً يناديه لاسعاف مريض، فيغمغم: «ها أنذا قادم»، ثم يفتن إلى أن ما سمع لم يكن سوى صوت عود من ثقاب اشعلته «إيما» لتوقد المصباح! ولكن قراءتها لم تكن أسعد حظاً من تطريزها، كلها لم تحظ بأكثر من الخيوط الأولى، ثم كانت تلقي بها في الصوان، وتشرع في تطريز غيرها، لتلقي بها بدورها. وهكذا لم تكن تشرع في قراءة كتاب حتى تطرحه جانباً وتتناول سواه!

وكانت تتولاها نوبات من السهل أن تنساق خلالها إلى ارتكاب أية حماقة. فقد تحدث زوجها يوماً بأنها تستطيع أن تشرب كأساً كبيرة من «البراندي». وإذا كان «شارل» من الحمق بحيث قبل هذا التحدي، فقد ازدردت ما كان في الكأس حتى آخر قطرة! وبالرغم من تصرفاتها النزقة - كما كانت ربات البيوت في (ابونفيل) يصفنها - فإن «إيما» لم تكن قط مرحة، بل كان يحف بجانبها فمها عادة ذلك التقلص الجامد الذي ينتاب وجوه العوانس، والرجال ذوي الطموح الخائب! واشتد بها الشحوب حتى غدت كالثوب الأبيض، وأصبح جلد أنفها مشدوداً عند الفتحيتين، وغدت عينها ترنوان إليك بنظرات مبهمة،

وراحت تكثر من الحديث عن شيخوختها ، بعد أن اكتشفت ثلاث شعرات بيضاء في مفرقها !

وكثيراً ما كانت تصاب بالاغماء ، حتى بصقت دماً ذات يوم . وعندما أخذ «شارل» يروح ويجيئ حولها في اهتمام ينم عن قلق ، قالت له : «آه ! وما أهمية هذا ؟» فأسرع «شارل» إلى مكتبه وانخرط في البكاء ، وقد اتكأ بمرفقيه على مكتبه وهو جالس في مقعده تحت صورة الجهاز العصبي . ثم كتب لأمه يسألها أن تحضر ، وراحا يعقدان معاً الأحاديث الطويلة ، ويتبادلان الرأي بشأن «إيما» ما الذي ينبغي أن يتخذه ؟ ما الذي ينبغي فعله ما دامت ترفض كل علاج طبي ؟ وقالت مدام «بوفاري» الأم : «أفتعرف ما الذي يلزم لزوجتك ؟ إنها تحتاج إلى أن تنهمك في عمل يدوي يشغلها ، ولو أنها كانت مضطرة - ككثيرات غيرها - إلى كسب عيشها ، لما راودتها هذه الأوهام التي تواتبها من كثير من الأفكار التي تحشد بها رأسها ، ومن البطالة التي تعميش فيها ، فقال «شارل» : «ولكنها دائماً مشغولة» .

- آه ، حقاً . مشغولة بماذا ؟ قراءة الروايات ، والكتب الرديئة ، والمؤلفات الموضوعة ضد الدين ، والتي يسخر مؤلفوها من القسس بأقوال مقتبسة عن «فولتير» ؟ كل هذا يشتت العقل يا بني المسكين ! أي إنسان بلا دين لابد أن ينتهي أسوأ نهاية !

ومن ثم استقر الرأي على منع «إيما» من قراءة الروايات . ولم يكن الأمر هيناً ، ولكن السيدة تعهدت بالأمر ، فوُضِي أن تذهب بنفسها إلى متعهد الكتب - عند مرورها بروان - فتخبره بأن «إيما» أوقفت اشتراكها . ترى ، أليس لهما الحق في أن يلجأ إلى البوليس إذا اصر صاحب المكتبة - رغم ذلك - على المضي في تجارته التي تسمم العقول ؟!

وكان الوداع بين الحماة وزوجة ابنها فاتراً ، لم تكونا خلال الأسابيع الثلاثة التي قضتاها معاً قد تبادلنا ست كلمات ، فوق الأسئلة والعبارات التي كانتا تتبادلانها على المائدة ، وقبل اللجوء إلى الفراش بالليل . ثم رحلت مدام «بوفاري» الكبيرة في أحد أيام الأربعاء ، التي تعقد فيها سوق (ايونفيل) ، وكان الميدان منذ الصباح قد اكتظ بصف من العربات التي امتدت بمحاذاة المنازل من الكنيسة إلى الفندق ، وقد ارتكزت على مؤخراتها ، وارتفعت أذرعها في الهواء . وعلى الجانب الآخر ، كانت ثمة خيام تباع فيها الأقمشة القطنية والأغطية ، وجوارب الصوف مع سروج الخيل ، ولفائف الأشرطة الزرقاء التي تتطاير اطرافها مع الريح وكانت قطع الحديد الخردة منتشرة بين البيض المنسق على شكل أهرامات ، وأقراص الجبن التي يبرز منها قش لزج ، وإلى جوار آلات درس القمح ، كان الدجاج ينقنق في أقفص منخفضة وهو يمد رقابه خلال القضبان . والجمهور متجمع في مكان واحد ، لا يبغى عنه انتقالاً ، حتى لقد كان يوشك أحياناً أن يهشم واجهة الصيدلية التي كانت لا تخلو أبداً في أيام الأربعاء من الذين كانوا يقبلون طلباً للمشورة الطبية أكثر منهم لشراء أدوية ، نظراً لما كان للسيد «هوميه» من صيت ذائع في القرى المجاورة ، حيث فتن الريفيون

بقوة اعتداده بنفسه، فكانوا يعتبرونه أعظم الأطباء طراا

وكانت «إيما» تتكىء على حافة النافذة، على نحو ما كانت تفعل في كثير من الأحيان، فالنافذة تحل في الريف محل المسرح والنزهة. وفيما هي تتسلى بمشاهدة حشد من الاجلاف، رأت سيداً في «ردنجوت» من المخمل الأخضر، وفي يديه قفازان أصفران، وقد غطى حذاءيه بزوج من «جيتز» سميك، وكان يسعى نحو منزل الطبيب، يتبعه فلاح يسير مطاطى الرأس، بادي الاستغراق في التفكير وقال الرجل يسأل «جوستان» - الذي كان يتحدث إلى «فيليسيتيه» عند درجات المدخل - وقد ظنه خادماً في المنزل: «هل استطيع أن أقابل الطبيب ؟ قل له إن السيد «رودولف بولانجيه» من (لاهوشيت) هنا». وما قرن اسمه بـ (لاهوشيت) من قبيل النعرة الإقليمية، وإنما زيادة في التعريف بنفسه، والواقع أن (لاهوشيت) كانت ضيعة على مقربة من (ايونفيل)، ابتاع السيد «رودولف» قصرها، ومزرتعين منها يستطيع أن يزرعهما بنفسه، ولكن دون أن يجشم نفسه كثير عناء. وكان يعيش أعزب، وقيل إن دخله بلغ «خمسة عشر ألفاً من الفرنكات في العام، على الأقل»! وأقبل «شارل» على الغرفة، فقدم إليه السيد «بولانجيه» رفيقه الذي كان يريد أن يفصد لأنه كان يحس «بتنعيل يسري في كل جسمه»! وقال الرجل يعارض كل حجة: «لسوف يظهرني هذا». ومن ثم أمر «بوفاري» بضمادة ووعاء سأل «جوستان» أن يمسه له، ثم قال للفلاح الذي شحب لونه: «لا تخف يا بني!». فقال الآخر: «لا، لا، يا سيدي، هيا». وفي تظاهر بالجرأة، مد ذراعه الضخمة. وبوخزة من المضغ، انبثق الدم ملطخاً المرأة، فهتف شارل: «قرب الوعاء» بينما قال الفلاح: «يا الهي! إن المرء ليحسبها نافورة صغيرة. ما أشد حمرة دمي! إنها دلالة طيبة. أليست كذلك؟!»

فقال الطبيب: «إن المرء لا يشعر بشيء في البداية - أحياناً - ثم يواتيه الاغماء فيما بعد، لا سيما ذوي البنية القوية كهذا الرجل!» وعند هذه الكلمات، أفلت الفلاح الكيس الذي كان يعيث به بين أصابعه، وطقطق ظهر المقعد إذ سرت في كتفيه رعدة، وسقطت قبعته، فقال «بوفاري» وهو يضغط الوريد بأصبعه: «لقد توقعت هذا». وأخذ الوعاء يهتز بين يدي «جوستان»، وارتجفت ركبتاه، وشحب لونه، فنادى شارل: «إيما إيما!»، وهبطت السلم في وثبة واحدة، فصاح: «بعض الخل. يا الهي! اثنان في وقت واحد».. وتعذر عليه - لفرط انفعاله - أن يضع الكمادة!

وقال السيد «بولانجيه» في هدوء وهو يمسك بذراع «جوستان» ويجلسه على المائدة وظهره إلى الحائط: «ما هذا بشيء!» وراحت مدام «بوفاري» تخلع عنه رباط رقبته، وانهقد الشريط الذي يضم فتحة قميصه، فظلت دقائق تحرك اصابعها الرقيقة حول عنق الفتى، ثم سكبت بعض الخل على منديلها «الباتيستيه»، ورطبت صدغيه بلمسات خفيفة وراحت تنفخ فيهما برفق. وما لبث الفلاح أن أفاق، ولكن أغماء «جوستان» طال، واختفت حدقته في بياض عينيه كما تغيب الزهور الزرقاء في اللبن. فقال شارل: «يجب أن نخفي

هذا عنه»، فتناولت مدام «بوفاري» الوعاء لتضعه تحت المائدة. واذا تحركت منحنية، انتشر حولها - على بلاط الغرفة - ثوبها. وكان ثوباً صيفياً أصفر، ذا أربعة «كرانش» وخصر طويل وذيل واسع وترنحت «ايمّا» قليلاً وهي منحنية فبسطت ذراعيها، فالتف القماش حول صدرها، مبيناً قسماته، ثم ذهبت لتحضر إبريق ماء، وفيما كانت تذيب بعض قطع السكر فيه، وصل الصيدلي، وكانت الخادم قد ذهبت في غمرة الارتباك لاستدعائه، وما أن رأى عيني تلميذه تحمّلان، حتى تنفس الصعداء، ثم ذهب إليه فحذق فيه من رأسه إلى قدمه وقال: «مغفل! مغفل كبير! مغفل بالثلث! كأنني بالحجامة عملية خطيرة، أليس كذلك؟! أفهكذا يتحول الصيدلي الذي لا يخشى شيئاً إلى سنجاب من النوع الذي يتسلق إلى ارتفاعات شاهقة ليسقط بعض البندق! أي نعم، تكلم واطنّب مزهواً في مدح نفسك! يا لها من استعدادات طبية لممارسة الصيدلة فيما بعد! إنك قد تستدعي في ظروف خطيرة إلى المحاكم لتنير اذهان القضاة، وإذ ذاك يتحتم عليك أن تحتفظ برباطة جأشك وقوة حجتك، وأن تظهر بمظهر الرجل، والا كنت ابله!»

ولم يجب «جوستان»، فاستطرد الصيدلي: «من سألك أن تحضر؟ إنك لتثقل دائماً على السيد والسيدة، فضلاً عن أنني لا استغني عنك في أيام الأربعا، ففي الحانوت الآن عشرون شخصاً، وقد تركت كل شيء وحضرت نظراً لاهتمامي بأمرك، فهيا، انهض. اسرع! عجل! انتظرنني هناك، وانتبه للقوارير».. وما أن انصرف «جوستان» - بعد أن سوى ثيابه - حتى أخذوا يتحدثون بعض الوقت عن نوبات الاغماء، فزعمت مدام «بوفاري» أنها لم تفقد قط وعيها. فقال السيد «بولانجيه»: «هذا عجيب بالنسبة لسيدة! على أن بعض الناس شديد الحساسية، فقد رأيت - في إحدى المبارزات - شاهداً يفقد وعيه بمجرد سماعه صوت حشو المسدسات!»

وقال الصيدلي: «إن مرأى دماء الغير لا تؤثر في - شخصياً - على الإطلاق، ولكن مجرد التفكير في أن دمي سيسيل كاف لأن يفقدني الوعي، لو تقاديت في التفكير! وعندئذ سرح السيد «بولانجيه» خادمه «موصياً إياه بأن يهدئ من جأشه بعد أن تخلص من وهمه». ثم أضاف: «إنه قد أتاح لي فرصة التعرف بكم». ونظر نحو «ايمّا» إذ قال ذلك، ثم وضع ثلاثة قرنكات على ركن من المائدة، وانحنى في غير اكتراث، وانصرف. وسرعان ما كان منطلقاً على الضفة الأخرى للنهر، في طريقه إلى (لاهوشت). ورأته «ايمّا» يسير في المرعى تحت أشجار الحور، وهو يتمهل بين آن وآخر كما لو كان يفكر.

كان يحدث نفسه بهذه الخواطر: «إنها لطيفة جداً. لطيفة جداً زوجة الطبيب هذه! اسنان بديعة، وعينان سوداوان، وقدم صغيرة، وقوام كقوام الباريسيات. من أين جاءت بحق الشيطان. من أين التقطها هذا الرجل البدين؟!

وكان «رودولف بولانجيه» في الرابعة والثلاثين من عمره، ذا مزاج عنيف، وذكاء نافذ، وقد خالط كثيراً من النساء حتى غدا خبيراً بهن، ومن ثم لاحت له هذه المرأة جميلة،

فراح يفكر فيها وفي زوجها ويقول لنفسه: «اعتقد إنه مغفل، وإنها قد سئمته ولا ريب، فإن اظافره قدرة، ولحيته لم تحلق منذ ثلاثة أيام. وبينما ينطلق لعيادة مرضاه، تعكف هي على رتق الجوارب، فلا تلبث أن تسأم؛ ولابد أنها تتوق لسكنى المدينة، ورقص «البولكا» كل مساء يا للمرأة المسكينة! كأنني بها تتعطش للحب كما تتعطش السمكة للماء فوق مائدة المطبخ! وإن ثلاثة من كلمات الغزل لكافية لأن تجعلها تعبد المرء، إنني واثق من ذلك! ولسوف تكون رقيقة، فاتنة. أجل، ولكن كيف السبيل إلى التخلص منها بعد ذلك؟»

غير أن متاعب اللذة التي تراءت له جعلته ينقلب إلى التفكير في عشيقته على سبيل المقارنة كانت ممثلة في (روان)، وقد استخلصها لنفسه وأخذ يعولها. وما أن أخذ يتأمل صورتها - على صفحة ذاكرته - حتى أحس بجذوة رغبته تخمد فقال لنفسه: «آه! إن مدام بوفاري أجمل، وأكثر نظرة بوجه خاص. فلقد بدأت فرجينيا تميل للبدانة بالتأكد، وهي امرأة من العسير أرضاء رغباتها ثم أنها ذات ولع جنوني ببراغيث البحر (الجمبري)!!» ولما كانت الحقول خالية من الناس، لم يكن رودولف يسمع حوله سوى خشخشة الأعشاب إذ تحتك بحذاءيه مع خطواته المنتظمة، وصرخة جرادة تختفي بين الشوفان بعيداً. وعاد يتمثل صورة «أيا» في الحجرة، وفي الثوب الذي رآها فيه، ثم شرع يخلع عنها ثيابها في خياله! وصاح وهو يفتت قطعة متماسكة من الطين بضربة من عصاه: «آه، لسوف أتالها!» وشرع لقوره يدرس الأسلوب «السياسي» للمغامرة، فسأله نفسه: «أين نلتقي؟ وبأي الوسائل؟ لسوف تضايقنا دائماً الطفلة، والحادم، والجيران، والزوج، وكل هذه الهموم. أف! إن المرء معرض لأن يضيع كثيراً من الوقت في كل ذلك» ثم عاد يقول: «إن لها في الحق عينين تخترقان قلب المرء كالبريمة. وبالشحوب بشرتها! إنني أعبد الشاحبات!»

وعندما بلغ قمة تلال (ارجى)، كان ذهنه قد استقر على أمر، فقال: «لم يبق إلا تصيد الفرس. حسناً وسأطلب «حجامة» لنفسي لو استدعى الأمر ولن نلبث أن نغدو أصدقاء، فأدعوهم إلى منزلي». ثم أضاف: «مرحى! إن المعرض الزراعي عما قريب، ولسوف تزوره فأراها هناك، ولنبدأ في جرة، فهذه أضمن الطرق!»

الفصل الثامن

حان أخيراً موعد المعرض الزراعي الذي ذاع ذكره. وفي صباح يوم الافتتاح، وقف جميع أهل (ايونفيل) على أبوابهم يتحدثون عن الاستعدادات. كانت واجهة مبنى البلدية قد زينت بفروع اللبلاب، وأقيم سرادق في أحد المروج للمأدبة، وأمام الكنيسة - في وسط الميدان - نصب مدفع من النوع الذي يحدث قرقعة، لإعلان وصول مدير المقاطعة، ونحية أسماء المزارعين الفائزين بجوائز. وقد الحرس الوطني من (بوشي) - إذ لم يكن في (ايونفيل) حرس - لينضم إلى فريق رجال الاطفاء الذين كان « بينيه » يرأسهم، وقد ارتدى في ذلك اليوم ياقة أعلى من ياقته العادية، وشدت الأزرار سترته حول جسمه إلى درجة أحالت جذعه إلى كتلة متييسة لا تتحرك، فبدأ كما لو كان الجزء الحي من جسمه كله قد هبط إلى ساقيه اللتين كانتا ترتفعان في خطوات رتيبة على إيقاع واحد. ولما كانت ثمة منافسة بين محصل الضرائب وضابط الحرس الوطني. فقد أخذ كل منهما يقوم بمناورات مع رجاله - على حدة - ليظهر مواهبه، فكان المرء يرى الأشرطة الحمراء والشارات السوداء تروح وتغدو بالتناوب، دون أن يكون لهذا العرض من نهاية، أبداً لم ير في قرية (ايونفيل) عرض للأبهة والعظمة مثل هذا!

وكان عدد كبير من المواطنين قد غسلوا واجهات دورهم في المساء السابق، وتدلّت الاعلام الثلاثية الألوان من النوافذ المنفرجة المصارع، وازدحمت الحانات جميعاً. وفي الجو - الذي كان صحواً - بدت الياقات المنشأة، والصلبان المذهبة، والأوشحة الملونة، انصع بياضاً من الثلج في ضياء الشمس، فكانت تخفف بتباينها وتناثرها من اطراد حلقة «الردنحوت» والملابس الشعبية الزرقاء، وكانت زوجات المزارعين القادمات من المزارع المجاورة ينتزعن - إذا ما ترجلن عن جيادهن - الدبابيس الكبيرة التي كانت تثبت ذبول ثيابهن حول أجسامهن، إذ كن قد رفعنها خشية الوحل، في حين كان الأزواج، من ناحيتهم، ينشرون حول قبعاتهم - حماية لها - مناديل امسكوا اطرافها بين أسنانهم. وأخذت الجماهير تتوافد من مختلف أنحاء القرية على الشارع الكبير، متدفقة من الأزقة والدروب والبيوت. ومن وقت لآخر، كان المرء يسمع ارتطام الأبواب وهي تغلق وراء النسوة اللاتي يخرجن من دورهن - وقد ارتدين قفازاتهن - يسعين إلى مشاهدة الاحتفال، وكان أشد ما حاز الإعجاب، حاملان طريلان زخرا بالمصابيح، وقد حُفّا بمنصة أعدت لجلوس ذوي النفوذ. وإلى جانب ذلك، اقيمت حول أعمدة دار البلدية أربع قوائم تحمل كل منها علماً صغيراً من قماش يميل لونه إلى الخضرة، نقشت عليه كلمات بحروف ذهبية، وقد كتب على العلم الأول: «إلى التجارة»، وعلى الثاني: «إلى الزراعة، وعلى الثالث: «إلى الصناعة»، وعلى الرابعة: «إلى الفنون الجميلة».

وكان الحبور الذي اشرفت به الوجوه جميعاً قد انقلب تحجماً على وجه مدام «لوفرانسوا»، صاحبة الفندق. إذ راحت تتمتع لنفسها، وهي واقفة على درجات مطبخها: «يا للحماقة! يا للسخف! هذا السراق من القماش السميك الخشن (المشمع)! أو يظنون أن مدير الاقليم سيغيبط بتناول العشاء تحت هذه الخيمة كمهرج السيرك!؟ أو يسمون هذا العمل المستهجن خدمة لصالح البلدة؟ إذن، فقيم كان استدعائي «المرمطون» من (نيوشاتل)! ولن؟ لرعاة البقر! للحفاة!» ومر بها الصيدلي إذ ذاك، وكان يرتدي سترة سوداء، وينظرون من المخمل القطني، وحذائين من نسيج الفراء، ومن العجيب أنه كان يلبس فوق هذا قبعة ذات قبة منخفضة!

وقال «هوميه» لصاحبة الفندق: «ايدني لي! معذرة، فاني على عجل!» وإذا سألتها الأرملة البديئة إلى أين هو ذاهب، أجاب: «إن الأمر يبدو لك غريباً، أليس كذلك؟ أنا الذي أظل حبيساً في معلمي أكثر من فأر الرجل في جبنه!» فسألتها: «أي جبن؟» فتابع حديثه قائلاً: «آه، لا شيء! لا شيء! إنما اردت أن انبئك يا مدام لوفرانسوا بأنني أعيش في بيتي عادة كالناسك. أما اليوم، فمن الضروري، بحكم الظروف...»، فقاطعته في ازدياء: «آه، أنت ذاهب إلى هناك!»، فأجاب الصيدلي في دهشة: «أجل، أنا ذاهب، أو لست عضواً في اللجنة الاستشارية؟»

وحددت فيه الأم «لوفرانسوا» بضع لحظات، ثم قالت في النهاية وهي تبتسم: هذا وضع آخر! ولكن، فيم تهلك الزراعة؟ أفهم فيها شيئاً؟

- بالتأكيد، إنني أفهمها ما دمت صيدلياً، أي كيميائياً. فإن غاية الكيمياء يا مدام لوفرانسوا هي معرفة التفاعل الجزئي والتأثير المتبادل بين كافة الأجسام الطبيعية، ومن ثم فإن الزراعة تدخل في نطاقها. والواقع أن تركيب السماد، وتخمر السوائل، وتحليل الغازات، وتأثير التعفن. انني لأسألك ما هذا كله؟ أليس هو الكيمياء في انقى وأبسط مظاهرها!؟

ولم تحجب صاحبة الفندق، فاسترد «هوميه» قائلاً: «هل تظنين أنه لايد للمرء أن يحرق الأرض أو يربي الدواجن ويسمنها بنفسه لكي يكون من رجال الزراعة؟ إن الأكثر ضرورة هو أن يعرف تركيب المواد التي تتعلق بالزراعة: الخواص الجيولوجية، والعوامل الجوية، ونوع التربة، والمعادن، والمياه، وكثافة الأجسام المختلفة، وخاصية الجاذبية الشعرية - التي يتوقف عليها سريان العصارات المغذية للنبات - وما إلى هذا كذلك يجب أن يكون المرء على إلمام تام بمبادئ الصحة كي يتولى التوجيه ونقد العيوب في انشاء المبانى، وتغذية الحيوان، وتغذية الخدم. وفوق ذلك يا مدام «لوفرانسوا»، يجب أن يكون المرء على دراية بعلم النبات، وأن يستطيع أن يميز بين النباتات كما تعلمين، فيعرف أيها الصحي المفيد، وأيها الضار! أيها لا ينتج، وأيها ذا القيمة الغذائية وهل من المفيد أن نقتلها من هنا ونعيد زرعها هناك، وأن نستكثر بعض الأنواع، ونقضي على البعض

الأخر. وبالإيجاز، يجب أن يظل المرء متتبعا للعلم عن طريق النشرات والصحف العامة، وأن يكون يقظاً ليتعرف التحسينات...».

ولم تحول صاحبة الفندق عينيها عن «المقهى الفرنسي»، بينما مضى الصيدلي قائلاً: إنى لأدعو الله أن يكون كل المشتغلين بالزراعة عندنا كيميائيين، أو أن يولوا مجالس العلم اهتماماً، على الأقل، فأنا مثلاً قد ألقت أخيراً كتيباً لا بأس به. مذكرة في أكثر من اثنتين وسبعين صفحة، بعنوان: «شراب التفاح (السيدر)، صنعه وتأثيره، مع بعض الأفكار الجديدة في الموضوع» وأرسلتها إلى الجمعية الزراعية في (روان)، فكانت سبباً في «أن حظيت بشرف الانضمام إلى عضويتها، في قسم الزراعة، وفي الفرع الخاص بزراعة الفواكه. ولو أن مؤلفي هذا أتيح للجمهور...».

على أن الصيدلي أمسك هنا عن الكلام، إذ بدا أن مدام «لوفرانسوا» كانت في شغل عنه ثم قالت أخيراً: «الآنظر اليهما شيء غير مفهوم! هذه الحانة الحقيرة! وهزت كتفيها في حركة أزاحت عن جسمها الصدر الصوفي (التريكو)، وأشارت بكلتا يديها إلى حانة منافسها، التي كانت تنبعث منها أصوات تغني ثم أضافت قائلة: «لن يدوم هذا أمداً طويلاً، على أية حال، وسينتهي كل شيء قبل أسبوع» فتراجع «هوميه» مذهولاً، بينما هيبت ثلاث درجات لتهمس في أذنه: «ماذا! أو لا تعلم هذا؟ هناك حجز سيوقع في الاسبوع المقبل، و «لوريه» هو الذي سيتسبب في بيع الحانة، إذ قضى عليه بدفع قيمة الصكوك (الكمبيالات)...»، فصاح الصيدلي الذي كان يجد دائماً من التعبيرات ما يتمشى مع كل مناسبة يمكن تصورها: «يا لها من نكبة مفزعة!»

إذ ذاك شرعت ربة الفندق تروي له القصة التي كانت قد سمعتها من «تيودور» - خادم السيد «جويومان» - ومع أنها كانت تبغض «تيليبه»، إلا أنها راحت تنحي بالوم على «لوريه» واصفة إياه بأنه غشاش دنيء! وقالت: «ها هو ذا! انظر اليه، إنه في السوق ينحني لمدام «بوفاري» التي ترتدي قبعة خضراء. عجباً، إنها تأخذ بذراع السيد بولانجييه! فهتف هوميه: «مدام بوفاري! يجب أن اذهب فوراً فأقدم لها احتراماتي، لعلها ستسر جداً بأن تحصل على مقعد في الحلبة، تحت الرواق...» ولم يلق الصيدلي بالاً إلى الام «لوفرانسوا» التي أخذت تناديه لكي تسحب له في القصص، بل ابتعدت في خطوة سريعة، وعلى شفثيه ابتسامة، وقد شد عرقوبه، وراح يسخر في الانحناء مينة ويسرة موزعاً التحيات، وذيل سترته السوداء يطير مع الريح من خلفه، شاغلاً فراغاً كبيراً. لكن «رودولف» لمح من بعيد، فراح يغذ السير وهز يجذب مرافقته معه، ولكن أنفاس مدام «بوفاري» تقطعت، فاضطر إلى أن يتباطأ، وقال في لهجة جافة وهو يبتسم: «ما هذا إلا لكي نفر من هذا الرجل البدين، الصيدلي، كما تعلمين! فضغطت مرفقه. فسألها وهو يرمقها من طرف عينه: «ما معنى هذا؟» وكانت صفحة وجهها هادئة، لا تنم عن شيء، وقد برزت من اطار قلنسوتها البيضاوية الشكل، التي كانت مزدانة بأشرطة باهتة تشبه

أوراق البوص. وكانت عينها - بأهدابها الطويلة المقوسة - تنظران إلى الأمام في خط مستقيم. ومع أنها كانتا مفتوحتين على وسعهما، إلا أنهما لاحتا متوازيتين بعض الشيء، كما لو كانت وجنتها تدفعا لهما، وقد راح الدم يسري برفق تحت بشرتهما الرقيقة، وعلى طول رأسها يميل على إحدى كتفها، كما كانت الأطراف اللؤلؤية لاسانها البيضاء من بين شفطها!

وسأل «رودولف» نفسه: «أتراها تسخر مني؟» غير أن الحركة التي بدرت من «إيما» لم تكن ترمي إلا إلى تنبيهه. فقد كان السيد «لوريه» يرافقهما، وكان يتكلم بين آن وآخر، وكأنه يود أن يندمج معهما في الحديث وما لبث أن قال: «يا له من يوم رائع! لقد غادر الجميع دورهم! إن الرياح تهب من الشرق!.. ولم ترد عليه مدام بوفاري ولا رودولف بشيء، بينما كان هو يقترب منهما عند أية حركة تدير منهما ويقول: «معذرة»، ويرفع قبعته! حتى إذا بلغوا منزل البيطار، لم يمضوا في الطريق العامة حتى الحاجز، بل انحرف رودولف فجأة إلى طريق ضيقة، ساحباً معه مدام بوفاري، وهو يهتف: «عم مساء يا مسيو لوريه! إلى اللقاء!».

وقالت «إيما» ضاحكة: «ما أبرح ما تخلصت منه!» فعقب قائلاً: «ولماذا يترك المرء نفسه عرضة لأن يثقل عليه الآخرون! ولما كنت اليوم سعيداً بأن أكون معك...».

وتضرج وجه «إيما»، ولم يتم رودولف عبارته، بل تحول يتحدث عن جمال الجو، ولذة السير على العشب. وكانت بعض زهرات «المرجريت» قد استوت على سيقانها فقال: «ها هي ذي بعض زهور المرجريت البديعة تبشر بعيد الفصح، وها هو ذا عدد منها يكفي لتقديم النبوءات لكافة العذارى العاشقات في المنطقة!.. ثم أضاف: «هل اقتطف بعضها؟ ما رأيك؟» فسعلت قائلة: «وهل أنت عاشق؟» فأجاب رودولف: «أ... من يدري!» وكان المرح يمتلي، وريات البيوت يزاحمنك بمظلاتهن الكبيرة، وسلالهن، وأطفالهن، وكثيراً ما كان المرء يضطر إلى إفساح الطريق لصف طويل من الرفيات أو الخادومات ممن يلبسن جوارب زرقاء، وأحذية مسطحة النعال، وخواتم من الفضة، وتنوح منهن - إذا ما مر المرء بالقرب منهن - رائحة اللبنا! وقد سرن متشابكات الأيدي، شاغلن عرض الميدان، من أشجار الحور إلى سرادق الاحتفال! وكان موعد فحص المعروضات قد حان، فأخذ الفلاحون يدخلون - واحد بعد آخر - إلى ما يشبه حلبة للسباق، يحدها حبل طويل شد إلى عصى.

وكانت الماشية تربض هناك وأتوفها موجهة نحو الحبل، وقد اصطفت في مجموعات غير متساوية ولا منظمة. وخياطم الخنازير المتشاكلة مدسوسة في الأرض، والعجول تخور، والنعاج تشغو والأبقار قد بطونها على النجيل وقد ثنت سيقانها تحتها، وهي تجتر في بطنها، وجفونها الثقيلة تختلج من الذباب الذي كان يحوم حولها في طنين. والحوذية قد شمرؤا عن سواعدهم يشدون أعنة الجياد الجامحة التي راحت تصهل - منتفخة الخياشيم - وهي تنظر نحو أنائها التي وقفت هادئة، قد أعناقها، وأعرافها متدلّية، بينما كانت صغارها مستكينة في ظلالها، تقبل على الرضاع منها بين آن وآخر! وفوق هذا الخضم

الزاهر من الأجسام المكدسة، كانت ترتفع في الهواء أوراق بيضاء كأنها الموجات، أو تبرز قرون حادة، أو رؤوس رجال يجرون حولها. وخارج الحلبة وقف - على بعد نحو مائة خطوة - ثور أسود ضخيم، مكمم في انفه بحلقة من حديد.. وهو لا يتحرك، كأنه صيغ من البرونز، بينما أمسكه بحبل أطفال في اسمال مهلهلة.

وسار بين الصفيين أعضاء اللجنة بخطى ثقيلة، يفحصون كل حيوان، ثم يستشير كل منهم الآخر في صوت خفيض، وقد أخذ واحد منهم - كان يبدو أهم من الآخرين مكانة - في تدوين بعض الملاحظات من وقت إلى آخر. ذاك كان السيد «ديروزبراي دي لا بانفيل»، رئيس المحكمين، وما إن رأى رودولف حتى أسرع متقدماً منه، وابتسم في ود قائلاً: «ما هذا يا سيد بولانجيه، أتتخلّى عنا؟» فاعتذر رودولف بأنه قد وصل لتوه، ولكن، ما إن انصرف الرئيس حتى قال لإيما: «لعمري! لن أذهب، فإن صحبتك خير من صحبتها» وكان يبرز بطاقته الزرقاء لرجال الشرطة - ليمر في يسر - وهو يسخر من المعرض وكان يقف أحياناً أمام حيوان بديع، لا يروق لمدام بوقاري على الاطلاق. وإذا فطن إلى ذلك، تحول يرسل النكات الساخرة عن سيدات (ايونفيل) وأزيائهن، ثم انقلب يعتذر عما في زيه من اهمال، إذ كان خليطاً من المبتذل والأنيق معاً، يرى فيه عامة الناس دليلاً على غرابة في الطباع، واضطراب في الاحساس، ومغالة في الفن، - دائماً - نوعاً من الاستخفاف بالعادات الاجتماعية المألوفة، مما يفتنهم أو يغيبهم! من ذلك أن قميصه كان من «الباتيست» ، تكثر الثنيات عند معصمي كميده، وقد كان ينتفخ بفعل الهواء الذي كان يتسلل من فتحة صدر من التيل الرمادي، وكان ساقا سرواله ذي الخطوط العريضة يكشفان عند الكعبين عن حذاءين من «الشمواه» الذي تتخلله أجزاء من الجلد كانت تلمع حتى لتنعكس عليها صور العشب، وكان يظاً بهذين الحذاءين ورث الخيل وقد دس إحدى يديه في جيب من سترته، وأمال قبعته المصنوعة من القش جانباً.

وعاد يتابع الكلام قائلاً: «ثم إن المرء حين يكون مقيماً في الريف»، فقالت «إيما»: «إنها مضیعة للوقت»، فأجاب: «هذا حق، تصوري أن أحداً من هؤلاء الناس لا يستطيع أن يفهم، حتى طراز سترته!» ثم دار الحديث عن الريف الكتيب، وما يضيغ فيه من أعمار، وينهار من آمال فقال رودولف: «لهذا السبب تغمرني الكتابة» فعقبت مذهولة: «أنت!؟ ظننتك شديد المرح!»

- آه، أجل. هكذا أبدو، لأنني أعرف كيف أخفي وجهي وراء قناع ساخر، وسط المجتمع ومع ذلك، فكم ساءلت نفسي حين كنت أرى مقبرة في ضوء القمر: أليس من الخير أن أشارك أهلها في سياتهم!

فهتفت: «أواه! وأصدقاؤك؟ ألسنتُ تفكر فيهم؟» فقالت: «أصدقائي! أي أصدقاء؟ هل لي أصدقاء؟ من يحفل بي؟» وأردف بصغير خافت من بين شفتيه وما لبثا أن اضطرا إلى الانفصال، كل عن الآخر، بسبب حمل كبير من المقاعد كان أحد الرجال يرفعه خلفهما،

وكان من الكثرة بحيث لم يكن في وسع الرجل أن يرى مقدم هذا ميه الخشبيين، أو نهاية ذراعيه المبسوطين. وكان هذا الرجل هو «ليستيبدووا»، حفار القبور، وقد حمل مقاعد الكنيسة، وأخذ يجوس بين الناس، إذ كان نشيط الذهن في كل ما يعود عليه بالنفع، وقد فطن إلى هذه الطريقة للانقادة من المعرض، وصادقت فكرته نجاحاً، إذ تكاثرت عليه الطلبات حتى لم يعد يدري أيها يجيب، والواقع أن القرويين الذين برح بهم التعب، أخذوا يتشاجرون من أجل هذه المقاعد التي كان عيبير البخور يفوح من قشها، ويضطجعون على مساندها السمكية - المتسخة بدهن الشموع - في زهو وخيلاء!

وعادت مدام بوفاري فأمسكت بذراع رودولف الذي كان ماضياً في الحديث، وكأنه يكلم نفسه: «أجل، كم أضعت من أشياء فأنا وحيد على الدوام! آه، لو كان لي هدف في الحياة! لو انني لقيت شيئاً من الحب، لو انني التقيت بشخص يعطف علي! ما كان احراني إذ ذاك أن ابدل كل ما أوتيت من طاقة، وأن اذلل كل شيء!»، وأن أتغلب على كل شيء!»، فقالت: «ومع ذلك، إنك لا تبدو في حال تدعو للثراء!»، قال: «آه، أو هذا ظنك بي؟» فاستطردت قائلة: «لأنك قبل كل شيء، حر...»، وترددت، ثم أردفت: وغني! فأجاب: «لا تسخري مني» وبينما كانت تؤكد أنها لا تسخر، دوت طلقة مدفع، فإذا الجميع ينطلقون متدافعين في هرج نحو القرية، ولكن التنبيه كان كاذباً، فإن مدير الاقليم لم يكن قد حضر، وشعر أعضاء لجنة التحكيم بالحيرة، إذ كانوا لا يدرون أيبدأون الحفل، أم ينتظرون أمداً آخر.

وأخيراً، ظهرت في أقصى الميدان عربة كبيرة مستأجرة - من الطراز المغلق الجوانب - يجرها جوادان هزيلان، يسوطهما بكل قوته حوذي بقبعة بيضاء. وأسرع «بينييه» صائحاً: قرقول سلاح! فحذا الضابط حذوه، وهول الجنود نحو السراشق، لقد نسي بعضهم أن يرددوا ياقاتهم، ولكن ركب المدير كان قد توقع الزحام مقدماً، فخفف الجوادان من سرعتهم، ووصلا على رنين أعنتهما إلى منصة البلدية، في اللحظة التي تم فيها تجمع الحرس الوطني وفريق الأطفال، ومن ثم أخذوا يدقون الطبول، وينظمون خطواتهم.. وصاح «بينييه»: «خطوة تنظيم» فصاح الضابط: «قف! إلى اليسار درا» وبعد أن ارتفعت البنادق للتحية، وانطلقت الموسيقى كرنين وعاء نحاسي ينحدر على سلم، خفضت البنادق من جديد. وإذ ذاك، غادر العربة سيد في حلة ذات سترة قصيرة موشاة بخيوط فضية، وكان أصلع في مقدمة رأسه، ويضع شعراً مستعاراً في مؤخرتها، وقد بدا كالحلزون، تلوح عليه امارات الطيبة. وكان يعلو عينييه الجاحظتين جفنان سميكان، نصف مطبقين عليهما، إذ راح ينعم النظر في الجماهير، رافعاً - في الوقت ذاته - انفه الحاد، راسماً على فمه الفاجر ابتسامة. وعرف الرجل العمدة من وشاحه، فأوضح له أن مدير الاقليم لم يتمكن من الحضور، وأنه هو مستشار الاقليم. ثم أردف مردداً بعض الاعذار، فرد السيد «توفاش» - العمدة - ببعض المجاملات، وبدأ على الآخر الارتباك وظلا واقفين وجهاً لوجه، تكاد جبهتهما أن تتلامسا، وحولهما أعضاء لجنة التحكيم والمجلس البلدي،

والأعيان، والحرس الوطني، والجمهور. وكرر المستشار انحناءاته بالتحية، وهو يضم إلى صدره قبعته الصغيرة السوداء الثلاثية الجوانب، بينما انحنى «توفاش» كالقوس، وأبتسم هو الآخر، وتلثم إذ حاول أن يقول شيئاً، ثم أكد ولاءه للملكية، وأعرب عن الشرف الذي أتيح لايونفيل باقامة هذا المعرض!

وأخذ «هيبوليت» - سائس الفندق - عناني الجوادين من الخوذي، وقادهما وهو يعرج بقدمه الشوهاة إلى باب «الأسد الذهبي»، حيث تجمع عدد من الفلاحين يتأملون العربية. ودقت الطبول، ودوى المدفع، وتقاطر السادة صاعدين المنصة ليتبعوا المقاعد الحمراء التي أعارتها مدام «توفاش» للمحتفلين. وكان هؤلاء السادة جميعاً متشابهين، فوجوههم السمينة الشقراء التي لوحتها الشمس قليلاً تبدو في لون شراب التفاح، وشعور لحاهم تنتفش على جانبي وجوههم متهدلة على ياقات كبيرة متيبسة، تحيط بها أرطبة عنق بيضاء، لها عقدة عريضة، وصداراتهم جميعاً من القטיפه، وكافة الساعات تحمل - في نهاية أشرطة طويلة - ما يشبه خاتماً بيضاً من العقيق، والأيدي مرتكزة على الأفخاذ، تسوي في عناية ثنيات السراويل التي كان قماشها الجديد يفوق الأحذية لمعاناً.

ووقفت زوجات السادة خلفهم، بين الأعمدة، بينما احتشد الجمهور في الناحية المقابلة، بين وقوف وجلوس على المقاعد، إذ كان «ليستيبدوا» قد نقل جميع المقاعد من المرج إلى هناك، وراح يجري طيلة الوقت ليحضر من الكنيسة غيرها. وسبب بنشاطه التجاري هذا ارتباكاً جعل بلوغ سلم المنصة أمراً عسيراً! وقال «لوريه» للصيدلي إذ مر به ذاهباً إلى المكان المخصص له: «من رأيي أنه كان من الواجب عليهم أن يقيموا صارين على طراز البندقية، يحملان بعض الزينة القيمة، حتى يصبح المنظر متعة للعين» فأجاب هوميه: «هذا حق ولكن، ماذا كنت تتوقع وقد استأثر العمدة بالاشراف على كل شيء، لكم هو محدود الذوق هذا التوفاش المسكين! بل أنه محروم مما يسمى عبقرية الفن».



وفي تلك الاثناء، كان رودولف قد صعد مع مدام بوفاري إلى قاعة الاجتماعات بالطابق الأول من مبنى البلدية. وإذا كانت القاعة خالية، فقد قال إن في وسعهما أن يستمتعا بالفرجة منها وهما مستريحان. وحمل ثلاثة مقاعد من حول المائدة البيضاء ومن أسفل التمثال النصفي للملك، ووضعها على مقربة من إحدى النوافذ، ثم جلسا متجاورين. وكانت ثمة جلبة فوق المنصة، وهمسات طويلة، ومفاوضات. وأخيراً وقف السيد المستشار، فعرف الجمهور إذ ذاك أنه يدعى «لييفان»، وسرى الاسم بين الجمع، من شخص إلى آخر. وبعد أن أخرج بضعة أوراق، وانحنى عليها ليراها بوضوح، شرع يقول: «سادتي: اسمحو لي أولاً وقبل أن أحدثكم عن الغرض من اجتماع اليوم أن أقر بالفضل - وأنا واثق من أنكم تشاطرونني هذا الشعور - للحكومة، للملك. ملكنا أيها السادة،

هذا الملك المحبوب الذي لا تغيب عن اهتمامه ناحية من نواحي الرخاء العام أو الخاص، والذي يقود بيد تجمع بين الحزم والحكمة سفينة الدولة، بين الأخطار المتلاحقة في بحر عاصف، وهو يعرف - فوق هذا - كيف يجعل للسلام من الاحترام مثل ما للحرب والصناعة والتجارة والزراعة والفنون الجميلة»

وهنا قال رودولف: «يجب أن ارتد قليلاً إلى الوراء» فقالت «أيا»: «لماذا؟» وفي تلك اللحظة، ارتفع صوت المستشار فوق المألوف وهو يقول: «لقد مضى أيها السادة ذلك الزمن الذي كان الشقاق بين المواطنين فيه يلطخ الميادين العامة بالدماء، والذي كان فيه المالك، وصاحب الأعمال، والعامل نفسه، يأوون إلى مضاجعهم لينعموا بالنوم وهم يرتجفون خشية أن يستيقظوا فجأة على ضجيج عربات الحريق، والذي كانت فيه اعنف المباديء الهدامة تدك في جرة كافة الأسس».

وعاد رودولف يتابع الكلام: «قد يلمحني أحد، فاضطر عندئذ إلى أن أظل اسبوعين انتحل الاعذار، فضلاً عن أن سمعتي سيئة» فقالت «أيا»: «إنك تظلم نفسك» قال: «لا، إنها سيئة، وأكد لك» ومضى المستشار يقول: «على أنني حين انحي عن الذاكرة هذه الصور الخالكة - أيها السادة - انتقل ببصري إلى الأحوال الراهنة في وطننا العزيز، فماذا أرى؟ في كل مكان تزدهر التجارة والفنون، وفي كل مكان طرق جديدة للمواصلات، كأنها شرايين حديثة في جسد الدولة، تقيم في أرجائها علاقات جديدة، وقد استأنفت مراكزنا الصناعية الكبرى نشاطها، والدين - الذي ازداد وحدة وتوطداً يبتسم في كل قلب، وموانئنا مليئة، والثقة قد نبتت من جديد، وفرنسا قد عادت تنفَس!»

واستأنف رودولف الحديث: «الواقع أنهم ربما كانوا - من وجهة نظر المجتمع - على حق» فقالت «أيا»: «كيف ذلك؟» قال: «الأمر بسيط، أو لا تعلمين أن هناك نفوساً مضناة تعيش في عذاب دائم، وأن لا بد لها من أن تتقلب بالتناوب بين الحلم والعمل، بين العواطف السامية النبيل، وبين الشهوات المتطرفة العنف! ومن ثم تلقى بأنفسها في كافة ألوان الاهواء والحماقات؟» فنظرت إليه كما ينظر المرء إلى رحالة ارتاد بلاداً غريبة، وقالت: «نحن النساء البائسات لا نملك حتى هذه التسلية» فقال: «وإنها لتسلية محزنة، إذ أن المرء لا يجد فيها السعادة» فتسألت: «وهل من سبيل إلى العثور على السعادة يوماً؟» فأجاب: «أجل، إنها لا تليث أن تحيي يوماً» هذا بينما كان المستشار ماضٍ في خطابه: «... وهذا هو ما فهمتموه أنتم، معشر الزراع وعمال الريف، أيها الرواد المسالمون، في ميدان الحضارة الفسيح! أنتم يا رجال التقدم والأخلاق قد فهمتم أن العواصف السياسية أشد خطراً - في الحقيقة - من اضطرابات الطبيعة...».

وتابع رودولف حديثه: «إن المرء لا يلبث أن يلقى السعادة فجأة، يوماً ما، بعد أن يكون قد يشس منها، فإذا ذاك، ينفرج الأفق...» وكان صوتاً يصيح «ها هي ذيا» وتحسين بالحاجة إلى أن تفضي بكل أسرار حياتك، وبأن تهبي كل شيء، وتضحى بكل شيء، من

أجل ذلك الكائن! ولا داعي عندئذ للكلام، فإن كلا منهما يفهم الآخر، إذ يكون كل قد رأى الآخر في أحلامه! «ورمقها بنظرة وهو يستطرد: و«بالاجمال، ترين أمامك أخيراً الكنز الذي طالما بحثت عنه، إنه يتلأل، ويبرق، ومع ذلك فإن المرء يظل في ريب، فلا يصدق، يظل مبهوراً، وكأنه خرج من الظلمة الى النور!» وما أن انتهى الشاب من هذا القول، حتى قرنه بالاشارة، فمسح وجهه بيده كرجل أحس بدوار، ثم تركها تسقط على يد «إيما» فسحبت هذه يدها!

هذا والمستشار ماض في خطابه: «... أي وجه للعجب في ذلك! لا ينكر روح أهل الزراعة إلا من أصيب بالعمى، وغرق - ولا أخشى من أن أقولها بهذه الصراحة - في أوهام عصر مضى وانقضى! وفي الحق، أين نجد وطنية تفوق ما نجد في الريف، وإخلاصاً للمصالح العام فوق إخلاصهم؟ وفي كلمة واحدة، أين نجد ذكاء أعظم مما نجد في الريف.. ولست أعني، أيها السادة، هذا الذكاء السطحي الذي تتحلّى به النفوس المتسكعة، وإنما أعني ذلك الذكاء المتزن، الذي ينصب على السعي إلى الأهداف النافعة قبل كل شيء، وبذلك يساهم في رخاء كل فرد، والارتفاع بالمستوى العام، وتدعيم الدول، نتيجة لاحترام القوانين والنهوض بالواجبات!»

وعقب رودولف قائلاً: «آه، هل عدنا ثانية، الواجبات، دائماً! لقد سئمت هذه الكلمة، إن هؤلاء الذين يطنون في آذاننا باستمرار قائلين: «الواجب! الواجب!» ليسوا سوى ثلة من ذوى الفكر الجامد الملتفين في صداري من «الفانيليا»، ومن العجائز المتعبدات! آه، لعمرى! ما الواجب إلا أن نحس بما هو عظيم، وأن نحب ما هو جميل، لا أن نقبل كل معتقدات المجتمع بما تفرضه علينا من ريقه وإذلال!» فاعتضت مدام بوفاري قائلة: «ومع ذلك، مع ذلك...»

- لا، لا! لماذا يصرخون ضد الرغبات العاطفية؟ أليست هي الشيء الجميل الوحيد على الأرض؟ أليست منبع البطولة والحماسة والشعر والموسيقى والفنون، أو بايجاز: كل شيء؟

فقالت «إيما»: «ولكن على المرء أن ينحني إلى حد ما لرأي المجتمع، وأن يتقبل قانون الاخلاق» فأجاب: «أجل، ولكن هناك قانونين: قانون صغير، ويمثل ما تعارف عليه الناس ووضعه، وهو يتغير باستمرار، ويصرخ في صخب، ويشير مثل هذه الجلبة التي نراها تحتنا، إنه أرضي من تراب، كهذا الحشد من الأغبياء الذين تربتهم هناك، تحتنا! أما القانون الآخر، فهو الخالد، وهو يشملنا ويعلونا، كالطبيعة التي تحيط بنا، والسماء الزرقاء التي قمحننا النور!»

وكان السيد «لييفان» قد مسح فمه بمنديل، واستطرد في خطابه: «وماذا علي أن أفعل أيها السادة، لأظهركم على فائدة الزراعة؟ من الذي يمدنا بحاجتنا؟ من الذي يقدم لنا أقواتنا؟ أليس هو الزارع؟ أيها السادة هو الذي يبرز بيده النشيطة في خطوط الحقل

الخصيبة، فنبئت القمح الذي يجرش ويطحن بأجهزة معقدة يخرج منها تحت اسم الدقيق، ثم ينقل إلى المدن، فينتهي إلى الخباز الذي يصنع منه غذاء للفقير والغني على السواء! أليس هو الفلاح الذي يربي هذه القطعان الوفيرة ليوفر لنا الكساء؟ أنى لنا الكساء والغذاء بدون الفلاح؟ هل أنا بحاجة أيها السادة إلى أن أذهب بعيداً لأبحث عن أمثلة؟ منذ الذي لم يفكر كثيراً في تلك الأشياء العظيمة التي نحصل عليها من هذا الحيوان الضئيل، زينة حظائر الدواجن عندنا، والذي يوفر لنا وسائل لينة لمضاجعنا، ولحماً طرياً لموائدنا، وبيضاً؟ على أنني لن أنتهي إذا مضيت في تعداد المنتجات المختلفة التي تجود بها الأرض - إذا نحن احسنا زراعتها - كالأم السخية على ابنائها! فما هنا شجر الكروم للنبذ، وفي مكان آخر شجر التفاح لشراب «السيدر»، وهناك اللفت، وبعض أنواع الجبن، والتيل الذي تقدم انتاجه بخطى واسعة جداً في السنوات الأخيرة، والذي أود أن ألفت إليه انتباهكم بوجه خاص».

ولم تكن ثمة حاجة به إلى أن يلفت انتباههم، إذ كانت أفواه الحشد كله فاعرة، وكأنهم يعبون من كلامه. وكان «توفاش» إلى جواره، ينصت وهو يحملق فيه، والسيد «ديروزيراى» يغمض عينيه في رفق بين آن وآخر، وعلى مسافة منه، وضع الصيدلي يده خلف أذنه حتى لا يفوته مقطع من كلمة، وابنه «نابليون» على ركبتيه. وكانت ذقون أعضاء لجنة التحكيم الآخرين تهتز في بطن على صداراتهم، دليل الاستحسان، أما رجال الاطباء، فاستندوا - أسفل المنصة - على حراهم، ووقف «بينييه» جامداً في مكانه، وقد ثنى ذراعيه، وذؤابة سيفه في الهواء، ولعله كان يسمع، ولكنه بلا شك لم يكن يرى شيئاً، بسبب حافة قلنسوته التي كانت تهبط فوق انفه! وكان مساعده - الابن الأصغر للسيد «توفاش» - يلبس قلنسوة أكبر من تلك، إذ كانت واسعة، فترجرج فوق رأسه، وقد برز منها طرف منديل القطني، وكان يبتسم تحتها في وداعة الطفل، وقطرات العرق تتساقط من وجهه الصغير الشاحب، وقد لاحظ عليه امارات الانشراح والنوم!



وكان الميدان مزدحماً بالناس حتى مواقع المنازل، فكان المرء يرى قوماً متكئين برفاقهم على جميع النوافذ، وآخرين يقفون أمام الأبواب، وبدا «جويستان» أمام الصيدلية وقد سمر في مكانه لفرط ما استهواه المنظر. وكان صوت السيد «لييفان» يضيع في الهواء رغم الصمت الشامل، فلا تصل إلى سمعك سوى نتف من العبارات، يقطعها صرير المقاعد المنبعث هنا وهناك، ثم لا تلبث أن تسمع خوار ثور، أو ثغاء الحملان، يجاوب بعضه بعضاً عند أركان الشارع إذ كان رعاة البقر والغنم قد ساقوا ماشيتهم حتى هناك، فكانت تخور من آن إلى آخر وهي تنتزع بألسنتها نتفاً من أوراق الشجر المتدلّية أمام أفواهها. وكان رودولف قد ازداد من «إيما» اقترباً، وقال لها بصوت خفيض ولهجة سريعة:

«أولا يثيرك تأمر المجتمع على هذا النحو؟ وهل هناك احساس واحد لا يستنكره؟ إن انبل الغرائز وأسمى الميول تضطهد ويشهر بها، وإذا حدث أن التقت روحان بائستان، فإن كل العوامل تنتظم لتحول دون امتزاجهما. ومع ذلك فإنهما ستحاولان، وترفرقان بأجنحتهما، وتسعى كل منهما إلى الأخرى، وأواه لا بأس، فإنهما لن تلبثا أن تجتمعا وتتحابا، طال الزمن أو قصر، في ستة أشهر أو في عشر سنوات، فإن القدر قد كتب هذا لهما، إذ خلقت كل منهما للأخرى».

وكان جالسا وقد تقاطعت ذراعه فوق ركبتيه، وتطلع إلى «إيما» وهو جد قريب منها، وثبت بصره عليها، فلمحت في عينيه خطوطاً ذهبية صغيرة تومض من أعماق حدقتيه السوداوين، بل إنها راحت تشم عطر الدخان الذي صمغ به شعره، وما لبث أن غشيتها نوبة من شرود، فذكرت الفيكونت الذي رقصت «الفالس» معه في (فويسار)، إذ كانت تنبعث من لحيته رائحة الليمون والفانيليا التي تفوح من هذا الشعر. وأسبلت جفניה - بهركة آلية - في نصف اغماضة، وهي تنشق في شعره هذا العطر، ولكنها حين اضطجعت في المقعد لمحت على البعد - عند حافة الأفق - عربة الركاب القديمة «العصفورة» تنحدر في بطة هابطة تل (ليو)، وهي تجر ذيلاً طويلاً من القبارا هذه العربة الصفراء التي كثيراً ما عاد إليها فيها «ليون»، وفي ذلك الطريق رحل عنها إلى غير رجعة، وخيل إليها أنها تراه واقفاً عند نافذته، ثم اختلطت الرؤى، وأكفهرت السحب، وخيل إليها أنها عادت تدور في رقصة «الفالس» - تحت أضواء الثريات - بين ذراعي «الفيكونت»، وأن «ليون» ليس بعيداً عنها، وأنه قادم، ومع ذلك، كانت طيلة الوقت تشم عبير رأس رودولف إلى جانبها، وتغلغل هذا الاحساس العذب في رغباتها القديمة، التي أخذت تتحرك جيئة وذهاباً، في نفحات هذا العطر الذي ران على روحها، كما تتحرك ذرات الرمل في مهب الريح، ففتحت طاقتي أنفها عدة مرات لتعب من عبق اللبلاب الملتف حول رؤوس الأعمدة. ونزعت قفازيها، فمسحت يديها، ثم حركت منديلها أمام وجهها كالمروحة، بينما كان صوت المستشار يصل إليها - خلال نبض صدغيها - مرددة عباراته، وكأنه يترنم بها: «واصلوا، وثابروا، ولا تنصتوا إلى ما يوصي به الروتين، أو ما تدعو إليه النصائح المرتجلة المبنية على تجارب طائشة» والتجها بجهودكم - بنوع خاص - إلى تحسين التربة، والسماذ الجيد، والإكثار من سلالات الخيل والبقر والحنازير والاغنام الجيدة، ولتكن هذه المعارض - بالنسبة لكم - أشبه بالساحات السلمية، بمد المنتصر فيها يده - إذ يغادرها - إلى المنهزم، ويؤاخيده، أملاً في فوز أفضل. وأنتم أيها العمال الشيوخ، والخدم المتواضعون، الذين لم ترمقهم حكومة حتى اليوم بعين الاعتبار، تعالوا لتتسلموا جزاء فضائلكم الصامتة، وثقوا من أن الدولة ترمقكم، وتشجعكم، وتحميكم، وتستجيب لمطالبكم العادلة، وتخفف بقدر ما تستطيع من عبء تضحياتكم»

وجلس السيد «لييفان» إذ ذاك، فنهض السيد «ديروزياري»، وشرع يلقي خطاباً آخر، ولعله لم يكن خطاباً منمقاً كخطاب المستشار، ولكنه امتاز عنه بأسلوب أكثر

إيجابية، أو بالأحرى، بمعلومات أدق، واعتبارات اسمى، فلم يشغل مدح الحكومة - مثلاً - سوى حيز صغير منه. أما الدين والزراعة، ففاذا بقسط أوفر، إذلقى الضوء على العلاقة بينهما، وعلى دورهما المشترك في خدمة الحضارة، والجاذبية المغناطيسية. كان الخطيب يتكلم عن نشأة المجتمع، متدرجاً من العصور الأولى التي كان الإنسان يتغذى فيها بشمار البلوط في أعماق الغاب، إلى تلك العهود التي تحول فيها الناس عن جلود الماشية إلى الأقمشة المنسوجة، وراحوا يحراثون الأرض ويزرعون الكروم. أفكان هذا التحول خيراً؟ أو لم يكن في هذه الاكتشافات من الضرر فوق ما فيها من نفع؟ وتولى السيد «ديروزيري» علاج السؤال، بينما كان رودولف قد تطرق متناً من المغناطيسية إلى الميول والعلاقات، وأخذ رئيس اللجنة يذكر «سنسناطوس» ومحاربه، و«ديوكلسيان» إذ زرع الكرنب، وإباطرة الصين حتى كانوا يفتتحون العام ببذر البذور، في حين كان الشاب - رودولف - ماضياً يشرح للشابة أن الميول والانجذابات ترجع في سبيلها إلى نوع سابق من الوجود، أو حياة سابقة!

ومضى يقول: «ومن ثم، لماذا قدر لكل منا أن يعرف الآخر؟ أية إرادة شاعت هذا؟ لقد تم ذلك بسبب المجذاب كل منا إلى الآخر - كجدولين يجريان لكي يلتقيا ويتحدا - وهكذا دفعت انجهاثنا الفكرية الخاصة بكل منا إلى صاحبه»

وأمسك بيدها، فلم تسحبها منه، وفي تلك اللحظة، كان الخطيب يصيح: «جائزة الزراعة الجيدة...» ورودولف ماض في حديث: «فمثلاً عندما أتيت إلى بيتكم...».

وهكذا أخذت عبارات رودولف والخطيب تتتابع في تناوب واختلاط:

كان الخطيب يقول: إلى السيد بيريه من كونكانبوا.

ورودولف يقول: هل كنت أعلم أن قد قدر لي أن أصحبك؟

الخطيب: سبعون فرنكاً.

ورودولف: بل لقد حاولت مائة مرة أن أرحل، ولكنني تبعتك، وبقيت!

الخطيب: جائزة الأسمدة.

ورودولف: وسوف أبقي الليلة، وغداً، وكل الأيام المقبلة، وحياتي كلها!

الخطيب: إلى السيد «كارون» من (ارجي)، ميدالية ذهبية.

ورودولف: فياني لم ألتق بمثل هذه الفتنة الشاملة في صحبة أي شخص آخر.

الخطيب: إلى السيد «بان» من جيغري سان مارتان.

ورودولف: وسوف أحمل معي ذكراك... .

الخطيب، جائزة عن كبش أسباني من نوع «مارينو».

ورودولف: ولكنك سوف تنسيني، سأتلاشي كالطيف!

الخطيب: إلى السيد «بيلو» من نوتردام...
رودولف: آه، لا بل سأبقى في فكرك، وحياتك أليس كذلك؟

الخطيب: سلالة الخنازير، الجائزة مناصفة بين السيدين «لهيريسية»، و«كيلمبور»،
وقدرها ستون فرنكاً.

وضغط رودولف يد «إيما»، فاحس بها دافئة، تنتفض، كاليمامة الحبيسة التي تبغي
انطلاقاً، وسواء كانت تحاول أن تنتزع يدها، أو كانت تستجيب لضغطه، فإنها حركت
أصابعها، فهتف: «آه، شكراً لك، فانت لا تصدينني! ما اطييك! إنك تدركين أنني ملك
يديك! ألا دعيني انظر إليك! دعيني أتأملك!»

وهبت من النافذة ربح ثنت أطراف غطاء المائدة، واطاحت بقبعات الفلاحات الكبيرة -
في الميدان - فطارت كأجنحة فراشات بيضاء ترفرف! وكان رئيس لجنة التحكيم ماضياً في
قوله: «جائزة استخدام كسب البذور الزيتية، السماد الفلنكي، زراعة التيل، الصرف،
الايجارات الطويلة، الخدمات الاهلية» أما رودولف فلم يعد يتكلم، إذ راح يرمق «إيما»،
وهي ترمقه، وشفاهما ترنجف بتأثير رغبة جامحة! وفي استرخاء، ودون ما جهد، تعانقت
اصابعهما، ورئيس لجنة التحكيم ماض في سرد الجوائز!

- كاترين نيكيز اليزابيث ليرو من (ساستو لا جيرير)، من أجل بقائها خمساً
وخمسين سنة تخدم مزرعة واحدة، ميدالية فضية ومكافأة قدرها خمسة وعشرون فرنكاً!
وردد المستشار النداء قائلاً: «أين هي كاترين ليرو؟» لكنها لم تتقدم، وسمعت
أصوات تتهاشم: «استمرا».. «لا».. «إلى اليسار».. «لا تخافي!».. «آه، يا لها من
غبيبة!» وصاح «توفاش»: «وبعد، أموجودة هي؟».. «نعم، ها هي ذي!».. «فلتتقدم
اذن!» ورويت إذ ذاك امرأة عجوز، ضئيلة الجسم، تتقدم واجفة نحو المنصة، وهي تكاد
تتوارى في ثيابها التعسة، وفي قدميها حذاءان ضخمان من الخشب، بينهما انسدل على
رديفها مرولة كبيرة زرقاء، وكان وجهها الضامر، المحاط بطاقيّة لا حافة لها، أكثر تجميلاً
من تفاحة صغيرة ذابلة، ومن كمي سترتها الحمراء، برزت يدان بدت مفاصلهما كالعقد،
وقد غطتهما البقع والبشرة الخشنة من أثر غبار الأجران، و«البوتاس» الذي
تستخدمه في إزالة بقع الشحم عن الملابس الصوفية، حتى أنهما كانتا تبدوان قدرتين رغم
غسلهما بالماء الصافي، وقد مكثتا منفرجتين لطول ما خدمتا، وكأنهما تقدمان دليلاً
متواضعاً على ما تكيدتا من مشاق مضنية! واكسب وجهها جلالاً شيء من جمود الرهينة،
ولم يكن يخفف من حدة نظراتها شيء من الحزن أو من الحنان. وكانت لكثرة معاشرتها
للحيوانات قد أخذت عنها الصمت والسكرت، وكانت هذه أول مرة ترى فيها نفسها وسط
مثل هذا الجمع الغفير، فدخلها ذعر من الأعلام والأبواق، وأولئك السادة الذين كانوا في
ثياب سوداء، وذلك الرسام الذي كان يزين صدر المستشار، فظلت مسمرة في مكانها، لا
تدري أتقدم، أم تلوذ بالفرار، ولا تفهم لماذا راحوا يدفعونها إلى الأمام، ولا لماذا كان

الحكام يتسمون لها؟ وهكذا وقفت أمام المواطنين السعداء، تمثالاً حياً لنصف قرن من العبودية، وكان المستشار قد أخذ قائمة الفائزين بالجوائز من يد رئيس الحكام، فقال لها: «اقتربي أيها المبهجة كاترين نيكيز اليزابيث ليرو» وأخذ ينقل بصره بين قائمة الفائزين والسيدة العجوز، مكرراً في لهجة أبوية: «اقتربي، اقتربي!»

وقال «توفاش» وهو يتململ في مقعده: «أصماء أنت؟» ثم راح يصيح في أذنها: «أربع وخمسون سنة في الخدمة! ميدالية فضية، وخمسة وعشرون فرنكاً لك!» وتأملت «الميدالية» إذ تناولتها، وما لبث وجهها أن أشرق بابتسامة راضية، ثم قمت وهي تنصرف: «سأعطيها لقس قريتنا كي يقيم لي قداساً» فمال الصيدلي نحو موثق العقود قائلاً: «يا للتعصبا»



وانتهى الحفل، فأخذ الجمهور يتفرق.. وعاد كل امرئ إلى مكانه، وكل شيء إلى مجراه، وأخذ السادة ينهرون الخدم، وهؤلاء يضربون الماشية، تلك الماشية الفائزة، التي علق بقرونها تاج أخضر، وهي تعود إلى حظائرها! هذا بينما صعد جنود الحرس الوطني إلى الطابق الأول من مبنى البلدية، وقد رشقوا الفطائر الجافة في حراهم، وحمل قارع الطبل سلة مليئة بالزجاجات، وأخذت مدام بوفاري بذراع رودولف الذي راققها حتى دارها، ثم افترقا لدى الباب، وسار هو يتنزه وحيداً في المرح، في انتظار موعد الوليمة.

وكانت المأدبة طويلة، صاخبة، سيئة النظام، ازدحمت إلى درجة لم يكن معها في وسع المرء أن يحرك مرفقه، وحتى أوشكت الألواح الضيقة - التي استخدمت كمقاعد - أن تتحطم تحت ثقل الجالسين، وأكل القوم في اسراف، إذ عني كل واحد بان يملأ بطنه، حتى تفقد العرق على كل جبهة، وأنبعث بخار يميل إلى البياض - كذلك الذي يتصاعد من جدول في صباح يوم من أيام الخريف - وأخذ يخيم فوق المائدة بين المصابيح المدلاة، واستند رودولف إلى قماش السرادق، وقد استغرقه التفكير في «إيما» حتى أنه لم يسمع شيئاً مما كان يدور حوله. وكان الخدم من ورائه يجمعون الأواني المتسخة، وجيرانه يوجهون إليه الحديث فلا يظفرون منه بجواب، ومن ثم ملأوا له كأساً وران على فكره سكون رغم الضجيج المحيط به، كان يحلم بما قالت، وبشكل شفيتها، وكان وجهها يتمثل له منعكساً على خوذات الجنود، وكأنه يراه في مرآة سحرية، وثنايا ثوبها تنتشر بين الجدران، وأخذت أيام الهوى تتتابع أمام عينيه في أفق المستقبل، وهي لا تكاد تنتهي!

ورآها ثانية في المساء، أثناء الاحتفال باطلاق الصواريخ. بيد أنها كانت مع زوجها ومدام «هوميه»، والصيدلي الذي كان شديد القلق بسبب خوفه من الصواريخ الشاردة، حتى أنه كان يترك الجماعة في كل لحظة، ليذهب إلى «بينيه» ويقدم له النصائح وكانت

الصواريخ - التي وردت باسم السيد «توفاش» - قد اختزن في قبو منزله، زيادة في الحيلة، ومن ثم لحقت الرطوبة بالبارود فلم يشتعل، وقسدت تماماً القطعة الرئيسية، وكانت صاروخاً يمثل تنيناً يعض ذيله! ومن وقت لآخر، كانت تنفجر شعلة رومانية هزيلة، فتنبعث من الجمهور النفاغرة الأقواء ضجة تختلط بها صيحات النساء اللواتي كان الرجال يدغدغون خصورهن في الظلام، وقد التصقت «إيما» - في رفق - بكتف شارل، وراحت تتنبح انبثاق الضوء من الصواريخ في السماء المعتمة، وهي رافعة الذقن، ورودولف يتأملها في ضوء المصابيح المشتعلة!

وخمدت الصواريخ شيئاً فشيئاً، وأضاءت النجوم، وسقطت بعض قطرات من المطر، فعقدت «إيما» حرماتها فوق رأسها العارية، وفي هذه اللحظة، أقبلت عربة المستشار من الفندق، وقد أخذت الحوذي المخور غفوة طارئة، فكان جسمه الضخم يرى على مقعده بين مصباحي العربة وهو يهتز يمنة ويسرة مع ارتجاجات العربة، فقال الصيدلي: «الحق إن من الواجب تشديد العقوبة على من يفرط في تناول الخمر، ويودي لو سجلت أسبوعياً على لوحة خاصة - على باب البلدية - أسماء الذين يشملون خلال الأسبوع من المشروبات الكحولية! فضلاً عن أننا سنحصل بذلك - من الناحية الإحصائية - على قوائم سنوية رسمية، نطلع عليها عند الحاجة، ولكن، اسمحوا لي!» وعدا ثانية نحو القائد! وكان هذا الأخير عائدًا إلى منزله ليتفقد مخرطته، فقال له هوميه: «إنك لن ترتكب خطأ لو أنك أوقدت أحد رجالك، أو تذهب بنفسك..»، فأجاب محصل الضرائب: «دعني وشأني! اطمئن!»

وبعد أن عاد الصيدلي إلى أصدقائه قال: «اطمئنوا! لقد أكد لي السيد بينيه أن التدابير اتخذت، ولم تسقط أية شرارة، كما أن المضخات مليئة، فهيا بنا نسترح!» فقالت مدام «هوميه» وهي تتشعب بقوة: «الواقع أنني بحاجة إلى النوم، ولكن، لا بأس، فقد قضينا يوماً جميلاً كأنه العيد!» فردد رودولف بصوت خفيض، ونظرة ناعمة: «آه، أجل! كان جميلاً جداً» وانحنى كل منهم لسواه، ثم انصرفوا.

وبعد ذلك بيومين، نشرت صحيفة «فنال دي زوان» مقالاً طويلاً عن العرض، كان هوميه قد كتبه بأسلوبه المتحمس في اليوم التالي للاحتفال، وقال فيه: «لم هذه الولائم، وهذه الأزهار، وهذه الباقات؟ وإلى أين يعدو هذا الجمهور وكأنه أمواج بحر ناثر، تحت سيل من أشعة الشمس الحامية التي تنشر حرارتها فوق حقولنا؟!» وتكلم عن حال الفلاحين، فقال إن الحكومة قد فعلت الكثير ولا شك من أجلهم، ولكن هذا لم يكن كافياً، ومن ثم أهاب بها: «إلى الأمام، فهناك ألف مشروع لازمة، وعلينا أن ننجزها». ثم تحدث عن وصول المستشار، فلم ينس «المظهر العسكري الرائع لجندونا»، ولا «فلاحاتنا الموفورات النشاط»، ولا «الشيوخ ذوي الرؤوس الصلحاء كأنهم البطارقة، وقد أحس من بقي منهم من رجال كنائينا القدامى، بقلوبهم لا تزال تخفق على دق الطبول القوي».. وذكر نفسه بين

أوائل الأعضاء المكونين لهيئة التحكيم، مشيراً - بطريقة تستلفت الانتباه - إلى أن السيد هوميه، الصيدلي، قد أرسل مذكرة عن شجر التفاح إلى الجمعية الزراعية! وإذا تطرق إلى الحديث عن توزيع الجوائز، صور فرح الفائزين بأسلوب خيالي مبالغ فيه: «فالأب يقبل ابنه، والأخ أخاه، والزوج زوجته، وكم من واحد منهم كان يزهو باظهار «ميداليته» المتواضعة، التي لن يلبث، إذا ما عاد إلى زوجته الصالحة أن يعلقها بجوار فراشه والدمع ينهمر من عينيه وحوالي الساعة السادسة، اقيمت مأدبة في بستان السيد «ليجار» ضمت الشخصيات الرئيسية التي حضرت الاحتفال، وسادتها روح المودة الخالصة، وشريت عدة انتخاب، فشرّب السيد «لبيفان» نخب الملك، والسيد «توفاش» نخب المدير، والسيد «ديروزياري» نخب الزراعة، والسيد «هوميه» نخب الصناعة والفنون الجميلة - التوأمين - والسيد «ليبليشييه» نخب الإصلاحات. وفي المساء انطلقت في السماء صواريخ لامعة اضاءتها فجأة، حتى لقد كان خيل للمرء أنها منظر سحري، أو منظر مسرحي حقيقي، وكأنني بالقرية الصغيرة قد انتقلت - للحظة من الزمن - إلى حلم من أحلام ألف ليلة وليلة!»

ثم أضاف قائلاً: «ولنسجل أنه لم يكدر صفو هذا الاجتماع العائلي أي حادث يدعو للأسف، وكانت الملاحظة الوحيدة هي تخلف رجال الدين، ولعل الكهنوت يفهم التقدم على نحو آخر! كما تشاؤون يا رسل ليولا!»

الفصل التاسع

أنقضت ستة أسابيع، دون أن يأتي «رودولف» ثانية، ثم ظهر أخيراً في إحدى الأمسيات. كان قد قال لنفسه غداة المعرض: «ما ينبغي أن أعود سريعاً، فهذا خطأ!» وفي نهاية الأسبوع خرج للصيد، وخطر له بعد الصيد أن الوقت قد تأخر، بحيث لا يليق أن يذهب، ثم عاد فراود نفسه قائلاً: «لكنها إذا كانت قد أحبتني منذ اليوم الأول، فلسوف يزيدا وجداً تلهفها إلى رؤيتي. فلنمض إذن!».

وأدرك أن ما توقعه كان صحيحاً، حين لمح وجه «إيما» يشحب لدى دخوله الحجرة! كانت وحيدة، والنهار يحترض، وقد ضاعفت الستائر الحربية الصغيرة - المحاذية لطول زجاج النافذة - من لون الشفق. وكان بريق «البارومتر»، الذي سقط عليه شعاع من الشمس، ينعكس على المرأة بين حزميتين من المرجان. وظل «رودولف» واقفاً، بينما ردت «إيما» في عناء عبارات التحية الأولى. قال: «كانت لدي أعمال، وكنت مريضا»، فهتفت: «بدرجة خطيرة؟». فقال وهو يجلس على مقعد منخفض إلى جوارها: «حسناً! لا! إنما كان غيابي لأنني لم أشأ أن آتي» وتساءلت: «لماذا؟»، فسألها بدوره: «ألا تحسدين؟».

ورمقها مرة أخرى، لكن نظرتة كانت حادة، فنكست رأسها، وتضرج وجهها، بينما عاد يقول: «إيما» فتراجعت قليلاً، قائلة: «سيدي...» فقال في صوت حزين «آه! ها أنتخذى ترين أنني كنت محقاً في عزوفي عن المجرى. فأنت تحرمين على هذا الاسم. الاسم الذي يملأ نفسي، والذي أقلت من لساني! مدام بوفاري! آه! كل الدنيا تدعوك هكذا! ثم أنه ليس اسمك، وإنما هو اسم شخص آخر! وعاد يردد: «شخص آخر!» ثم أخفى وجهه في راحتيه؛ وهو يستطرد: «أجل! إنني أفكر فيك باستمرار! ذكراك تدفعني للقنوط! آه، معذرة! لسوف أتركك، وداعاً! سأبتعد، سأذهب إلي حيث لا تسمعين عني! على أنني اليوم لا أردى - بعد - أية قوة دفعتني إليك! فإن المرء لا يستطيع أن يناضل السماء، أو يقوى على مقاومة ابتساماة الملائكة... إنما ينساق الإنسان لما هو جميل، فائن، حبيب!».

كانت هذه أول مرة تسمع فيها «إيما» مثل هذه الأقوال، فتمطى زهوها إلى أقصاه، في رفق، كشخص يستمرئ حكاماً دافئاً... بينما استأنف الشاب حديثه: «... بيد أنني إذا كنت لم آت، إذا لم أملك أن أراك، فإني... آه! كنت على الأقل أتأمل ما يحيط بك ملياً. كنت أنهض في الليل - كل ليلة - وأتي إلى هنا، فأتأمل دارك. والسقف المتألق تحت القمر، وأشجار الحديقة التي كانت تتمايل أمام نافذتك.. ومصباحاً صغيراً، وميضاً كان يلعب خلال زجاج النافذة، في الظلام. آه! إنك ما عرفت قط أن ثمة تعساً مسكيناً كان قريباً منك، بقدر ما كان بعيداً!».

فالتفتت إليه دامعة، وهتفت: «أواه! إنك طيب!».

-لا، بل أنا أحبك، وهذا غاية ما في الأمر! إنك لا ترتابين في هذا! انبئيني بكلمة كلمة واحدة!

وانزلق «رودولف» -دون أن يعي- عن المقعد إلى الأرض، لولا أن سمع وقع نعلين خشبيين في المطبخ، ولاحظ أن باب القاعة لم يكن مغلقاً، فاستطرد وهو ينهض: «كم تكونين كريهة إذا أنت حققت نزوة لدي!» تلك هي أن يجوس خلال دارها، إذ ود أن يتعرف عليها، وإذ لم تر مدام «بوفاري» حرجاً في ذلك، نهضاً معها، بينما دخل «شارل» فقال له رودولف: «عم صباحاً يا دكتور» واغتر الطبيب بهذا اللقب الذي لم يكن يرتقبه من ضيفه، فانطلق يرد التحية في عبارات تنم عن الارتياح، واستغل الآخر الفرصة ليتمالك نفسه بعض الشيء، ثم قال: «لقد طمأننتني السيدة عن صحتها...».

فقطع عليه «شارل» الحديث: بالعكس، إن لديه ألف هاجس وهاجس في الواقع، فلقد عاد إليها ضيق التنفس، و... وإذ ذاك سأله «رودولف» عما إذا كانت النزهة على الجواد تنفعها، فهتف: «بالتأكيد! رائعة! عين ما ينبغي! يا لها من فكرة! خليك بك أن تأخذي بها» وإذ تعللت «إيما» بأن ليس لديها جواد، عرض السيد رودولف أن يقدم لها جواداً، فرفضت عرضه. ولم يصر، ثم قال تبريراً لزيارته، إن حوزيه -الرجل الذي أجريت له الحجامة- لا يزال يعاني من الدوار. فقال «بوفاري»: «سأعود!».

-لا، لا. سأوفده إليك. سنأتي، فهذا أدعى لراحتك.

-آه، حسن جداً. أشكرك.



وما إن أصبحت على انفراد، حتى سألت شارل زوجته: «لم لا تقبلين العرض الذي تكرم به السيد بولانجييه؟» فأبدت إعراضاً، وانتحلت ألف عذر، ثم أعلنت في النهاية أن الأمر قد يبدو غريباً. فقال وهو يدور حول نفسه: «آه! لست أحفل! الصحة قبل كل شيء! إنك مخطئة!» فقالت: «آه! وكيف تريدني على أن أركب جواداً، وليس لدي زي الركوب!» فأجاب: «يجب أن تطلبي زياً».

وكان هذا فصل الخطاب، فلما أعد، كتب «شارل» إلى السيد «بولانجييه» أن زوجته رهن اشارته، وأنه يكلها إلى رعايته. ووصل «رودولف» أمام باب «شارل» في ظهر اليوم التالي، مع جوادين مسرجين، حمل أحدهما حول أذنيه وروداً من الصوف الوردي اللون، وكان سرجه نسوياً من جلد الوعل.

وكان «رودولف» قد ارتدى حذاءين طويلين من الجلد الطري، محدثاً نفسه بأن «إيما» ولا شك لم تر شيئاً مثلها قط. وقعلاً، فتنت بمظهره حين ظهر في أسفل السلم في حلتها المخملية الواسعة، وسرواله المصنوع من الصوف الأبيض المنسوج باليد. وكانت متأهبة، في

انتظاره، وتسلسل «جويستان» من الصيدلية ليراه، كما قطع الصيدلي عمله وجاء يوصي السيد بولانجيه: «إن الحوادث تقع فجأة، فخذ حذرك. ربما كان جواداك شديدي الاندفاع».

وسمعت «إيما» ضجة منبعثة من أعلى، فإذا «فيليسيتيه» تنقر زجاج النافذة لتلهي «بيرت» الصغيرة. وأرسلت لها الطفلة قيلة على البعد، فردت عليها الأم ملوحة بمقبض سوطها. وصاح السيد «هوميه»: «نزهة طيبة! الزما الحكمة والروية، قبل كل شيء! الحكمة والروية!» وأخذ يلوح بصحيفته وهو يرقبهما يبتعدان. وما إن دق حصان «إيما» الأرض بحوافره، حتى انطلق راكضاً بها، فركض «رودولف» إلى جوارها، وصارا يتبادلان حديثاً بين لحظة وأخرى، ثم استغرقت «إيما» في الصمت، ومنساقة لايقاع الحركة التي كانت تؤرجحها في سرجها، وقد مالت قامتها إلى الأمام قليلاً، وارتفعت يدها، وانبسبت ذراعها اليمنى. وعند أسفل السفح، أرخى «رودولف» العنان لجواده، فانطلق الجوادان في وثبة واحدة، وما لبثا إذ بلغا القمة، أن وقفا فجأة، فسقط القناع الأزرق عن وجه «إيما»، وكان شهر أكتوبر في أيامه الأولى، وثمة ضباب يرين فوق الأرض، والسحب تنتشر عند الأفق، حول التلال، بينما تفككت سحب أخرى، وأخذت تطفو متباعدة ثم تختفي. وكان المرء يلمح في بعض الأحيان خلال ثغره في السحب، تحت شعاع من ضوء الشمس، سقوف بلدة (ايونفيل) والحدائق الممتدة على حافة الماء، والساحات، والجدران، وبرج الكنيسة. وزمت «إيما» عينيها لتستبين دارها، ولم تكن هذه القرية البائسة - التي عاشت فيها - قد تراءت لها قط من قبل صغيرة إلى هذا الحد، ومن الارتفاع الذي كانا عليه، بدا الوادي بأسره كبحيرة هائلة باهتة اللون، تتصاعد بخاراً في الهواء. وكانت مجموعات الشجر المتناثرة هنا وهناك تظهر كصخور سوداء، وصفوف الأشجار السامقة - التي كانت تبرز خلال الضباب - تلوح كساحل رملي تدرؤه الرياح.

وكان ثمة ضوء بني يتذبذب في الجو الدافئ، وعلى الأعشاب، بين أشجار الصنوبر القائمة جانباً، وكانت التربة تكتم وقع الخطى، وقد بدت في صفرة متوردة كمسحوق التبغ، وأخذ الجوادان - في سيرهما - يضربان بحواف سنابكهما أقماع الصنوبر المتساقطة أمامهما. وهكذا مضى «رودولف» و«إيما» يتبعان حافة الغابة، وهي تشيح بوجهها من أن لاخر لتتفادى نظراته، بحيث لم تكن ترى إذ ذاك سوى جذوع أشجار الصنوبر المتراسة في صفوف كان تتابعها الترتيب يسبب لها شيئاً من الدوار. وراح الجوادان يلهثان، وجلد السرجين يحدث صريراً. وفي اللحظة التي ولجا فيها الغابة، بزغت الشمس، فقال «رودولف»: «إن الله يرعانا!» فسألته: «أتظن ذلك؟»، فواصل الحديث قائلاً: «لنتقدم! لنتقدم!» وشقشق بلسانه فاندفع الجوادان يجران، وعيدان نبات السرخس النامية على جانب الطرق تعلق بركاب «إيما» فينحني «رودولف» ويزيلها وهما ماضيان، وكان في فترات أخرى يمر جد قريب منها ليزيح الأغصان، فتحس «إيما» بركبته تحتك بساقها، وكانت السماء قد غدت زرقاء، ولم تعد أوراق الشجر تهتز. ومرا بمساحات مليئة بزهور نبات

«الخلنج»، ويقاق حفلت بزهور البنفسج، تتخلل رقاعاً ازدهمت بالأشجار المتشابكة التي كانت ذات لون رمادي مصفر، أو لون ذهبي، تبعاً لتباين أوراقها. وكثيراً ما كان يسمع في الأدغال حفيف خفيف صادر عن جناحين، أو صيحة أجشة خافتة منبعثة عن غراب يحلق بين شجر البلوط.



وترجلاً، فربط «رودولف» الجوادين، بينما تقدمت «إيما» سائرة على العشب بين دربين. بيد أن ثوبها المفرط الطول راح يعرقل خطاها، رغم أنها كانت ترفع ذيله، و«رودولف» يسير خلفها فيلمح بين هذا القماش الأسود والحذاتين الأسودين، رقة جوربيها الأبيضين اللذين لاحاً له كنوع من العري، ثم توقفت قائلة: «أنني متعبة»، فقال: «لنمض، حاولي من جديد، تجلدي!» وبعد مائة خطوة، توقفت من جديد، وخلال نقابها الذي انساب من قبعة الرجال -التي كانت ترتديها- إلى خاصرتيها، في انحراف، كان وجهها يلوح في شفافية مشوبة بزرقة، وكأنه يسبح تحت موجات لاذوردية. وتساءلت: «إلى أين ترانا ذاهبين؟» فلم يجب. وتهدجت أنفاسها، فأجال رودولف بصره فيما حوله، وعض على شاربيه.

وبلغا بقعة فسيحة، اجتثت منها الأعشاب والأشجار، فجلسا على جذع شجرة مجتثة، وشرع «رودولف» يحدثها عن غرامه. لم يزعجها في البداية بالمجاملات والملقى، وإنما كان هادئاً، جاداً، حزيناً. وانصت «إيما» منكسة الرأس، وهي تحرك بمقدمة قدمها بعض شظايا الخشب المختلطة بالتراب، حتى قال: «ألم يعد مصيرانا الآن مشتركين؟»، وإذا ذلك أجابته: «آه، لا! إنك لتعرف هذا تماماً، إنه مستحيل!» ونهضت للاتصراف، فأمسك بمعصمها، وتوقفت، ثم قالت متعجلة بعد أن رمقته بضع لحظات بعين عاشقة، مغرورة: «آه! لنكف عن الكلام. أين الجوادان؟ هيا نعد» فلوح بيده في غضب وحنق، بينما كررت هي: «أين الجوادان؟ أين الجوادان؟».. وما لبث أن تقدم باسطة ذراعيه، وعلى أساريه ابتسامة غريبة، وقد جمدت حدقتاه، وضغط أسنانه. فتراجعت مرتجفة، وقالت متلعثمة: «أواه! إنك تخيفني! إنك تؤذي! لنرحل» فقال وقد تغيرت أساريه: «إذا لم يكن من الرحيل بد!» وارتد وقوراً، لطيفاً، حياً، فأسلمته ذراعيها، وعادا، وهو يقول: «تري ما الذي دهاك؟ لماذا؟ إنني لا أفهم. إنك أسأت فهمي ولا ريب. إنك في فؤادي كعدراء على منصة، في مكان رفيع، منيع، طاهر. ولكني لا أطيق أن أعيش بدونك! إنني في حاجة إلى عينيك، إلى صوتك، إلى فكرك، ألا كوني لي صديقة، أختاً، ملاكاً!» وبسط ذراعه، فأحاط بها خصرها. وحاولت التملص في وهن، لكنه ظل يسندها وهما سائران. غير أنهما ما لبثا أن سمعا الجوادين يلتهمان أوراق الشجر، فقال «رودولف»: «آه! لحظة واحدة! ما ينبغي أن نرحل. ألا ابقى!».

واجتذبتها بعيداً، حول بركة ماء صغيرة، بسطت أعشاب الماء على أمواجها خضرة، وكانت زنابق الماء الباهتة تستلقي ساكنة بين أعواد الغاب (البوص). وقفزت الضفادع لتختفي عند وقع أقدامهما. فقالت إيما: «إنني مخبطة! إنني مخبطة! انني حمقاء إذ أنصت إليك!».

— لماذا يا إيما؟ يا إيما؟

فقالت في ببطء وهي تميل على كتفه: «أواه، يا رودولف!» واشتبك قماش ثوبها بمخل سترته، فمالت إلى الخلف بعنقها الأبيض، الذي انتفخ بزفرة، وفي اضطراب ودموع، ورعشة طويلة، حجبت وجهها. وأسلمت نفسها!

وهبط ظلال المساء، ومرت الشمس الغاربة بين الأفنان فأعشت عيني «إيما». وهنا وهناك -فيما حولها- كانت لم من الضوء ترحف بين أوراق الشجر أو على الأرض، وكأنها طيور صداحة نفشت ريشها وهي تحلق. كان السكون شاملاً، كأنما كان ينبعث من الأشجار شيء عذب. وتحسست المرأة قلبها الذي عاد وجيبه يشتد، وجرى الدم في لحمها كجدول لبن، وما لبثت أن سمعت من مكان بعيد على التلال الأخرى، خلف الغابة، صيحة مبهمة، طويلة، صوتاً تردد، فأصغت إليه في صمت وهو يختلط -كالموسيقى- بأخر نبضات أعصابها المختلجة. وكان «رودولف» يصلح بسكينة أحد العنانين المكسورين، وسيجاره بين شفتيه.



وعادا إلى (ايونفيل) من نفس الطريق التي جاء فيها، فرأيا على الوحل آثار أقدام جواديهما، جنباً إلى جنب، ومرا بعين الأدغال، وعين الحصى بين العشب. لم يتغير شيء حولهما، وإن كان قد حدث -بالنسبة لها- أمر أشد جساماً مما لو كانت الجبال قد تقلقلت من مواضعها! وكان «رودولف» يميل نحوها، بين آن وآخر، فيتناول يدها ليقبلها. كانت فاتنة، على الجوادا معتدلة؛ هيفاء القوام، وقد انثنت ركبتيها على عرف دابتها، وتورد وجهها قليلاً -بتأثير الهواء الطلق- في حمرة الشفق. حتى إذا ولجا (ايونفيل)، حولت مدام بوفاري عنان جوادها إلى الطريق المرصوفة، وتأملها الناس خلال النوافذ.

وعندما حانت ساعة العشاء، ألفاها زوجها وقد بدت أفضل حالاً، وإن لاح عليها انها لم تكن تسمعه وهو يسألها عن نزهتها. بل ظلت جالسة ومرفقاها إلى جانبي طبقها، بين شمعتين مشتعلتين. وقال الزوج: «إيما» فتساءلت: «ماذا؟» فأردف: «خيراً لقد قضيت الأصيل في دار السيد الكسندر. إن لديه فرساً عجوزاً، لا تزال بديعة جداً. كل ما بها أن ركبتيها مضعضعتان. واني لوائق من أن في الوسع شراؤها بمائة دينار». ثم أضاف: «وإذ خطر لي أنها ستروكك، حجزتها، ابتعتها فهل أحسنت صنعا؟ ألا نبشيني!».

فهزت رأسها علامة الرضى، وما لبث أن تساءلت بعد ربع ساعة: «أخرج أنت الليلة؟»، فأجاب: «أجل لماذا؟».. قالت: «آه، لا شيء، لا شيء يا صديقي». وما إن تخلصت من «شارل» حتى صعدت فأغلقت باب مخدعها خلفها، وأحست -في البداية- كأنها فى غيبوبة! رأت الأشجار، والدروب، والأخاديد، ورودولف، وشعرت من جديد بضغط ذراعيه، بينما كانت أوراق الشجر وأعواد الغاب تبعث حفيفاً. ولكنها إذ لمحت شكلها في المرآة، دهشت لرأى وجهها، فما كانت عيناها يوماً بهذا الاتساع، وفي هذا السواد، وعلى هذا العمق. إن شيئاً ما، رقيقاً لطيفاً، قد غيرها. وراحت تردد لنفسها: «أصبح لي عشيقاً عشيقاً». وبعثت فيها هذه الفكرة نشوة، فكانها تحظى بفترة المراهقة والأحلام مرة أخرى! إذن فقد قدر لها أخيراً أن تعرف مباحج الحب هذه، وحسى الهناعة تلك التي كانت في قنوط منها؟! لقد ارتادت شيئاً من تلك المجهل الحافلة بالشهوة، والنشوة، والألم. ولفتها هيلولة لأزوردية، وأخذت ذرى الأحاسيس تومض تحت أفكارها، وبدا لها كيانه العادي بعيداً، منخفضاً في الظلمات التي كانت تتخلل تلك الذرى! إذ ذاك أخذت تتذكر بطلات الكتب التي قرأتها، وراح الموكب الموسيقي لتلك الفاسقات يردد في ذاكرتها الأغاني بأصوات الراهبات التي كانت تفتننها. وما لبثت أن تبينت أنها قد غدت جزءاً من تلك الرؤي فعلاً، إذ حققت حلم صباها، وخالت نفسها من ذلك الطراز من العاشقات اللاتي كانت تغبطهن من قبل. وأحست، بجانب ذلك، براحة الانتقام! أو لم تعاني الكفاية من العذاب؟ إنها الآن قد فازت، وانبثق الحب -الذي طالما احتبسته- في طفرات فرحة، فاستمرأته في غير ندم، ولا قلق، ولا اضطراب!

وأنقضى اليوم التالي في عذوبة جديدة، إذ تبادلوا العهود. وحدثته عن أحزانها، فمضى يقطع عليها الحديث بقبلاته. وراحت تسأله، وهي تتأمله بعينين نصف مغمضتين، أن يناديها باسمها، وأن يكرر لها أنه يهواها.. وكانا ساعتئذ في كوخ بالغابة كان يوماً ملكاً لأحد الاسكافيين، جدرانه من القش، وسقفه جد منخفض، حتى لقد اضطرا إلى أن يحنيا جذعيهما، وقد جلسا متقابلين على فراش من أوراق الشجر الجافة.



ومنذ ذلك اليوم يتكاتبان بانتظام كل ليلة. وكانت «إيما» تضع رسالتها في نهاية الحديقة، على مقربة من النهر، داخل فجوة في السياج، فيأتي «رودولف» ليأخذها ويدس رسالة منه في موضعها، كانت تشكو دائماً من اقتضاها! وذات صباح، خرج «شارل» قبيل بزوغ ضوء النهار، فتولت «إيما» نزوة طاغية زينت لها أن ترى «رودولف» لتوها! وخطر لها أن يوسعها أن تذهب إلى (لاهورشيت) عاجلاً، فتمكث هناك ساعة، ثم تعود إلى (ايونفيل) قبل أن يستيقظ أحد من نومها! وجعلتها هذه الفكرة تلهث لفرط الشهوة، وسرعان ما الفت نفسها وسط المراعي، وهي تغذ السير، لا تلوى على شيء! وكان النهار

قد شرع يسفر عن ضيائه، حين تعرفت عن بعد على بيت حبيبها، وقد استقام بالقرب منه جهازاً معرفة اتجاه الرياح - اللذان كانا ينتهيان بما يشبه ذيل الحمامة - أسودين بالنسبة لضوء الفجر الباهت. وكان ثمة مبنى وراء مساحة المزرعة، حدثت أنه القصر ولا بد، فدخلته، وكأنما تفتح باباً من تلقاء نفسيهما بمجرد اقترابها. وكان ثمة سلم عريض مستقيم يصعد إلى الردهة، فأدارت «إيما» مقبض أحد الأبواب، وإذا بها ترى في أقصى الحجرة رجلاً نائماً، كان «رودولف». فندت منها صرخة!

وأخذ هو يردد: «أأنت هنا؟ أأنت هنا؟ كيف استطعت المجيء؟ آه! إن ثوبك مبتل». فأجابته وهي تطوق عنقه بذراعيها: «إنني أهواك!» وإذا نجحت هذه المغامرة الجريئة الأولى، أصبحت «إيما» تسارع - كلما بكر «شارل» في الخروج - إلى ارتداء ثيابها، ثم تتسلل على أطراف أصابع قدميها، هابطة السلم المفضى إلى ناحية النهر أما إذا كانت قنطرة الأبقار مرفوعة، فكانت تضطر إلى الانطلاق بمحاذاة الأسوار القائمة على طول النهر. وكانت الضفة زلقة، ومن ثم كانت تتشبث بيديها بفروع الأزهار المتسلقة، لتتفادى السقوط، ثم تنطلق بعد ذلك عبر الحقول المحروثة، حيث كانت قدماها تغوصان في الأرض، فتتعثران وتفلتان من نعليهما الرقيقين.

وكانت الرياح في المروج تعبث بالوشاح الذي يلف رأسها. وكانت تخاف الثيران فتأخذ في الجري، حتي تصل متقطعة الأنفاس، موردة الخدين، تشق بكل كيانهما عبير ماء الحقول، والخضرة، والهواء الطلق. وفي تلك الاثناء يكون «رودولف» سادراً في نومه، فتلج مخدعة كصباح الربيع! وكانت الستائر الصفراء - على النوافذ - تسمح لضوء غزير، مصفر، بالتسلل في رفق، فتتحسس «إيما» طريقها، وهي تفتح عينيها وتغمضهما، بينما تؤلف قطرات الندى العالقة بوشاحها اكليلاً من الزبرجد حول وجهها، فيشدها «رودولف» إليه ضاحكاً، ويضمها إلى قلبه! ثم تأخذ بعد ذلك في تفقد المسكن، فتفتح أدراج المناضد، وترجل شعرها بمشطه، وتتأمل نفسها في مرآة الخلاقة. بل أنها كثيراً ما كانت تضع بين أسنانها طرف الغليون الكبير الملقى على المنضدة المجاورة للفرش، بين الليمون وقطع السكر، على مقربة من إبريق للماء. وكان الوداع يستغرق منهما ربع ساعة بأكمله، فقد كانت «إيما» تبكي آنئذ، وهي تود لو أتيح لها ألا تفارق «رودولف» أبداً! كان يدفعها نحوه شيء أقوى منها، حتى أنه حين رآها يوماً تفد على غير ارتقاب، قطب جبينه في عبوس الشخص المكره على أمر، فقالت له: «ماذا بك؟ هل تألم من مرض؟ صارحني!». وصارحها أخيراً، في لهجة جادة، بأن زياراتها أصبحت تجانب الحكمة، وأنها تعرض نفسها للخطر!

الفصل العاشر

لم تليث مخاوف «رودولف» هذه أن تملكته هي الأخرى. إذ أسكرها الحب في البداية، فلم تفكر في شيء عدا، أما وقد أصبح ضرورة لا غنى عنها في حياتها، فقد غدت تخشى أن تفقد شيئاً من هذا الحب، بل تخشى أي غناء يحيق به. وكانت حين تعود من عند «رودولف» تتلفت حولها بنظرات موجسة، وترقب كل ما يمر عند الأفق، وكل كوة في القرية يمكن أن يلصحها منها أحد. وكانت تتسمع على الخطى، والصباحات، وجلبة المحارث، وتبدو أكثر شحوباً وأشد ارتجافاً من أوراق أشجار الحور المهتزة فوق رأسها. وفيما كانت عائدة ذات صباح -بهذه الحال- خيل إليها فجأة أنها لمحت قصبة بندقية مسددة إليها، وقد برزت بانحراف من قمة برميل صغير دفن إلى نصفه بين الأعشاب عند حافة خندق صغير. وكاد يغمى على «إيما» خوفاً، ومع ذلك فإنها واصلت السير، وإذا برجل يخرج من البرميل -كعفريت العلبة- مرتدياً طماقين (طزلك) يقيان ساقية حتى الركبتين، وقد أرخى قلنسوته على عينيه، وارتجفت شفتاه، وأحمر أنفه. ذلك كان السيد «بينيه» -محصل الضرائب- وكان قد كمن يترصد للبط البري، وهتف بها: «كان ينبغي أن تصيحي من بعد، فالمرء إذا رأى بندقية وجب عليه أن ينبه إلى وجوده» وكان المحصل يحاول بهذا أن يخفي الجزع الذي تولاه، إذ كان ثمة أمر إداري يحرم صيد البط إلا من مركب في النهر، وقد وجد السيد «بينيه» نفسه يخرق القانون رغم احترامه إياه، وكان يخشى أن يفاجأ بين دقيقة وأخرى بوصول الحارس الريفي. غير أن هذا القلق أذكى متعته، فراح يهنيء نفسه -وهو وحيد في البرميل- بما أوتي من حظ ودهاء. وما إن رأى «إيما» حتى بدا وكأنها انزاح عنه عبء ثقيل، فبادر إلى مجاذبتها الحديث، قائلاً: «إن الجو ليس حاراً، بل إن برودته لاذعة». ولم تجبه «إيما»، فاستطرد قائلاً: «ومع ذلك تخرجين مبكرة من دارك؟» فقالت متلعثمة: «أجل. إنني عائدة من لدن المربية التي تكفل طفلي».

-آه، حسن جداً! حسن جداً! أما أنا، فكما ترين، جئت منذ تنفس النهار، ولكن الجو شديد الرطوبة، حتى إن المرء إذا لم يصبر حتى يقف الطائر عند فوهة البندقية...

فقطعت عليه الحديث قائلة وهي تنكس على عقبيها: «عم مساء يا سيدي» فقال في لهجة جافة: «في خدمتك يا سيدتي». وعاد إلى برميله. ونذمت «إيما» إذ تركت محصل الضرائب يمثل هذه الجفوة، فلا بد أنه سيسيء التأويل والحسد! والواقع أن قصة المرضعة كانت أسوأ حجة، إذ أن الكل يعرفون في (ايونفيل) أن ابنة «بوفاري» قد عادت إلى أبويها منذ عام. ثم إن أحداً لم يكن يسكن في هذه الجهة، ولم تكن الطريق تفضي إلى غير مزرعة (لاهوشيت) ومن ثم قلن يليث «بينيه» أن يحسد من أين كانت آتية،

ولن يخلد إلى الصمت، بل إن من المؤكد أنه سيثرثر بالموضوع! وظلت «إيما» حتى المساء تعصر ذهنها بحثاً في كل أنواع الأكاذيب الممكن تصورها، وشبح ذلك الصياد الغيبي ماثلاً أمام عينيها باستمراراً



وإذ رأى «شارل» اكتئابها، أراد -بعد العشاء- أن يصطحبها إلى دار الصيدلي ليروح عنها، فإذا أول شخص تراه في الصيدلية، هو محصل الضرائب عينه! كان واقفاً أمام منضدة البيع، التي أنارها قنديل أحمر، وهو يقول: «أرجو أن تعطيني نصف أوقية من الزاج»، فصاح الصيدلي: «أحضر حامض الكبريتيك يا جستان». ثم قال لإيما التي همت بأن تصعد إلى حجرة زوجته مدام «هوميه»: «لا استريحى»، فلا داعي لأن تتعبي نفسك، إذ أنها لن تلبث أن تهبط. فاستدفتي بجوار المدفأة فى انتظارها. معدرة، طاب يومك يا دكتور (كان الصيدلي يستطيع ترديد كلمة «دكتور»، وكأنه يخلع على نفسه -إذ ينادى سواه بها- بعض الرواد الذي يجده فيها). ولكن، حذار أن تقلب الهاونات، يحسن أن تحضر بعض المقاعد من القاعة الصغيرة. إنك تعرف ولا ريب أن ليس من المسموح نقل المقاعد الوثيرة من غرفة الجلوس.

ولكي يعيد «هوميه» مقعده إلى مكانه، هم بالانطلاق من خلف منضدة البيع، لولا أن سألته «بينيه» أن يبيعه نصف أوقية من حامض السكر، فقال الصيدلي في ازدراء: «حامض السكر؟ لست أعرفه، بل إنني أجهله! لعلك تريد حمض الأوكساليك (الحميض)؟ إنه الأوكساليك، أليس هذا صحيحاً؟» فأوضح له «بينيه» أنه يريد مادة تفتت المعدن، ليعد لنفسه بعض ماء النحاس يزيل به الصدأ عن أدوات الصيد. فارتجفت «إيما»، وشرع الصيدلي يقول: «إن الجو غير مناسب، فعلاً، بسبب الرطوبة». فأجاب محصل الضرائب، في تخايب: «ومع ذلك، فهناك أشخاص يملون إليه!» وتهدجت أنفاس «إيما»، بينما تحول هو يقول: «وأعطني أيضاً...» فقالت لنفسها: «أو لن ينصرف أبداً؟» وكان مستطرداً في كلامه: «نصف أوقية من زيت الخروع والترينتين، وأربع أوقيات من الشمع الأصفر، وثلاثة أنصاف أوقية من الفحم الحيواني، من فضلك، لأنظف جلد طماقى المصقول».

وكان الصيدلي قد شرع في قطع الشمع عندما وصلت مدام «هوميه» حاملة «ايرما» بين ذراعيها، و«نابليون» إلى جوارها، و«أتالي» خلفها. وجلست في المقعد المخملي المجاور للنافذة، بينما جلس الصبي القرفصاء على مقعد صغير، وأخذت أخته التي تكبره تحوم حول صندوق العناب القريب من أبيها. وكان الأخير يملأ أقماعاً، ويسد قنينات، ويلصق بطاقات، ويحزم الأشياء. وقد ساد الصمت من حوله، فلم تكن تسمع سوى شنشنة الموازين بين آن وآخر، ويضع كلمات خافتة من الصيدلي لتوجيه مساعده وفجأة، تساءلت مدام هوميه: «وكيف حال فتاتنا الصغيرة؟»، فهتف زوجها وهو يكتب أرقاماً في مسودة:

«صمتا» لكنها استطردت في صوت خفيض: «لم لم تحضرها معك؟» وأجابت إيما وهي تشير إلى الصيدلي باصبعها: «صدا صدا» ومن المحتمل أن يكون «بينيد» لم يسمع شيئاً، إذ كان منهمكا في مراجعة حسابه. وما لبث أن خرج في النهاية، وإذا ذلك أحست «إيما» بالارتياح، فأرسلت زفرة عميقة. وقالت مدام «هوميه» معلقة: «ما أشد أنفاسك؟»، فأجابت: «آه، إن الجو حارا».



وهكذا اضطر العاشقان إلى أن يتشاورا في اليوم التالي في تدبير أمر خلواتهما. ورأت «إيما» أن ترشو خادمتهما بهدية، ومع ذلك فقد استحسنت البحث عن منزل أمين في (ايونفيل)، فوعده «رودولف» بأن يبحث. وظل طيلة الشتاء، يتسلل إلي حديقة دارها في بهيم الليل ثلاث مرات أو أربعاً في الاسبوع، وكانت «إيما» قد تعمدت أن تأخذ مفتاح الباب، فظن «شارل» أنه ضاع. واعتاد «رودولف» أن يرمى مصاريع النافذة بحفنة من الرمل كلما جاء، لينبهها، فتقفز مجفلة. بيد أنها كانت تضطر أحياناً إلى التريث في اللحاق به، إذ كان «شارل» يهوى الحديث إلى جوار المدفأة، ولا يكاد يكف. وكان التعجل في انتظار نهوضه يفري فؤادها، ولو أوتيت نظراتها قوة لرفعته من مكانه وطوحت به من النافذة! ولكنها كانت لا تلبث أخيراً أن تشرع في التأهب للنوم، ثم تتناول كتاباً وتأخذ في مطالعته في هدوء، كأنها هي تستمرى القراءة. فلا يلبث «شارل» أن يصعد إلى السرير، ويناديها لتنام، قائلاً: «هيا يا إيما، تعالي! لقد آن لك أن تنامي»، فتجيبه: «أجل، ها أنذي قادمة!» لكنه لا يلبث أن يضيق بضوء الشموع، فيولي الحائط وجهه، وينام، فتتسلل مبتسمة، متهدجة الأنفاس، وليس عليها سوى قميص النوم، وكان لرودولف معطف كبير، يسارع فيلقها به قاماً، ثم يحيط خصرها بذراعه، ويقودها -دون ما كلمة- إلى الطرف الأقصى للحديقة، تحت الخميلة، على عین المقعد المصنوع من العصى الخشبية الذي كان «ليون» يجلس عليه فيما مضى، يتطلع إليها في وجد، في ليالي الصيف - على أنها لم تكن تفكر في «ليون» فقط إذ ذاك!

وكانت النجوم تومض خلال فروع الياسمين المجردة من الورق، وخير النهر في انسيابه يصافح سمعهما من خلف الحديقة. ومن وقت لآخر، كان ينبعث على الضفة حفيف أعواد الغاب الجافة. وهنا وهناك، كانت تبين خلال الظلام كتل من الظلال، تهتز أحياناً في حركة موحدة، فتنهض وتترنح كأنها أمواج سوداء هائلة، تتدافع لتجتاحهما. وكان برد الليل يضطرهما إلى أن يزدادا تلاصقاً، فتبدر التنهيدات المنبعثة من شفاههما أحر من عادتها، وتترامى لهما عيونهما -التي كانا لا يكادان يستبينانها- أكثر اتساعاً. وفي غمرة الصمت، كانت تقال كلمات خافتة، تقع على نفسيهما في رنين بلوري، ثم تتذبذب فيها، في دوائر تطرد اتساعاً. وكانا -في الليلة الممطرة- يلوذان بغرفة العيادة القائمة بين مأوى

العربة وحظيرة الجواد، فتوقد «إيما» شمعة من شموع المطبخ كانت تخفيها وراء الكتب، ويرتاح «رودولف» كما لو كان في بيته بل إن منظر المكتبة، والمكتب، والفرقة بأسرها، كانت لا تلبث أن تستثير روح الفكاهة لديه، فلا يتمالك أن يلقي بضع نكات عن «شارل» تحار أزماءه «إيما»، إذ كانت تؤثر أن تراه أكثر جداً، بل وأكثر انفعالاً -في بعض المناسبات- كما يفعل أبطال المسرحيات. من ذلك تلك المرة التي خيل إليهما فيها أنهما يسمعان صوت خطي تقترب في الردهة، إذ قالت: «هناك شخص مقبل!» فأطفأ الشمعة!

-هل تحمل غدارتيك؟

-لماذا؟

أجابت: «عجباً. لتدافع عن نفسك!» قال: «أدافع ضد زوجك؟ آه، يا للصبي المسكين!» واتباع عبارته بحركة، أوضحها بقوله: «إنني أستطيع أن أحطمه بطرف أصبعي!» وبهتت لجرأته، وإن أحست فيها بشيء من القحة والغرور الممجوج، أثار استنكارها! وفكر «رودولف» كثيراً فيما قالت عن الغدارتين: فلو أنها كانت جادة في القول، لكان هذا سخفاً بالغاً، بل ممقوتاً، إذ لم يكن ثمة ما يبرر أن يكره «شارل» الطيب الذي لم يكن من النوع الذي يقال إن «الغيرة تأكله»! وفي هذا الصدد، أقسمت «إيما» ميمناً، لم ير «رودولف» أنها تنم عن ذوق مستحب. ثم إنها كانت -إلى جانب ذلك- تزداد اندفاعاً في الهوى، فحملته على أن يتبادل معها الصور الصغيرة، وخصل الشعر، ثم تحولت تسأله أن يهديها خاتماً، خاتم زواج حقيقياً، كرمز للرباط الأبدي بينهما! وكثيراً ما كانت تحدثه عن الأجراس التي يسرى رنينها في الليل، وعن «أصوات الطبيعة». ثم راحه يتحدث عن مكانة أمها، بالنسبة لها، ومكانة أمه بالنسبة لها! وكان «رودولف»، قد فقد أمه منذ عشرين سنة، ومع ذلك راحت «إيما» تعزیه في كلمات مواسية، حنون، كتلك التي تقول لطفل ضائع، وحيد. بل لقد كانت أحياناً تقول له، وهي تحملق في القمر: «إنني واثقة من أنهما في حياتهما العليا تقران غرامنا»!



لكنها كانت فائقة الجمال!.. قليلات ممن عشق «رودولف» من قبل أوتين مثل سذاجتها وطيبة قلبها. وكان هذا الغرام الخالي من الفجور والخلاعة تجربة جديدة بالنسبة له، وقد أخذ يخرج من تساهله وتحلله المألوفين، ويذكر في الوقت ذاته زهو وشهوته.. وكانت عواطف «إيما» المرهقة، المشبوبة، تبدو لادراكه البرجوازي مستهجنة، ولكنها كانت تلوح له -في قراره قواده- ممتعة، إذ كانت تنصب عليه في سخاء. وإذا اطمأن إلى أنه غداً محبوباً: لم يعد يحفل بالتظاهر، وتغيرت أطواره في غير حكمة.. فلم تعد لديه -كما كان من قبل- كلمات يبلغ من رقتها أن تبكيها، ولا عناقات حارة تعبت برشدها، حتى

لقد لاح ان حبهما الكبير، الذي عاشت في غمرته، قد أخذ يضمحل، كما يغيض ماء الجدول في مجراه، حتى خيل إليها أنها ترى قاعه... ولم تنشأ أن تصدق ذلك، بل ضاعفت من الحنان الذي تريقه على «رودولف»، بينما كان هو يزداد إهمالا في إخفاء عدم اكتراثه! ولم تكن تدري أي نادمة على أن استسلمت له، أم أنها -على العكس- لم تعد راغبة في امتاعه وأرضاء لذاته. وأخذت ذلة شعورها بالضعف تتحول إلى ضغينة يهدئ من حدتها عبثهما الفاجر. وما كان هذا غراماً، وإنما كان أشبه الأشياء بضلال مستمر. كان «رودولف» يسيطر على «إيما»، وكانت ترهبه تقريباً. على أن المظهر ازداد هدوءاً عن ذي قبل، إذ أفلح رودولف في المضي بعلاقتهم الأثمة إلى أبعد مما صور له خياله. وما إن أقبل الربيع -بعد ستة شهور- حتى كانا كزوجين، يبقيان على ومضة من الألفة المشتركة في هدوء. وحان الموعد الذي اعتاد الأب «روو» أن يرسل فيه دجاجته الرومية المعهودة، في ذكرى كسر ساقه. وكانت تصحب الهدية -كالعادة- رسالة، فقطعت «إيما» الخيط الذي يشدها إلى السلة، وقرأت فيها السطور التالية:

«ولدي العزيزين: أرجو أن تمجدكما الهدية في صحة طيبة، وأن تكون في جودة سابقاتها، إذ تيدولي -إن جاز أن أقول- أطرى لحماً وأثقل وزناً منها. على أنني سأمنحكما في المرة القادمة ديكا، من قبيل التغيير، ما لم تفضلا أن أبعث إليكما ببعض السمك. وأرجو أن تعيدا السلة، مع السلتين السابقتين. منيت بخسائر في حظائري الخاصة بالعربات، إذ طار سقنها بين الأشجار ذات ليلة شديدة الريح. كذلك لم يكن المحصول بالغ الجودة. وأخيراً، لا أدري متى سأتي لزيارتكما، فمن العسير الآن أن أبرح البيت، إذ أنني وحيد يا إيماي المسكينة». وهنا بدت ثغرة بين السطور، وكأنما أفلت الشيخ القلم من يده واستسلم للأحلام فترة، قبل أن يواصل الكتابة: «أما أنا فبخير، فيما عدا برد أصابني منذ أيام في مهرجان (ايفيتو)، حيث ذهبت لاستأجر داعياً بعد أن طردت الراعي الذي كان في خدمتي، لشدة ولعه بالطعام الشهي، ما أشقانا بمثل هؤلاء اللصوص! ثم إن كان -فضلاً عن هذا- غير أمين. ولقد سمعت من بائع متجول -اضطر إلى خلع إحدى أسنانه أثناء مروره ببلدكم في هذا الشتاء- إن «بوفاري» مجد في عمله. ولم يدهشني هذا. وقد أراني السن أثناء تناولنا القهوة معاً، وسألته عما إذ كان قد رآك، فقال إنه لم يرك، ولكنه شاهد في الحظيرة جوادين، فاستنتجت أن العمل يسير على ما يرام، فهنيئاً لكما يا ولدي، وليرسل الله عليكما كل ما يمكن تصوره من هناء! يؤسفني أن لم أر حتى الآن حفيدتي الحبيبة «بيرت بوفاري». لقد غرست من أجلها في الحديقة -تحت غرفتك- شجرة خوخ، ولن أسمح بأن تمس إلا إذا كان ذلك لإعداد المربى فيما بعد، على أن أحفظ بها في الصوان من أجلها إذا ما جاءت. وداعاً يا ولدي العزيزين، واني لأحبك يا ابنتي، وأنت يا زوج ابنتي، وللصغيرة قبله على كل خد. مع أطيب تمنياتي: أبوكما المحب، تيودور روو».



ظلت «إيما» بضع دقائق ممسكة بالورقة الخشنة بين أصابعها ، وقد تشابكت فيها الأخطاء الهجائية، وسرحت بالها وراء الفكرة الكريمة التي كانت تنفق خلالها كما تنفق دجاجة نصف مختفية في دغل من النبات الشوكي. لقد جفف أبوها المداد برماد من المدفأة، إذ انساب من الرسالة على ثوبها بعض غبار رمادي، فخيّل إليها أنها ترى الأب منحنيًا على المدفأة ليتناول الملقط. ما أطول الزمن الذي انقضى منذ كانت معه، تجلس على مقعد منخفض في الركن الذي تقوم فيه المدخنة، حيث أعادت أن تحرق طرف عصا من الخشب، في اللهب المتأجج المنبعث عن وقود من الخيزران البحري، وتذكرت أصائل الصيف حين كان ضياء الشمس يظل ساطعاً، وصغار الخيل تصهل إذا مر أحد عن قرب، وتركض ركضاً. وكانت تحت نافذتها خلية للنحل يصطدم نحلها أحياناً بالنافذة وهو يلف النور ككرات ذهبية وثابة. أية سعادة كانت تحظى بها إذ ذاك، وأية حرية، وأى أمل! ما كان أوفر الأوهام العذبة إذ ذاك! لم يبق منها الآن شيء. لقد انفقتها جميعاً في مغامرات روحها، وفي كافة الظروف المتتابة في حياتها: في بكورتها، وزواجها، وغرامها. وهكذا ظلت تفقدها تبعاً في حياتها، كمسافر يخلف وراءه جزءاً من ثروته في كل فندق على طول الطريق. ولكن، ما الذي أشقاها هكذا، إذن؟ ما هي الكارثة الخارقة التي غيرتها؟ ورفعت رأسها، متلفتة حولها، وكأنها تبحث عن سبب هذا الشيء الذي جعلها تتألم!

وكان ثمة شعاع من شمس إبريل يتراقص على الرف القيشاني، والنار تستعر. وأحسّت بنعومة البساط تحت تعليها. كان اليوم مشرقاً، والجو دافئاً، وسمعت طفلتها تق بالضحك. والواقع أن البنت كانت تتقلب إذ ذاك على العشب، وسط الحشائش المجتشة، ثم استلقت على بطنها فوق سطح حجر طاحون، والخدام تمسكها متشبثة بذيل ثوبها. وكان «ليستبيدوا» يشذب العشب بجوارهما، وكلما اقترب من الصغيرة، مالت نحوه ضاربة الهواء بذراعيها.. وقالت الأم: «أحضريها إلي»، ثم اندفعت تقبلها مغممة: «كم أحبك طفلي الصغيرة! كم أحبك!» ثم لاحظت أن طرفي أذنيها متسخين، فبادرت تدق الجرس طالبة ماء دافئاً، ونظفت البنت، وبدلت لها ثيابها، وجوريها، وحذاءها، وسألت ألف مرة عن صحتها، وكأنها عائدة من رحلة طويلة، ثم أسلمتها أخيراً للخدام وهي تقبلها مرة أخرى، باكية قليلاً، بينما كانت الخدام تقف مبهوتة لهذا الفيض من الحنان.

وفي ذلك المساء، ألغاه «رودولف» أكثر جدلاً من المألوف، فقال معلقاً: «لن يلبث أن ينقضى، إنها نزوة». ولم يوافها في ثلاثة مواعيد متتابة، فلما جاءها، أبدت فتور وشبه اشمئزاز، فقال: «آه! أنك تضيعين وقتك يا صغيرتي!» وتظاهر بأنه لم ينتبه إلى زفرائها الحزينة، ولا إلى المندبل الذي أخرجه.

إذ ذاك ثابت «إيما»، بل أنها ساءلت نفسها عما ينفرها من «شارل»! أو لم يكن من الأحسن أن تستطيع أن تحبه؟ بيد أنه لم يتح لها الفرصة لمثل هذه العودة العاطفية، حـ لقد اشتدت حيرتها إزاء رغبته في التضحية وعند ذلك أقبل الصيدلي يزودها بفرصة، الوقت الملائم!

الفصل الحادي عشر

كان قد قرأ منذ عهد قريب رسالة عن طريقة حديثة لعلاج تشوه القدم، وإذا كان من دعاة التقدم، فقد روادته فكرة وطنية توحى بأنه لكي تصبح (ايونفيل) في المقدمة، ينبغي أن تجرى فيها بعض جراحات لتجميل الأقدام. وقال لإيما: «وفيم تجشم كل ذلك؟ احكمي بنفسك (وأخذ يعد على أصابعه فوائد التجربة) النجاح شبه مؤكد: انقاذ المريض وتجميله، شهرة سريعة يحرزها الجراح. لم -مثلا- لا يعمل زوجك على إنقاذ «هيبوليت» المسكين، سانس حظيرة «الأسد الذهبي»، من عرجه؟ لاحظي أنه لن يتوانى عن أنباء كل المسافرين بشفائه. ثم (وخفض «هوميه» من صوته وتلفت حوله) من يعني من أن أرسل نبذة قصيرة عن الموضوع إلى الصحيفة؟ آه يا الهي! إن الأمر لن يلبث أن يناقش، ويغدو محور الحديث، سينتهي هذا إلى ضجة تنتشر، ومن يدري؟ من يدري؟»

وفي الواقع، كان في وسع «بوفاري» أن ينجح، فليس ثمة ما كان يؤكد لإيما أنه غير بارع، ولكم يكون من بواعث رضاها وارتياحها أن تحثه على اتخاذ خطوة تزيد من شهرته وثروته؟ لم تكن تبغي أكثر من أن تستند إلى شيء أقوى من الحب وأصلب. وما لبث «شارل» -تحت إلحاحها وإلحاح الصيدلي- أن انساق، فأرسل إلى (روان) في طلب كتاب الدكتور «ديفال» وأخذ ينكب على قراءته كل ليلة، معتمداً رأسه بين يديه. وفيما كان يدرس «الكاتاستريفيبودي» و«الاندوستريفيبودي» و«الاكسوستريفيبودي» -أو بالأحرى، أنواع انحناء القدم إلى أسفل، أو إلى الداخل، أو إلى الخارج- مع «الهيبيوستريفيبودي» و«الاناستريفيبودي» -أو بمعنى آخر الالتواء إلى أسفل وإلى أعلى- كان السيد «هوميه» يعمل بكل وسائل الجدل على اقناع الفتى الذي يعمل في الفندق على قبول أن تجرى له جراحة التجميل: «إنك لن تكاد تحس بشيء، وإن أحسست قباًلم بسيط. إنها مجرد شكة، كالقصيد البسيط. أخف من إزالة بعض البثور».

وكان «هيبوليت» يجيل عينيه المليئتين بالغباء، مفكراً، فيمضي الصيدلي قائلاً: «على أن الأمر لا يهمني. إنه من أجلك، بدافع إنساني محض! انني أحب أن أراك يا صديقي وقد تخلصت من عرجك البشع، مع ذلك الانحراف في منطقتي العجز، الذي يعرقلك ولا بد -مهما يقال- في أداء مهنتك.. ثم يصف له «هوميه» مدى ما سيشعر به فيما بعد من خفة في الحركة ومن نشاط. بل ذهب إلى أن أفهمه أنه سيصبح أبهى منظراً فيروق في أعين النساء، فشرح سانس الخيل في الابتسام بتثاقل، وإذا ذاك راح الصيدلي يقنعه، باستشارة غروره، قائلاً: «أولست رجلاً؟ عجباً! ماذا كنت تراك فاعلاً لو أنك كنت ذاهباً إلى الجيش، ذاهباً إلى الحرب تحت لواء الوطن؟ آه، يا هيبوليت! وانصرف «هوميه» معلناً أنه لا يفهم هذا العناد والعمى اللذين يتجليان في رفض نعمة من نعم العلم!

وما لبث الفتى المسكين أن انصاع، إذ كان الأمر أشبه بالمؤامرة، فإن المحصل «بينيته» -الذي لم يكن قط يتدخل في شئون الغير- ومدام «لوفرانسوا» و«آرتيميز»، والجيران، بل والعمدة السيد «توفاش».. كل إنسان كان يغريه، ويلقي عليه المحاضرات ويعيب ترده. على أن الذي أغراه أخيراً على البت، هو أن المحاولة لم تكن لتكلفه شيئاً. بل إن «بوفاري» تعهد بأن يحضر الجهاز اللازم للجراحة، وكان هذا السخاء من وحي «إيما»، وقد انصاع له «شارل» وهو يرى في قرارة نفسه أن زوجته ملاك! ومن ثم ما لبث بارشاد الصيدلي، وبعد ثلاث محاولات، أن حصل على صندوق خاص صنعه النجار بمساعدة صانع الاقفال، وكان يزن حوالى ثمانية أرطال، ولم يبد أى تقتير في تزويده بالحديد والخشب والحديد المسطح والجلد والمسامير البرغية و«الصواميل»! على أنه لمعرفة أي العضلات ينبغي قطعها لدى «هيبوليت»، كان من الضروري التعرف أولاً على نوع التواء قدمه.. كانت قدمه تكاد تمتد في خط مستقيم مع ساقه، وإن لم يحل هذا دون ثنيها إلى الداخل، فكان نوعها بذلك يجمع بين الالتواء إلى أسفل وقليل من الالتواء إلى الداخل، أو -من ناحية أخرى- التواء إلى الداخل، مع ميل شديد للالتواء إلى أسفل. ورغم هذا الالتواء إلى أسفل، الذي كان يحدث فراغاً بين الساق والقدم يتسع لحافر جواد، ورغم الجلد الخشن الغليظ، والأعصاب الجافة المتيبسة، وأصابع القدم الضخمة التي تحمل أظافر سوداء تبدو كما لو صنعت من حديد، فإن الأعرج كان يجرى في خفة الغزال من الصباح حتى المساء. كان يشاهد باستمرار في الميدان يقفز حول العربات، وهو يطوح بقدمه العرجاء إلى الأمام.. بل كان يلوح أن هذه الساق ذات القدم الملتوية أقوى من أختها، فقد اكتسبها العمل الشاق صفات معنوية كالصبر والنشاط، بحيث كان صاحبها إذا أقدم على عمل يثقل عليه، وقف عليها دون اختها!

ولما كان الالتواء إلى أسفل، فقد بات من الضروري قطع عصب «أشيل»، على أن يترك أمر العصب الشظوى -أو المزمارى- الداخلي حتى يتبين فيما بعد ما إذا كانت الضرورة تدعو إلى علاجه للتخلص من الالتواء الذي يثني القدم إلى الداخل، أم لا (إذا لم يجرؤ الطبيب على الاقدام على جراحتين دفعة واحدة. بل إنه كان يرحف فرقا من أن يؤذي بقعة هامة دون أن يدري). ولم يحدث لامبروز باريه، وهو يحاول لأول مرة منذ عصر «الكلت» -أى منذ حوالى خمسة عشر قرناً- أن يربط أحد الأوردة، ولا لديبيتان، حين هم بأن يشق خراجاً في المخ، ولا لجنسول حين انتزع عظم الفك العلوى للمرة الأولى.. لم يحدث لأحد من هؤلاء أن ارتجف قلبه، أو ارتعشت يده، أو اضطرب ذهنه، كما كانت الحال مع السيد «بوفاري» حين شرع يعالج «هيبوليت»، ممسكاً بأعصاب قدمه بين أصابعه.

وكما يشاهد في المستشفيات، وضعت على منضدة كبيرة كومة من «الشاش»، والخيط المشمع، وكثير من الضمادات -بل «هرم» من كل ما يوجد عند الصيدلي من أنواع الضمادات!- وكان السيد «هوميه» هو الذي عنى منذ الصباح بتدبير كل هذه المعدات،

رغبة منه في أن يهر أنظار الشهود أكثر منه في أن يهديء هواجسه! وشق «شارل» الجلد، فسمع له أزيز. وقطع العصب، وانتهت الجراحة، ولم يقو «هيبوليت» على مغالبة دهشته، ولكنه انحنى على يدي الطبيب يغمر يديه بقبلاته، فقال الصيدلي: «كفى، واهدأ! سيتاح لك فيما بعد أن تظهر عرفانك بفضل الطبيب الذي أحسن إليك».. ثم هبط ليزجى بالنتيجة إلى خمسة أو ستة من المتسائلين الذين كانوا ينتظرون في الفناء، والذين كانوا يخالون أن «هيبوليت» لن يلبث أن يطلع عليهم وهو يسير في خطى سليمة! وما لبث «شارل» أن شد مريضه إلى الجهاز المحرك الآلي، ثم عاد إلى داره، حيث كانت «إيما» في انتظاره لدى الباب ملهوفة، فطوقت عنقه، ثم جلس إلى المائدة، فأكل في نهم. وعند تناول الحلوى طلب قدحاً من القهوة -وهو نوع من الترف لم يكن يتيح له نفسه إلا في أيام الأحاد، حين يكون لديهما ضيوف!



وكان ذلك المساء بديعاً، أفعمه الزوجان بالكلام والأحلام. تحدثا عن حظهما المقبل، وعن التحسينات التي يدخلتها على دارهما. واستعرض «شارل» في مخيلته ما يرتقبه من تقدير، ومن ازدياد الرخاء، إلى جانب حب زوجته المقيم. وكانت هذه من ناحيتها هائلة إذ تنعم بعاطفة جديدة، أسلم وأحسن مما كانت تنعم به من قبل، وإذ تحس -أخيراً- ببعض الحنان والعطف نحو هذا المكسين الذي كان يعبدها. ومرت ذكرى «رودولف» بذهنها للحظة واحدة، ولكن عينيها تطلعتا إلى «شارل»، بل إنها لاحظت -وهي مذهوشة- أنه لم يؤت أسناناً تالفة، كما كانت تعتقداً وكانا قد أوبا إلى فراشهما حين ولج السيد هوميه الغرفة مندفعاً، رغم أنف الخادم، وقد أمسك في يده ورقة تتضمن صورة من النبا الذي كتبه لصحيفة «فانك دوروان»، وقد حمله إليهما ليقرأه.. فقال «بوفاري»: «أقرأه بنفسك». فشرع يقرأ: «على الرغم من الأباطيل التي لا تزال ترين على شطر من وجه أوربا، كالشبكة، فإن الضوء قد بدأ ينفذ من ريفنا، فقد ألقت بلدتنا الصغيرة (ايونفيل) نفسها -يوم الثلاثاء- مسرحاً لتجربة جراحية كانت في الوقت ذاته من اسمى أمثلة الخير، إذ قام السيد «بوفاري»، وهو من أبرز أطبائنا الممتازين...».

فقاطعه «شارل» بصوت مختنق من فرط تدافع المشاعر: «لا! هذا أكثر مما أستحق! هذا كثير جداً» بينما أجاب الصيدلي: «لا، لا! العفو! اسمع» -مستطرداً: «... باجراء عملية جراحية لرجل أعرج». إننى لم أستخدم التعبير العلمي، ففي الصحف -كما تعلمان- لا يفترض أن كل قارئ يفهم التعبيرات العلمية، يجب أن يتاح للعامة...»، فقال «بوفاري»: «طبعاً.. امض!»، فقال الصيدلي: «سأستأنف: قام السيد «بوفاري»، وهو من أبرز أطبائنا الممتازين، باجراء عملية جراحية لرجل أعرج يدعى «هيبوليت توتان»، قضى معظم السنوات الخمس والعشرين الأخيرة سائساً في فندق «الأسد

الذهبي»، الذي تديره الأرملة «لوفرانسوا» في ميدان الجيش. ولقد اجتذبت طرافة التجربة، وما أثاره الموضوع من اهتمام كثيراً من الناس، حتى لقد كان الزحام شديداً عند مدخل الفندق. وفضلاً عن هذا فقد أجريت العملية في براعة أشبه بالسحر، فلم يكذب يبدو على الجلد أكثر من قطرات قليلة من الدم، وكأنما استسلم العصب المتمرد لجهود الفن أخيراً. وكان من الغريب أن المريض لم يشك أي ألم، وهو ما نؤكد إذ شهدناه بأعيننا. ولا تدع حاله -حتى الآن- مجالاً للرغبة في مزيد. ويدعو كل شيء إلى الاعتقاد بأن فترة نقاهته ستكون قصيرة. ومن يدري، فقد نرى في عيدنا القروى القادم، صديقنا «هيبوليت» منهمكا في رقصة «الباشيك» بين فريق من الراقصين المرحين، وبذلك يثبت للأبصار جميعاً -بتحمسه وقفزاته- شفاء التام! فلنمجد أذن العلماء الكرام! لنكرم تلك النفوس التي لا تهن، والتي كرست مواهبها لتحسين، أو بالأحرى، لترقية الجنس البشري! المجد لهم، لنهتف ثلاثاً لتمجيده! أولاً يدعو هذا لأن نصيح بأنه قد آن للأعمى أن يرى، والأصم أن يسمع، والاعرج أن يسير؟ إنما يحقق العلم الآن لكل الناس ما كان المتهوسون يعدونهم به من قبل، ولسوف نوافي قراءنا بالتطورات المتتابعة لهذا الأعرج الفذا».



لكن ذلك لم يمنع الأم «لوفرانسوا» من أن تأتي بعد خمسة أيام وهي تصيح في فزع: «النجدة! أنه يموت! لقد جن!» واندفع «شارل» إلى «الأسد الذهبي»، وترك الصيدلي بدوره حانوته حين لمح الطبيب ينطلق في الميدان بدون قبعة، وهرع إلى الفندق، فوصل إليه لا هئلاً، محمر الوجه، شديد القلق، فراح يسأل كل من كان يصعد السلم: «ماذا؟ ما الذي جرى لأعرجنا الهمام؟» وكان الأعرج يتلوى في تشنجات فظيعة، حتى أن الآلة التي وضعت فيها ساقه كانت ترتطم بالجدار في عنف يوشك أن يحطمها! وأزيل الصندوق في كثير من الحذر حتى لا تقلقل الساق عن وضعها، فإذا بمنظر مؤلم يتجلى: كان شكل القدم قد تلاشى في تورم جعل الجلد يلوح وشبك الانفجار، وقد كستها كدمات نشأت عن الجهاز الذي ذاع صيته. وكان «هيبوليت» قد شكاً من أنه يعاني منه آلاماً، غير أن أحداً لم يابه له، ولكن لم يعد بد من الاعتراف بأنه لم يكن على خطأ البتة، ومن ثم حررت ساقه من الجهاز لبضع ساعات. ولكن ما إن هبط التورم هونا ما، حتى رأى العالمان -الطبيب والصيدلي- أن من الأصواب أن تعاد الساق إلى الجهاز، وزادا من إحكام الوثاق ليعجلا بالشفاء.

ولكن لم تنقض ثلاثة أيام، حتى كان «هيبوليت» عاجزاً عن المضي في الاحتمال، فرفعت الآلة. ولكن، شد ما كانت دهشة العالمين للنتيجة التي شاهدها: كان التورم الأزرق قد انتشر في الساق، تصحبه بقع متناثرة هنا وهناك، تنتضج بسائل أسوداً. كانت الأمور قد تطورت تطوراً خطيراً، وبدا «هيبوليت» ينزعج، فاضطرت الأم «لوفرانسوا» إلى نقله

إلى الغرفة الصغيرة القريبة من المطبخ، ليتاح له بعض التسلية على الأقل! غير أن محصل الضرائب -الذي كان يتناول عشاءه في تلك الغرفة- شكّا من الشكوى من هذه الصحبة! ومن ثم نقل «هيبوليت» إلى قاعة «البلياردو»، فظل راقداً هناك وهو يئن تحت أغطيته الثقيلة، وقد شحب وجهه، وفت لحيته، وغارت عيناه، وراح من آن لآخر يدير رأسه المجلجل بالعرق على الوسادة القذرة، التي كان الذباب يتهاافت عليها! وزارته مدام «بوفارى» هناك، حاملة له بعض «الشاش» لقروحته، فواسته، وشجعتته. ثم إنه لم يكن إلى جانب ذلك يفتقد الأنييس، لاسيما في أيام السوق حين كان الفلاحون يقرعون كرات «البلياردو» حوله، ممسكين بعصيتها، وهم يدخنون، ويغنون، ويصخبون. وكانوا يسألونه وهم يدقون كتفه: «كيف حالك؟ آه! إنك تتحسن كثيراً، ولكنك غلطتك! يجب أن تفعل هذا! أو تفعل ذلك!» ثم يروون له قصص أناس برئوا بعلاجات غير التي يعالج بها. ويعقبون، على سبيل النصح: «انك تستسلم للكسل أكثر مما ينبغي! ألا قم! إنك تتدلل كما لو كنت ملكاً! آه! ان راحتك ليست بالطيبة على كل حال، أيها المهرج!».



على أن العفن المتقيح -«الغنغرينة»- كان يزداد استسراء، حتى بات «بوفارى» نفسه يشمئز منه! وأخذ يذهب إليه في كل ساعة، وفي كل لحظة، فيتطلع إليه «هيبوليت» بعينين زاخرتين بالذعر، ويقول باكيا: «متى اشفى؟ آه، انقضى! ما اتعسنى! ما اتعسنى!» وكان الطبيب يفارقه في كل مرة وهو يوصيه بأن يتبع نظام التغذية الذي عينه له. ولكن الأم «لوفرانسا» كانت تقول له: «لا تستمع إليه يا ولدي الم يشبعك تعذيباً؟ لسوف تزداد ضعفاً، فهلك، ابتلع هذه»، ثم تقدم إليه حساء دسماً، وقطعة من لحم الفخذ، وشقة من شحم الخنزير، و-أحياناً- اقداحاً صغيرة من «البراندي» لم يكن ليقوى على رفعها إلى شفثيه!

وإذ سمع الأب «بورنيسيان» بأن حاله تزداد سوءاً، طلب أن يراه، وشرع يرثى لألامه، وينبئه -في الوقت ذاته- بأنه خليق بأن يبتهج بها، مادامت هذه مشيئة الرب، وأن ينتهز الفرصة ليحسن صلاته بالسماء، ثم أضاف رجل الدين في لهجة أبوية: «ذلك لأنك أهملت واجباتك بعض الشيء، فقلما كنت ترى في صلاة أو عبادة. كم من السنين انقضت دون أن تسعى إلى المائدة المقدسة! إننى أدرك أن أعمالك ودوامة الدنيا، شغلتك عن أن تعنى بخلاص روحك. أما الآن فقد حان وقت التأمل: ومع ذلك فلا تيأس، فلقد عرفت أنا أناساً آثمين موهلين في الذنب، عمدوا حين أوشكوا أن يمشلوا أمام الله -وأنت لم تبلغ هذه الدرجة بعد كما أعرف- إلى الابتهاال في طلب رحمته، وماتوا وهم بالتأكيد في خير حالات راحة البال! فلنأمل أن تضرب لنا -كما فعلوا- المثل الطيبة. فما الذي يمنعك -من باب الاحتياط- أن تردد في الصباح والمساء فصلاً من «السلام عليك يا مريم يا كاملة

الحسن»، و«أبانا الذي في السماء»؟ أجل، أفعل ذلك من أجلي، لترضييني، لن يكلفك هذا شيئاً، فهل تعدني؟».

ووعده الشيطان البائس. وأخذ القس يتردد عليه يوماً بعد يوم، فيجاذب ربة الفندق الحديث، بل ويروي النوادر التي تتخللها الفكاهات والتوريات التي لم يكن «هيبوليت» يفقهها؛ ثم كان لا يلبث أن يرتد إلى أمور الدين بأسرع ما يستطيع، مسبغاً على وجهه المظهر الملائم. وبدت هذه الهمة موفقة، إذ ما لبث الأعرج أن أظهر شوقاً إلى أن يحج إلى (بون سيكور) إذا قدر له شفاء، فأجاب السيد «بورنيسيان» بأنه لا يرى سبيلاً للاعتراض على ذلك، وإن احتياطين - (يقصد الصلاة والحج) - خير من واحد، ولا ضرر هناك من ذلك!



وكان الصيدلي يستنكر ما أسماه «مناورات» القس: وزعم أنها تضر بنقاها «هيبوليت»، وأخذ يردد لمدام «لوفرانسوا»: «دعوه، دعوه! انكم تهللون معنوياته بروحانيتكم هذه» بيد أن المرأة الطيبة لم تعد راغبة في الانصات له، إذ اعتبرته «سبب كل شيء». وبدافع من معارضتها له، علقت إلى جوار فراش المريض حوضاً مليئاً بالماء المقدس، وغصنا من العوسج. على أن الدين لم يبد أقدر من الجراحة على انقاذه، وظلت «الفنغرينة» التي لا سبيل إلى قهرها، ماضية في امتدادها من الأطراف حتى البطن. وكان تنويع الادوية وتغيير الضمادات أمراً لا بأس به، ولكن الأعصاب كانت تزداد تلفاً في كل يوم، حتى لقد أجاب «شارل» أخيراً بهزة من رأسه تعنى القبول، حين سألته الأم لوفرانسوا عما إذا كان يرى - في حالة القنوط - أن تستدعى لعيادة المريض السيد «كانيغيه»، الذائع الصيت، من (نيوشاتل).

ولم يتورع زميل «شارل» هذا الأخير - وكان طبيباً في الخمسين من عمره، يتمتع بمركز طبيب، وثقة بنفسه - عن أن يضحك في ازدراء حين كشف عن الساق التي دب فيها التعفن المتقيح حتى الركبة؛ ولم يكذب يعلن في صراحة أن لابد من بترها، حتى انطلق إلى حانوت الصيدلي ليعنف «الحمير» الذين هروا برجل تعس إلى مثل هذه الحال؛ وهناك أمسك بزر «الردنجوت» الذي كان السيد هوميه يرتديه، وراح يهزه وهو يصيح في الحانوت: «أهذه مخترعات باريس! أهذه أفكار هؤلاء السادة المقيمين في العاصمة! إنها كعلاج «الحول» في العين، وكالكلوروفورم، وكعملية تفتيت حصى المثانة... طائفة من الفظاعات التي يجب على الحكومة أن تحرمها! ولكنهم يريدون أن يظهروا براعتهم، فيحشون رؤوسكم بطرق العلاج دون أن يزعبوا أنفسهم بالتفكير في عواقبها. إننا لسنا في براعتهم نحن بالذات، لسنا متحذلقين، ولا مزهوين، وإنما نحن أطباء معالجون، ولا يخطر بخیالنا أن نجري جراحة لأي امرئ مكتمل الصحة تقويم الاقدام المشوهة! في الوسع

اصلاح الأقدام الملتوية؟ إن هذا أشبه بتقويم الظهر المحدودب مثلاً، وكان «هوميه» يتألم وهو ينصت إلى هذا الحديث، ويخفى استياءه تحت ابتسامة متملقة، إذ كان مضطراً إلى مداينة السيد «كانيفيه» الذي كانت وصفاته العلاجية تحمل أحياناً إلى حيث تصرف من صيدليته في (ايونفيل). ومن ثم لم يعمد إلى الدفاع عن «بوقاري»، بل أنه لم ينطق بعبارة واحدة، وإنما نبذ مبادئه وضحى بكرامته في سبيل مصلحة عمله، التي تفوق المبادئ والكرامة في أهميتها!



وكان حدثاً هاماً في البلدة، أن بترت فخذه «هيبوليت» على يدي الدكتور «كانيفيه». ففي ذلك اليوم استيقظ الأهالي جميعاً مبكرين، ومع أن الشارع الرئيسي ازدحم بالناس، إلا أن كآبة رانت عليه، وكان ثمة حكماً بالاعدام يوشك أن ينفذ! وكان القوم يتناقشون في مرض «هيبوليت» لدى البدال. ولم تبع المتاجر في ذلك اليوم شيئاً، ولا تزحزحت مدام «توفاش» -زوجة العمدة- عن نافذتها، فقد كانت ترقب وصول الجراح بصبر نافذ، حتى وصل في عربته الخفيفة التي كان يقودها بنفسه. غير أن لولب الجانب الأيمن للعربة تداعى أخيراً تحت ثقل جسمه البدين، فكانت العربة تقيل قليلاً وهي تدرج في طريقها. وكان يشاهد على الوسادة المجاورة له صندوق كبير مكسو بجلد أحمر، وقد لمعت مقابضه النحاسية الثلاثة في بهاء. وما إن دخل الطبيب فناء «الأسد الذهبي» كالاعصار الجائح، حتى صاح بصوت عال، أمراً بتسريح جواده من العربة، ثم ذهب إلى الحظيرة ليرى ما إذا كان الجواد مقبلاً على التهام الشوفان! -إذ كان من عادته إذا بلغ دور مرضاه أن يشغل أولاً بدابته وعربته!- ومع ذلك فقد قال الناس: «آه! يا للسيد «كانيفيه» من فذا» وزاده هذا الهدوء الرصين اكباراً في أعين القوم، فما كان ليتخلى عن ألفه عاداته، ولو فنى العالم من أهله إلى آخر نسمة!

وتقدم «هوميه»، فقال له الطبيب: «إنني أعول عليك، فهل نحن على استعداد؟ هيا بنا! بيد أن وجه الصيدلي احتقن، وأعترف بأنه مرهف الحس لا يقوى على المساعدة في عملية كهذه، وقال: «إن رؤية المنظر تكون أشد تأثيراً على المرء إذا كان مجرد متفرج، ثم إنني أوتيت جهازاً عصبياً...». فقطع عليه «كانيفيه» الحديث قائلاً: «آه، مهلاً... انك، على العكس، تبدو لي عرضة للسكتة القلبية! ثم إن هذا لا يدهشني، فأنتم -معشر الصيادلة- تترددون باستمرار على مطابخكم، مما يؤدي ولا بد في النهاية إلى إفساد بنيان أجسامكم. ألا أنظر إلي! إنني استيقظ في الرابعة من كل صباح، فأخلق لحيتي بالماء البارد (ولم أصب قط ببرد)، ولست ارتدى قميصاً داخلياً (فانيلا)، ومع ذلك لم أتعرض قط لنزلة من نزلات البرد، وإن هيكلتي لقوي! وأعيش أنا على حال، وأنا آخر على حال أخرى، كالفيلسوف، تبعاً للظروف والمصادفات. وهذا هو السر في أنني لست ضعيفاً

مثلك، واني لأشرح أي إنسان كما أشرح أول بطاقة برية تأتيني. ستقول بعد هذا إن الأمر يرجع إلى التعمد!»

وبغير أن يحفلا بهيبوليت الذي كان يتصيب عرقاً بين أغطية فراشه لفرط الألم، اندمج الرجلان في حديث راح الصيدلي يقارن فيه بين هدوء جأش الجراح، وهدوء جأش القائد العسكري.. وراقت هذه المقارنة لكانيفيه الذي مضى يتحدث عن مطالب فنه. كان يعتبره مهمة قدسية، وإن كان الأطباء العاديون قد خطوا من قدرها. وتحول أخيراً إلى المريض، وفحص الضمادات التي أحضرها «هوميه» -وهي عين الضمادات التي كان قد أحضرها عند علاج التواء القدم- ثم طلب شخصاً يسك له الساق، فأرسل في طلب «ليستيبدو»، وما لبث السيد «كانيفيه» أن شمر عن ساعديه، ثم انتقل إلى قاعة «البلياردو»، بينما بقى الصيدلي مع «آرتيميز» وصاحبة الفندق -اللتين صار وجهاهما أشد بياضاً من لون مرولتيهما- وقد أرهف الجميع آذانهم نحو الباب.



لم يجرؤ «بوفاري» في تلك الفترة على مبارحة داره، بل ظل في قاعة الجلوس -بالطابق الأرضي- إلى جوار المدفأة الخالية من اللهب، وقد أسند ذقنه إلى صدره، وعقد ذراعيه، وجمدت حدقتاه، يا للكارثة! وحاول أن يتذكر أي خطأ ربما بدر منه، لقد اتخذ كل الاحتياطات الممكنة تصورها! غير أن القدر تدخل في الأمر! ولكن، ما قيمة هذا؟ لو أن «هيبوليت» مات بعد ذلك، لكان هو قاتله! ثم، أية حجة يستطيع أن يدلي بها إذا هو سئل عن الأمر في جولاته؟ وعاد يفكر في أنه ربما أخطأ في شيء ما! وراح ينقب دون أن يعثر على أي خطأ. ومع ذلك، فإن أشهر الجراحين يخطئون. ولكن أحداً لن يصدق هذا أبداً، بل إنه على العكس سيغدو أضحوكة ومضغة في الأفواه وستنتشر القصة إلى (فورج)، بل إلى (نيوشاتل)، ثم إلى (روان)، وكل مكان! ومن يدري، ربما كتب بعض زملائه ضده! فيشير ذلك جداً! يتطلب الرد في الصحف، بل إن في وسع «هيبوليت» نفسه أن يقاضيه! وتصور الطبيب نفسه وقد جرد من سمعته، وحاق به الدمار، وقضى عليه! وراح خياله يتخبط بين الافتراضات والاحتمالات التي تدفقت عليه، كما لو كان برمياً فارغاً ألقي في البحر فأخذت الأمواج تتقاذفه!

وكانت «إيما» تجلس أمامه، ترقبه، لم تشاطره ذلته، فقد كانت تعاني ذلة أخرى، ذلة أنها تصورت أن مثل هذا الرجل جدير بأي شيء! وكأنها لم تتبين تماماً مدى قصور عقله عشرين مرة من قبل! وأخذ «شارل» يلذع الحجرة، وحذاءه يحدثان صريفاً على الأرض الخشبية المصقولة، فقالت له: «ألا أجلس، فانك تثير أعصابي!» وجلس، وراحت تسائل نفسها: كيف سمحت لنفسها -وهي الشديدة الذكاء- بأن تخدع مرة أخرى؟ بل أي جنون محزن جعلها تدمر حياتها إلى هذا الحد، بالتضحيات المستمرة؟ وتذكرت كل رغباتها

الغريزية في الترف، وكل ألوان الحرمان الذي عانتة نفسها، وزواجها المزري، وحياتها المنزلية المتواضعة، وتردي أحلامها في الوحل كما تردي العصافير الجريحة، وكل ما كانت تصبو إليه، وكل ما حرمت نفسها منه، وكل ما كان في وسعها أن تناله، لماذا؟ لماذا؟ وفي غمرة السكون الذي ران على القرية، انبعثت في الهواء صرخة تفتت الأكباد، فشحب «بوفاري» وكاد يهوي مغشياً عليه، بينما قطبت «إيما» في حركة عصبية، ثم عادت تستأنف أفكارها: كان ذلك كله من أجله، من أجل هذا المخلوق، من أجل هذا الرجل الذي لم يفهم شيئاً، ولم يشعر بشيء،! فهي هو ذا يجلس ساكناً، دون أن يدور بخلده أن الزرابة التي ستلحق باسمه، ستلحق باسمها هي الأخرى من الآن فصاعداً، لقد بذلت جهداً لتحمل نفسها على أن تحبه، ولقد ذرفت الدموع ندماً وتكفيراً عن استسلامها لسواه!



وهتف «بوفاري» فجأة، وهو مستغرق في أفكاره: «ولكن، لعله كان التواء إلى الخارج!» وارتجفت «إيما» للصدمة غير المرتقبة التي أحدثها سقوط هذه العبارة على فكرها وكأنها رصاصة سقطت على صفحة فضية! ورفعت رأسها لتستبين ما كان يعنيه بقوله، ورمق كل منهما الآخر في صمت، وكأنه في دهشة لوجوده، إذ كانت أفكارهما قد نأت بكل منهما عن الآخر، وحملق فيها «شارل» -بتلك النظرة الزائفة التي تبدو في عيني السكير- بينما كان يصغى دون حراك إلى آخر صيحات المريض، الذي كانت ساقه تبتتر، وقد تتابعت في نغمات مستطيلة، تتخللها صرخات تشنجية حادة، وكأنها عواء ينبعث عن بعد من وحش يقتل! وعضت «إيما» شفتها المتقعة، وأخذت تقلب بين أصابعها قطعة من المرجان كانت قد كسرتها، وهي تسلط على «شارل» مقلتيها الحادثتين وكأن سهمين من نار بوشكان أن ينطلقا منهما! لقد أصبح كل ما فيه يثير أعصابها: وجهه، ثوبه، الكلام الذي لم ينطق به، كل شخصه، وكيانه. وتدمت على عفتها في الماضي كما تندم على جريمة، وتبدد ما كان قد تبقى من هذه العفة تحت ضربات كرامتها المهتاجة، وابتهجت لكافة ما كان لفجورها المنتصر من سخریات شريرة، خبيثة، وعارودتها ذكرى عشيقها، مع غوايات فيه بهرتها فارقت فيها بكل روحها، وتركتها تحملها إلى ذلك الطيف في تحمس متجدد، وبدا لها «شارل» مقصياً عن حياتها، وكأنه غائب إلى الأبد، وكأنه قد فنى، أو كأنه موشك على الموت، يحتضر تحت بصرها!

وتردد وقع خطى في الطريق، فأطل «شارل»، ومن خصاص مصراعي النافذة رأى عند ناصية السوق -في وضوح ضياء الشمس- الدكتور «كانيفيه» يسمح جبينه بمجديله، و«هوميه» خلفه يحمل صندوقاً أحمر كبيراً، وهما يسعيان، إلى دار الصيدلى، وإذا ذاك، تحول «شارل» في حنان واستخاء طارئين، قائلاً لزوجته: «أواه! قبليني يا حبيبتي!» فقالت وقد احتقن وجهها غضباً: «دعني!» فتساءل مذهولاً: «ماذا جرى؟ اسكتي! قاتلكي

نفسك! إنك لتعرفين تماماً أنني أحبك، فهيا!« وصاحت بلهجة قاسية، «كفى!» واندفعت خارجة من الغرفة، مغلقة الباب وراءها في عنف جعل «البارومتر» يهوى من الجدار فيتهشم! وعاد «شارل» يتهالك في مقعده حائراً، يحاول أن يستبين ما أصابها. وخيل إليه أنها أصيبت بمرض عصبي، فأخذ يبكي، وداخله شعور غامض بأن شيئاً مشتوماً، لا سبيل إلى ادراكه، يجري حوله.

وعندما جاء «رودولف» إلى الحديقة في ذلك المساء، وجد عشيقته في انتظاره عند أدنى درجات السلم السفلى. فاحتضن كل منهما الآخر، وانصهرت كل ضغينة - كأنها الجليد - تحت حرارة تلك القبلة.

الفصل الثاني عشر

وعادا يتحaban من جديد. وكثيراً ما كانت «إيما» تكتب إليه بغتة -ولو في منتصف النهار- ثم تشير إلى «جوستان» من وراء زجاج نافذتها فيخلع مزلته، ويسرع راكضاً بالرسالة إلى (الاهوشيت). فلا يلبث «رودولف» أن يحضر، ليجد أنها ما أرسلت إليه إلا لتنبيهه بأنها ضجرة، وأن زوجها بغيض، وأن حياتها لا تطاق؛ وصاح بها ذات يوم، نافذ الصبر: «هل يسعى أن أفعل شيئاً؟» فأجابته: «آه لو شئت!»، وكانت تجلس على الأرض بين ركبتيه، وقد تهدل شعرها، وزاغ بصرها. وسألها «رودولف»: «ماذا، إذن؟» فتنهدت قائلة: «لنذهب فنعش بعيداً، في مكان ما» فقال ضاحكاً: «إنك لمجنونة حقاً! أو هذا ممكن؟». فعادت تردد قولها. وإذا ذلك تظاهر بأنه لا يفهم قصدها، ثم غير مجرى الحديث. كان الذي لم يفهمه هو هذا القلق بشأن مسألة بسيطة كالحب! لقد كان لدى إيما باعث، ومبرر، و-فوق هذا- قوة دافعة وراء عاطفتها. والواقع أن هواها أخذ ينمو يوماً بعد يوم، ينمو نفورها من زوجها. فكلما أسرفت في منح نفسها للواحد، اشتد مقتها للآخر! أبدأ لم يكن يبدو لها «شارل» في مثل البشاعة، ولا يمثل تلك الأصابع الغليظة الضخمة، ولا في هذه البلادة والمسلك السوقي، كما كان يتراءى لها إذا ما اجتمعا بعد لقائهما لرودولف! كانت عندئذ تمثل دور الزوجة ودور العشيقة، وتكتوي بنار اللوعة إذ تفكر في ذلك الرأس الذي يتهدل شعره الأسود في خصلة على جبين لفحته الشمس بالسمرة -رأس رودولف- وفي ذلك القوام الذي يجمع بين القوة والرشاقة. في ذلك الرجل الذي أوتى -في إيجاز- كل تلك الحنكة في تفكيره، وكل تلك الوقدة في شهواته من أجله شذبت أظافرها ودببتها بعناية، ومن أجله لم تكن تضن على بشرتها بالدهان المرطب الذي يكسبها نعومة، ولا على مناديلها بالعطور! وكانت تثقل نفسها بالاساور، والخواتم، والقلادات. وعندما يكون قادماً، كانت تملأ آتيتي الزهر الزرقاوين الكبيرتين بالورود، وتعد مخدعها ونفسها كما لو كانت محظية ترتقب أميراً!

وكانت تشغل الخادم بغسل الثياب وكيها باستمرار، فلم تكن «فيليسيتيه» لتتحرك طيلة اليوم من المطبخ، حيث كان «جوستان» الصغير يؤنسها في أكثر الأحيان، ويراقبها في عملها. كان يعتمد بمزقه على الطاولة التي تكوي الثياب عليها، ويحلق بنهم في كل تلك الثياب النسوية المتناثرة حوله، من «جونلات» مزركشة، ومناديل منقوشة، وياقات، وسراويل ذات أربطة، تتسع عند الردفين وتضييق فيما أسفلهما. وكان الفتى يمر بيده على البطانة، أو على المشابك المثبتة، ويتساءل: «لم هذا؟» فتجيبه «فيليسيتيه» ضاحكة: «عجياً، أو لم تره من قبل؟ كأني بعشيقتك -مدام هوميه- لا ترتدي مثله؟» فكان يقول: «آه! أجل، مدام هوميه!»، ثم يردف وهو مستغرق في التفكير: «أفترينها

سيدة كسيدتك؟» على أن «فيليسيتيه» كانت لا تلبث أن تضيق برؤيته يحوم حولها، كانت تكبره بست سنوات، وكان «تيودور» -خادم السيد «جيومان»- قد بدأ يغازلها، فكانت تقول وهي تنقل وعاء النشاء الذي تستخدمه في الكي: «دعني وشأنى!.. اذهب فاصحن اللوز، إنك تحرم دائماً حول النساء، ألا انتظر أيها الولد الحبيث حتى ينبت الشعر في ذقنك قبل أن تقحم نفسك في مثل هذه الأمور!».

- على رسلك، لا تغضبي! سأذهب وأنظف هذا عي سيدتك بدلا منك.

ويبادر فيتناول هذا عي «إيما» من على الرف، وقد كساهما الوحل -من المقابلات الليلة في الحديقة!- الوحل الذي كان يتفتت تحت أصابعه، فبرقبه وهو يتطاير في رفق في شعاع الشمس، وكانت الخادم تقول: «لكم تخشى أن تتلفهما!» -فما كانت هي تعمد إلى مثل حرصه إذا نظفتها بنفسها، لأن السيدة كانت ما تكاد تجدد جلد هذا عيها قد فقد ليونته، حتى تمنحها إياهما، وكانت «إيما» قللك عدداً من الأحذية في صوانها، تهبها الواحد بعد الآخر، دون أن يسمح «شارل» لنفسه بأن يلاحظ شيئاً بل إنه تبرع -بإيحائها- بثلاثمائة فرنك ثمناً لساق خشبية رأت أنها تليق بأن تقدم هدية إلى «هيبوليت»، وكانت قمتها مكسوة بالفلين، ولها مفصلات لولبية، وجهاز معقد، يغطيها سروال أسود، ينتهي بحذاء لامع، على أن «هيبوليت» لم يجرؤ على أن يستعمل ساقاً أنيقة كهذه في كل يوم، فالتمس من مدام «بوفاري» أن تحضر له ساقاً أخرى أكثر مناسبة لحاله، فكان على الطبيب أن يتبرع -مرة أخرى، بالطبع- بنفقات هذه الساق.



وهكذا أخذ السائس يعاود عمله شيئاً فشيئاً، فكان يشاهد وهو يهرع في أرجاء القرية كعهده فيما مضى. وكان «شارل» إذا سمع دقات الساق الخشبية الحادة عن بعد، يبادر إلى تغيير الاتجاه الذي يسير فيه! وكان السيد «لوريه» -التاجر- هو الذي تكفل باستحضار الساق، فأتاح له هذه حجة لزيارة «إيما». وصار يثرثر معها عن السلع الجديدة التي تسلمها من باريس، وعن ألف طرفة وطرفة من الطرائف النسوية، متلطفاً كل التلطف، متحاشياً أبداً طلب نقوده، وانصاعت «إيما» لهذه الطريقة السهلة لاشباع كل أهوائها، ومن ثم رغبت في سوط بديع جداً كان معروضاً لدى صانع مظلات في (روان)، لتقدمه هدية إلى «رودولف»، فحمله السيد «لوريه» إلى منضدتها في الاسبوع التالي. على أنه زارها في غداة ذلك اليوم، ومعه كشف حساب بمائتين وسبعين فرنكاً، عدا السنتيمات! وذهلت «إيما»، فقد كانت كل ادراج المكتب خالية من النقود، وكانا مدينين لليستيبودوا بأجر فترة تزيد على خمسة عشر يوماً، وبأجر ستة شهور للخادم، وبعده ديون أخرى. وكان «بوفاري» يرتقب بنافذ الصبر قبض حساب السيد «ديروزي» الذي كان من عادته أن يدفع حسابه حوالي عيد «سان بيير» أي في منتصف الصيف.

ونجحت «إيما» -في البداية- في استمهال «لوريه». ولكنه فقد صبره في النهاية، إذ كان دائئوه بدورهم يطالبونه بمالهم، وكان رأس ماله قد تبدد، فكان مضطراً إلى أن يسترد كل ما تلقته منه «إيما» من سلع، ما لم يتسلم بعض حسابها! قالت له: «حسناً اذن خذها!» أجاب: «أواه! إنما كنت أمزح. إن الشيء الوحيد الذي آسف عليه هو السوط. لعمري، سأطلب إلى السيد أن يرده لي». فهتفت في جزع: «لا لا لا!». وقال «لوريه» لنفسه: «آه! ها قد أمسكت بها!» وإذا اطمأن إلى ما اكتشف، راح يردد لنفسه في صوت خفيض، وهو يرسل صفيحه الخافت المعهود: «حسناً! لسوف نرى! لسوف نرى!» وفيما كانت تفكر في مخرج -بعد انصرافه- أقبلت الخادم، فوضعت على رف المدفأة حزمة صغيرة مغلفة بالورق الأزرق، من لدن السيد «ديروزي»! وانقضت عليها «إيما» تفضها، فإذا بها خمس عشرة قطعة ذهبية من الجنيحات النابوليونية، هي قيمة حسابها. وسمعت «شارل» يصعد السلم، فألقت بالقطع الذهبية في جوف درجها، واحتفظت بالمفتاح!

وعاد «لوريه» بعد ثلاثة أيام، يقول: «لدي تدبير اقترحه عليك: فلو أنك أخذت، بدلا من المبلغ المتفق عليه...». فبادرت تضع في يده أربع عشرة قطعة نابوليونية ذهبية، وهي تقول: «هاك!» وذهل التاجر! ولكي يخفي استياءه، طفق يهيل الأعدار، ويعرض خدماته، و«إيما» ترفض على طول الخط. ثم مكثت بضع دقائق تتحسس بأصابعها في جيب مرولتها قطعتي النقود -فئة الفرنكات الخمسة- اللتين أعطاهما إياهما التاجر بعد أن استوفى ما كان له. وعادته نفسها أن تدخر ما استطاعت، لتعيد المبلغ فيما بعد إلى زوجها، وهي تقول لنفسها: «آه! إنه لن يفكر في هذا ثانية!».



إلى جانب السوط ذي اليد الفضية، تلقى «رودولف» من «إيما» خاتما نقش عليه: «قلب عاشق»، فضلاً عن ملفحة -«كوفية»- وأخيراً علبة للسجائر تشبه تماماً علبة «الفيكونت» التي كان «شارل» قد عثر عليها في الطريق فيما مضى فاحتفظت بها «إيما». على أن هذه الهدايا كانت تشعره بخسة، فرفض كثيراً منها، ولكن «إيما» كانت تلح، فينتهي به الأمر إلى الانصياع لها، وهو يحس بأنها جائرة، شديدة العناد. ثم أخذت تساورها أفكار غريبة، فكانت تقول له: «إذا دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل، فعليك أن تفكر في!»، فإذا اعترف بأنه لم يفكر فيها، تدفق العتاب بسخاء، ثم ينتهي دائماً بالكلمة الخالدة: «أتحبني؟»، فيجيب: «عجباً بالطبع أحبك».

-بالتأكيد!

- كثيراً؟

-أو لم تحب سواي؟

فكان يهتف ضاحكا: «أو تظنين أنك أخذتني بكرة؟» وكانت «إيما» تبكي، فيسعى إلى تهدئتها، مرصعا احتجاجاته بالفكاهات! فتقول: «أواه! إنني أحبك! أحبك حتى أنني لا أقوى على العيش بدونك، فهل تدرك هذا؟ إنني لأتوق أحيانا إلى أن أراك ثانية، فتمزقني سورة الهوى، وأسائل نفسي: «تري أين هو؟ لعله يتحدث إلي نساء أخريات، يتسمن له، فيقترب منهن. أواه! لا، ما من امرأة سواي تروق لك، أليس كذلك؟ هناك من يفقننى جمالا، ولكنني أكثرهن حبا. إنني الأفضل هوى. أنا جارتيك، محظيتك! أنت ملكي، ومعبودي! أنت طيب! أنت جميل! أنت ذكي! أنت قوي!»

كم من مرات سمع فيها هذه العبارات تقال، حتى لم يعد يرى فيها طرافة، فأخذت تفقد روعها شيئا فشيئا، كغلالة انزاحت عن الشهوة فأظهرتها عارية في استرسالها الأبدى الرتيب، فإذا هي هي، مهما تباين شكل الغلالة، وبالتالي، مهما تباينت اللغة والعبارات! لم يكن ذلك الرجل الكثير التجارب ليميز أن العاطفة تختلف وإن تشابه المظهر. فهو لكثرة ما سمع هذه العبارات تغمغم بها شفاء العاهرات وبائعات الهوى، لم يؤمن كثيرا باخلاص «إيما». كان يرى أن على المرء أن لا يحفل بالعبارات الدافقة التي تنطوي على عواطف معتدلة. كأنما امتلاء النفس لا يفيض أحيانا خلال التعبيرات الخالية من الرواء والتنميق، إذ ليس في وسع الإنسان أن يحدد بالدقة التامة مقدار حاجاته، أو آرائه، أو أحزانه، وما الكلام البشري إلا كالآناء المعدني المصدوع، الذي ندق عليه الألحان لترقص الدبية، بينما نحن نصبو إلى أن نهز النجوم!

على أن «رودولف»، بما أوتي من خبرة ناقدة لا تتاح لغير الشخص الذي لا يحفل بدوام العلاقات ويحجم عن التعلق بالروابط، لمح في هذا الغرام مباحج جديدة راق له أن يتعرفها، فاستهان بكل حياء اعترضه، وراح يعامل «إيما» وفق هواه، حتى جعل منها شيئا مبتذلا، مفسودا! أما هي، فكان تعلقها به نزقا، مفعما بالإعجاب به، وباللذة الفاجرة لها. كانت السعادة قد بهرتها وخدرت عقلها، فغاصت روحها في خمر لذتها، وانكمشت، ثم غرقت كما غرق «دوق كلارنس» في دن نبيذه الحلوا! ومن ثم تغيرت أخلاق «مدام بوفاري» بتأثير العادات التي اكتسبتها من غرامها هذا وحده، فإذا نظراتها تزداد جرأة، وحديثها يزداد تحورا، بل لقد أقدمت على مسلك مستهجن، إذ تعودت أن تسير مع السيد «رودولف»، وبين شفيتها سيجارة، كما لو كانت «تتحدى العالم»! وأخيرا، لم يعد الذين ظلوا في ريب يرتابون، إذ رؤيت يوما تهبط من «العصفورة» -عربة البريد- وقد ضم خصرها صديري كصداري الرجال!

ولم تكن حمايتها -مدام بوفاري الأم- التي لجأت إلى بيت ابنها بعد شجار محتدم مع زوجها، بأقل النسوة المحتشمات استنكارا لمسلك زوجة ابنها! وكانت ثمة أشياء كثيرة لم ترها، أولها أن ابنها لم يأخذ بنصحها ويحرم على زوجته قراءة الروايات، كما أن سير الأمور في البيت لم يرضها. ولقد سمحت لنفسها ببدء بعض ملاحظات قولت بغضب،

لاسيما حين مست إحدى ملاحظاتها «فيليسيتيه»! فقد حدث في الليلة السابقة على ذلك، أن كانت مدام بوفاري الأم تمر في الردهة، وإذا بها تفاجئ الخادمة مع رجلاً كان رجلاً ذا ياقة بنية، في حوالي الأربعين من عمره، ما إن سمع خطواتها حتى فر عن طريق المطبخ. عند ذاك أخذت «إيما» تضحك، ولكن المرأة الفاضلة ازدادت حقاً، وقالت: إن على المرأة أن يراقب أخلاق خدمه، فليست الأخلاق بأضحوكة. فتسألت زوجة الابن: «في أي دنيا نشأت؟»، وكانت نظراتها من السلاطة والقحة بحيث دفعت مدام بوفاري إلى أن تسألها عما إذا كانت بذلك تدافع عن حالتها الخاصة؟ فوثبتت الشابة من مكانها صارخة: «أخرجي!» وصاح «شارل» محاولاً أن يهدي الموقف: «إيما! إيما!» ولكن كلا من المراتين كانت قد جمحت في غضبها، فراحت «إيما» تدق الأرض بقدميها مرددة: «آه يا للأخلاق! يا لها من فلاحه!» وهرع إلى أمه، فإذا بها قد فقدت زمام عواطفها، وراحت تقول متلعثمة: «إنها وقحة. طائشة. بل لعلها أسوأ من هذا!» وعولت على الرحيل فوراً، ما لم تعتذر إليها الأخرى. وعاد «شارل» إلى زوجته، وأخذ يتوسل إليها أن تتساهل، وركع أمامها، فقالت في النهاية: «حسنًا! سأذهب إليها». وفعلاً بسطت يدها لحمايتها، في كبرياء المركيزات، وقالت لها: «سامحيني يا مدام». حتى إذا صعدت إلى غرفتها، انكفأت على سريرها، وأخذت تبكي كالطفلة، وقد دفنت وجهها في الوسادة!

وكانت قد اتفقت مع «رودولف» على أن تربط إلى مصراع النافذة -إذا كان ثمة حادث غير عادي- قطعة صغيرة من الورق الأبيض، حتى إذا صادف إن كان في (ايونفيل) ومر أمام الدار، سارع إلى موافاتها في الحارة الواقعة خلف الدار. وقد علقت الإشارة في هذه المرة، وانتظرت حوالي ثلاثة أرباع الساعة، ثم رآته عند ناصية دار البلدية، فهتمت بأن تفتح النافذة وتناديه، ولكنه اختفى في التو، فتهالكت في قنوط. بيد أنها سرعان ما خالت أن ثمة من يسير تحت النافذة. لا بد أنه هو وهبطت السلم، وعبرت الفناء، فإذا به في الخارج.. وألقت بنفسها في أحضانه، فقال: «حذار!»، ولكنها قالت: «آه، لو علمت ماجري!» وشرعت تروي له كل شيء في عجلة، وعبارات مفككة، مبالغة في تصوير الحقائق، مفتربة ومختلقة الكثير مما لم يحدث، مسرفة في العبارات الاعتراضية، حتى أنه لم يفقه شيئاً! وقال لها في النهاية:

- صبراً يا ملاكي المسكين. تجلدي! اهدني! صبراً!
- ولكنني صبرت أربع سنوات، وأنا أتعذب. إن جأ مثل جينا خليك بأن يعلن حتى عنان السماء! لقد عذّبوني! لم أعد أحتمل! انقذني!

وتشبثت برودولف، وعيناها المليتان بالدموع تلمعان كلهب تحت موج، وصدرها يتهدج في حركات سريعة. وإذا ذاك أحس أنه لم يحبها يوماً كما أحبها ساعتئذ، ففقد تعقله، وقال: «وما الذي ينبغي عمله؟ ماذا تريدان؟»، فصاحت: «انقلني بعيداً! أحملني

بعيداً! آه، أتوسل إليك» وارتقت على فمه، وكأنها تريد أن تتلقف منه الموافقة غير المرتقبة، إذا نفثها في قلبه. فقال لها: «ولكن...».

- لكن ماذا؟

- ابنتك؟

وفكرت لحظات، ثم أجابت «سنأخذها معنا، لا مفراً». فقال لنفسه وهو يراها تهرع مبتعدة نحو الحديقة، بعد أن سمعت نداء: «يا لها من امرأة!».

كادت «الأم بوفاري» أن تذهل في الأيام التالية، للتغير الذي طرأ على زوجة ابنها. فالواقع أن «إيما» أخذت تبدي لها مزيداً من اللطف، بل ومضت في التقرب إليها إلى درجة أن سألتها أن تصف لها طريقة لتمليح الخيار! اقترأها استحسن أن تخذع الأم وابنها؟ أم انها -في نوبة فلسفية من وحي فيجورها- شامت أن تدع مرارة الأشياء التي كانت توشك أن تهجرها، تزداد تغلغلاً في نفسها؟ بيد أنها لم تعتمد إلى الحذر، وإنما راحت -على العكس- تعيش وكأنها تائهة في طلائع بهجة سعادتها المقبلة! ولم تكن تكف عن الحديث في الموضوع إلى «رودولف»، فكانت تميل على كتفه متممة: «آه متى نكون في عربة البريد! أتفكر في هذا؟ أهو ممكن؟ أخالنا سنكون -في اللحظة التي أحس فيها بالعربة تتحرك- وكأننا في منطاد يرقى بنا، كما لو كنا راحلين صوب السحاب، افتعرف أنني أعد الأيام؟ وأنت؟».

أبداً لم تكن مدام «بوفاري» في مثل ما بدت فيه من جمال في تلك الفترة، إذ أوتيت ذلك البهاء غير المحدد المعالم، الذي يأتي نتيجة الفرح، والتحمس، والظفر. والذي لا ينشأ إلا عن انسجام المزاج مع الظروف. كانت شهواتها وشجونها، وتذوقها للذة، وأوهامها الدائمة الصبا، أشبه بالتربة والمطر والريح والشمس إذ تنمى الزهور. وهكذا أخذت «إيما» تنمو رويداً، حتى تفتحت في النهاية عن كل ما كانت تغعم به طبيعتها. كانت أجفانها تلوح وكأنها صيغت خصيصاً لتتمشى مع نظراتها العاشقة الطويلة، التي كان إنسان العين يغيب خلالها، بينما تنبعث أنفاسها قوية تفتتح لها طاقنا أنفها الرقيقتان، وترتفع حافة شفتها المكتنزة التي يحجبها عن الضوء زغب أسود دقيق. كان المرء خليقاً بأن يخال أن فناناً خبيراً بالفساد قد نسق خصلات شعرها على عنقها، فكانت تتهدل غزيرة، في إهمال، تتباين أشكالها بتباين ظروف الغواية التي كانت لا تنفك تتبدل في كل يوم. وازداد صوتها ليونة وثنيًا، وكذلك قوامها. كان ثمة شيء من الدهاء -الذي ينفذ إلى أعماقك- ينبعث حتى من ثنايا ثوبها، وانعطافات قدمها!



وألغافها «شارل» شهية، فنانة، كما كان العهد بها في الأيام الأولى لزواجهما! لكنه

كان لا يجرؤ على ايقاظها إذا عاد في منتصف الليل. وكان مصباح الليل الخزفي يلقي على السقف دائرة من ضوء مرتعش، والستائر المسدلة على مهد الطفلة تبدو على هذا الضوء ككوكب أبيض يقوم في الظلام عند حافة السرير. وكان «شارل» يتأمل كل هذا، فيخيل إليه أنه يسمع الأنفاس الخفيفة المنبعثة من الطفلة، ويروح يتصور ابنته وهي تنمو بسرعة، مع كل فصل، ثم يتمثلها مقبلة من المدرسة في نهاية النهار، ضاحكة، ويقع المداد على زيتها المدرسي، وقد حملت حقيبتها تحت أبطها. ثم يرى أن الأوان قد آن لتلحق بالمدرسة الداخلية، وسوف يتطلب هذا نفقات كثيرة، فما العمل؟ خطر له أن يستأجر مزرعة صغيرة في الريف المجاور، يستطيع أن يرعاها بنفسه في كل صباح وهو ينطلق لعيادة مرضاه، ثم يدخر دخلها، ويودعه صندوق الادخار، ثم يشتري أسهماً ما، في أية مؤسسة، فضلاً عن أن عملاءه سيزدادون، وكان يعول على هذا، لأنه كان راغباً في أن تحظى «بيرت» بخير تنشئة، وأن تكتسب مواهب، وأن تتعلم العزف على البيانو، أهلاً لكم ستكون جميلة فيما بعد، حين تبلغ الخامسة عشرة، وتشبه أمها، وترتدي مثلها قبة واسعة من الخوص في الصيف! لسوف تبدوان -عن بعد- كما لو كانتا شقيقتين. وكان يتصورها في الأمسيات وهي تطرز إلى جوار والدتها على ضوء المصباح، لسوف توشى بشغل الإبرة خفيها (الشبشب)، وستشغل بشئون المنزل، وستملأ البيت سحراً سيبحثان لها عن فتى طيب، عزيز المركز، يسعدها، فتظل هكذا دائماً!

وبينما كان يوفاري يستسلم للنعاس، لم تكن «إيما» تنام، بل كانت تتصنع النوم، وتصور لأحلام أخرى. فإذا أربعة جياذ تحملها راکضة بها نحو بلاد جديدة، لا عودة منها! وهناك قمضي مع «رودولف»، وقد اشتيكت ذراعاهما، وسارا لا ينيسان بكلمة، ثم يلمحان فجأة من قمة جبل -أحياناً- مدينة رائعة ذات قباب، وجسور، وسفن، وغابات تنبت الموالح، وكاتدرائيات من الرخام الأبيض، تحمل أبراجها المدببة أعشاش الطيور، ويمضي السائر فيها بخطى منتظمة على الأرض المرصوفة ببلاط كبير، وقد تناثرت باقات الورد التي تقدمها إليك نساء يرتدين صداري حمراء، ويسمع العاشقان رنين الأجراس، ونهيق البغال، مع دمدمة «الجيتار» ووسوسة مياه النافورات التي تنعش برذاذها العالي أكواماً من الفاكهة نسقت على شكل أهرامات، تحت تماثيل باهتة تبتسم تحت عيون الماء، ثم يעדان ذات ليلة على قرية من قرى صائدي السمك، حيث تنتشر الشباك البنية لتجف في الهواء على السفوح أمام الأكواخ. وهناك يكفان عن الترحال ليستقرا، فيقيماني في بيت منخفض ذي سقف مسطح مستو، تظلل نخلة، في طرف خليج بجانب البحر. هناك يخرجان للتنزه في جندول، ويتأرجحان في مضاجع معلقة بين الأشجار، ويغدو عيشهما سهلاً، فضفاضاً كثيابهما الحريرية، الدافئة، المزركشة بالنجوم كتلك الليالي الناعمة التي يهتآن بتأملها. ولكن، في هذا المستقبل الهائل الذي كانت تتصوره «إيما»، لم يكن ليحدث شيء ذو بال. كانت الأيام كلها رائعة، تتوالى متشابهة كالأمواج، وترنح عند الأفق اللاتھاني، البهيج،



على أن الطفلة كانت لا تلبث أن تسعل في مهدها، أو يشتد غطيظ «بوفاري» ارتفاعاً. أما «إيا» فلا تنام إلا في الصباح، حين يبدو بياض الفجر خلال زجاج النافذة، وحين يشرع الفتى «جوستان» في ازاحة مصاريع الصيدلية.

وذاث يوم، استدعت السيد «لوريه» وقالت له: «إنني بحاجة إلى معطف، معطف واسع، ذي ياقة عالية، مزدوجة» فسألها: «أمسافرة أنت في رحلة؟» فقالت: «لا! ولكن، هذا لا يهم، سأعتمد عليك، أليس كذلك؟ فعجلاً!» وانحنى موافقاً، بينما استطردت هي قائلة: «كذلك سأكون بحاجة إلى حقيبة. ليست من النوع الثقيل، بل سهلة الحمل».

- أجل، أجل، فهمت. حوالي اثنين وتسعين سنتيمتراً، في خمسين، من ذلك النوع الذي يصنعونه في هذه الأيام.
- وحقيبة كبيرة للسفر.

فقال «لوريه» لنفسه: «لابد أن ثمة شقاقاً هنا، بالتأكيد!» بينما استطردت مدام بوفاري وهي تتناول ساعتها من حزامها: «وخذ هذه. تستطيع أن تتقاضى من ثمنها حسابك» ولكن التاجر صاح بأنها كانت على خطأ، فإن كلا منهما يعرف الآخر جيداً، فهل تراه ارتاب بصدها في شيء؟ إذن، فما هذا التصرف الصباني! بيد أنها أصرت على أن يأخذ ولو السلسلة على الأقل. وكان «لوريه» قد دسها في جيبه فعلاً، وتأهب للخروج، حين نادته قائلة وعليها إمارات التفكير: «سيكون عليك أن تبقى كل هذه الأشياء عندك. أما المعطف، فلا تحضره هو الآخر، بل تستطيع أن تعطيني عنوان الصانع، وأن تطلب إليه أن يعده ويحتفظ به رهن الطلب».

وكان الشهر التالي هو موعدهما للفرار، فكان على «إيا» أن ترح (ايونفيل) وكأنها ذاهبة لبعض الشئون في (روان)، ويكون «رودولف» قد حجز لهما مكانين. وأعد جوازي السفر، بل وكتب إلى باريس ليحجز عربة البريد بأسرها لهما حتى (مرسيليا)، حيث يبتاعان عربة، ويمضيان من هناك دون توقف إلى (جنوا). أما هي فستعنى بارسال متاعها إلى «لوريه»، لينقل من هناك مباشرة إلى «العصفورة»، حتى لا يتحدث أحد من الأمر شيئاً. ولم يرد ذكر الطفلة في كل هذا قط، إذ كان «رودولف» يتفادى الحديث عنها، ولعله لم يعد يفكر في أمرها. وما لبث أن رغب في إهماله اسبوعين ليدبر بعض شئونه، وفي نهاية الاسبوع الأول طلب خمسة عشر يوماً أخرى، ثم قال أنه مريض، وقام بعد ذلك برحلة، وانقضى شهر أغسطس، وبعد كل هذا الإرجاء، قررا أن يحددا اليوم الرابع من

سبتمبر، موعداً لا يعدلان عنه، وكان يوم الاثنين.



وحان أخيراً يوم السبت السابق على ذلك الاثنين. وأقبل «رودولف» في المساء مبكراً عن العادة، فسألتها إيما: «هل كل شيء معد؟» فأجابها: «أجل». وما لبثا أن سارا حول حوض في الحديقة، واتجها ليجلسا على مقربة من رصفة على حافة السور. وقالت إيما: «أراك حزينا»، فتساءل كالمفكر: «لا، لماذا؟» وكان في تلك الأثناء يرمقها بنظرة غريبة، وبشكل مغمم بالحنان، فعادت تسأله: «أحزين لأنك راحل؟ لأنك مفارق ما اعتدت أن تحب. حياتك؟ آه، إنني أفهم. أما أنا فلم تمنحني الدنيا شيئاً! أنت كل شيء لي، ومن ثم سأكون كل شيء لك. سأكون لك أسرة، وطناً، ساعني بك، سأحبك!»، فاحتواها بين ذراعيه قائلاً: «لكن أنت فاتنة!»، فقالت في ضحكة خليعة: «أحقاً؟ أو تحبني؟ إذن، فأقسم!.

— كم أحبك! كم أحبك! بل انني أعبدك يا غرامي!

وشرع القمر ييزغ عند حافة الأرض -في أقصى المروج- بداراً، أرجواني اللون. ثم ارتفع سريعاً بين أفنان شجر الحور التي كانت تخفيه من مكان إلى آخر، كأنها ستار أسود تتخلله ثغرات! ثم تألق في بياض باهر، في السماء الخالية التي أشرقت بالنور، وراح يميخ عباها في هوادة، مرسلأ على النهر رقعة كبيرة من ضوءه تكسرت إلى نجوم لا حصر لها، ولاح البريق الفضّي يتلوى متغلغلاً إلى الأعماق، كتعابين مارقة، تكسوها قشور مضئنة! بل إنه كان يشبه أيضاً ثريا هائلة، تسيل عليها قطرات متلاحقة من ماس! ولفهما الليل البديع، وانبتت خلال الأغصان كتل من الظلال، وراحت «إيما» -وقد أغمضت عينيهما نصف إغماضة- تنسم الهواء العليل الذي كان يهب في جرعات عميقة. ولم ينيسا بكلمة، إذ استغرقا في أحلامهما المتدافعة، وقد عادت إلى قلوبهما عواطف الأيام السالفة، عارمة، صامتة، كالنهر المنساب، في تلك النعومة التي يحسها المرء في عبير الورود الهادئة، فألقت على ذاكرتهما ظلالاً أعظم وأحلك من ظلال أشجار الصفصاف الساكنة التي كانت تمتد على العشب. وكثيراً ما كان يزجج العاشقين حيوان من حيوانات الليل -قنفذ أو عرسة تبحث عن صيد- أو كانا يسمعان في بعض الأحيان صوت ثمرة ناضجة من الكمثرى وهي تهوي من تلقاء نفسها.

وقال «رودولف»: «آه! يا لها من ليلة بديعة!»، فأجابت «إيما»: «سننعم بليال غيرها!»، ثم استطردت وكأنها تحدث نفسها: «أجل، إن الرحيل خير، ومع ذلك، فلم يثقل الحزن قلبي؟ أهذا هو الخوف من المجهول؟ أثر التخلي عن الأشياء المألوفة. أو، تراه...؟ لا، بل هو فيض الهناء. يا لي من ضعيفة. ألسنت كذلك؟ ألا أغفر لي!»، فصاح: «لا يزال هناك وقت، ففكري، ربما ندمت!»، فتهفت باستنكار: «أبداً». ثم اقتربت منه، وقالت: «أي

تعاسة تحقيق بي؟ ما من صحراء، ولا وهاد، ولا محيط أحجم عن اجتيازها معك طالما
عشنا معاً. ستكون حياتنا كعناق يشدد في كل يوم، ويزداد انطباقاً لن يكون هناك ما
يضايقنا، فلا هموم، ولا عقبات! سنكون وحدنا، ولنفسينا، إلى الأبد. آواه، ألا تكلم! رد
عليّ!»، ودست يديها في شعره، وراحت تردد في صوت كصوت الطفل، رغم الدموع
الكبيرة التي كانت تتساقط من عينيها: «رودولف! رودولف! آواه، يا رودولف، يا صغيري
الحبيب!»

ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل، فقالت: «انتصف الليل! هيا! لقد أصبحنا في
الغدا لم يبق سوى يوم واحد». وتهض لينصرف، وكأنما كانت حركته الإشارة المباشرة
بفرارهما، فقالت «إيما» وقد غشيها ابتهاج طاري: «هل الجوازان معك؟».. قال: «أجل».

- لم تنس شيئاً؟

- لا.

- امتأكد أنت؟

- كل التأكد.

- إنه فندق «بروفانس» الذي ستنظرني فيه، أليس كذلك؟ عند الظهر؟

فهز رأسه. وقالت «إيما» وهي تعانقه للمرة الأخيرة: «إلى الغد إذن!» وأخذت ترقبه
وهو يبتعد ولم يلتفت وراءه. فهرعت خلفه، ومالت على حافة الماء، بين شجيرات العوسج،
وصاحت «إلى غدا» وكان قد اجتاز النهر، وسار حثيثاً في المراعى. وبعد بضع دقائق،
وقف «رودولف»، فلما رآها في ثوبها الأبيض تغيب شيئاً فشيئاً في جوف الظلام
كالطيف، راح قلبه يخفق في عنف، حتى لقد اضطر إلى أن يستند إلى شجرة كي لا
يهوى على الأرض. وقال في حق: «يا لى من غيبي! ولكن، لا بأس، لقد كانت خلية
جميلة!» وفي الحال عاوده جمال «إيما»، ومتع حبيها ومسراته، فرقت عواطفه لحظة، ثم عاد
يتمرد عليها، قائلاً وهو يهز كتفيه: «ما كنت -رغم كل شيء- لأستطيع أن أعيش
منفياً، وأن أحمل هم طفلة!» قال لنفسه هذه العبارات ليقوي من عزيمته، ثم أردف:
«وهناك -إلى جانب الهم- النفقات. آه، لا، لا.. ألف مرة لا! كان الأمر سيغدو غباء
بالغا!»

الفصل الثالث عشر

ما كاد «رودولف» يبلغ داره، حتى بادر بالجلوس إلى مكتبه، تحت رأس الوعل المعلق إلى الجدار. ولكنه حين أمسك بالقلم بين أصابعه، لم يجد في رأسه ما يسطره، ومن ثم اعتمد على مرفقيه، وأخذ يفكر. لقد أصبحت «إيما» تلوح له وكأنها نأت في ماضٍ سحيق. كأنما أقام القرار الذي اتخذته مسافة شاسعة بينهما، فجأة؛ ولكي يسترجع شيئاً عنها، أخرج من الصوان المجاور للسريـر صندوقاً قديماً من صناديق بسكويت «رئيس»، اعتاد أن يحفظ فيه خطابات النساء، فانبعثت منه رائحة الغبار الجاف والورود الذابلة؛ ولمح أولاً منديلاً صغيراً من مناديل الجيب، مليئاً ببقع صغيرة باهتة. كان هذا المنديل لها، فقد نزت دما من أنفها مرة، وهما يتنزهان، وقد نسي كل شيء عنه؛ وإلى جواره، كانت الصورة الصغيرة المهداة من «إيما»، وقد تأكلت من كل زواياها. ولاح له أن في زينتها بهرجة مسرفة، وأن نظراتها المنكسرة توحى بلذوق سقيم. ولطول ما تأمل الصورة، مستذكراً معالم الأصل، أخذت ملامح «إيما» تختلط في رأسه شيئاً فشيئاً، وكان الوجه الحلي والوجه المرسوم قد احتكا حتى محا كل منهما الآخر؛ وانتهى إلى قراءة بعض رسائلها. كانت جميعاً مليئة بأحاديث تتعلق برحلتها، وقد كتب في إيجاز، وبتعبيرات عملية، وخط سريع، كخطابات الأعمال. ورغب في أن يرى الرسائل الطويلة مرة أخرى -رسائل الأيام الخالية!- ولكي يبحث عنها في قاع الصندوق، عبث بنظام كل الرسائل الأخرى، وأخذ بحركة آلية ينقب وسط هذا الركام من الورق والأشياء، مصادفاً خليطاً من الزهور، ورباط جورب مما تستعمله النساء، وقناعاً أسود، ودبابيس، وشعراً، شعوراً لسراوات، ولشقرارات، اشتبك بعضها بمفصلات الصندوق فتقطعت حين فتحه!

هكذا أخذ يعبث بالتذكارات، متأملاً خطوط وأساليب الرسائل المتباينة بتباين كتاباتها: كانت بينهن الرقيقة الخنون، والبشوش الضاحكة، والمازحة الماجنة، والخزينة المكتشبة. وكانت هناك من ترجو حباً، ومن تسأل مალ، وبوحي كلمة كان يتذكر وجوهاً، وحركات معينة، ولهجة صوت. على أنه، في بعض الحالات، لم يكن يتذكر شيئاً على الإطلاق؛ والواقع أن اندفاع هؤلاء النسوة إلى ذهنه مرة واحدة، جعل كلا منهن تعدو على الأخرى، وتغض من ذكراها، حتى لاح أنهن جميعاً كن في مستوى واحد من الحب يسوي بينهن. ومن ثم أخذ «رودولف» يغترف الخطابات المختلط بعضها ببعض، ويتسلى بأن يقلتها لتهدى من يده اليمنى إلى يده اليسرى كمياه الشلال. وأخيراً -إذ مل وتعب- حمل الصندوق فردّه إلى الصوان، قائلاً لنفسه: «يا لها من نفايات متراكمة!» وكانت هذه خلاصة رأيه. إذ أن الملمات -كالتلاميذ في ساحة المدرسة- لم تبق على شيء أخضر في قلبه لكثرة ما وطأته، وكل من اجتاز هذا القلب في طيش وعدم اكتراث، لم يخلف -على

العكس من الأطفال في المدرسة- أدنى أثر، ولا اسمه محفوراً على الجدار!



وقال «رودولف» لنفسه أخيراً: «هيا لنبدأ»، ثم كتب: «تشجعي يا إيمان! تشجعي! ما كنت لأحيل حياتك إلى شقاء». وحدث «رودولف» نفسه: «هذا حق، رغم كل شيء، انني إنما أعمل لصالحها، إنني أمين!»

وعاد يستأنف الكتابة: «هل تدبرت قرارك بعناية؟ أتعرفين إلى أية هوة كنت أجرك أيها الملك المسكين؟ لا، أليس كذلك؟ كنت مقبلة في ثقة وغير خوف، مؤمنة بالسعادة في المستقبل آه! ما أتعسنا من أخرقين!» وتوقف «رودولف» هنا ليفكر في حجة طيبة. هل يكتب: «إن كل ثروتي قد تبددت!»؟ أو، لا، ثم أن هذا لن يمنع من الأمر شيئاً، لسوف يضطر إلى أن يعود إلى هذا فيما بعد، وهل في وسع أمريء أن يحمل هذا الصنف من النساء على الاصغاء لصوت العقل؟ وتروي، ثم عاد يكتب: «لن أنساك قط، ثقي من هذا، وسأظل أبداً أكن لك وفاء عميقاً، على أن هذا الوجد الجائح لن يلبث يوماً -إن عاجلاً أو آجلاً- أن يخف ولاشك (فهذه شيمة العواطف البشرية)، وعندئذ يعترينا الفتور، ومن أدراني بانتي قد لا اضطر إلى أن أعاني الألم الفظيع، ألم مشاهدة ندمك، والمساهمة فيه بنفسي، ما دمت السبب فيه؟ إن مجرد التفكير في الحزن الذي سينتابك، يعذبني يا إيمان! فسامحيني! لماذا قدر لي أن أعرفك؟ لماذا كنت جميلة بها الشكل؟ أهو ذنبي؟ أو أه يا إلهي! لا، لا، لا تتهمني سوى القدر!»

وقال لنفسه: «ها هي ذبي كلمة تحدث دائماً الأثر المنشود!». واستأنف الكتابة: «آه! لو أنك كنت من أولئك النساء المستهترات اللاتي يصادقهن المرء، لأقدمت أنا بالتأكيد -وبدافع من الأنانية- على خوض هذه التجربة، لأنها لن تكون ذات خطر عليك في هذه الحال. ولكن هذه النشوة العذبة، التي تفتنك وتعذبك في آن واحد، حالت بينك وبين أن تفهمي، أيتها المعبودة، زيف مركزنا في المستقبل. كما لم أفكر أنا من ناحيتي في هذا، في بداية الأمر، بل استطيت ظلال هذه السعادة المثالية كما يستطيع المرء ظلال شجرة وارفة، دون تقدير للتبعات والنتائج»

وقطع رودولف الكتابة ليسائل نفسه: «ربما ظننت أنني اتخلى عنها بدافع من البخل. آه! لا بأس! لا ضير! لابد من انتهاء الأمر». ثم استأنف: «إن الدنيا قاسية يا إيمان. وكان لابد من أن تضطهدنا أينما ذهبنا. وسيكون عليك أن تتحملتي الأسئلة الطائشة المثيرة، والافتراء، والازدراء، وربما الإهانة، الإهانة التي قمسك! آه! أما أنا، الذي يود لو رفعك إلى عرش! أنا الذي أحمل ذكراك معي كتميمة! فلسوف أعاقب نفسي بالنفي والتغرب، لقاء كل ما فعلت من شر! سأرحل. إلى أين؟ لست أدري! فلقد فقدت عقلي! وداعاً!.. ولتتهنأ

دائماً بالخير! احتفظي بذكرى التعس الذي فقدك. لقني طفلتك اسمي، ودعيها تردده في صلواتها». واهتز إذ ذاك لهب الشمعتين، فنهض «رودولف» ليغلق النافذة، ثم قال لنفسه وهو يجلس ثانية: «يلوح لي أن هذا غاية ما هناك. آه! لأضف هذه العبارة أيضاً، خشية أن تسعى ورائي وتضايقني!»: «سأكون بعيداً عندما تقرئين هذه السطور الحزينة، إذ وددت أن أفر بأسرع ما أستطيع، تخلصاً من الاغراء الذي يدفعني لأن أراك مرة أخرى - فلا ينبغي أن نستسلم للضعف! - لكنني سوف أعود يوماً، ولعلنا نستطيع فيما بعد أن نتحدث معاً، في منتهى الهدوء، عن حبنا القديم. فوداعاً!». وعاد يضيف كلمات: «في رعاية الله»، إذ رآها تنم عن ذوق بديع، ثم قال لنفسه: «والآن، بماذا أوقع الخطاب؟ بكلمة: «الوفي»؟ لا! بل: «صديقك»؟ أجل، فليكن!.. وكتب: «صديقك». ثم عاد يقرأ خطابه، فيدا له مناسباً. وراح يقول لنفسه في اشفاق: «يا للمرأة الصغيرة المسكينة! ستراني أقسى من الصخر! كان لابد من ذرف بعض الدموع على ذلك، ولكنني لا أستطيع البكاء، وليس هذا ذنبي». وما لبث أن صب بعض الماء في كوب، ثم غمس أصبعه فيه، وترك قطرة كبيرة تسقط منه، فكونت بقعة باهتة على المذاد - كأنها دمعة - ثم بحث عن خاتم يحكم به إغلاق الرسالة، فصادفه الخاتم الذي نقش عليه! «قلب عاشق»!

- هذا لا يصلح إطلاقاً للظرف. آه! أف! لا بأس!

ودخن بعد ذلك ملء غليونه ثلاث مرات، ثم أوى إلى فراشه.



وعندما استيقظ في اليوم التالي، حوالي الساعة الثانية بعد الظهر - إذ كان قد نام متأخراً - أمر باقتطاف ملء سلة من المشمش، ووضع الرسالة في قاعها، تحت بعض أوراق الكرم، ثم أمر «جيرار» - الحوذي - بأن يحملها فوراً إلى «مدام بوفاري»، مترفقاً - وكان قد ألف استخدام هذه الطريقة للتراسل معها، بارسال بعض الفواكه أو الطيور التي يصطادها إليها، تبعاً للفصل - وقال للحوذي: «إذا سألتك عنى فقل إنني سافرت في رحلة. ويجب أن تقدم السلة إليها بشخصها، في يديها. هيا، وكن على حذرا».

وارتدى «جيرار» قميصه الجديد، وعقد منديله حول سلة المشمش، ثم سار في خطى ثقيلة واسعة، منتعلاً حذاءيه الطويلين المعززين بالقطع الحديدية، ويم شطر (أيونفيل)، وحين وصل إلى دار «بوفاري»، كانت ربة البيت تنسق مع «فيليسيتيه» حزمة من الملابس الداخلية، على منضدة المطبخ، فقال الحوذي: «هاك شيئاً أرسله مخدمونا إليك». واستولى عليها جزع، وفيما كانت تبحث في جيبها عن بعض القطع النقدية الصغيرة، أخذت تتأمل الفلاح بعين قلق، بينما كان هو نفسه يرمقها في دهشة، لا يفقه كيف تؤدي مثل تلك الهدية إلى ارتباك امرئ ما؟! وانصرف أخيراً، بينما بقيت «فيليسيتيه». ولم تقو «إيما» على الاحتمال، فهرعت إلى قاعة الجلوس، متظاهرة بأنها تنقل المشمش إلى هناك، ثم قلبت

السلة، ونبشت أوراق الكرم، فعثرت على الرسالة، وفتحتها، ثم بادرت هاربة إلى غرفتها مدعورة، وكأنما كانت خلفها نيران رهيبة تطاردها!

وكان «شارل» موجودا. رآته، وتحدث إليها، ولكنها لم تسمع شيئا، بل مضت ملهوفة تصعد السلم، لاهثة، شاحبة، مسلوية الرشد، متشيثة طيلة الوقت بتلك الورقة الرهيبة، التي كانت تفرق بين أصابعها كأنها صفحة من حديد! وإذا بلغت الطابق الثاني، توقفت لدى باب مخزن الحبوب، الذي كان موصداً، ثم حاولت أن تهديء من انفعالها، وتذكرت الخطاب! يجب أن تفرغ منه. ولكنها لا تجرؤ. وأين؟ وكيف؟ قد يراها أحد وقالت لنفسها: «آه، لا هنا سأكون بخيرا»، ودفعت الباب، ودخلت. وكان السقف ذو الألواح الازدوازية يشع في الداخل حرارة انصبت عمودية على صدغيها، فكادت تختنق. وجرت نفسها إلى كوة مغلقة، فرفعت رتاجها، وإذا الضوء الباهر يندفع إلى الداخل، وأمامها، كان الريف يمتد خلف أسطح المباني إلى أقصى مرامي البصر. وتحت ناظريها مباشرة، كان ميدان القرية خاوياً، وأحجار الطريق تلمع، وأجهزة الارشاد إلى الرياح فوق الدور ساكنة. وعند ناصية الطريق، كان ينبعث من مبنى منخفض خرير مستمر ذو صوت حاد منكر. كان «بينيه» يدير آلاته!



واستندت إلى حافة النافذة، وعادت تقرأ الخطاب في تهكم غاضب. وكلما ازداد تركز انتباهها عليه، ازدادت أفكارها ارتباكاً وتمثلت «رودولف» مرة أخرى، وسمعته، وطوقته بذراعيها في الخيال، وأحست بدقات قلبها تتتابع في عنف خلف صدرها -كدقات المطارق- وهي تزداد سرعة، في فترات غير منتظمة، وتلفتت حولها وهي تتمنى لو أن الأرض انهارت وتهدمت! لم لا تنهي كل شيء؟ ما الذي يصدها؟ إنها طليقة. وتقدمت تطل على الشارع المرصوف، وهي تقول لنفسها: «هيا! هيا!» كانت الأشعة المنعكسة عن الأرض تجتذب ثقل جسمها إلى الهاوية! ولاح لها أن أرض الميدان المهتزة -تحت وهج الشمس- ترتفع بطول الجدران، وأن أرض الغرفة تغوص من أقصاها، كسفينة يتقاذفها الموج. وصارت عند الحافة، تكاد تكون معلقة في الهواء، محوطة بفراغ شاسع. وبهرتها زرقة السماء، وأخذ الهواء يلف في رأسها الأجوف. ولم يكن عليها سوى أن تنصاع، أن تستسلم، وزئير مخروطة «بينيه» لا ينقطع، وكأنه صوت غاضب يدعوها. وكان «شارل» يصيح! «يا زوجتي! يا زوجتي!» فأمسكت متربثة، بينما استطرد «أين أنت؟ تعالي!» وكادت تهوى مغشياً عليها لفرط الذعر، إذ فطنت إلى أنها أفلتت من الموت. فأغمضت عينيها. ثم ارتجفت إذ أحست بيد تمس كمها. وكانت يد «فيليسيتيه» التي قالت لها: «إن السيد ينتظرك يا سيدتي، وقد قدم الحساء على المائدة» فاضطرت إلى الهبوط، وإلى الجلوس إلى المائدة!

وحاولت أن تأكل، ولكن اللقعات كانت تسد حلقها. ثم بسطت منشفتها كأنها تفحص مواضع البلى فيها، وودت فعلاً أن تنهمك في هذا العمل، فأخذت تحصى خيوط النسيج. وما ليثت ذكرى الخطاب أن عاودتها، أفترها أضعته؟ وأين تجده ثانية؟ ولكنها أحست بهبوط وتقاعس أفعدها حتى عن أن تنتحل عذراً لتغادر المائدة. وعندئذ غشيها جبن، ودخلها خوف من «شارل». من المؤكد أنه كان يعلم كل شيء! والواقع أنه قال في لهجة غريبة: «ليس من المحتمل -على ما يظهر- أن نرى السيد رودولف قبل وقت طويل»، فقالت مرتجفة: «من قال لك هذا؟»، فأجاب في دهشة لردّها السريع: «من قال لي! عجباً... إنه «جيرار» الذي قابلته لتوي عند باب مقهى «فرانسيه». لقد سافر «رودولف» في رحلة، أو هو علي وشك!»، وإذا شهقت، قال: «ما الذي يدهشك في هذا؟ إنه يرحل هكذا من آن إلى آخر، للترويج عن نفسه، ولعمري، إنني لأراه على صواب، عندما يكون لدى المرأة ثروة، ويكون أعزب! فضلاً عن أن صاحبنا يتمتع نفسه! إنه رجل لهو وعيب، لقد روى لي السيد لاجلوا...»، ثم أمسك من قبيل الأدب، لوجود الخادم التي كانت قد أقبلت وأخذت تعيد المشمش المتناثر على الرف إلى السلة. وطلب «شارل» المشمش -غير منتبه إلى احتقان وجه زوجته- وتناول واحدة فأنشبت فيها أسنانه وقال: «آه، رائع! تذوقي!»، وقرب منها السلة، فدفعتها في رفق. وعاد يقول وهو يقرب المشمشة من أنفها عدة مرات: «إذن، شمي. يا للعبير!». فوثبت صائحة: «إنني أختنق!»، ثم غالبت النوبة في جهد وعزيمة، وقالت: «لا شيء، لا شيء! إنها الأعصاب! ألا أجلس، وكل؟» فقد خشيت أن يشرع في سؤالها، وفي العناية بها، وأن لا تخلو إلى نفسها ابداً!



وجلس شارل ليرضيها، ولفظ بذور المشمش في راحتيه، ليضعها بعد ذلك في طبقه. وفجأة، مرت عبر الميدان عربة زرقاء منطلقة بسرعة، فندت من «إيما» صرخة، ثم هوت على الأرض مستلقية على ظهرها، متبسة الأطراف، والواقع أن «رودولف» كان قد قرر -بعد تفكير طويل- أن يرحل إلى (روان)، ولما لم تكن ثمة طريق بين (لاهوشيت) و(بوشى) سوى (ايونفيل)، فقد اضطر إلى أن يجتاز القرية، تعرقته «إيما» على أضواء مصابيح العربة التي مرقت خلال الغسق كالبرق. وأسرع الصيدلي «هوميه» إلى الدار، حين انبعثت الجلبة فيها، فإذا المائدة قد انقلبت بكل ما عليها من أطباق، وإذا الصلصة، واللحم، والسكاكين، والملح، وقنينة الزيت، قد تناثرت في أرجاء الغرفة. و«شارل» يصيح طالباً النجدة، و«بيرت» تبكي مذعورة، و«فيليسيته» -التي كانت يداها ترتعشان- تفك إزار سيدتها التي كان جسمها كله يختلج في تشنج. وقال الصيدلي: «سأجري إلى معلمي لأحضر بعض خل الورد».

وإذا فتحت «إيما» عينيها، حين تنسمت الزجاجة، قال: «كنت واثقاً من أن هذا كفي

بأن يوقظ الميت!». وقال شارل: «كلمينا. أفيقي ها أنذا، شارل حبيبك الذي يحبك! افعرتني؟ انظري! هاك ابنتك الصغيرة! ألا قبلتها!»، ويسطت الطفلة ذراعيها نحو أمها لتتعلق برقبتها، ولكن «إيما» أشاحت عنها، وقالت في صوت متهدج: «لا، لا أريد أحدا» وأغمى عليها مرة أخرى، فنقلت إلى سريرها، حيث ظلت ممددة فاغرة الفم، مطبقة الأنفان، مفتوحة راحتين، بلا حراك، وقد أبيض لونها كتمثال من الشمع. وكانت الدموع تجري من عينيها، وتسقط في بطن على الوسادة. وكان «شارل» واقفاً في أقصى المخدع -والصيدلي على مقربة منه- وقد أخذ إلى ذلك الصمت الملى بالتفكير، الذي يرتاح إليه المرء في ظروف الحياة الخطيرة. وما لبث الصيدلي أن قال وهو يلمس مرفقه: «أطمئن. أعتقد أن النوبة قد انقضت». فأجاب «شارل» وهو يراقبها في نومها: «أجل، إنها الآن ترتاح قليلا. يا للمسكينة! مسكينة! لقد استغرقت الآن في النعاس!»

وإذ ذاك تساءل «هوميه» كيف وقع الحادث، فأجاب «شارل» بأن المرض دهمها فجأة وهي تأكل بعض ثمار المشمش. فقال الصيدلي: «عجيب! ربما كان المشمش سبب الإغماء، فمن الناس من أوتوا طبيعة حساسة تتأثر من بعض الروائح، وهو موضوع تمتع للدرس، سواء من ناحية علم طبيعة الأمراض، أو من ناحية طبيعة الأجسام. ولقد عرف الكهنة ما لهذا من أهمية، فإذا هم يطلقون البخور دائماً في طقوسهم، وذلك لتحذير الحواس، وإحداث الانجذابات الروحية. وهو أمر سهل جداً، لا سيما مع أفراد الجنس اللطيف، إذ أنهن أرق من غيرهن. بل يقال إن هناك من يصاب بالاغماء لرائحة الذرة إذ تشوى، أو لرائحة الخبز الطازج...». فقال «بوفاري» بصوت خفيض: «حذار، وإلا أيقظتها!» واستطرد الصيدلي قائلاً: «وليس الآدميون وحدهم عرضة لمثل هذا الشذوذ، بل الحيوانات كذلك. وما أظنك تجهل ما لمادة «النبيتا كارتاريا» -التي يسميها العامة «حشيش القط»- من مفعول عجيب في إثارة الحواس الجنسية لدى حيوانات الفصيلة القطية. كما أن هناك مثلاً استطيع أنؤكد صحته، فإن «بريدو» -وهو من أصدقائي القدامى، وقد استقر الآن في شارع «مالبالو»- يمتلك كلباً تنتابه التشنجات بمجرد أن تمسك أمامه علبة سعوظ! وكثيراً ما يجري هذه التجربة بمشهد من أصدقائه في البيت الذي أقامه للاستجمام في غابة جيوم. فهل يصدق أحد أن مادة للعطاس كهذه تحدث مثل هذا الضرر بأجهزة جسم حيوان من ذوات الأربع؟ إنه أمر غاية في الغرابة أليس كذلك؟»

فقال «شارل» الذي لم يكن ينصت إليه: «أجل». فاستأنف الآخر حديثه مبتسماً في شيء من الرضى عن النفس: «هذا يبين لنا ألوان الشذوذ التي لا حصر لها في الجهاز العصبي. أما بالنسبة للسيدة، فأعترف أنها تبدو لي دائماً مرهفة للغاية. ومن ثم فلست أنصحك يا صديقي العزيز بشيء من تلك الأدوية المزعومة التي تؤثر على التركيب الجسمي، تحت زعم التأثير على الأعراض. لا، لاداعي لأدوية لا نفع لها! بل يكفي اللجوء إلى تنظيم التغذية، وهذا غاية ما في الأمر! وهناك بعض المسكنات والمليينات، والملطفات. ثم، ألا ترى أن من المحتمل أن يكون الوهم مستولياً عليها؟». فتساءل «بوفاري»: «من

آية ناحية؟».

- آه، هذه هي المسألة! هذه هي المشكلة فعلاً! كما قرأت أخيراً في الصحيفة.



على أن «إيما» لم تلبث أن أفاقت صائحة: «الخطاب! الخطاب!». وخيل إليهما أنها تهذي. وكان الليل قد انتصف. ثم ثبت أنها أصيبت بحمى مخية، وظل «شارل» لا يفارقها ثلاثة وأربعين يوماً، وقد أهمل كل مرضاه، ولم يعد ينام في فراشه. كان لا ينفك يتحسس نبضها، ويضع اللصقات والمكمدات بالماء البارد. وكان يوفد «جوستان» إلى (نيوشاتل) بحثاً عن الثلج، فكان الثلج يذوب في الطريق، فيوفده من جديد! واستدعى السيد «كانيفيه» لاستشارته، وأحضر من (روان) الدكتور «لاريفيير» أستاذه القديم، كان قانطاً. وكان أشد ما أزعجه ضعف «إيما» وخورها، حتى انها كانت لا تتكلم، ولا تسمع شيئاً، بل كان يلوح أنها لا تحس بالألم! وكأنما كان جسدها وروحها قد أخذاً معاً إلى الراحة بعد كل متاعبهما.

وحوالي منتصف أكتوبر، أصبح في وسعها أن تجلس في سريرها، تحوطها الوسائد. وبكى «شارل» حين رآها تأكل أول لقمة من الخبز والمربى. وأخذت قواها تعود إليها، فاستطاعت أن تبرح سريرها ليضع ساعات بعد ظهر كل يوم. وعندما تحسنت، حاول يوماً أن يصحبها لتتمشى في الحديقة معتمدة على ذراعه. وكانت رمال دروب الحديقة قد اختفت تحت أوراق الشجر المجافة. وسارت «إيما» في بطناء خفيفها، مستندة إلى كتف «شارل»، وكانت تبتسم طيلة الوقت.. وسارا حتى أقصى الحديقة، على مقربة من رصفتة السور، وكانت هي تتحامل على نفسها في تؤدة، وقد أظلت عينيها بيدها لتستطيع أن تبصر. وأرسلت بصرها بعيداً، إلى أبعد ما وسعها، ولكن، لم تلمح عند الأفق سوى نيران هائلة تبعث دخانها فوق التلال، النيران التي أوقدت لاجتثاث الأعشاب.

وقال بوفاري: «لسوف تتعبين نفسك يا حبيبتي!». ودفعها برفق ليحملها على دخول الخميلة، قائلاً: «أجلسي على هذا المقعد، لتستريحين». فقالت في صوت وأهن: «لا.. لا.. ليس هنا». وتولاهما دوار وعاولها مرضها منذ تلك الليلة، لا تتضح منه حقيقته، وبأعراض غامضة، غير جليلة فهي تألم أحياناً من قلبها، وأحياناً من صدرها، ومن رأسها، ومن أطرافها. وكانت تنتابها نوبات قى، خيل لشارل أنه رأى فيها مبادئ السرطان.. وكان المسكين -علاوة على كل هذا- يعاني الهموم من جراء المسائل المالية!

الفصل الرابع عشر

كان -أولاً- لا يدري كيف يدفع للسيد «هوميه» نفقات كل الأدوية التي أمده بها. ومع أنه -كطبيب- لم يكن ملزماً بدفع أثمانها، إلا أنه كان يخجل من مثل هذا الدين. ثم كانت هناك نفقات بيته، فإن الطاهية حين غدت ربة للبيت صارت «قظيعة» في إسرافها، وأخذت كشوف الديون تتدفق على البيت، وشرع التجار يتذمرون، بل إن السيد «لوريه» -بوجه خاص- راح يزعجه. والواقع أنه -في عنفوان مرض «إيما»- استغل الظروف ليزيد من قيمة دينه، فأسرع باحضار المعطف، وحقبة السفر الصغيرة، وحقبتين كبيرتين بدلاً من واحدة، وعدة أشياء أخرى، وكان من السهل على «شارل» أن يقول إنه لا يريد لها، ولكن التاجر أجاب في تحرش بأنها طلبت منه، فلا يستطيع أن يستردها، فضلاً عن أن هذا قد يسوء السيدة في فترة نقاهتها، ومن ثم يخلق بالسيد أن يفكر جيداً في الأمر. ومجمل القول أنه كان مصراً على أن يرفع الأمر إلى القضاء، حتى لا ينزل عن حقوقه ويسترد السلع. وإزاء هذا أمر «شارل» من ناحيته برد السلع إلى حانوت التاجر، ولكن «فيليسيتيه» نسيت، وشغل هو بأمور أخرى، فلم يعد يفكر في ذلك. وعاد مسير «لوريه» إلى المطالبة، مهدداً مرة، ومتباكياً أخرى، حتى أفلح بمناوراته في حمل «بوفاري» على توقيع سند تعهد فيه بالدفع في خلال ستة شهور. على أنه لم يكد يوقع، حتى خطرت له فكرة جريئة: تلك هي أن يقترض ألف فرنك من «لوريه». ومن ثم سأله محرراً إن كان من الميسور أن يواقيه بهذا المبلغ، على أن يعتبر هذا الدين لمدة عام، وبأية فائدة يريد احتسابها، فهرع «لوريه» إلى متجره، وعاد بالمبلغ، وأملى وثيقة أخرى تعهد فيها «بوفاري» بأن يدفع لأمره في أول سبتمبر التالي ألفاً وسبعين فرنكاً، إذا أضيفت إلى المائة والثمانين التي اتفقا عليها من قبل، غداً المجموع ألفاً ومائتين وخمسين. وهكذا، باحتساب الفائدة بسعر ستة في المائة، فضلاً عن عمولة بمعدل الربح، إلى جانب ربح في السلع يصل إلى الثلث على الأقل، فإن هذه الصفقة كانت كفيلة بأن تدر على التاجر في اثني عشر شهراً ربحاً قدره مائة وثلاثين فرنكاً. وراوده الأمل في أن تقف المسألة عند هذا الحد، وأن لا يدفع الدين، ومن ثم يتجدد، وهكذا يتغذى المبلغ الهزيل لدى الطبيب -كما لو كان في مصحة- فيعود إليه سميناً، تتفتق لبدانته حافظته!

وفوق ذلك، فإن كل أموره أخذت تزداد مجاًحاً، فقد فاز في مناقصة توريد شراب التفاح -«السيدر»- لمستشفى (نيوشاتل)، ووعده السيد «جيومان» ببعض أسهم في مناجم (جومسنال)، فأخذ يحلم بإنشاء نظام جديد للمواصلات السريعة بين (اركوى) و(روان)، لن يلبث أن يقضي ولا شك على العربة المتداعية التابعة لفندق «الأسد الذهبي». كما أن السفر السريع، بنفقات زهيدة، مع إمكان اصطحاب مزيد من المتاع،



وسأل «شارل» نفسه مرات عديدة: أني له أن يدفع مثل هذا المبلغ في العام المقبل؟ وراح يفكر، ويتصور سبلاً للعون، كأن يلجأ إلى أبيه، أو يبيع شيئاً. ولكن أباه كان يصم أذنيه، كما أنه لم يكن يمتلك شيئاً يباع، وكان إذ ذاك يتصور المتاعب المقبلة فيبادر إلى إقصاء مثل هذا الموضوع غير المستحب عن ذهنه، ويلوم نفسه لنسيانته «إيما» كأنما كانت كل أفكاره ملكاً لهذه المرأة، بحيث يكون عدم قصر أفكاره عليها باستمرار، استلاباً لبعض حقوقها!

وكان الشتاء قارساً، ونقاها مدام بوقاري بطيئة. وكانت -إذا تحسن الجو- تدفع في مقعدها إلى النافذة المطلة على الميدان، إذ أصبحت تشعر بنفور نحو الحديقة، حتى أصبحت المصاريع المطلة عليها مغلقة على الدوام. ورغبت في أن يباع الجواد، وأصبح كل ما اعتادت أن تحبه في الماضي، يسؤوها الآن! ولاح كأنما اقتصرت كل أفكارها على العناية بنفسها، فكانت تمكث في الفراش، مقتصرة على تناول وجبات خفيفة، وتدق الجرس للخدام لتسألها عن شرابها أو لتثرثر معها. وكان الجليد المتراكم على سقف السوق يعكس على الحجرة ضوءاً ناصعاً، ساكناً. ثم بدأ موسم الأمطار، فكانت «إيما» ترتقب في غرفتها يوماً -بذهن مفعم بالتلief- الأنباء التي لا بد منها عن بعض الأحداث التافهة التي لا علاقة لها بها، وكان أهمها وصول «العصفورة» في المساء، فكانت ربة الفندق ترفع إذ ذاك عقيرتها بالصياح، فتترد عليها الأصوات الأخرى، بينما يومض مصباح «هيبوليت» كالنجم في الظلام، وهو يخرج الصناديق من مؤخرة العربة. وكان «شارل» يفد عند الظهيرة، ثم يعود للخروج. وتتناول هي -عقب ذلك- بعض الحساء. وحوالي الساعة الخامسة، يبدأ النهار في الرحيل، ويعمد الأطفال العائدون من المدرسة -وهم يجرون نعالهم الخشبية على الرصيف- إلى طرق «شناكل» المصاريع بمساطرهم، واحداً بعد الآخر.

تلك كانت الساعة التي اعتاد الأب «بورنيسيان» أن يفد فيها ليراها، فيسأل عن صحتها، ويفضي إليها بالاتباء، ويرشدها إلى أمور دينها، في صوت خافت، رخم، لا يخلو من سحر. بل إن مجرد التفكير في مسوجه، كان يشيع في نفسها ارتياحاً. ولقد حدث ذات يوم -في عنفوان مرضها- أن ظنت أنها تحتضر، فطلبت أن تتناول القربان المقدس، وبينما كانت الاجراءات تتخذ في غرفتها لاعدادها للمراسم، وقد حولت المنضدة الحافلة بأنواع الشراب إلى مذبح، وأخذ في نشر زهور «الداليا» على الأرض، شعرت «إيما» بشيء قوي يمر عليها، فيستل منها آلامها، وكل فكر، وكل حس. وإذا تخفف جسدها من الفكر، بدأت حياة أخرى، فخيّل إليها أن كيانه يرقى صاعداً إلى الله، حيث يتلاشى في ذلك الحب، كالبحر المحترق إذا ما انصهر وغدا بخاراً. وتثر الماء المقدس على الفراش،

وأخرج القس من العلبة المقدسة رقاقة الخبز الرباني الأبيض، فانتشت «إيما» بهذه الغبطة السماوية، حتي أنها مدت شفيتها لتتلقى «جسد المخلص» الذي قدم إليها. وكانت ستائر المخدع تتطاير حولها في رفق كأنها السحب، والشمعتان المشعلتان على المنضدة تتألقان كأنهما هالتان باهرتان. وما لبثت أن طوحت برأسها إلى الخلف، متوهمة أنها تسمع في الفضاء أنغام الموسيقى الملائكية، وفي السماء اللازوردية -علي عرش ذهبي وسط قديسين ممسكين بالسعف الأخضر- خيل إليها أنها تلمح، الله، الأب، محوطاً بالجلال، وقد أوفد إلى الأرض -بإشارة منه- ملائكة ذوو أجنحة من لهب، ليحملوها في أحضانهم صاعدين.



واستقرت هذه الرؤيا الرائعة في ذاكرتها كأجمل ما يمكن أن يرى في الأحلام، ومن ثم راحت تجاهد لتستجمع حواسها، التي ظلت باقية رغم ذلك، وإن كانت قد فقدت الكثير من طابعها الشخصي، واكتسبت رقة وعذوبة عميقتين. ووجدت نفسها، التي عذبها الغرور، راحة في التواضع المسيحي، فلما تذوقت لذة الضعف، رأت أنهيار الإرادة في أعماقها، مما فتح ولا بد طريقاً واسعاً إلى المسالك المفضية إلى النعم الإلهية والتسامح الرباني. وفي مكان السعادة، قامت مباهج أعظم، حب يفوق كل حب، لا ينقطع ولا ينتهي، وإنما يظل في نحو إلى الأبد، وأبصرت وسط رؤى الأمل الخيالية، حالة من الطهر والنقاء، تطفو فوق الأرض، وتختلط بالسماء، فتاقت إلى أن ترقى إليها. فنت أن تغدو قديسة، وابتاعت مسابح، وحملت الأحراز والتماثيل، ورغبت في أن يوضع في حجرتها -إلى جوار سريرها- صندوق للذخائر القدسية، مرصع بالياقوت، لتقبله في كل ليلة.

وانتشى القس بهذه الروح، وإن خال أن تدين «إيما» قد ينتهي -لفرط حمسها- إلى التخييط بين البدع والمغالاة. وإذا لم يكن على تفقه كبير بهذه الأمور، فقد بادر بمجرد تجاوزها حداً معيناً، بالكتابة إلى السيد «بولار» -بائع كتب المطران- يسأله أن يوافيه بما «يصلح لسيدة جمة الذكاء». وفي غير اكتراث -كما لو كان يرسل سلعا لزنوج- حزم المكتبي كل الكتب الدينية التي كانت مقروءة إذ ذاك، دون تمييز، فإذا هي بعض الكتب الموجزة لتعليم الدين عن طريق الاسئلة والإجابات، وبعض النشرات التي كتبت بأسلوب متهجم على طريقة «مسيو دي ميستر»، وبعض روايات ذات أغلفة وردية، واسلوب معسول، من وضع رجال الاكليريوس الشعراء الفرسان، أو التائبين ذوي الجوارب الزرقاء. فكان بينها: «فكر في هذا جيداً»، و«رجل الدنيا عند قدمي مريم، بقلم السيد...، مزينا ببعض الدرجات الكهنوتية»، و«أغلاط فولتير، ليفيد منها الشباب» الخ. ولم يكن ذهن مدام بوفاري قد صفا إلى الدرجة التي تجعلها تعكف جادة على أي شيء، فضلاً عن أنها بدأت قراءة هذه الكتب في عجلة لا تسمح باستيعابها. فسرعان ما ضايقها فقه أصول

الدين، وساءتها حدة المؤلفات الجدلية، لامعائها في مهاجمة أناس لم تكن تعرف عنهم شيئاً. أما القصص الدنيوية الموضوعة لأغراض دينية، فقد لاح لها أن تأليفها قام على جهل بالدنيا؛ حتى أنها جعلت تنفر من الحقائق التي وضعت لإثباتها؛ ولكنها -مع ذلك- واطّعت على القراءة. وكانت -إذا انزلق الكتاب من يدها- تتوهم نفسها وقد قملكتها أرق ألوان الأسى الكاثوليكي التي يمكن أن تصل إليها روح متسامية.



أما عن ذكرى «رودولف» فقد طوحت بها إلى قاع قلبها، فظلت هناك أكثر جلالاً وجموداً من موميا ملك في مقبرة أثرية! كان يتصاعد من هذا الغرام المحنط عبير يتخلل كل شيء، ويعبق بالحنان ذلك الجو القدسي الذي كانت تصبو إلى أن تعيش فيه. وكانت إذا ركعت في مركعها الذي صنع على الطراز القوطي، وجهت إلى الرب عين الكلمات الوالهة التي كانت تتمتم بها فيها مضى إلى حبيبها، في فوارت مجونها. كانت تفعل ذلك لتجذب الايمان، ولكن شيئاً من المباح لم يكن يهبط عليها من السماء، فكانت تنهض وقد أضنى الركوع أطرافها، وتولاها شعور غامض بأنها مغبونة إلى درجة هائلة. وكانت ترى أن هذا السعي وراء الايمان ليس سوى فضيلة واحدة من الفضائل، فأخذت في عنفوان زهوها بولاتها وتقواها، تقارن نفسها بأولئك السيدات الجليلات اللاتي عشن في الماضي البعيد، واللاتي كانت تحلم بمجدهن إذا ما رأّت لوحة من لوحات «لافايير»، واللاتي كن يجبرن أذيالهن الموشاة بالدانتيل، في جلال عارم، ومن يأوين إلى خلواتهن ليرقن على قدمي المسيح دموع قلوبهن التي جرحتها الحياة!

وتحولت بعد ذلك تكرس نفسها لعمل الخير على نطاق واسع. فكانت تخطط الثياب للفقراء، وترسل الوقود للنسوة اللاتي في المخاض. ووجد «شارل» -عند عودته إلى البيت ذات يوم- ثلاثة من الأفاقين جالسين إلى المائدة في المطبخ يتناولون الحساء. وأمرت باستعادة ابنتها -التي كان زوجها قد أرسلها ثانية إلى المريبة أبان مرضها- إذ رغبت في أن تعلمها القراءة. ولم تعد تضيق بكثرة بكاء «بيرت»، فقد وطنت نفسها على التسامح والرحمة الشاملين. وأصبح حديثها عن كل شيء مليئاً بالمصطلحات المثالية، فكانت إذا سألت ابنتها عن حالها، قالت: «هل فارقك المص، يا ملاكي؟». ولم تعد مدام بوفاري الأم تجد ما تنتقده اللهم سوى ذلك الانصراف التهوسي إلى نسج السترات لليتامى بدلا من أن ترتق بياضات منزلها. ولكن النزاع العائلي كان قد أضنى العجزو الطبية، فراق لها هذا البيت الهادئ، حتى لقد مكثت إلى ما بعد عيد الفصح، فراراً من سخریات «بوفاري» المسن الذي لم يتخل قط في يوم الجمعة البيتمة عن طلب سجن من أمعاء الخنزيرا



والى جانب صحة حمايتها، التي قوت من عزيمتها بعض الشيء بصواب آرائها، ورزانة أساليبها، أصبحت «إيما» تستقبل كثيراً من الزائرات في كل يوم تقريباً، وكانت من هؤلاء مدام لانجلوا، ومدام كارون، ومدام دوبروى، ومدام توفاش. وفيما بين الساعة الثانية والساعة الخامسة من بعد الظهر - بانتظام - كانت تستقبل مدام «هوميه» الفاضلة، التي لم تصدق قط - من ناحيتها - شيئاً من النعمة التي كانت تقال عن جاريتها؛ وكان أبناء «هوميه» يأتون أيضاً لزيارتها، يصحبهم «جوستان»، فكان يصعد معهم حتى مخدعها، ويظل واقفاً بجوار الباب، لا يحير حراكاً، ولا ينبس ببنت شفة، حتى لقد كانت مدام بوفاري كثيراً ما تشرع في زينتها، غير عابئة به. وكانت تبدأ بتناول مشطها، فتعز شعرها بحركة سريعة. وعندما رأى للمرة الأولى كل ذلك الشعر الغزير الذي انسدل إلى ركبتيها في خصلات سوداء، خيل للفتى المسكين أنه وقف فجأة على شيء جديد، غريب، أدهبه بهاؤه!

ولاشك في أن «إيما» لم تكن تلاحظ اهتمامه الصامت، ولا تهيبه الخجل، فما خطر ببالها أن الحب الذي تلاشى من حياتها كان قائماً ينبض إلى جوارها، تحت القميص الخشن، في ذلك القلب المراهق الذي تفتح على عبير جمالها؛ ثم أنها أصبحت تلف كل شيء بغلالة من عدم الاكتراث، فغدت لها تعبيرات رقيقة متلطفة، تصحبها نظرات متكبرة مترفعة، وأساليب متناقضة من هذا القبيل، تجعل المرء عاجزاً عن أن يميز فيها بين الأثانية والخير، وبين الفساد والتقوى. ففي ذات مساء - مثلاً - غضبت من الخادم التي طلبت الإذن بالخروج. وتلعثمت حين همت بأن تنتحل عذراً. وفجأة، سألتها «إيما»: «إذن فأنت تحبينه؟» واستطردت دون أن تنتظر رداً من «فيليسيتيه» - التي تضرع وجهها حياء: «هيا، اجري، متعي نفسك!».

وأمرت - في مطلع الربيع - بأن تقلب أرض الحديقة من أولها لآخرها، رغم معارضة «بوفاري». على أنه اغتبط - مع ذلك - إذ رآها أخيراً تبدي رغبة، أيا كانت هذه الرغبة! وأخذت كلما ازدادت قوة، تبدي مزيداً من العناد والصلابة، فبدأت بانتهاز فرصة لطرده الأم «روليه» - المريبة - التي كانت خلال نقاهتها قد اعتادت الاكثار من التردد على المطبخ مع الرضيعين والصغار الذين في حضانتها، والذين أوتوا أسناناً تفوق أسنان أكلة البشر؛ ثم تخلصت من زيارات أسرة «هوميه»، وسرحت الزائرات الأخريات تبعاً، بل وغدت أقل مثابرة على التردد على الكنيسة، مما تحمس الصيدلي لتحبيذه، فقال لها في لهجة ودية: «لقد كنت موشكة أن ترتدي المسوح!» على أن الأب «بورنيسيان» ظل يتردد عليها يومياً - كعادته من قبل - بعد أن يفرغ من تلقين الدين لتلاميذه الصغار. وكان يؤثر البقاء خارج جدران البيت، ليستنشق الهواء في «البيستان» كما كان يسمى الخميلة، وكان هذا موعد عودة «شارل» إلى البيت. وحين كانا يشعران بالحر، كان يؤتي بشراب التفاح الخفيف، ويشربان معا نخب اكتمال شفاء السيدة.

وكان «بينيه» يحضر هذه الجلسات، أو بالأحرى، كان يصيد السمك، على مسافة بسيطة من سياج الحديقة، فيدعوه «بوفاري» إلى كأس، وكان خبيراً بفض سدادات القنينات المصنوعة من الفخار، فيقول وهو يلقي نظرة راضية على كل ما حوله، إلى آخر أطراف المنظر: «يجب أن تمسك الزجاجاة في وضع رأسي على المنضدة، وبعد أن تقطع الخيوط، أضغط السدادة إلى أعلى، في دفعات بسيطة، في رفق، وشيئاً فشيئاً، كما يفعلون في المطاعم لفض سدادات زجاجات المياه المعدنية».

لكن شراب التفاح كثيراً ما كان يندفع -خلال هذا الشرح- متناثراً على وجوههم، فلم تكن النكتة تفوت رجل الدين قط، بل كان يقول وهو يطلق ضحكة غليظة: «إن جودته تنفّز إلى البصر». كان رجلاً طبيباً، فلم يستنكر ما نصح به الصيدلي شارل -ذات يوم- من أن يتيح لزوجته شيئاً من الترويح يسليها، بأن يصحبها إلى المسرح في (روان) ليسمعها المغني الشهير «لاجاردى»، ودهش «هوميه» لصمت القس، فأراد أن يعرف رأيه، وإذا ذاك صرح القس بأنه يرى الموسيقى أقل خطراً على الأخلاق من الأدب. غير أن الصيدلي انبرى يدافع عن الأدب، فقال: «إن المسرح يعمل على محاربة الخرافات والأباطيل، وإنه يدعو إلى الفضيلة من تحت ستار اللهو. ومضى يقول: «إنه يقوم العادات عن طريق الضحك يا سيد بورنيسيان! ألا تأمل الدور الجليل الذي لعبته مسرحيات «فولتير»، لقد رصعت بالأفكار الفلسفية ببراعة، مما جعلها مدرسة يتلقى عنها الشعب الأخلاق والديبلوماسية».

فقال «بينيه»: لقد شهدت مرة مسرحية كان اسمها «فتى باريس»، ترى فيها شخصية ضابط كبير مسن، يضرب ضرباً مبرحاً، إذ يتشاجر مع شاب مدلل أغرى عاملة، أقدمت في النهاية...»، فقاطعة «هوميه» مواصلاً حديثه: «من المؤكد أن ثمة أدباً سيئاً، كما أن هناك صيدلة سيئة، ولكني أرى أن اتهام أهم الفنون الجميلة -في مجموعة- بالفساد، بلاهة، تعصب أعمى يليق بذلك العصر البغيض الذي قضى فيه على «جاليليو» بالسجن». فقال القس معارضاً: «إنني أعرف تماماً أن هناك مؤلفات طيبة، ومؤلفين طيبين، ولكن، لو أن الأمر اقتصر على تلك الشخصيات من الجنسين المختلفين، تجتمع في غرفة فاتنة، مزينة بأسباب الترف الدنيوية، وتلك الأصوات الناعمة، فإن كل هذا لابد أن يؤدي على طول الزمن إلى شيء من الفجور الذهني، ويثير أفكاراً بعيدة عن الحشمة، واغراءات غير طاهرة. هذه، على أية حال، فكرة رجال الدين جميعاً». ثم أردف وقد اتخذ فجأة لهجة رجل الدين، وهو ينسق على إبهامه قبضة من السعوط: «وأخيراً، إذا كانت الكنيسة تستنكر المسرح، فلا بد أن لديها ما يبرر ذلك، وعلينا أن نرضخ لأوامرها» فتساءل الصيدلي: «ولماذا تقضى الكنيسة على الممثلين بالحرمان، في حين أنهم كانوا فيما مضى يساهمون جهرًا في الطقوس الدينية؟ أجل كانوا يمثلون ويقدمون في قلب المحراب أنواعاً من التهريج اسموها أسراراً، وكانت قوانين الحشمة والحياء كثيراً ما تنتهك فيها» واكتفى رجل الكنيسة بأن بعث أنينا خافتاً، بينما مضى الصيدلي يقول: «كذلك الحال في

التوراة، فهناك، كما تعلم، أكثر من رواية شائكة، عن أشياء، فى الواقع، خليعة! وإذ صدرت من الأب «بورنيسيان» حركة منفعلة، قال: «آه! إنك ولا بد تقر بأنه كتاب ينبغي أن لا يوضع بين يدى فتاة صغيرة.. ولسوف يغضبني أن «أتالي»...». فصاح الآخر وقد نفذ صبره: «ولكن البروتستانت - لا نحن - هم الذين يفرضون التوراة».

فقال «هوميه»: «هذا لا يهم، إنني لأدهش إذ أرى في أيامنا هذه، في عصر النور، من لا يزال يصر على أن يلعن - دون تبصر - وسيلة من وسائل الترويح الذهني، لا ضرر منها، وإنما هي خلقية، بل وصحية أحياناً، أليس كذلك يا دكتور؟» فأجاب الطبيب في غير اكتراث - إما لأنه كان يعتقد الرأى ذاته ولم يشأ أن يغضب أحداً، أو لأنه لم يكن على رأى البتة: «بلا شك!» ولاح أن النقاش أوشك أن ينتهي، عندما راق للصيدلي أن يطلق سهماً أخيراً من جعبته، فقال: «إنني لأعرف قساوسة يرتدون الثياب العادية، ليسعوا إلى رؤية الراقصات وهن يحركن سيقانهن!» فقال القس: «كفى، كفى!» فعاد «هوميه» يكرر: «أجل عرفت بعضهم!»، ثم ردد العبارة. مفرقا كلماتها: «عرفت، بعضهم!» فقال «بورنيسيان»، موطناً نفسه على أن يسمع أسوأ ما في الأمر: «فليكن، لقد كانتا على خطأ!» وصاح الصيدلي: «لعمري، إنهم ليأتون ما هو أكثر من هذا!»، فأجاب رجل الكنيسة: «سيدي!»، وتبدى في عينيه غضب أدهب الصيدلي، فقال في لهجة أقل قسوة: «إنما قصدت أن أقول إن التسامح هو أضمن الطرق لاجتذاب الناس إلى الدين». فأجاب الرجل الصالح: «هذا حق! هذا حق!» وعاد يجلس في مقعده، ولكنه لم يمكث سوى لحظات قلائل.

وما أن انصرف، حتى قال السيد هوميه للطبيب: «هذا ما يسمى صراع الديكة! لقد مرغته في الهزيمة، كما رأيت! على أية حال، صدقني وأصطحب السيدة إلى المسرح، ولو لتغيظ مرة في حياتك واحداً من هؤلاء الغربان المتناكيد! لو أنني وجدت من يقوم بعملتي، لصحبتكما بنفسى! ولا تضيعا الوقت، فإن «لجاردي» لن يقيم سوى عرض واحد، لأنه متعاقد في المجتلترا لقاء اتعاب ضخمة. إنه - على ما يؤكدون - يطير إلى حيث يكون المال! إنه ليتمرغ في الذهب! ولسوف يصحب معه ثلاث عشيقات وطاهية! إن هؤلاء الفنانين الكبار جميعاً يوقدون الشمعة من طرفيها، فهم يسعون إلى حياة داعة تمشى بعض الشيء مع خيالهم، حتى إذا حان أجلهم، ماتوا في المستشفيات لأنهم لم يؤتوا من التعقل في شبابهم ما يوحى إليهم بالادخار والاقتصاد! الآن، طاب عشاؤك، وإلى الغدا».



أخذت فكرة المسرح تختمر سريعاً في رأس «بوفاري»، فبادر بنقلها إلى زوجته، التي رفضت في البداية، متعللة بالتعب والخور والنفقات. ولكن «شارل» - على غير عادته - لم يتراجع. فقد قدر أن هذا النوع من الترفيه سيكون عظيم النفع، ولم ير ما

يحول دونه، إذ كانت أمه قد أرسلت لهما ثلاثمائة فرنك لم يكن شديد الحاجة إليها بعد أن قلت ديونه الجارية، كما أن موعد استحقاق سندي «لوريه» كان بعيداً بحيث لا تدعو الحاجة إلى التفكير فيهما في الوقت الراهن. هذا فضلاً عن أنه توهم أن «إيما» كانت ترفض من قبيل المجاملة أو الاشفاق، فازداد اصراراً، حتى انتهت إلى أن لا خلاص من إلحاحه إلا بالقبول. من ثم رحلا في الساعة الثامنة من اليوم التالي، مستقلين «العصفورة»، وتنهذ الصيدلي إذ رآهما يتحركان، فما كان ليبقيه في (ايونفيل) سوى شعوره بأن ليس في وسعه أن يتزحزح عنها. وقال لهما: «هيا، رحلة طيبة أيها السعيدان!» ثم خاطب «إيما» -التي كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأزرق ذا أربع ثنيات- قائلاً: «إنك لتبدين في جمال آلهة الجمال، وما أحسبك إلا ستبهرين روان!».

ونزلا في فندق «الصليب الأحمر» بميدان (بوفوازان). وكان ككل فنادق الريف، ذا حظائر كبيرة، ومخادع صغيرة، وتسرح الدواجن في فنائنه ملتقطة الحب من تحت حواف عربات التجار المتجولين، الملطخة بالوحل. كان بيتا عتيقاً، ينخر السوس شرفاته التي كانت تبعث صريراً إذا ما هبت الريح في ليالي الشتاء، وكان يحفل دائماً بالناس والضجة، والأكليين وكانت موائد الفندق السوداء ملطخة ببقع القهوة والخمر، وقد استحال لون زجاج نوافذه السميك إلى الصفرة من أثر الذباب، وتندت المناشف التي يقدمها لنزلاته بالنبيذ الرخيص، ففاحت منها روائح الريف، ويدت كملايس أهل المدن التي يرتديها عمال الزراعة في أيام الأحاد كما كان به مقهى يطل على الشارع، وألحقت به -من ناحية الحقول- حديقة زرعت بالخضر. وبادر «شارل» لتوه إلى المسرح، ليحجز مقعدين، فراح يخلط بين المقاعد الأمامية ومقاعد «الصالة»، وبين «البلكون» و«الألواج» واستفسر فلم يفهم، وأحيل من نافذة الحجز إلى مدير المسرح، ثم عاد إلى الفندق، ورجع ثانية إلى المسرح! وهكذا اجتاز البلدة بطولها عدة مرات، من المسرح إلى الميدان، أما زوجته، فابتاعت قبة وقفازين وباقة ورد. وكان السيد في خوف شديد من أن تفوتهما بداية العرض، فلم يضيعة وقتاً في احتساء قدح من الحساء، وكانت النتيجة أن وصلا إلى أبواب المسرح وهي مازالت بعد مغلقة!

الفصل الخامس عشر

كان الناس يستندون إلى جدران المسرح في الانتظار، وقد اصطفوا بين السياجين القائمين عند المدخل. وعند نواصي الشوارع المجاورة كانت لوحات الإعلان الضخمة تحمل بحروف ملتوية زخرفية: «لوسي دي لامرمر، لا جاردى، أوبرا، الخ». وكان الجو بديعاً، ولكن الناس ما لبثوا أن شعروا بالحر، فأخذ العرق يسيل بين غدائر شعور النساء، وظهرت المناديل من جيوب الرجال لتجفف الجباه المحمرة. وكانت تهب من النهر بين آن وآخر نسمة حارة، فتزهق في رفق اللافحات المعلقة عند أبواب الحانات. ومع ذلك، وعلى مسافة بسيطة، كان المرء يجد تياراً بارداً يتعشه، معباً بروائح الشحم والجلد والزيت، روائح شارع «ديه شاريت» المليء بالخوانيت السوداء الكبيرة، حيث تصنع البراميل.

وخشيت «إيما» أن يثير وقوفهما الضحك، فرغبت في أن تتمشى في الميناء، قبل دخول المسرح. ولكنهما ما لبثا أن ولجا المسرح، فأخذ قلب «إيما» يخفق بمجرد أن بلغا البهو وابتمست في زهر -على الرغم منها- إذ رأت الجمهور يتدافع يميناً خلال ردهة أخرى، بينما كانت تصعد درجات السلم إلى مقعديهما المحجوزين. وابتهجت في غبطة الطفل وهي تحسس بأصابعها الباب المبطن بالسجاد، واستنشقت بكل قوتها العبير الممتاز بالغبير المتزوج بالغبير المتصاعد من الردهات، حتى إذا جلست في مقصورتها، مالت إلى الأمام في بساطة كما لو كانت إحدى الدوقات! وأخذ المسرح يمتليء، وأخرجت منظر الأوبرا المقربة من حافظاتها، وأخذ أصحاب المقصورات المحجوزة طوال الموسم يتبادلون النظرات والتحيات. لقد جاؤا يشدون في الفنون الجميلة ترويحاً، بعد مشاغل «البورصة»، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينسوا العمل، فظلوا يتحدثون عن الأقطان، أو الخمور، أو النيلة (المادة التي تستخدم في الصباغة). وكانت وجوه الكهول ترى خالية من أي تعبير، تعلوها سكينه مطمئنة، وقد بدوا بشعورهم الفضية وبشراحتهم كالأيقونات، أو الميداليات الفضية التي تعرضت لبخار القصدير وكان الشبان المتأنقون يجوسون خلال «الصالة»، يعرضون -خلال فتحات صداريهم- ربطات العنق الوردية، أو تلك التي في لون التفاح الأخضر. وكانت مدام «بوفاري» تتبعهم في أعجاب -من عل- وهم يتكئون على عصيهم ذات المقابض الذهبية التي تبرز خلال أيديهم المكسرة بالقفزات الصفراء.

وما لبثت مصابيح مقصورة الفرقة الموسيقية أن أضيئت، وكانت إحدى الثريات تتدلى من السقف، ناشرة بتألق جوانبها بهجة مفاجئة على المسرح. ثم أقبل الموسيقيون واحداً بعد آخر، وسمع في البداية ضجيج النغمات الغليظة من «الكمنجات» الكبيرة، ثم الأنغام الرفيعة من «الكمنجات» العادية، ودوى الأبواق، وصغير الناي والمزمار. على أنه لم تلبث أن انبعثت على منصة المسرح ثلاث دقات، فأرسلت الطبول دقات متتابعة، وصدرت

بعض الحان من الآلات النحاسية، ثم رفعت الستار، فكشفت عن منظر ريفي: ملتقى طرق في غابة، وناقورة -إلى اليسار- تظللها شجرة بلوط، وفلاحين، وسادة تعلو اكتافهم أشرطة، ويرددون معا إحدى أغنيات الصيد. ثم ظهر فجأة قائد رفع يديه إلى السماء، يستعين بروح الشر، وما لبث أن ظهر شخص آخر، فانصرفا معاً، وعاد الصيادون من جديد!



وشعرت «إيما» بنفسها ترتد إلى ما كانت تقرأ في صباحها، إلى غمار قصص «ولتر سكوت»، وخيل إليها أنها تسمع خلال الضباب أنغام موسيقى القرب الاسكتلندية، تتردد فوق المرج. ثم ساعدها تذكر الرواية على أن تفهم ما كان يجري على المسرح، فراحت تتتبع القصة عبارة بعد عبارة، بينما بددت الموسيقى في الحال الأفكار المبهمة التي روادتها، وأطلقت نفسها مع الألحان الرخيمة، فخيل إليها أن كيانها يتذبذب، كما لو كانت أقواس «الكمنجات» تجرى على أعصابها! ولم تكن عيناها تسعفانها لتحيط بكل الأزياء، والمناظر والممثلين، والأشجار المرسومة التي كانت تهتز إذا اقترب منها أحد، والقلنسوات المخملية، والأوشحة، والسيوف، وكل تلك الأشياء الخيالية التي راحت تطفو مع الأنغام المنسجمة وكأنها تحلق في جو عالم آخر. وما لبثت أن ظهرت امرأة شابة، وهي تلقي كيساً إلى فارس في زي أخضر، ثم بقيت وحيدة، وسمع الناي يرسل أنغاماً كخزير الناقورة، أو تغريد العصافير، وعزفت «لوسي» على قيثارتها نغماً عالياً، وأخذت تشكو الهوى، وتتوق إلى جناحين. وتمنت «إيما» بدورها أن تنطلق كذلك طائراً! وفجأة ظهر «ادجال لاجاردى» كان على شيء من ذلك الشحوب البديع الذي يخلع رواء الممر على أبناء الجنوب النشيطين. وكان صدره البادي الفتوة يحتويه صديري محكم الالتفاف، ذو لون بني، وقد تدلى على فخذة الأيسر خنجر صغير ذو نصل عريض. وراح يجول بنظراته فيما حوله وهو يبتسم، كاشفاً عن أسنان بيضاء. كان يقال أن أميرة بولندية سمعته ذات ليلة يغني على شاطئ بياريتز، حيث كان يصلح القوارب. فتدلته في هواه، وأفست حياتها على نفسها من أجله، ثم هجرها هو من أجل نساء أخريات! ولم تؤد هذه السمعة العاطفية إلا إلى إذكاء شهرته الفنية، حتى لقد اعتاد هذا الماजन الواسع الحيلة أن يدس دائماً في اعلاناته بعض عبارات شاعرية عن فتنة شخصه، وإرهاق عواطفه. كان فن هذا الدجال الرائع نتاج صوت عذب، وهذوء وصين، ووليد مزاج أكثر منه ذكاء، وإلقاء أكثر منه غناء، وقد خلقت له هذه الصفات طبيعة فاتنة، يشوبها شيء من طباع الحلاق ومصارع الثيران!

ومنذ الفصل الأول ألهم المشاعر، إذ ضم «لوسي» بين ذراعيه، ثم أفلتها، وبدا قانطاً، وانتابته فورات من الغضب، وراح يصدر أهات حزينة لا حد لعدويتها، وكانت الأنغام المناسبة من حلقة زاخرة بالهنهة والقبلات، ومالت «إيما» إلى الأمام لتراه، وهي

تتشبث- بأظافرها- بالمخمل الذي يكسو المقصورة، كانت تملأ فؤادها بهذا الغناء الحزين الذي صحبته أنغام من الكمان الكبيرة، بدت كأنها صرخات غريق في عنفوان الأنواء، وتذكرت كل النشوة وكل الشجن للذين كادا يقتلاتها، ولاح لها أن صوت المثلثة الأولى لم يكن سوى أصدقاء نفسها، وأن هذا التمثيل الذي أشجأها لم يكن إلا قطعة من صميم حياتها. ولكن أحدا في الدنيا لم يولها مثل هذا الحب، لم يبك كما بكى «أدجار»- الممثل الأول- في الليلة المقمرة الأخيرة، وهو يودع حبيبته واهتزت أرجاء المسرح بالهتاف، فأعيد المشهد من جديد، وراح العاشقان يتحدثان عن الزهور التي يتمنيان أن تظل قيرهما، وعن العهود، والبعاد، والقدرة، والآمال، حتى إذا تبادلوا الوداع الأخير، ندت من «إيما» صرخة حادة، ضاعت في ضجيج الأنغام الأخيرة، فتساءل بوفاري: «عجباً، هل ظلمها ذلك السيد؟» فأجابت إيما: «لا، لا، إنه حبيبها»

- ولكنه يقسم أن ينتقم من أسرتها، في حين أن السيد الآخر الذي ظهر قبله كان يقول: «إنني أحب لوسي، وهى تحبني» كما أنه خرج متأبطاً ذراع أبيها، إذ لا بد أن ذلك الرجل الضئيل الجسم، القبيح الوجه، والذي يضع ريشة في قبعته، هو أبوها؟ وعلى الرغم من ايضاحات إيما لموضوع المسرحية، فإن شارل لم يكذب يرى خاتم الخطبة الزائف الذي أعد لخداع «لوسي» - عندما راح «جلبير» يشرح لمولاه «اشتون» مناوراته الخبيثة - حتى ظن أنه هدية غرامية أرسلها «أدجار». بل لقد صرح -فوق ذلك- بأنه لم يفهم القصة لأن الموسيقى كانت تغطي على الكلام كثيراً. فقالت «إيما»: «وما قيمة هذا؟ إلزم الصمت» فقال وهو يميل على كتفها: «إنما أحب أن أفهم ما يجري كما تعلمين».

فصاحت في ضيق: «اسكت! أسكت!»

وتقدمت «لوسي»، تكاد وصيفاتها يحملنها، وفي شعرها إكليل من زهور البرتقال، وقد كاد شحوبها يغلب على بياض ثوبها الحريري. وتذكرت إيما يوم زفافها، وتثلثت نفسها ثانية في قريتها، بين حقول القمح التي كانت تحف بالطريق الذي ساروا فيه إلى الكنيسة. آه، لم لم تقاوم وتتوسل كهذه المرأة؟ لقد كانت -على العكس- مغتبطة، لا تبصر الهوة التي كانت تلقى بنفسها فيها. آه! لو أنها استطاعت في نضارة شبابها -قبل أدران الزواج، وقبل أن تتبدد الآمال التي عقدتها على علاقتها الفاسقة برودولف- أن تقيم حياتها على قلب كبير قوي، لامتزجت الفضيلة، والفجور، والحنان، والواجب، في حياتها، ولما هوت من مثل هذه الهناء الرفيعة!

على أن هذه الهناء ولا بد أكلوبة موهومة لكبح كل شهوة. لقد أصبحت تدرك مدى ضآلة العواطف التي يبالغ الفن في تصويرها. ومن ثم أخذت تجاهد لتتحول عن أفكارها، وقد قررت ألا ترى في هذا التمثيل -الذي يصور لها أشجانها- أكثر من إنتاج تصويري يتمتع الأبصار. حتى أنها لم تلبث أن ابتسمت في رثاء مترفع حين رأت، تحت الستائر المخملية في مؤخرة المسرح، رجلاً في معطف أسود، سرعان ما سقطت قبعته الاسبانية

العريضة الخواف بحركة من يده. وفي الحال، انطلقت الانغام العالية من الآلات الموسيقية ومن المغنين، فاستشاط «ادجار» غضباً ورفع عقيرته بالغناء، فطغى صوته الجمهوري على الجميع. فانبهرى له «اشتون» بعبارات مثيرة، قاتلة، وأرسلت «لوسي» ضراعتها بصوت صارخ، وكان «آرثر» يؤدي دوره -على حدة- بصوت متوسط الجرس، بينما أنساب صوت القس خفيضاً كأنه الأرغن، فكانت أصوات النساء تردد كلماته في غناء جماعي بهيج.

كانوا جميعاً في شجار، وقد اختلطت اشاراتهم، بينما كان الغضب، والانتقام، والغيرة، والفرح، والذهول، تنبعث جميعاً في وقت واحد من أفواههم المفتوحة، وراح العاشق يلوح بسيفه المشهور، وزوائد «الدانتيل» التي توشى قميصه تهتز مع تهدج صدره، وقد أخذ يسير من اليمين إلى اليسار بخطى واسعة، وهو يدق الأرض بمهمازين قضيين ثبتا إلى حذاءيه الرقيقين. وخيل لإيما أن معين الحب لديه لا ينضب، والا ما راح يقدق منه على الجمهور يمثل هذه الطلاقة! وتوارت الأخطاء التافهة التي كانت تحصى عليها في التمثيل التي استولت على لبها. وأخذت تشعر بأن سحر شخصية ذلك الرجل يجتذبها إليه، وحاولت أن تصور لنفسها حياته، تلك الحياة المدوية، العجيبة، الرائعة، التي كان من الممكن أن تكون حياتها هي، لو أن القدر شاء فجعلهما يتعارفان، ويحب كل منهما الآخر، إنها إذ ذاك كانت تطوف معه بكل ممالك أوروبا، منتقلة من عاصمة إلى عاصمة، تشاطره التعب والمجد، وتلتقط الزهور التي تلقى عليه، وتوشى بأشغال ابرتها ثيابه، وتلوذ -في كل ليلة- بأحدى المقصورات، تعب في نهم انطلاقات روحه التي تتمثل في أغان يشدو بها لها وحدها، ويتطلع إليها وحدها، وهو يؤدي دوره على المسرح! وما لبث أن تملكته فكرة جنونية أوحى إليها بأنه يتطلع إليها بالفعل، بالتأكيد، وتاقت إلى أن تجري إلى أحضانه، وإن تأوى إلى قوته الفتية، وكان الحب قد تجسد في شخصه، وأن تقول له، بل تصيح فيه: «خذني بعيداً احملني معك! لئلا أرحل! أنت، أنت، كل وجدي وكل أحلامي!» وفي ذلك الوقت أسدلت الستار!



واختلط عبير غاز الاستصباح بالأنفاس، ولم تزد المراوح الجو إلا ثقلاً خانقاً، فرغيت «إيما» في الخروج، ولكن الناس كانوا يملأون الردهات، فنهالكت في مقعدها الوثير، وراحت أنفاسها تتعثر في حلقتها حتى كادت تخنقها. وخشى «شارل» أن يغمى عليها، فجرى إلى المقصف ليحضر لها كوباً من ماء الشعير، ووجد عناء شديداً في العودة إلى مقعده، إذ كان مرفقاه يصدمان في كل خطوة بسبب الكوب الذي كان يحمله، حتى أنه سكب ثلاثة أرباعه على منكبي سيدة من (روان) كانت ترتدي ثوباً قصير الكمين، فما إن أحست بالسائل البارد يجري إلى ردفها، حتى أخذت تصرخ كالطاووس، كما لو كانت تذيب! واندفع زوجها - وكان من أصحاب مصانع النسيج - إلى صاحبنا المرتبك، وبينما كانت

تمسح البقع عن ثوبها الأبيض المصنوع من نسيج من «التافتاه» في لون «الكريز»، راح يتحدث مغضباً عن الخسارة، والنفقات، والتعويض. وبلغ «شارل» مكان زوجته أخيراً، فقال وهو يلهث: «لعمري لقد خيل إلى أنني سأظل هناك يا للخلق، يا للحشد، أحدي من قابلت هناك السيد ليون»، فتهفت: «ليون» قال: «بالذات انه آت ليقدم تحياتها» وما ان أتم كلماته، حتى ولج المقصورة، الشاب الذي كان من قبل كاتباً في (ايونفيل)، فيسط يده بطريقه السيد المذهب الراقى، ويسطت مدام «بوفاري» يدها في حركة آلية، منصاعة لجاذبية أرادة قوية بلا شك. لم تكن قد مست يده منذ تلك الليلة من ليالي الربيع، التي سقط فيها المطر على أوراق الشجر الخضراء، وهما يتبادلان تحية الوداع لدى النافذة. على أنها ما لبث أن تذكرت مقتضيات الموقف، فطرحت عنها عبء الذكريات في جهد، وأخذت تتمتم متلعثمة، متعجلة، ببضع كلمات: «آه طاب يومك عجباً أنت هنا؟» وتصادعت من «الصالة» أصوات تصيح: «صمتاً»، إذ كان الفصل الثالث قد بدأ.

- إذن، فأنتما في روان؟

- أجل.

- ومنذ متى؟

وأخذ الناس يتطلعون نحوهم، وصاحت أصوات: «أخرجوهم! أخرجوهم!»، فلاذوا بالصمت. بيد أن «إيما» لم تعد تسمع شيئاً منذ تلك اللحظة، كانت أغاني المدعويين لحفلة الزفاف (في الرواية)، والمشهد الذي جرى بين «أشتون» وخادمه، والمشهد الغنائي الكبير، كل هذه كانت بعيدة عن سمعها، وكأنما كانت الآلات الموسيقية تزداد خفوتاً، والممثلون يزدادون نأياً. وتذكرت لعب الورق في دار الصيدلي، والسعي إلى دار الموضة، والقراءة في الخميلة، والأحاديث الخافتة إلى جوار المدفأة، كل هذا الحب البائس، بما كان يتصف به من هدوء، وتردد طال أمده، وتعقل وتكنم، ورقة وحنان، ومع ذلك فقد نسيت! ولماذا عاد الشاب؟ أية ظروف تجمعت لتعيده إلى حياتها؟ وكان هو يقف خلفها، مستنداً بكتفه إلى جدار المقصورة، فأخذت تحس - بين أن وآخر - برجفة تحت الأنفاس الحارة التي تنساب من أنفه إلى شعرها، وانحنى مقترباً منها، حتى مست ذؤابة شاربه خدها، وسألها: «أو يروق لك هذا؟» فأجابت في غير اكتراث: «آه يا الهي! لا! لا يروق كثيراً» وإذ ذاك اقترح أن يخرجوا من المسرح، وأن يذهبوا إلى أى مكان فيتناولوا بعض المثلجات، فقال «بوفاري»: «لا، لم يحن الوقت، فلنمكث! إن شعرها غير منسق، إن هذا الفصل يوحي بالمأساة!»

على أن الفصل «الحافل» لم يلد لإيما على الإطلاق، ولاح لها تمثيل المطربة مليثا بالمغلاة، فقالت وهي تلتفت إلى «شارل» الذي كان منصرفاً للصغاء: «أنها تصرخ بصوت مرتفع»، فأجاب وهو موزع بين رضائه عن التمثيل وبين احترامه لرأي زوجته: «أجل بعض الشيء»، وما لبث «ليون» أن قال وهو يزفر: «إن الحر...»، فأكملت «إيما» عبارته: «لا يطاق، حقاً» فسألها بوفاري: «هل تضايقت؟» أجابت: «أجل إنني أختق، لننصرف!»

وطرح السيد «ليون» على كتفها -برفق- الشال الطويل المصنوع من «الدانتيل»، وخرج ثلاثتهم ليجلسوا في هواء الميناء الطلق، خارج الواجهة الزجاجية لأحد المقاهي وتحدثوا في البداية عن مرض «ايماء»، وإن راحت هي تقطع على «شارل» الحديث من أن لآخر، خشية أن يثقل على السيد «ليون». وقال لهما هذا إنه جاء ليقضى عامين في (روان)، في مكتب كبير ليحظى بمزان متين، تأهباً لممارسة مهنته، نظراً لأن القضايا في (نورماندي) كانت تختلف عما يدرس في باريس. ثم سأل «ليون» مدام بوفاري عن «بيرت»، وآل «هوميه»، والألم «لوفرانسوا». وما لبث الحديث أن توقف، إذ لم يعد لديهما مزيد من الكلام الذي يستطيعان أن يتبادلاه في حضور الزوج! ومر على الرصيف بعض من كانوا في المسرح، وهم يترنمون في خفوت، أو بأعلى أصواتهم بأغنية: «أواه يا ملاكي الجميل... يا حبيبتي لوسي»! إذا ذاك تحول «ليون» إلى الحديث عن الموسيقى ليوحي بأنه يهاوها. كان قد رأى «تامبوريني»، و«روبيني»، و«برسياني»، و«جيسي»، وقال إن «لا جاردى» رغم تألقه لا يقارن بهم. فقاطعه «شارل» -الذي كان يرشف شرابه في بطة قائلا: «ومع ذلك، يقال إنه في الفصل الأخير أروع ما يكون، إنني لأسف إذ انصرفت قبل النهاية، لأن التمثيل كان قد بدا يذل لي». فقال الكاتب: «اطمئن، فلسوف يقيم حفلة أخرى قريباً». ولكن «شارل» قال إنهما راجعان في غدهما، ثم استدرك متلفتاً إلى زوجته: «اللهم إلا إذا شئت أن تبقي وحدك يا قطيظتي!»

وبادر الشاب إلى تغيير أساليبه إزاء هذه الفرصة غير المرتقبة التي تتفق مع آماله، ومن ثم أخذ يسهب في إطراء دور «لا جاردى» في الفصل الأخير، قائلاً إنه خارق، راق. وإذا ذاك راح شارل يلح: «تستطيعين أن تعودى يوم الأحد، هيا، بتي في الأمر، إذا شعرت أن هذا يروق لك فمن الخطأ أن تترددي». وكانت الموائد حولهما قد بدأت تخلو، وأقبل ساق، فوقف بالقرب منهم متخرجاً، وبادر «شارل» -الذي أدرك سر وقوفه- فأخرج كيس نقوده، ولكن الكاتب رد ذراعه، ولم ينس أن يترك قطعتين من العملة الفضية -رنا على الرخام- فوق الحساب. فقال «بوفاري»: «إنني مستاء حقاً، لهذه النقود التي...» فأشار الآخر يسكته في ود، وتناول قبعته قائلاً: «اتفقنا، أليس كذلك؟ سنلتقي في السادسة من مساء غدا!» واعتذر «شارل» مرة أخرى -عن نفسه- بأنه لا يستطيع أن يطيل غيابه، ولكن لا شيء يمنع «ايماء». فقالت متلعثمة، وهي تبتسم ابتسامة غريبة: «ولكنني لست متأكدة...».

- لا بأس! يجب أن تفكري في الأمر! سوف نرى ما يكون، فالليل جلاب للآراء! ثم خاطب «ليون» الذي كان يسير معهما قائلاً: «أما وقد أصبحت في منطقتنا، فأمل أن تأتي لتتناول معنا العشاء بين وقت وآخر». فأكد الكاتب أنه لن يتوانى عن ذلك، لا سيما وأنه مضطر إلى الذهاب إلى (ايونفيل) لبعض مهام المكتب الذي يتدرب فيه. ثم افترقوا عند مر «سان هربلان»، وساعة الكاتدرائية تدق معلنة الحادية عشرة.

القسم الثالث

الفصل الأول

كان السيد «ليون» -خلال دراسة القانون- قد أكثر من غشيان مرقص الطلبة المسمى «لاشومبير»، حيث قدر له أن يظفر بنجاح كبير بين الفتيات اللاتي رأين في مظهره ما يميزه عن سواه. كان ألطف الطلبة مسلماً، وكان يقص شعره بحيث لا يده مسرفاً في الطول، ولا شديد القص. ولم يكن ينفق كل مصروفه في اليوم الأول من الشهر، كما كان على علاقات طيبة بأساتذته. أما عن التطرف في نزواته، فهذا ما كان يحجم عنه دائماً، جنباً منه وترفعاً في آن واحد. وكثيراً ما كان يمكث في غرفته للقراءة، كما كان كثيراً ما يترك كتاب القانون يهوى إلى الأرض -وهو جالس في بعض الأمسيات تحت أشجار الزيزفون في حدائق لوكسمبورج- حين تعاوده ذكرى «إيما»! على أن هذا الشعور لم يلبث أن تضاعف، وأخذت تعدو عليه شهوات أخرى، وإن ظل يتأرجح فوقها. فإن «ليون» لم يفقد كل أمل، بل ظل لديه في الواقع رجاء مبهم يطفو على صفحة المستقبل، كثمرة ذهبية تتدلى من شجرة خيالية، فلما رآها بعد غياب ثلاث سنوات، عاد وجده يستيقظ. وخطر له أن يعمل -أخيراً- على أن ينالها، لا سيما وأن حياة كان قد انجذب نتيجة اتصاله بزملائه المرحين، فعاد إلى الريف وهو يستصغر كل من لا يطأ أرض الشوارع بحذاءين لامعين!

وما كان ثمة شك في أن الكاتب المسكين كان يرتجف كالطفل، لو أتيح له أن يجلس إلى جوار امرأة باريسية أنيقة، في حجرة الجلوس بمنزل طبيب لامع أوتى أوسمة، وأوتى عربة. أما هناك، في (روان)، وعند الميناء، وأمام زوجة طبيب صغير، فقد شعر بأنه عزيز الجانب، وتأكد مقدماً من أن محبته لامع، فإن الثقة بالنفس تتوقف على الوسط الذي يوجد فيه المرء، ونحن لا نتكلم في الطابق الأول بعين اللهجة التي نتكلم بها في الطابق الرابع، والمرأة الغنية، تبدو وكأن أوراقها المالية تحوطها لتصون عنقها!

وعندما غادره «بوفاري» وزوجته، أقتفى خطاهما عن كذب خلال الطرقات، حتى إذا رآهما يلجان فندق «الطبيب الأحمر» نكص على عقبيه، وقضى الليل يفكر في خطته. فلما كان اليوم التالي، نفذ في نحو الساعة الخامسة إلى مطبخ الفندق، وقد شحب صدغاه وأحس بأنه يختنق، وإن قللكه ذلك العزم الذي يوانى الاندال الذين لا يتورعون عن شيء، وأجابه الخادم، إذ سأله: «إن السيد غير موجود». ورأي في هذا فالاً طيباً، فصعد السلم. ولم تنزعج «إيما» لمقدمه، بل إنها -على العكس- اعتذرت لكونهما غفلا عن إنبائه بالمكان الذي نزلا فيه، فقال: «آه، لقد حدسته بالتخمين!» وزعم أنه اهتدى إليها بالخط،

بالغريزة.. وبدأت تبتسم، تبادر -لإصلاح زلتة- إلى انبائها بأنه قضى النهار يطوف بفنادق البلدة جميعاً -واحداً إثر الآخر- سائلاً عنها. واستطرد قائلاً: «هل قررت البقاء»

قالت «أجل، واني مخطئة في ذلك. فما ينبغي للمرء أن يمنح نفسه متعاً مستحيلة، عندما يكون وراء ألف مطلب وعمل...».

- آه.. إنني أدرك.

- آه لا، لأنك رجل... .

- لكن للرجال -هم الآخرون- همومهم. واتجه الحديث بهما نحو بعض الأفكار الفلسفية. وراحت «إيما» تسهب في الحديث عن يؤس العواطف الدنيوية، والعزلة الأبدية التي يظل الفؤاد دفيناً فيها. ويدافع من الرغبة في التظاهر، أو لمجرد مساقرة هذا الأسى الذي أثار أساء، ذكر الشاب أنه كان يعاني ساءاً فظيماً طيلة دراسته. فكان القانون يثقل على نفسه، وكانت ثمة مهن أخرى تجتذبه، وكانت أمه لا تكف عن مضايقته في كل خطاب. وفي سياق حديثهما، أخذ كل منهما يزداد إفصاحاً عن بواعث أساء، ويضمنها هذا الاعتراف المطرد. على أنهما كانا في بعض الأحيان يمسان، إذ يوشكان أن يكشفوا في جلاء تام عن أفكارهما، ثم يسبعان مع ذلك إلى ابتكار عبارة لترجم تلك الأفكار. ولم تعترف «إيما» بأنها تعلقت بسواه، ولا قال «ليون» إنه نسيها، ولعله لم يعد يذكر عشا مع الفتيات بعد حفلات الرقص التنكرية، كما أنها لم تعد تذكر -بلا ريب- تلك اللقاءات الماضية، حين كانت تجري عبر الحقول في الصباح إلى بيت عشيقها. وكان ضجيج البلدة لا يكاد يصل إليهما، ولاحت الغرفة صغيرة، وكأن صغرها كان متعمداً ليقرب بين عزليتهما. وكانت «إيما» في ثوب من البفتة، وقد طوحت برأسها إلى مسند مقعد وثير عتيق، ورسم ورق الحائط الأصفر إطاراً ذهبياً خلفها، وانعكست صورة رأسها العاري على المرأة، وقد بدا مفرق شعرها أبيض، وبرزت حافتا أذنيها خلال ثنايا شعرها.

وما لبثت أن قطعت الصمت قائلة: «ولكن معذرة. من الخطأ أن أثقل عليك بشكاياتي الأبدية». فقالا «لا، أبداً، أبداً». قالت وهي ترفع عينيها الجميلتين إلى السقف وقد تفرقت فيهما دمة: «لو علمت كل ما كنت أحلم به!»

- وأنا! أواه. أنا الآخر تعذبت! كثيراً ما كنت أخرج، فأذهب بعيداً، وأجر نفسي على طول ضفة النهر، وأهيم في ضجيج الناس، دون أن أقوى على دفع العبء الذي يجثم على صدري. وفي حانوت حفار اختام في الطريق، عثرت على رسم إيطالي لإحدى الحوريات، متشحة بغلالة، وقد راحت تنطلع إلى القمر، والزهور تتخلل شعرها المسترسل، وكانت ثمة قوة خفية تدفعني إلى هناك باستمرار، حيث أقضى ساعات طوالا.

ثم أردف بصوت مرتجف: «كانت تشبهك قليلاً». فأشاحت مدام «بوفاري» بوجهها حتى لا يرى الابتسامة التي أحست بها تقفز إلى شفيتها دون أن تقوى لها دفعا. واسترد يقول: «وكثيراً ما كنت أكتب رسائل لا ألبث أن أمزقها». ولم تحجب، فواصل الحديث: «وكنت أخال أحياناً أن المصادفات قد تسوقك، فكنت أتوهم أنني ألمحك عند منعطفات الطرق، وكنت أجري وراء كل العربات التي ألمح خلال نوافذها شالاً أو قناعاً يشبهان ما

لديك!». وبدا أنها تنوي أن تدعه يتكلم دون أن تقاطعه، إذ عقدت ذراعها، ونكست رأسها، وراحت تتأمل نقوش خفيها، وتحرك أصابع قدميها داخلهما، بين وقت وآخر. وأخيراً، تنهدت قائلة: «ولكن الأدعى للأسى، هو أن تحمل عبء حياة لا جدوى منها، كما أفعل. أليس كذلك؟ لو أن آلامنا كانت تعود بالنفع على أحد، لوجدنا عزاء في فكرة التضحية». فانتطلق يطنب في امتداح الفضيلة، والواجب، والتضحية الصامتة، قائلاً: إنه يشعر برغبة جامحة للتضحية بالنفس، لا يدري كيف يشبعها!

وقالت إيمان: «لكم أتوق إلى أن أكون ممرضة في مستشفى!»، فقال: «وا أسفاه! ليس للرجل شيء من هذه المهام ذات القداسة، فلست أرى لها شبيهاً في مهنة، اللهم إلا مهنة الطب». فقطعت «إيمان» عليه حديثه بهزة خفيفة من كتفها، وتحولت تتحدث عن مرضها الذي أوشك أن يقضي عليها، وليته فعل، فإنها ما كانت لتعاني ما تعاني الآن من آلام، ويادر «ليون» يحسد القبر لهدوئه وسكينته، قائلاً: إنه كتب ذات ليلة وصيته، طالباً أن يكفن في تلك السجادة البديعة ذات الخطوط المخملية التي تلقاها منها مرة! وهكذا كانا يتمنيان أن تسير الأمور: كل منهما يقيم من نفسه مثلاً أعلى يحاول به إعادة تشكيل ماضيه ليتسق مع هذا المثل؛ فضلاً عن أن الحديث - كحجر المسن - يشحذ الشعور على أن «إيمان» لم تتمالك أن سالت عندما سمعت فرية السجادة: «ولماذا؟»، فقال في تردد: «لماذا؟ لأنني، لأنني أحبها». وغبط نفسه إذ اجتاز العقبة، وراح يرقب وجهها بنظرة مختلسة من ركن عينه. كان وجهها كالسما التي دفعت نسمة من ريح بعض السحب عن صفحتها، فإذا ركام الأفكار الحزينة الذي كان يرين على عينيها قد الحجاب، وإذا وجهها بأسره يشرق! وظل «ليون» يرتقب. وأخيراً، قالت: «كنت دائماً أحس هذا!»

ثم أخذاً يستعرضان كل الأحداث التافهة التي اكتنفت تلك الحياة الماضية، التي أجملاً أفرحها وأشجانها في كلمة واحدة. تذكر «تكعيبة» نبات «الداليا» الشوكي، والثياب التي كانت ترتديها، وأثاث حجرتها، والبيت بأسره.

- وشجيرات الصبار المسكينة، أين هي؟

- قتلها البرد في هذا الشتاء.

- آه، أتعرفين أنني كثيراً ما فكرت فيها! كنت كثيراً ما أثقلها كعهدي بها في الماضي، حين كانت الشمس في صباح أيام الصيف تطرق مصراعي نافذتك، وكنت أرى في الخيال ذراعيك العاريتين تنتقلان بين الزهور.

فمدت يدها إليه هاتفة: «يا صديقي المسكين! فضغط «ليون» شفتيه إلى يدها برفق. وبعد أن ملأ صدره بعبيرها، قال: «كنت لي إذ ذاك قوة غامضة - لم أدرك كنهها - استولت على حياتي. فمثلاً، ذهبت مرة كي أراك، ولكنك ولا ريب لا تذكرين هذه المناسبة». قالت: بل أذكرها، قل!

- كنت في الحجرة الصغيرة بالطابق الأرضي، تستعدين للخروج، وقد اتخذت كل

أهبة، فكنت تضعين قبعة ذات زهور زرقاء صغيرة، وعلى الرغم من نفسي، ودون دعوة منك، خرجت معك. على انني في كل لحظة كنت أزداد شعوراً بطيشي، فظللت أسير، لا أجرؤ على أن أتبعك، ولا أستطيع أن أفارقك. وإذا ولجت حانوتاً، وقفت في الشارع أنتظرك، وأنا أراك خلال النافذة تخلعين قفازيك، وتعدين النقود على منضدة البائع، ثم دققت جرس بيت مدام «توفاش»، فدعيت للدخول، بينما ظللت أنا واقفاً كالغبي أمام الباب الكبير الضخم الذي أغلق خلفك!



دهشت مدام «بوفاري» إذ خيل إليها، وهي تنصت أن أحداث الماضي -حين بعثت في ذاكرها- راحت توسع من نطاق حياتها، وتضاعفه. كأنما كانت تتردد إلى فيض عاطفي تدفقت به هذه الأشياء. وكانت بين آن وآخر تقول بصوت خافت، وقد أطبقت جفنيها في نصف إغماضة: «أجل، هذا صحيح، حقاً، حقاً» وسمعت الساعات المختلفة في حي (بوفوازان) -الحافل بالمدارس والكنائس والقصور الكبيرة الخالية- تدق معلنة الثامنة. وكفا عن الكلام، ولكنهما أحسا -وكل منهما يرمق الآخر- أن ثمة دويماً في رأسيهما، كأنما كان ينبعث من عيني كل منهما شيء ذو رنين، وكانت يد كل منهما، في يد الآخر، وقد اختلط الماضي بالمستقبل، والذكريات بالأحلام، في عذوبة هذه الغيبوبة العاطفية. وأخذ الليل يزحف على الجدران التي ظلت ألوانها الثقيلة تبدو في أربع صور متوارة في الظلام، وتمثل أربعة مناظر من (تور دونل)، وتحتها كلمات بالأسبانية والفرنسية. وخلال الجزء العلوي من النافذة، بدت رقعة من السماء المعتمة، بين السقوف المديبة.

ونهضت أيما فاوقدت شمعتين على صوان الملابس، ثم عادت إلى الجلوس، فهتف ليون: «وبعد ١٢» فرددت: «وبعد ١٢» وكان يفكر في وسيلة لاستئناف ما انقطع من الحديث، حين سألته: «كيف حدث أن إنساناً ما لم يبيع لي حتى اليوم يمثل هذه المشاعر؟» فقال الكاتب: إن النفوس ذات الفطرة المثالية تستعصي على الإدراك، فهو قد أحبها منذ اللحظة الأولى، وكان يشعر بالقنوط كلما فكر في السعادة التي كان من الممكن أن ينعم بها، لو أن الحظ قادهما إلي الالتقاء قبل ذلك فارتبطا بارتباط لا انفصام له. فقالت: «أنا الأخرى خطر لي هذا».. فغمغم: «يا له من حلم!». وأخذ يلمس بأصبعه -في رفق- الحافة الزرقاء المحيطة بحزامها الأبيض، ثم أردف: «وما الذي يحول دون أن نبدأ من جديد؟» فأجابت: «لا يا صديقي، إنني الآن كبيرة السن، وأنت في باكورة الشباب. ألا انسنى! لسوف تحبك أخريات، وسوف تحبهن!» فصاح: «لن أحبهن كما أحبك!».

- يا لك من طفل! فلنتعقل! هذه رغبتني!

وبينت له استحالة غرامهما، وأنهما يجب أن يظلا على ما كانا عليه من قبل، مجرد

صداقة أخوية. أفكانت في هذا جادة؟ لا شك في أن «إيما» ذاتها لم تكن تدري، وهي مستغرقة في سحر الإغراء، شاعرة بضرورة الدفاع عن نفسها ازاءه. ورمقت الشاب بنظرة اشفاق وتأثر، وهي تصد المحاولات الخجلى التي بذلتها يدها المرتعشتان لتطويقها. فهتف وهو يتراجع: «آه! اغفري لي!»

واستولى على «إيما» خوف مبهم من هذا الحياء، الذي بدا لها أخطر من جرأة «رودولف» حين كان يسعى إليها باسطاً ذراعيه. قط ما لاح لها رجل في مثل جمال هذا الشاب الخجول الذي أسبل أهدابه الطويلة الناعمة التي كانت أطرافها تنثني إلى أعلى وخطر لها أن تورد بشرة خذه الناعمة، كان بتأثير اشتهاه لها، فأحست بشوق جارف لأن تلتصق بها شفتيها. وما لبثت أن مالت نحو الساعة، كأنها تتعرف الوقت، وقالت: «لكم تأخر الوقت! يا إلهي: كم ألهانا الحديث!» وفهم إيعازها، فتناول قبعته، بينما استطردت: «بل انني نسيت التمثيل! مع أن بوفاري المسكين خلفني هنا خصيصاً لذلك! إن السيد «لومرو» - من شارع (جران بون) - لن يلبث أن يفد ليقبلي مع زوجته إلى المسرح». وهكذا كان مقدراً للفرصة أن تضيق، إذا أنها كانت راحلة في اليوم التالي. فهتف ليون: «حقاً؟» قالت: «أجل». فقال: «ولكنني يجب أن أراك مرة أخرى أذ أريد أنبك...».

- بماذا؟

- بأمر.. هام، جدي. آه، لا! ما أراك راحلة، لا يمكن! لو عرفت... ألا انصتي لي.. إنك لم تفهميني إذن؟ إنك لم تحسني إذن.
قالت إيما: «مع إنك تكلمت في وضوح».

- آه! اتزحين! كفى، كفى! بحق الرحمة دعيني أراك ثانية. مرة واحدة، واحدة! قالت: «حسناً»، ولكنها أمسكت، ثم أردفت وكأنها فكرت في الأمر: «آه! ليس هنا! فتساءل: «وأيّن تحبين؟» فقالت: «أتحب...»، وبدا عليها التفكير، ثم قالت في إيجاز: «غداً، في الساعة الحادية عشرة، في الكاتدرائية» فصاح متشبثاً بيديها وهي تحاول التملص: «سأوافيك هناك!» وإذ كانا واقفين - هو خلفها، وهي منكسة الرأس - فقد انحني على عنقها، وطبع قبلة طويلة على قفاها، فقالت في ضحكات قصار، بينما تضاعفت قبلاته: «ولكن هذا طيش منك! آه إنك احمق!» وأطل برأسه فوق كتفها، كما لو كان يريد أن يقرأ في عينيها انصياعها، فاذا عيناها ترمقانه في كبرياء باردة! وتراجع لينصرف، ثم توقف لدى الباب، وهمس في صوت متهدج: «إلى غدا» فأجابت بهزة من رأسها، وأسرعت كالطائر تختفي في الحجرة الداخلية.



كتبت «إيما» في ذلك المساء خطاباً طويلاً للكاتب، تحللت فيه من الموعد، إذ انتهت كل شيء، ولا يجب - من أجل سعادتهما - أن يلتقيا مرة أخرى. ولكنها لم تكد تفرغ من

الخطاب حتى تولتها حيرة، لأنها لم تكن تعرف عنوان «ليون»، ولكنها قالت: «سأسلمه إياه بنفسى، فهو لابد آت».

وفي الصباح التالي، أخذ «ليون» ينظف هذا ميه بنفسه، مسبقاً عليهما عدة طبقات من الطلاء، وقد فتح نافذة غرفته، وأخذ يهيمهم بأغنية خافتة، وارتدى بنطلوناً أبيض، وجوربين رقيقين، وسترة خضراء وأفرغ كل ما كان يمتلك من عطور في منديله، ثم سعى إلى الحلاق فطلب أن ينسق شعره في تجماعيد، وعاد فطلب بسطها ليكتسب الشعر وراء طبيعياً ونظر إلى ساعة الحلاق التي كانت تشير إلى التاسعة، وقال لنفسه: «لا يزال الوقت جد مبكر». ومن ثم تصفح جريدة قديمة للأزياء، وخرج فدخل سيجاراً، وذرع ثلاثة شوارع، ثم خطر له أن الوقت قد حان، فسار على مهل إلى فناء «نوتردام». وكان الصباح بديعاً، من أيام الصيف، والحلى الفضية تتألق في وجهات محال المصوغات، والضوء يسقط على الكاتدرائية بانحراف، فيضئ على أركان الأحجار السمراء بريقاً، وسرب من الطيور يحوم في السماء الزرقاء حول أبراج الأجراس ذات اللون الأخضر، والمكان يعج بالأصوات، ويتضوع بشذى الأزهار التي كانت تحف بأرصفتها، من ورود، وباسمين، وزهر الخشخاش، ونرجس، وسوسن، وقد نهبت على مسافات غير متساوية بين التنعان البري، والشيوخ. وكانت النافورات في الوسط تبعث خيراً، وتحت مظلات واسعة -وسط البطيخ الذي تراكم في أكوام- راحت بائعات الزهور يلففن الورق حول حزم البنفسج وهن عاريات الرؤوس. وابتاع الشاب حزمة، كانت أول مرة يبتاع فيها زهوراً لامرأة، فانتفخ صدره زهواً وهو يتنسمها، وكان هذا التكريم الذي قصد به غيره، قد ارتد إليه!

على أنه كان في خوف من أن يراه أحد، فولج الكنيسة. وكان الحارس السويسري يقف إذ ذاك على العتبة، في منتصف الباب الأسر، تحت تمثال «ماريان الراقص» -وقد بدا في قلنسوته ذات الريش، وسيفه المتدلي حتى عرقوبية، أكثر جلالاً من أي كردينال، وأشد لمعاناً من علبة الأسرار المقدسة -وتقدم صوب «ليون» وقال وهو يبتسم ابتسامة التملق الحميد التي يصنعها رجال الدين حين يستجوبون الأطفال: «لا شك أن السيد ليس من هنا؟ أفيحب السيد أن يرى تحف الكنيسة؟» فقال الآخر: «لا» وجلس في البداية خلال الردهة الخارجية، ثم خرج ليلقي نظرة على الميدان، ولكن «ايما» لم تكن وصلت بعد، ومن ثم دخل ثانية وسار حتى المحراب.

وكانت صورة صحن الكنيسة منعكسة على أحواض التعميد المترعة، وقد ظهرت مقدمة الأنفوس، وبعض أجزاء من النوافذ الزجاجية. ولكن صورة اللوحات الزيتية كانت تتكسر على حافة الرخام، لتستقيم بعد ذلك على البلاط، فتبدو كبساط متعدد الألوان. وكان ضوء النهار الساطع ينساب إلى داخل الكنيسة في ثلاثة خطوط ضخمة، خلال ثلاث كوات مفتوحة. ومن وقت لآخر، كان أحد خدم الكنيسة يمر في الطرف الأقصى، فيركع عند المذبح في انحراف، كما يفعل الأتقياء المتعجلون! وكانت الشربات البلورية تتدلى ساكنة،

وفي المحراب كان ثمة مصباح فضي مشتعل. وفي بعض الأحيان، كانت تنبعث من الممرات الجانبية والبقاع المعتمدة أصوات كأنها التنهدات، يصحبها صوت ارتطام نافذة تغلق، فيتردد الصدى متموجاً تحت القبة الفخمة، وسار «ليون» بخطى ورعة في محاذاة الجدران. أبدأ لم تبتد له الحياة أطيب مما كانت إذ ذاك، إن «إيما» لن تثبت أن تأتي، فانتة، منفعة، تتلفت خلفها إلى الابصار التي تتبعها، وقد أردت ثوبها ذا الزوائد الهفافة، ونظارتها الذهبية، وحذاءيها الرقيقين، وكل مستلزمات الأناقة التي لم يستمتع بها أبدأ من قبل، تحف بها ما للعبة المستسلمة من غواية فانتة، والكنيسة كمخدع هائل يحيطها! والأقبية تنحني وكأنها تنصت -في الظلام- إلى اعتراف حبها، والنوافذ تسمح للضوء بالانسحاب لينير وجهها، والبخور يتصاعد، وهي تبدو كالملاك وسط الدخان الذكي الشدي!

ولكنها لم تأت. فجلس على مقعد، ووقعت عيناه على نافذة ذات زجاج أزرق يمثل ملاحين يحملون سلالاً. وأطال تأملها في قمع، وأخذ يحصي زعانف الأسماك، وعدد العرى في الصداري، بينما كانت أفكاره تخلق نحو «إيما». وكان الحارس -الذي وقف جانبا- حانقاً في نفسه على هذا الشخص الذي أباح لنفسه أن يتأمل محاسن الكاتدرائية بنفسه. كان يبدو له أنه يفرض نفسه ظلماً، وأنه يسلبه بعض ما هو حق له، بل ينتهك حرمة مكان العبادة! على أن «ليون» ما لبث أن انتبه إلى حفيف حرير على البلاط، وحافة قبة، ومعطف. كانت هي! ونهض جارباً ليلقاها، فإذا هي شاحبة، تسير بسرعة وقالت وهي تبسط له ورقة: «اقرأ. أواه، لا!» وسحبت يدها في عجلة، لتلج مصلية العذراء، حيث ركعت وشرعت تصلي. وأحس الشاب بانفعال لهذه النزوة المتدنية، وعلى أنه لم يلبث أن شعر بشيء من الفتنة وهو يراها تغرق في العبادة -خلال موعد غرامي- كمركزية اندلسية! ثم بدا يضجر، إذ بدا له أنها لن تفرغ!



أخذت «إيما» تصلي - أو بالأحرى تحاول جاهدة أن تصلي - أملاً في أن تهبط عليها من السماء عزيمة مفاجئة! ولكي تستمد العون الإلهي، ملأت عينها حتى أغرقتهما ببهاء المحراب، وملأت صدرها بشذى الزهور المتفتحة التي كانت في الأواني الكبيرة، وأصغت إلى سكون الكنيسة الذي جعل لفظ قلبها يبدو أكثر جلاء لأذنيها، ثم نهضت. فيما كانا يهمان بالانصراف أقبل الحارس وقال في عجلة: «إن السيدة ليست من هنا ولا شك. هل تحبين يا سيدتي أن تتفرجي على تحف الكنيسة؟» فقال الكاتب: «آه، لا» قالت وهي تتشيت بعفتها المتداعية، وبالعذراء، والتماثيل، والأضرحة، وأي شيء: «ولم لا؟» ولكي يتفرجا -حسب الأصول المرعية- قادهما الحارس إلى المدخل القريب من الميدان، حيث أشار بعصاه إلى دائرة من الأحجار السوداء لا تعلوها كتابة ولا نقوش، وقال في جلال: «هذا محيط جرس «امبرواز» البديع، إنه يزن أربعين ألف رطل، ولم يكن له صنو في أوربا

كلها ، ولقد مات الرجل الذي نحتة فرحاً ...».

وهنا قال ليون: «لننصرف» ولكن الحارس عاد بهما إلى مقصورة العذراء، وبسط ذراعيه بحركة تمثيلية فاخرة، وهو أكثر زهواً من أحد أعيان الريف إذ يعرض ثيرانه، وقال: «هذا الحجر يغطي «بيير دوبريزيه»، سيد (فارن) و(بريساك)، والمارشال الأكبر ليواتو، وحاكم نورماندي، الذي مات في معركة (مونتليري) في يوليو سنة ١٤٦٥...» . وعرض «ليون» شفته وهو ينفخ غضباً، بينما استطرد الرجل: «والى اليمين مباشرة حفيدة «لوي دوبريزيه» سيد (بريفال) و(مونشوفيه)، وكونت دي مولفريه، وبارون دي مونني، أمين الملك، وعضو نظام الفرسان، وحاكم نورماندي أيضاً... هذا هو السيد المكسوكله بالحديد، على جواد رفع ساقه في خطوة متخطرة... مات في ٢٣ يوليو سنة ١٥٣١، وكان يوم أحد، كما تنبىء بهذا السطور المنقوشة... وتحتة، هذا الشخص الذي يهم بالنزول إلى القبر، إنه يمثل نفس السيد... من غير الميسور أن تريا تمثالاً أكمل تبياناً للفناء من هذا». ورفعت مدام «بوقاري» نظارتها، وبقي «ليون» جامداً يرقبها، وقد كف عن محاولة الاتيان بأية حركة، حتى عن أن ينبس بكلمة، أو يصدر إشارة وأحس بقنوط إزاء هذين الندين اللذين انهمكا في الثرثرة واتفقا على عدم الاكتراث به!

ومضى الدليل الأيدي في شرحه: «وبالقرب منه، هذه المرأة الراكعة التي تبكي، إنها زوجته «ديانا دي بواتيه»، كونتة (بريزيه) ودوقة (فالتانوا)، ولدت في ١٤٩٩ وماتت في ١٥٦٦. وإلى اليسار، هذه التي تحمل الطفل... إنها العذراء المقدسة. والآن، فلنخرج إلى هذه الناحية. ها هي ذي قبور آل «امبرواز» الذين جمعوا بين مطرانية وأسقفية (روان)، كان هذا وزيراً في عهد لويس الثاني عشر، وقد قام بأعمال جليلة للكاتدرائية، وترك في وصيته ثلاثين ألفاً من الدنانير الذهبية للفقراء. ودفعهما الدليل -دون أن يتوقف عن السير أو الكلام- إلى مقصورة مليئة بالحواجز التي أقصى بعضها، فكشف عن كتلة من الصخر لابد أنها كانت يوماً تمثالاً ردى النحت. ثم قال في صوت حزين: «لقد كانت تزين -حقاً- قبر ريتشارد قلب الأسد، ملك إنجلترا ودوق نورماندي. كان الكلفانيون^(١) يا سيدي هم الذين شوهوه بهذا الشكل، وقد دفنوه -للكناية- في جوف الأرض، تحت المقعد الأسقفى لصاحب النيافة. انظروا! هذا هو الباب الذي كان الأسقف يجتازه إلى بيته، لنمر بسرعة كي نرى النوافذ الميزابية». بيد أن «ليون» أسرع يخرج بعض قطع العملة الفضية، وأمسك بذراع «إيما». ووقف الحارس مذهولاً، لا يكاد يفقه سر هذا السخاء الذي أظهره الشاب في غير موعده، إذ كانت لا تزال هناك كثيراً من الأشياء التي يتوقف الأجانب لرؤيتها. لذلك أسرع ورأهما صائحا: «سيدي! البرج! البرج!».. فقال ليون: «شكراً».

- ولكنك على خطأ يا سيدي! ان ارتفاعه اربعمائه وأربعون قدماً، أي أقل من

(١) اتباع مذهب «كلفن» القائل أن الخلاص من الذنوب يتأتى بنعمة الله وليس بالأعمال.

ارتفاع هرم مصر الأكبر بتسعة أقدام، كله من الحديد المصبوب، و... .

وفر «ليون»، إذ خيل إليه أن هواه الذي ظل ساعتين جامداً داخل الكنيسة كأنه حجر، يوشك الآن أن يتبخر ويتبدد كالدخان في الفضاء، متسرباً خلال ذلك القمع الأبتري القائم فوق صندوق مستطيل والمتصل بمدخنة تصل إلى الفضاء، خارجة من مبنى الكاتدرائية بشكل مزر، كأنها محاولة قام بها مهندس للمدافيء مبذر مأفون! وقالت «إيما»: «إلى أين ترانا ذاهبين؟» ولكنه لم يجب، بل سار بخطى واسعة. وكانت مدام «بوفاري» قد غمست أصبعها في الماء المقدس، حين سمعا خلفهما أنفاساً لاهثة، يتخللها وقع عصا تطرق الأرض بانتظام، فالتفت «ليون».

- سيدي؟

- ماذا؟

ورأى الحارس السويسري يحمل تحت إبطه نحو عشرين كتاباً كبيراً، مجلداً احتضنها إلى بطنه ليحفظ توازنها. تلك كانت المؤلفات التي تتعلق بالكاتدرائية. فزمجر «ليون» وهو يندفع إلى خارج الكنيسة: «غبي!» وكان ثمة صبي يلعب على مقربة، فصاح به: «أذهب فاستدع عربة!» فقفز الصبي كالكرة صوب شارع (كاترفانت)، وبقيا وحدهما بضعة دقائق، وجها لوجه، يسودهما شيء من الحرج. وهمست إيما: «آه! ليون! أنني حقاً لا أدري. إذا كان ينبغي.» ثم أردفت في لهجة جادة: «هذا لا يليق البتة افتدرك؟» فأجاب: «كيف ذلك؟ أنه أمر شائع في باريس!» فرضخت بعد هذه الكلمات، وكأنها حجة لا تقاوم!



ولما لم تأت العربة في تلك الاثناء، خشى «ليون» أن تعود «إيما» إلى الكنيسة. ولكن العربة ما ليث أن ظهرت أخيراً. وصاح الحارس الذي خلفاه وحيداً لدى الباب: «إذن فأخرجنا من الباب الشمالى حتى تريا -على الأقل- لوحات: البعث، والحساب الأخير والجنة، والملك داود، والمذنبين في نار جهنم!»

وقال الحوذي: «إلى أين يا سيدي؟» فقال ليون وهو يدفع إيما إلى داخل العربة: «حيثما شئت». فانطلقت العربة خلال شارع (جران بونت)، واجتازت ميدان (ديزار)، و(كيه نابوليون)، و(بونت نيف)، ثم وقفت عند تمثال (بييركورني)، فصاح صوت من الداخل: «استمرا» وعادت العربة تسير، حتى إذا بلغت ميدان (كاريفور لافاييت)، شرعت تهبط السفح، ودخلت المحطة والجوادان يركضان. وصاح الصوت ذاته: «لا، أمض فى خط مستقيماً» فاندفعت العربة خلال الأبواب، وسرعان ما بلت (الكورنيش) ولاحت تخطر الهويني تحت أشجار الدردار. وجفف الحوذي العرق عن جبينه، ووضع قبعته الجلدية بين ركبتيه، ثم قاد العربة في الطريق الجانبية -المجاورة للمرج- إلى الطريق الممتدة بجانب

الماء وسارت العربة في محاذاة النهر، في الدرب الذي ترسو فيه المراكب، والمرصوف بالحصى الصلب. وظلت فترة طويلة في اتجاه (أويسل)، خلف الجزائر، ولكنها انحرفت فجأة، واندفعت عبر (كاترمير) و(سوتفيل) و(الجراند شوسيه) وشارع (ديلبيف)، ثم وقفت مرة ثالثة أمام حديقة النباتات. فصاح الصوت في لهجة أشد حنقاً من قبل: «امض في السير!» وعادت العربة تواصل سيرها، مارة بسان سيفيه، عن طريق (كيه ديه كوراندييه)، و(كيه أوميل)، وعبرت الجسر مرة أخرى إلى ميدان (شام دومار)، ثم مضت خلف حدائق المستشفى، حيث كان الكهول -في سترات سوداء- يتمشون في الشمس، في محاذاة سياج قصير كساه اللبلاب بخضرة تامة، ثم سارت إلى (بوليفار بورقيي)، ومضت في (بوليفار كوشواز)، ثم طاعت بمونت ريبوديه كلها، واتجهت إلى تلال (ديفيل).

ثم عادت العربة من حيث أتت، وراحت تلف كيفما اتفق، دون ما وجهة معينة، فشوهدت في (سان بول)، و(اليسكور)، و(مونت جارجان)، و(الأروج مارك)، وميدان (جارياروا)، وشارع (مالاديرى)، وشارع (ديناندري)، مارة بكنائس «سان رومان»، و«سان فيفيان»، و«سان ماكلو»، و«سان نيكيي»، وأمام الجمارك، وبرج (قييى تور)، و(تروابيب)، والمقبرة التذكارية. وكان الخوذى يلقي نظرة محسورة على الحانات من وقت لآخر، لم يكن يفقه أية رغبة طاغية في التنقل تحده بالراكبين إلى عدم التوقف! وحاول أن ينبههما -بين الفينة والفينة- فكانت صيحات الغضب تنبعث من خلفه، ومن ثم ساط جواده للذين كانا يتصببان عرقاً، ولكنه لم يكثر لسيرهما، بل تركهما يتخيطان هنا وهناك، غير حافل. وقد خارت قواه المعنوية، وأوشك أن يبكي لفرط الظمأ، والتعب، والضيق.

وفي الميناء -وسط البضائع الثقيلة والبرامل- وفي الطرقات، عند المنعطفات، كان الناس يحملقون في دهشة وعجب لمثل هذا المنظر غير المألوف في الريف. عربة مسدلة الستائر، تبدو باستمرار مغلقة كما لو كانت قبراً، وتتأرجح كأنها سفينة! وحدث أن كانت العربة تسير في الخلاء، وقد انتصف النهار، وأخذت الشمس تلهب بقسوة مصباحي العربة العتيقين، فامتدت يد من خلف الستائر الصغيرة المصنوعة من الخيش الأصفر، وألقت بقصاصات من الورق تناثرت في الهواء، ثم تهاوت بعيداً كالفرشات البيضاء على حقل البرسيم الذي تفتحت زهوره الحمراء!

وفي نحو الساعة السادسة، وقفت العربة في شارع خلفي بحي (بوفوازان)، وهبطت منها امرأة تسدل على وجهها قناعاً، وسارت دون أن تلتفت.

الفصل الثاني

دهشت مدام «بوفاري» إذ لم تر عربة البريد عند وصولها إلى الفندق - وكان السائق قد انطلق في رحلته بعد أن انتظرها ثلاثاً وخمسين دقيقة - ولم يكن ثمة ما يجبرها على الرحيل، ولكنها كانت قد وعدت بأن تعود في ذلك المساء، فضلاً عن أن «شارل» كان يرتقبها، فأحست في فؤادها بذلك الأسى الناعم الذي يكون بالنسبة لبعض النساء مغالبة للنفس وتكفيراً عن الفجور. وأسرعت تحزم متاعها، ودفعت حساب الفندق، ثم استقلت عربة من الساحة، واستحثت الخوذي، وراحت توسعه في كل لحظة سؤالاً عن الوقت وعدد الكيلو مترات التي قطعها. واستطاع أن يلحق بالعصفورة - عربة البريد - وهي تقترب من طليعة ببوت (كينكامبوا). وما إن انتقلت إياها إلى عربة البريد، حتى أغمضت عينيها فلم تفتحهما إلا عند سفح التل، لترى «فيليسيتيه» عن بعد، وقد وقفت تنتظر العربة أمام دار الطبيب البيطري، فأوقف «هيفير» جواده، وتعلقت الخادم بنافذة العربة، وقالت بلهجة غامضة: «سيدتي، يجب أن تذهبي فوراً إلى السيد هوميد، فهناك أمر هام».

وكانت القرية ساكنة كعادتها. وعند تقاطع الطرق، كانت ثمة أكوام وردية ينبعث منها دخان في الهواء، إذ كان موسم صنع المربي قد حل وكان أهل (ايونفيل) جميعاً يصنعون مؤنثتهم منها في نفس اليوم. على أن المرء كان لا يتمالك أن يعجب بكومة أمام الصيدلية بدت أكبر مما عداها، وأفضل منها، بما لا بد أن يتوفر لأي معمل من تفوق على المتاجر العادية، حتي يتضح الفارق بين حاجة المتجر العام وحاجة الفرد.

ودخلت «إيما» الصيدلية، فإذا بالمقعد الكبير مقلوب، بل وكانت صحيفة «فانال دي روان» ملقاة على الأرض، بين مدققين (هاونين) ودفعت باب الردهة، وبين الجرار البنية المليئة بالزبيب النباتي المجرد من أعناقها، وبالسكر المسحوق والسكر البلاط، وبالموازين على المنضدة، وبأواني الطهو على النار، رأت أسرة هوميد كلها، صغيرها وكبيرها، في مراول تغطي صدورهم حتي الأذقان، وفي أيديهم شوكات وملاق، بينما كان «جوستان» يقف منكس الرأس، والصيدلي يصيح: «من قال لك أن تبحث عنه في كفر ناحوم^(١)؟» فتساءلت إيما: «ماذا هناك؟ ماذا جرى؟» فأجاب الصيدلي: «ماذا هناك؟ إننا نصنع المربي، وهي تنضج على النار، ولكنها أوشكت أن تفور وتفيض، إذ زاد العصير، فأمرت باحضار اناء آخر. فإذا به - أي جوستان - يذهب، بدافع من الخمول والكسل، فيأخذ - من مسمار في معمل - مفتاح كفر ناحوم».. (فهكذا كان الصيدلي يسمى غرفة صغيرة تحت السقف مليئة بالأوعية والسلع الكيماوية. وكثيراً ما كان يقضي ساعات طويلة فيها، وحيداً،

(١) اسم قرية بفلسطين كان المسيح يتردد عليها كثيراً للتبشير برسالاته واطهار معجزاته.

يلصق بطاقات، ويفرغ بعض القنينات، ثم يعيد أحكام سداداتها. ولم يكن يعتبرها مجرد مخزن، وإنما كانت في نظره محراباً قدسياً، يخرج منه فيما بعد ما يكون قد أعده بيديه من كافة أنواع الحبوب، والجرعات، والغسيل، وعصائر الأعشاب، والأدوية السائلة التي تحمل سمعته فتنتشرها طويلاً وعرضاً، ولم يقدر لمخلوق في الدنيا أن يضع في هذه الغرفة قدميه، فقد كان يعتز بها، ويكنس أرضها بنفسه. وإذا كانت الصيدلية -المفتوحة لكل قادم- هي المكان الذي يعرض فيه براعته، فإن «كفر ناحوم» كانت الملاذ الذي يخلو فيه «هوميه» إلى نفسه، حيث يستمتع بممارسة ميوله وهواياته، ومن ثم كان تهور «جويستان» يلوح له كامتهان فظيع لحرمة المكان، فراح يردد ووجهه أكثر احتقاناً من الزبيب: «أجل، من كفر ناحوم! المفتاح الذي يغلق مخزن الأحماض والقلويات الكاوية! إحضار وعاء اضافي، وعاد ذي غطاء، قد لا احتاج إلى استخدامه! إن لكل شيء أهمية في العمليات الدقيقة في فننا! ولكن، يا للشيطان! يجب أن يقيم المرء بعض الفوارق، فلا يستعمل في أغراض تعتبر منزلية، أشياء خصصت لأعمال الصيدلة! وإلا، كان الأمر أشبه باستخدام المبضع لتقطيع دجاجة، أو كقاض...».

وهنا قالت مدام هوميه: «ألا اهدأ». وتشبثت «اتالي» بسترته صائحة: «بابا! بابا! فاستطرد قائلاً: «دعوني الآن. دعوني وحدي! لعمرى! بشرفى أنه لخليق بالمرء أن ينشئ متجراً للبدالة! هكذا، اذهب! لا ترع شيئاً كسر، واهشم، وأطلق العلق الذي يمتص الدم الفاسد، واحرق المعاجين، وخلل الخيار في القماقم، ومزق الأربطة والضمادات».

وقالت «إيما»: «لكنك...».

- حالاً! افتعرف لأي شيء عرضت نفسك؟ ألم تر شيئاً في الركن، إلى اليسار، فوق الرف الثالث؟ تكلم، أجب قل شيئاً!

وقال الفتى المتعق، في لعثمة: «لست.. لست أدري».

- آه! لست تدري! جميل! أما أنا فأعرف! لقد رأيت زجاجة، زجاجة زرقاء، مختومة بالشمع الأصفر، وتحتوي على مسحوق أبيض، وقد كتب عليها «خطراً» أفتردي ماذا بها؟ زرنينخ! ثم تذهب فتلمسها وتحضر وعاء كان إلى جانبها!

فصاحت مدام هوميه وهي تهز قبضتيها إلى جانبها: زرنينخ! كان من المحتمل أن تسممنا جميعاً!.

وشرح الأطفال بصرخون كما لو كانوا قد شعروا بالآلام رهيبة في أحشائهم. واستأنف الصيدلي الحديث: «أو تسمم مريضاً! أفتريد أن تراني في قفص الاتهام مع المجرمين في المحكمة؟ أو أن تراني اساق إلى المشنقة؟ ألا تعرف أي حذر التزمه في كل الأمور، رغم أنني تعودتها تماماً؟ إنني كثيراً ما أجزع إذ أفكر في مسئوليتي، وبخاصة أن الحكومة تظلمنا وتضطهدنا، والتشريع السخيف الذي يحكمنا ليس سوى سيف ديموكليس المعلق

ولم يجد لإيما أمل في أن تسأل عما كانوا يريدون منها واستمر الصيدلي في عبارات لاهثة: «أهذا ما تقدمه جزاء كل ما أوليناك من كرم! ابهذا تكافئني على الرعاية الأبوية الصادقة التي أغدقها عليك؟ من يدك بالغذاء، والتعليم، والسياب، وكل الوسائل التي تمكنك يوماً من أن تكون مكرماً في طبقات المجتمع؟! ولكنك يجب أن تشد المجذاف بقوة وجهد -كما يقولون- حتى تتورم يدك!» ثم أردف باللاتينية: «إن العامل الذي لا يعيش من عمله، يفعل ما يشاء». ومضى يتكلم باللاتينية حتى تعب. وما كان ليحجم عن الكلام باية لغة، لو أنه كان يعرفها، لأنه كان يمر بإحدى تلك النوبات التي تطفح فيها النفس بكل ما تحتوي عليه دون تمييز، كالمحيط الذي يلفظ -في الأنواء- كل ما فيه من الأعشاب البحرية القريبة من شاطئه، والرمال التي في أعماقه! وعاد هوميه يقول: «لقد بدأت أعاني ندماً شديداً إذ كلفتك... كان يحسن بي بالتأكد أن أتركك للبوار في فرك وفي القذارة التي ولدت فيها أه! إنك لن تصلح قط لغير رعي الحيوانات ذات القرون! ليس لديك استعداد للعلم! انك لا تكاد تعرف كيف تلصق بطاقة! ومع ذلك فأنت -كما ترى- تعيش معي نظيفاً كالراهب، مرتاحاً كدبك يسمنه أصحابه!»



لم تلبث «إيما» أن التفتت إلى مدام هوميه قائلة: «لقد استدعيت...» فقطعت عليها السيدة حديثها قائلة في لهجة حزينة: «أه! يا إلهي!... كيف أزجي إليك النيا؟ إنه شؤم!» ولم تتم حديثها. وكان الصيدلي يصيح مهذرا: «أفرغها! نظفها! أعدّها حيث كانت! أسرع!» وأمسك بـ «جوستان» من ياقة قميصه، فاقع كتاباً من جيبه. وانحنى الفتى، ولكن «هوميه» كان أسرع منه. وما إن التقط الكتاب، حتى تأمل عنوانه بعينين جاحظتين وفم فاغر: «الحب... الزوجي» قالها في تودة، متعمداً أن يفصل بين الكلمتين، ثم أردف: «أه! جميل جداً! جميل جداً! بديع جداً! وصور أيضاً! أه، هذا كثير جداً!» واقتربت مدام «هوميه»، فصاح: «لا، لا تلمسي الكتاب». وأراد الأطفال أن ينظروا إلى الصور، فصاح بلهجة أمرة: «أخرجوا من الحجرة!»، فخرجوا. وأخذ -في البداية- يسير في الغرفة رائحاً، غادياً، والكتاب مفتوح بين أصابعه، يقلب فيه بصره مشدوهاً، مستحيياً، وأنفاسه تتتابع في عناء، ثم اتجه إلى مساعده، فوقف أمامه، وعقد ذراعيه على صدره، وقال: «إذن، فقد اجتمعت فيك كل الرذائل أيها التعس الصغير! احترس! انك بالتأكيد تتردى! أفلم يخطر ببالك أن هذا الكتاب الفاضح قد يقع في أيدي أولادي، فيشعل في أذهانهم شرارة، ويلطخ طهر «اتالي»، ويفسد «نابليون»! لقد دخل مدارج الرجال، أفأنت واثق -على الأقل- من أنهما لم يقرأه؟ هل تقسم؟» وقالت إيما: «ولكن يا سيدي... هل أردت أن تقول لي...؟»

- أجل يا سيدتي. ان حماك قد توفي!

كان السيد «بوفاري» الأب قد مات بغتة، في الليلة السابقة، من جراء سكتة قلبية. وزيادة في الحيلة، وحرصاً على مشاعر «إيما»، التمس «شارل» من هوميه أن ينهي إليها النبا «الفظيح» في رفق وحكمة! ولقد فكر هوميه فيما يقول، ونقّى القول، وصقله، ووزنه، حتى جعله تحفة من الحكمة والتدرج، ومن الحيلة والرقّة، ولكن الغضب كان أكثر بلاغة وبياناً. وإذا يئست «إيما» من أن تسمع أية تفصيلات، بارحت الصيدلية. وكان السيد هوميه قد عاد يستأنف السباب والتفريع، وإن كانت سورة غضبه قد بدأت تهدأ، وأصبح يهدد في لهجة أبوية - وهو يحرك قلنسوته الاغريقية التماساً للهواء! «ليس معنى هذا انني لا أقر الكتاب البتة، فإن مؤلفه طبيب! فضلاً عن انه يحتوي على مسائل عملية ليس من الضرر أن يعرفها رجل. بل انني لاذهب إلى أن على الرجل أن يعرفها. ولكن، فيما بعد، فيما بعد! انتظر على الأقل حتى تغدو رجلاً، وتكمل مداركك!»

وعندما قرعت «إيما» باب بيتها، أقبل «شارل» - الذي كان في انتظارها - باسطاً ذراعيه أمامه، وقال والدموع تخالط صوته: «آه، يا عزيزتي!» وانحنى بلطف يقبلها، ولكن ملمس شفتيه رد ذكرى الرجل الآخر إليها، فمسحت وجهها براحتها وهي ترتجف، وأطلعها على الخطاب الذي روت فيه أمه الحادث، دون ما مبالغات عاطفية، لم تكن آسفة إلا على أن زوجها لم يحظ بالمراسم الدينية، إذ مات في الطريق - (في (دودفيل) - على باب مقهى، بعد مآذبة وطنية مع الضباط القدامى. وأعادت «إيما» الخطاب إلى زوجها. وعند العشاء، تصنعت بعض الزهد للتظاهر بالأسى، ولكنها أقبلت على الطعام - حين ألح عليها أن تحاول - بينما جلس هو منصرفاً عن الأكل، لا يحير ساكناً. وكان من وقت لآخر يرفع رأسه ويرمقها بنظرة طويلة زاهرة بالحزن. وتنهد مرة قائلاً: «وددت لو انني كنت رأيته مرة أخرى!» وكانت «إيما» لاثذة بالصمت، ولكنها أدركت أخيراً أن لابد لها من أن تقول شيئاً، فسألته: «كم كان عمر أبيك؟»

- ثمانية وخمسين.

- آه!

وكان هذا كل ما لديهما. وما لبث أن أضاف بعد ربع ساعة: «يا لأمي المسكينة!.. ماذا سيكون من أمرها الآن؟» فصدرت من «إيما» إشارة تنم عن أنها لا تدري. وإذا رأى «شارل» وجومها، خيل إليه أنها شديدة التأثر، فحمل نفسه على الكف عن الكلام، لكي لا يذكى هذا الأسى الذي تملكها. على أنه ما لبث أن قال ليغالب أساه: «هل استمتعت بيوم أمس؟» فأجابت: «نعم». حتى إذا رفعت المائدة، لم ينهض «بوفاري»، ولا نهضت «إيما». وفيما كانت تنظر إليه، أخذ جمود المنظر يطرد من قلبها - شيئاً فشيئاً - كل رثاء واشفاق. فقد لاح لها زوجها تانهاً سخيفاً، ضعيفاً، عديم الشخصية. وقصاري القول: كان فقيراً، مسكيناً، من كل النواحي! فكيف تتخلص منه؟ وبأ لها من ليلة لا تنتهي! وتلكها

شيء مخدر كدخان الأفيون! وما لبثا أن سمعا في الردهة ضجة ناشئة عن وقع ساق خشبية على ألواح الأرضية، وإذا «هيبوليت» قد أقبل حاملاً متاع السيدة. ولكي يضعه على الأرض، لف في عناء، راسماً بساقه الخشبية ربع دائرة. فقالت «إيما» لنفسها وهي تتأمل هذا الشيطان المسكين الذي كان شعره الأحمر الكث يقطر عرقاً: «إنه لم يعد يذكر شيئاً!» وأخذ «بوفاري» يبحث في قاع كيس نقوده -عن قطعة من العملة النحاسية، دون أن يبدو عليه أنه يفتن إلى ما هناك من ذلة ومهانة له، في مجرد وجود هذا الرجل الذي كان يقف وكأنه تأنيب مجسم للخطأ الذي كان وليد عجز الطبيب، والذي لا سبيل إلى اصلاحه! وأخيراً، قال شارل لزوجته: «مرحى! لقد جئت بباقة جميلة!» فقالت «إيما» في غير اكتراث: «أجل، اشتريتها قبيل حضوري، من متسول». فتناول «شارل» الزهور لينعش بها عينيه المحتقنتين من أثر الدموع، وشمها في رفق. فأسرعت «إيما» تأخذها من يده وتضعها في كوب ماء!



وصلت مدام «بوفاري» الأم في اليوم التالي، فبكت مع ابنها كثيراً، بينما اختفت «إيما» بحجة اعطاء تعليمات للخادم. وفي اليوم الذي أعقبه، تحدثوا عن الحداد، ثم ذهبوا فجلسوا تحت الخميلة، بجوار النهر، وقد حملت المرأتان صندوقي اشغالهما. وأخذ «شارل» يفكر في أبيه، فأدهشه أن أحس بحب جم لذلك الرجل الذي كان يظن -حتى ذلك الحين- أنه لا يحفل به كثيراً. كذلك راحت مدام «بوفاري» الأم تفكر في زوجها، وبدأت لها أسوأ أيام الماضي أياماً لا تعوز، نسيت كل شيء في غمرة حسرتها الغريزية على مثل هذه العشرة الطويلة! وكانت تنحدر على أنفها -من أن لآخر وهي تخيط- دمعة كبيرة تقف عند أسفله لحظة معلقة. أما «إيما» فكانت تفكر في أنه لم تمض بعد ثمان وأربعين ساعة منذ كانت مع «ليون» بعيدين عن الدنيا، في نشوة من الغيبة، وقد ود كل منهما لو كان له مزيد من الأعين ليتعلمي من الآخر. وأخذت تحاول تذكر أبسط تفاصيل اليوم الأسبق، ولكن وجود زوجها وحماتها كان يزعجها، فتمنت أن لا تسمع شيئاً، وأن لا ترى شيئاً، حتى لا يضطرب تفكيرها في حبيبها. على أن هذا التفكير كان يتبدد في أحاسيسها بما هو خارج كيائها، رغم كل ما بذلت!

وكانت تفكك بطانة ثوب، فتناثرت قطع القماش حولها. أمام مدام «بوفاري» الأم، فكانت تحرك مقصها في نشاط دون أن ترفع رأسها، في حين كان «شارل» ينتعل الخفين اللذين يستعملهما في أوقات راحته، ويرتدي «ردنجوته» الأسمر القديم الذي كان يستخدمه كثوب منزلي، وقد جلس مغيباً يديه في جيبه، دون أن يتكلم. وعلى مقربة منهم، كانت «بيرت» في مرولة بيضاء صغيرة، تعبت بجرفتها في رمال دروب الحديقة. وفجأة، رأوا مسيو «لوريه» -تاجر الأقمشة- يقبل خلال الباب الخارجي. جاء يعرض

خدماته «في الظروف المحزنة»، فأجابت «إيما» بأنها تظن أن بوسعه أن تستغني عن الجديد، بيد أن التاجر لم يسلم بالهزيمة، بل قال لشارل: «معذرة، أحب أن أتكلم معك على حدة!» ثم قال بصوت خفيض: «الأمر يتعلق بتلك المسألة... التي تعرفها»، فاحتقن وجه «شارل» حتى اذنيه، وقال: «آه، أجل! بالتأكيد!» والتفت في ارتياحه إلى زوجته وقال: «هلا توليت أنت الأمر يا عزيزتي؟» ولاح أنها أدركت، إذ نهضت. فقال شارل لأمه: إنها ليست مسألة ذات بال. بعض مطالب البيت البسيطة. «قلم يكن الطبيب راغباً البتة في أن تعرف أمه شيئاً عن قصة السند، خشية لومها!

وما ان أصبح السيد «لورديه» على انفراد مع «إيما» حتى شرع يهنتها في عبارات واضحة بالمراث، ثم تكلم عن مسائل غير ذات بال، كعرائس النباتات، والمحصول، وعن صحته التي كانت دوماً بين بين، في صعود وهبوط. وكان مضطراً إلى أن يجد ويعمل جاهداً، وإن لم يملك أن يكسب ما يدر عليه «غموسا» لخبره، رغم ما يقوله كل الناس. وتركته «إيما» يتكلم، فما أكثر ما احتملت من مضايقات في هذين اليومين الأخيرين! ومضى يقول: «وأنت، هل أصبحت بخير مرة أخرى؟ لعمري! لقد رأيت زوجك في حال محزنة. انه شاب طيب، وإن كان بيننا سوء تفاهم بسيط». فسألته عن سوء التفاهم، إذ لم يكن شارل قد انبأها بالنزاع الذي جرى بشأن السلع التي أحضرها لها التاجر، فصاح «لورديه»: «عجياً، انك لتعرفينه تماماً! كان من أجل رغباتك الكمالية. حقائب السفرا»

وكان قد أرحى قبعته على عينيه، وعقد يديه خلف ظهره، وراح يبتسم ويصفر وهو يتفرس في وجهها بطريقة لا تطاق. اتراه حدس شيئاً؟.. وتاهت «إيما» في كل أنواع الهواجس. غير أنه ما لبث أن عاد يقول: «على اتنا سونا الأمر. وقد جئت أعرض عليه تسوية جديدة، تلك هي تجديد السند الذي وقع «بوفاري»، ولا ريب أن الطبيب سيسر لهذا، إذ ليس عليه أن يزج نفسه، لا سيما في ظروفه الحاضرة التي تشغله بطنافة من الهموم. أو أنه ليحسن صنعا لو عهد بهذه المسألة إلى شخص آخر -إليك أنت، مثلاً- وهو أمر سهل التدبير إذا أعطاك توكيلاً رسمياً، وإذا ذاك نستطيع -أنت وأنا- أن نبرم معا صفقات صغيرة! ولم تفقه مرماه. ولاذ التاجر بالصمت، ثم تحول إلى تجارته، فقال أن لا بد للسيدة من أن تحتاج إلى شيء، وأنه سيرسل إليها قماشاً أسود، يكفي اثنا عشر متراً منه لعمل ثوب، وأردف قائلاً: «هذا يصلح للبيت، ولكنك في حاجة إلى ثوب للخروج، وقد لاحظت هذا لأول وهلة حين قدمت. فأنني أوتيت ما للأمريكيين من سرعة ملاحظة!»



ولم يرسل القماش، وإنما أحضره بنفسه. ثم جاء مرة أخرى ليقبسه، وأخذ يتردد على المنزل لعلل أخرى، وهو يحاول دائماً أن يتلطف، وأن يبدو ذا نفع -عارضاً خدماته في الوقت المناسب، كما كان يمكن أن يصفه هومييه- وكان لا يفتأ يشير في حديثه مع «إيما»

إلى «التوكيل الرسمي». على أنه لم يذكر السند قط، ولا هي فكرت فيه. ومن المؤكد أن شارل حدثها عنه في بداية نقاشها، ولكن كثيراً من المشاعر والانفعالات تناوبت رأسها، فلم تعد تتذكره، فضلاً عن أنها حرصت على أن لا تتعرض لأية مسائل مالية، مما أدهش الأم «بوفاري»، وحملها على أن تعزوه إلى التطور الذي طرأ على مشاعرها الدينية خلال مرضها! ولكن، ما أن كانت الأم تغيب، حتى كانت «إيما» تثير دهشة بوفاري بأدراكها العملى. فمن الضروري الحصول على بعض بيانات، وتحري «الرهنيات»، وتبين ما إذا كانت ثمة فرصة لعمل تصفية أو «بيع بالمزاد العلني». وكانت تذكر -عرضاً- بعض المصطلحات القانونية، وتنطلق بالكلمات الكبيرة عن الطلب والحوالة، والمستقبل، وتدبر العواقب. وتعتمد دائماً إلى المبالغة في وصف الصعاب التي تعترض تسوية شئون أبيه. حتى انتهت ذات يوم إلى أن أطلعته على مسودة توكيل رسمي ينيبها عنه في أن «تتولى»، وتتصرف في أعماله، بما في ذلك تدبير القروض بأنواعها، وتوقيع وتحويل السندات بأنواعها، ودفع جميع المبالغ، الخ». وهكذا، كانت قد فهمت دروس «لوريه»!

وسألها «شارل» -في سذاجة- عن مصدر تلك الورقة، فقالت: «السيد جيومان». ثم أردف بغاية الهدوء: «إنني لا أثق فيه كثيراً، فإن لموثقي العقود سمعة سيئة. وقد يحسن بنا أن نستشير...».

«ولكننا لا نعرف احداً».

فأجاب «شارل» مفكراً: «اللهم إلا... ليون». على أنه كان من العسير مناقشة الأمور بالمراسلة، ومن ثم تطوعت لأن تسافر، فشكرها معتذراً، ولكنها أصرت. وتباريا في التطوع للأمر. ثم صاحت في غضب مصطنع: «لا، أرجوك. سأذهب أنا»، فقال وهو يقبل جبهتها: ما أطيبك!

وفي اليوم التالي، استقلت «العصفورة» ذاهبة إلى (روان) لتستشير السيد «ليون»، ومكثت هناك ثلاثة أيام!

الفصل الثالث

كانت ثلاثة أيام كاملة، ممتعة، رائعة. شهر غسل حقيقي! كانا في فندق (بولوني)، عند الميناء وهناك، عاشا بين الستائر المسدلة، والأبواب المغلقة، والزهور على الأرض، والمشروبات الثلجة تحمل إليهما كل صباح. وفي المساء، كانا يستقلان قارباً غير مكشوف، ويذهبان للعشاء في إحدى الجزر. تلك كانت الساعة التي يسمع فيها -بجانب أرصفة الميناء- صوت المطارق الخشبية وهي تدق جوانب المراكب، ودخان القار يتصاعد بين الأشجار، وعلى صفحة الماء تسبح بقع كبيرة شحمية، وتتموج تحت أرجوان الشمس، كأنها صفائح من البرونز الفلورنسي. وكانا يمضيان بقاربهما وسط المراكب الراسية، التي كانت أسلاكها الطويلة الممتدة بانحراف، تحتك بعض الشيء بأسفل القارب، ويأخذ عجيج المدينة في الخفوت رويداً، فتتباعد قرعة العربات، وهدير الأصوات، وعواء الكلاب الرابضة على أسطح السفن. وكانت «إيما» تخلع قبعتها، ثم يهبطان إلى جزيرتهما، فيجلسان في القاعة ذات السقف المنخفض، في إحدى الحانات التي اسدلت على أبوابها شباك سوداء وبأكلان السمك المقلو، و«الكريمة»، والكريز، ثم يستلقيان على الأعشاب، ويتبادلان القبلات وراء أشجار الحور، ويتمنيان لو أنهما عاشا كطائرين في هذه البقعة الصغيرة التي خالها -في نشوتهم- أخفم بقاع الأرض! وما كانت هذه أول مرة يريان فيها أشجاراً، وسما زرقاء، ومروجاً، أو يسمعان فيها خريف الماء، وحفيف الريح خلال أوراق الشجر، ولكنهما لم يعجبا بكل هذا قبل الآن، وكانا لم يكن للطبيعة وجود من قبل، أو كأنها لم تحظ بالجمال إلا منذ استجابا لشهواتهما!

ويعودان في الليل، ينساب بهما القارب ماراً بشواطئ الجزر، وقد جلسا معا في قاعة، منزويين في الظلال، صامتين، والمجدافان العريضان يرتطمان بالحلفتين الحديديتين -اللتين ثبتتا إليهما- فيبدو وقعهما في السكون كدقات مؤذنة بمرور الزمن، تصدر عن جهاز للتوقيت. بينما تكف الدقة -في المؤخرة- عن حفيفها الرقيق في الماء. وحدث أن بزغ القمر مرة، فلم يفتهما أن يصفاه بعبارات رقيقة، وأن يعلقا على الكوكب الحزين المفعم بالشاعرية. بل أن «إيما» شرعت تغني: «ذات ليلة -أتذكر؟ كنا نمخر عباب الماء- الخ». وضاع صوتها الرخيم الواهن مع الأمواج، وحملت الريح الصوت المرتعش الذي خاله «ليون» رفيف جناحين حوله! وكانت تجلس أمامه، متكئة على جدار القارب الذي كان ضوء القمر ينساب خلال نافذته، وثوبها الأسود الذي انتشر حولها كالمروحة. يظهرها أرشق عوداً، وأهيف قواماً، وقد ارتفع رأسها، وانعقدت يداها، وتطلعت عيناها إلى السماء. وكانت ظلال الصفصاف -على شواطئ الجزر التي يمران بها- تغمرها تماماً في بعض الأحيان، ثم لا تلبث أن تظهر في ضوء القمر كالطيف!

وعشر ليون -وهو جالس إلى جوارها في قاع القارب- على شريط من الحرير القرمزي تحت يده، فتأملته النوتي، ثم قال: «لعله من مخلفات الجماعة التي كنت أقلها في اليوم السابق. ثلثة من المرحين، سادة وسيدات، ومعهم فطائر وشمبانيا وأبواق الصيد، وكل ما يخطر بالبال! وكان بينهم -بوجه خاص- رجل أنيق، ذو شارين صغيرين، بالغ الطرف! وكانوا يقولون له: هيا، أرو لنا شيئاً يا أدولف، أو لعله رودولف، على ما أظن!» وارتجفت «إيما» فاقترب منها «ليون» قائلاً: «هل تشكين من شيء؟» فقالت: «لا، لا شيء! أنها رطوبة الليل ولا بد!» وأضاف النوتي الكهل بصوت خافت، ظناً منه أنه يتلطف إلى الشاب الغريب: «ولم تك تنقصه الفتنة التي تدير رؤوس النساء!» ثم بصق في راحتيه، واكب على مجدافيه.

ومع ذلك، كان لابد من أن يفترقا، وكان الوداع أليماً. واتفقا على أن يرسل خطاباته بعنوان الأم «روليه»، فأوصته بأن يحرص على أن يضع كل الرسالة في مظروف داخل المظروف الخارجي، فأطرى -في إعجاب شديد- هذا الحرص الغرامي! وقالت مع قبلتها الأخيرة: «إذن، فأنت تؤكد لي أن كل شيء على ما يرام؟» فأجاب: «أجل بالتأكيد!» وراح يسائل نفسه فيما بعد، وهو يعود وحده خلال الطرقات: «ولكن، لماذا هي جد ملهوفة على التوكيل الرسمي؟»

الفصل الرابع

لم يلبث «ليون» أن أبدى ترفعاً إزاء زملائه، فأخذ يتحاشى صحبتهم، وأهمل عمله اهمالاً تاماً. وكان ينتظر خطاباتهما، فيقرأها مراراً، ثم يكتب إليها، ويروح يتمثلها بكل ما لشهوته وذكرياته من قوة. وأخذ الشوق إلى رؤيتها يزداد بدلاً من أن يفتر لطلو الفراق، حتى انتهى به الأمر -في صباح يوم سبت- إلى الفرار من عمله، ليزورها! وما إن أبصر -من أعلى التل- برج الكنيسة في الوادي، والراية الحديدية البيضاء الصغيرة التي تعلوه -وهي تتحرك مع الريح- حتى شعر بتلك الغبطة الممتزجة بالغرور المزهر، والحنو الأناني، تلك الأحاسيس التي تستشعرها الملايين من الناس حين يزورون قراهم! وراح يحوم حول بيت «إيما»، وكان ثمة ضوء ينبعث من المطبخ. وأخذ يرتقب ظلها وراء الستائر، ولكن شيئاً لم يظهر!

وأرسلت الأم «لوفرانسوا» فيضاً من صيحات العجب، إذ خيل إليها أنه «كبير، ونحل عوده»، بينما ألفتها «ارتميز» على النقيض «ازداد سمنة وسعرة»! وتناول عشاءه في القاعة الصغيرة، كعهده في الماضي، ولكنه كان وحيداً، إذ لم يكن محصل الضرائب هناك. فقد سئم «بينييه»، انتظار عودة «العصفورة» في كل مساء، فقرر أن يقدم موعد عشاءه ساعة، وأصبح يتناوله في الساعة الخامسة بانتظام، ومع ذلك فلم يكف عن القول بأن «ساعة الفندق العتيقة متأخرة»!

على أن «ليون» لم يلبث أن حزم أمره، فطرق باب الطبيب، وكانت السيدة في حجرتها، أما السيد، فقد أبدى اغتباطاً لرؤيته. وفي ذلك المساء، رآها «ليون» وحدها -في ساعة جد متأخرة- في الدرب الممتد وراء الحديقة، عين الدرب الذي كانت تقابل فيه «الآخر»! وكانت الليلة عاصفة، فراحا يتناجيان تحت مظلة، على وميض البرق. وكان الفراق لا يطاق، فقالت إيما: «إن الموت أهون!» وقرغت في أحضانها باكية، وهي تقول: «وداعاً! وداعاً! متى أراك ثانية؟» ونكصا على أعقابهما ليتعانقا مرة أخرى. وإذ ذاك، عاهدته على أن تدبر عما قريب -بأية وسيلة كانت- فرصة يلتقيان فيها بانتظام -وفي حرية- مرة في كل اسبوع. علي الأقل! وما ارتابت «إيما» قط في قدرتها على ذلك، فضلاً عن أنها كانت مفعمة بالأمل، إذ كانت توشك أن تحصل على بعض المال، وفي ارتقاب وصوله، ابتاعت لمخدها زوجاً من الستائر الصفراء ذات الخطوط العريضة، أكد السيد «لوريه» أنها حصلت عليهما بأقل من ثمنهما. وكانت تحلم بسجادة، فقال «لوريه» إنه ليس بالحلم العسير، وأنها لا تطمع في «أن تشرب البحر»، وتولى احضار سجادة لها. ومن ثم لم تعد تستغنى عن خدماته. وكانت ترسل في استدعائه عشرين مرة في اليوم، فترك أعماله دون تدمير ليلبي دعوتها. كذلك لم يعد الناس يدركون سر ذهاب الام «روليه» لتناول

الفطور عندها كل يوم، ولا سر اختلاتها بها في زياراتها.



وفي تلك الفترة -أي حوالي بداية الشتاء- تملكها شغف كبير بالموسيقى. وفي إحدى الليالي، جلس «شارل» يصغى إليها، فاذا بها تعيد عزف القطعة ذاتها أربع مرات متواليات، وهي غير راضية، مع أنه لم يلاحظ في عزفها أي اختلاف، فصاح: «مرحى! بديع جداً! انك مخطئة في ظنك! واصلها»

- آه.. لا.. هذا نشاز.. لقد صدأت أصابعي!

ورجاها في اليوم التالي أن تعزف له ثانية إحدى المقطوعات، فقالت: «لا بأس إرضاء لك!». واعترف «شارل» بأنها خرجت عن اللحن قليلاً، وراحت تخطيء في توقيع الأنغام، وتتخبط، ثم توقفت دون أن تتم اللحن، وهتفت: «آه! لا فائدة! خليك بي أن اتلقى دروساً، ولكن...» وعضت شفتها مستطردة: «ولكن عشرين فرنكاً للدرس، مبلغ باهظ!» فقال «شارل» متضحكاً في غباء: «أجل، في الواقع... بعض الشيء، إنما يلوح لي أن في وسع المرء أن يحصل على الدروس بثمن أقل، إذ هناك فنانون مغمورون، كثيراً ما يكونون أفضل من المشهورين».

قالت إيما: «أبحث عنهم»

وعندما عاد إلى البيت في اليوم التالي، رمعها بنظرة خبيثة، وما لبث أن عجز عن كتمان ما لديه، فقال: «كم أنت عنيدة في بعض الأحيان! لقد كنت في (بارفوشير) اليوم.. حسناً! لقد انبأتني مدام «ليبيجار» أن بناتها الثلاث اللاتي يدرسن في معهد الرحمة -«لاميزيريكورد»- يتلقين دروساً بمعدل خمسين سو (أي فرنكين ونصف) للحصة، وعلى يدي أستاذة مشهورة كذلك!» فهزت كتفيها، ولم تعد تفتح معزفها. ولكنها كانت كلما مرت به -«بوفاري» موجود- زفرت قائلة: «آه، يا معزفي المسكين!» وإذا زارها أحد، لم تكن تقصر في إشعاره بأنها هجرت الموسيقى ولم تعد قادرة على العودة إليها، لأسباب قاهرة. فكان الزائر يقول: «يا للخسارة! كيف ذلك وهي التي أوتيت هذه الموهبة البديعة؟» بل كان الزائرون يتحدثون إلى «بوفاري»، ويخجلونه، لاسيما الصيدلي الذي كان يقول: «انك على خطأ، فما ينبغي للمرء قط أن يترك المواهب الطبيعية مهمة. ثم تذكر، يا صديقي الحميم، إنك إذ تحمل زوجتك على الدراسة، إنما تقتصد نفقات التعليم الموسيقي لطفلتك فيما بعد! فأنا اعتقد أن على الأمهات أن يعلمن أطفالهن بأنفسهن! هذا رأي «روسو»، ولعله لا يزال رأياً مستحدثاً، ولكنني متأكد من أنه لن يلبث أن ينتصر في النهاية، كما انتصر الرأي الخاص بلبن الأم، ويتطعيم الأطفال!». وهكذا عاد شارل مرة أخرى إلى موضوع «البيانو»، فقالت «إيما» في جفاء: إن من

المستحسن ببعده. وبدا لبوفاري أن التفريط في هذا المعزف -الذي طالما أَرْضَى كبرياءها- ليس سوى قتل لجزء من كيائها دون مراء، ومن ثم قال: «إذا كنت بحاجة إلى درس -من وقت لآخر- فما أظن هذا يبهظنا كثيرا»، فأجابت: «ولكن الدروس لا تجدي إلا إذا تتابعت في متابعة».

وبهذه الطريقة، استطاعت أن تحصل على إذن من زوجها بأن تذهب إلى (روان) مرة كل اسبوع، حيث كانت تلتقي بعشيقتها. وما انقضى شهر، حتى بدأ أنها أحرزت تقدما كبيرا في العزف!!

الفصل الخامس

كان اليوم الذي خصص للدراسة هو يوم الخميس من كل أسبوع. فكانت تنهض من نومها وترتدى ثيابها في هدوء، حتى لا توقظ «شارل» الذي كان ولا بد سيدهش، لأنها تتأهب للرحيل في وقت جد مبكراً وكانت بعد ذلك تروح وتجيء، وتذهب إلى النوافذ فتطل على الميدان، والفجر الوليد يحبو بين أعمدة السوق، وبيت الصيدلي، حيث تكون المصاريع مغلقة. وعلى ضوء الفجر الشاحب، تبدو الحروف الكبيرة التي كتبت بها لافتة الصيدلي، فإذا ما أشارت الساعة إلى الربع بعد السابعة، قصبت إلى فندق «الأسد الذهبي»، فتفتح لها «أرتميز» بابه وهي تتثائب، ثم تحرك لها الفحم القابع تحت رماد المدفأة. وتبقى «إيما» في المطبخ وحيدة، تخرج من أن لآخر، و«هيفير» يسرج جواده في تراخ، مصغياً -بجانب ذلك- إلى الأم «لوفرنسوا» التي تدفع رأسها بقلنسوة النوم القطنية خلال كوة، وتكلفه بالهام، وترهقه بايضاحات كانت كفيلة بأن تثير غيظ أي إنسان آخر. وتظل «إيما» تدق رصيف الفناء بنعلي حذاءيها وأخيراً، يرتدي الخوذي معطفه -بعد أن يكون قد تناول حساء- ويشعل غليونه، ويقبض على سوطه، ثم يستقر على مقعده في «العصفورة»، فتبدأ هذه رحلتها في خطى بطيئة، متوقفة هنا وهناك -خلال الميل الأول- لتلتقط المسافرين الذين يكونون في انتظارها وقوفاً على حافة الطريق، أمام أبواب افنية دورهم. وكان الذين حجزوا لأنفسهم مقاعد في الليلة السابقة، يتركون العربة تنتظرهم، بل كان منهم من ينتظرها وهو في سريره، داخل داره. فكان «هيفير» ينادي، ويصيح، ويصخب، ثم يهبط عن مقعده، ويطرق الأبواب في عنف، والريح تصفر خلال شقوق نوافذ العربة.



وإذ تمثلي المقاعد الأربعة، تتطلق العربة، وصنوف أشجار التفاح تتتابع، والطريق بين خطى الخنادق المليئة بالماء الأصفر -لري هذه الأشجار- تمتد مائلة إلى الضيق باطراد كلما قاربت الأفق. وكانت «إيما» قد عرفت هذه الطريق من أولها إلى نهايتها، فكانت تعلم أن ثمة علامة من علامات الطريق تقوم بعد منطقة من المراعي، تتلوها شجرة دردار، ثم أحد الاهراء (شونة)، وكوخ أحد الفلاحين العاملين في الحقول. بل إنها كانت أحياناً تغمض عينيها أملاً في المفاجآت. ولكنها كانت لا تخفق أبداً في التكهّن بما يطوى من مسافات. وأخيراً، تبدأ البيوت المبنية بالطوب في التتابع، وتزداد تقارباً، ويسمع للعجلات صوت خاص -إذ تدلف إلى الطريق المرصوفة- ثم تنساب «العصفورة» بين حداثق يري

المرء خلال فرجاتها تماثيل، وإحدى عرائس الكروم، وأشجار «الشوحط» المقلمة، وأرجوحة. ثم تظهر المدينة فجأة، متدرجة في الانحدار كما لو كانت مدرجاً في أحد الملاعب، وقد غرقت في أحضان الضباب، وتنبسّط بعد الجسور، متسعة في فوضى. ثم يمتد الريف بعد ذلك، في استرسال رتيب، حتى يمس -على البعد- الخط المانع الذي تلتقي عنده السماء الباهتة بالأرض. وكانت المنطقة تبدو من عل جامدة، كلوحة مرسومة، وقد تجمعت السفن الراسية في أحد أركانها، وتلوي النهر حول سفوح التلال الخضراء، واستلقت الجزر في أوضاع منحرفة، وسط الماء، كأنها أسماك ضخمة، ساكنة، سوداء، ومداخن المصانع تنفث سحباً بنية هائلة من الدخان، تنتشر في الفضاء، وهدير المسابك يسمع مختلطاً بالرنين الجلي المنبعث من أجراس الكنائس القائمة وسط الضباب، والأشجار العارية عن الأوراق في الطرقات، تبدو -على بعد- متجمعة كأحراش بنفسجية وسط البيوت، والسقوف اللامعة بماء المطر تعكس بريقاً غير متعادل، تبعاً لارتفاع الأحياء التي تقوم فيها. وأحياناً، تهب نسمة من ريح، فتدفع السحب نحو تلال (سانت كاترين)، كأنها موجات هوائية تتكسر في صمت على صخرة شاهقة.

وكان يخيل لإيما أن لوناً من الزهو يواتيها من هذه الكتلة من الوجود، فينتفخ فؤادها، وكأن المائة والعشرين ألف قلب -التي تخفق في المدينة- قد نفثت في هذا الفؤاد ما تعمر به من عواطف مشبوهة! وينمو حبها إزاء هذا الفضاء الشاسع، ويزخر قلبها بصخب إزاء الطنين المبهم الذي يترامى إليها من البلدة، فتروح تسكب بدورها ما يفعم به قلبها، وتفيض منه على الميدان، والطرقات، والشوارع، وتقد أمامها هذه المدينة العريقة -من مدى نورماندى- كما لو كانت عاصمة ضخمة، أو كأنها «بابل» توشك أن تدخلها! وتقبل على نافذة، معتمدة على كلتا يديها، لتعب من النسيم، وتأخذ الجياد الثلاثة في الركض على الأرض المرصوفة بالأحجار والتي يكسوها الوحل، والعربة ترتج، و«هيفير» يحيي عن بعد العربات التي تجرى في الطريق، بينما ينحدر الأهالي الذين قضوا ليلتهم في غابة (جيوم)، على السفح في هدوء، مستقلين عربات أسراتهم.



وتقف العربة عند السياج، فتخلع «إيما» الوقاءين اللذين يحيطان بحذاءيها، وترتدي قفازيها، وتسوي من شالها، ولا تلبث أن تغادر «العصفورة» فإذا المدينة تنفض عنها السبات، وعمال المتاجر ينظفون -في قلنسواتهم- واجهات الحوانيت، وبعض النسوة قد حملن سلالاً أسندنها إلى أردافهن، ورحن ينادين بأصوات جهورية عند ناصيات الشوارع في فترات. وتسير «إيما» لصق الجدران، وقد نكست عينيها، وراحت تبتسم في غبطة تحت قناعها الأسود. ولم تكن تسلك أقرب الطرق -في العادة- خشية أن يراها أحد، بل كانت تضرب في الحوار المعتمة، حتى تبلغ نهاية شارع (ناسيونال) -على مقربة من النافورة-

وهي تتصيب عرقا. كان ذلك حي المسارح، والحانات، والغانيات، وكمن مرة كانت تمر بها عربة بداخلها منظر منكرا بينما ينهمك خدم المشارب -في مراولهم- في نشر الرمل على البلاط، بين الشجيرات الخضراء، والجو يعبق بروائح الكحول، والسيجار، والمحار.

وتتنحرف إلى أحد الشوارع، ثم تعرفه بشعره المجدع المنساب من تحته قبعته. ويسير «ليون» على الرصيف، وهي في أثره، حتى الفندق، فيصعد، ويفتح الباب، ويدخل ويا له من عنقا! ثم تنساب الكلمات دافقة بعد القبلات، ويحدث كل منهما الآخر بمتابع الاسبوع، وهواجس القلب، واللهفة الى الخطابات. على أن كل شيء كان لا يلبث أن يغدو منسياً، ويروح كل منهما يحملق في وجه الآخر، وينطلق في ضحكات داعرة، ويناديه بأرق الأسماء!

وكان السرير واسعاً، من خشب المهوجاني، على شكل قارب، والستائر من حرير الشرق الأحمر، تنسدل من السقف، وتنتفخ كثيراً وهي تقترب من رأس الفراش الشبيه بالناقوس، وما كان في الدنيا ما هو أجمل من شعر «إيما» البنى ويشرتها البيضاء، وسط هذا اللون القرمزي -الذي تضيفه الستائر- عندما تنفي ذراعيها العاريتين في حركة مستحجية لتخفي وجهها في راحتيها، وكأنما كانت الحجرة الدافئة -بستائرها السمكية، وزخرفها البهيج، وضوئها الهاديء- قد خلقت للخلوات المشوبة! وكانت القصبات التي علقت إليها الستائر، والتي كانت تنتهي من الطرفين بسهمين، والحلقات النحاسية، والكرتان الكبيرتان المعلقتان فوق المدفأة، تبرق فجأة حين تتسلل الشمس إلى الغرفة. وبين الشمعدانين القائمين على رف المدفأة، كانت ثمة محارتان كبيرتان من ذلك النوع الذي يخيّل للمرء، إذا ما ألصقه بأذنه، أنه يسمع خرير البحر! ما كان أقوى حبهما لهذه الحجرة الغالية، المفعمة بكل هذه البهجة، رغم روائها الخابي! كانا دائماً يجدان قطع الاثاث في اماكنها المعهودة، بل كانا أحياناً يجدان دبابيس الشعر التي تكون قد نسيتهما في يوم الخميس السابق، عند قاعدة الساعة. وكانا يتناولان الغداء إلى جوار المدفأة، على منضدة صغيرة مستديرة، مرصعة بخشب الورد. وكانت «إيما» تقطع اللحم، وتنقل قطعاً إلى طبقه، بكل ألوان الحركات الخليعة، وترسل ضحكات رنانة منغومة إذا سال زيد الشمبانيا من الكوب إلى الخواتم التي تحيط بأصابعها. وكان كل منهما ينتشي بقرب الآخر، حتى ليخال أنه في بيتهما، وأنهما سيعيشان معاً حتى الموت، كقرينيين كتب لهما الشباب ابدًا! وكانا يرددان في أحاديثهما: «غرفتنا»، و«سجادتنا»، بل كانت تقول «خفي»، وهما خفان اهداهما إليها «ليون»، فكانت تشعر بلذة في انتعالهما. كانا من الحرير الوردى، يحيط بكل منهما إطار من زخارف نقشت على شكل البجعة، وكانت إذا ما جلست على ركبتيه، تتدلى ساقاها في الهواء -لقصرهما في هذا الوضع- فلا يسك الخف الأثيق، إلى قدمها العارية، سوى أطراف أصابع القدم!

أما هو، فقد نعم للمرة الأولى بألوان اللطف الأنثوي التي لا سبيل الى وصف

عذوبتها، أبداً لم يصادف من قبل هذه اللغة الرقيقة! ولا هذه الألوان من الثياب المستترة، ولا هذه الأوضاع التي يليها عليها الطيش في نعاسها. وكان يعجب بما تزخر به نفسها من غواية، وما يزدان به قميصها من «دانتيل»! ثم، ألم تكن سيدة مجتمع وزوجة! وعشيقة صادقة، أخيراً؟

ويتباين مزاجها - من مزاج ورع، إلى مرح، إلى ثرثار، إلى صامت، إلى منفعل مشبوب، إلى مستهتر - ايقظت فيه ألف رغبة، وأثارت الغرائز والذكريات. كانت تمثل العشيقة في كل رواية، والبطل في كل مسرحية، و«هى» الغامضة، المبهمة، في كل دواوين الشعر. وعلى كتفيها، تراءى له ذلك اللون الكهرماني الذي كان قد رآه في لوحة «جارية في الحمام»! ورأى في جسدها ذلك الخصر الطويل الذي كان طابع سيدات القصور في العصور الاقطاعية، كما كانت تشبه «حسنا برشلونة الشاحبة». على أنها كانت فوق كل هذا! «الملاك»! وكثيراً ما كان يخیل إليه، وهو يتأملها، أن روحه تنطلق نحوها، فتنتشر كموجة حول حدود رأسها، ثم تهبط مجذوبة إلى نحرها. وكان يركع أمامها على الأرض، ويعتمد برفقيه على ركبتيها، ويروح يتطلع إليها بابتسامة، مشرباً بعنقه وكانت هي تنحني عليه، وتغمغم والنشوة تخنقها: «أواه، لا تتحرك! لا تتكلم! انظر إلى من عينيك تنبعث حلاوة تنعشني!».. وكانت تدعوه بالطفل، فتقول: «أو تحبني يا طفل؟» ولم تكن تسمع جوابه، إذ تسرع بإلصاق شفتيها بشفتيه!

وكان فوق الساعة قثال برونزي لكيوبيد مبتسماً، وهو يثني ذراعه تحت غصن ذهبي. أنهما كثيراً ما ضحكا لمظهره، ولكنه كان يبدو لهما إذا حانت ساعة الفراق، حزناً عابساً.. وكان يرددان وهما يقفان متقابلين، لا يحيران حراكاً: «إلى الخميس القادم، إلى الخميس!» وكانت تحتوى رأسه بين راحتيها فجأة، وتطبع قبلة متعجلة على جبينه، وتصيح: «وداعاً!» ثم تندفع إلى السلم، فتيمم شطر شارع (لا كوميدي)، لدى حلاق ينسق لها شعرها. ويهبط الليل، فيوقد مصباح الغاز في حانوت الحلاق، وتسمع جرس المسرح المواجه يدعو الممثلين إلى الظهور، وترى رجالاً ذوي وجوه بيضاء، ونساء ذوات زينة خابية، يلجون خلال الباب المفضى إلى «الكواليس». وكان الجو حاراً في ذلك الحانوت الصغير ذي السقف الشديد الانخفاض، حيث كانت المدفأة - التي توقد بغاز الاستصباح - تثر وسط الشعور المستعارة والدهون. وكانت رائحة ملاقط كي الشعر، مع رائحة اليدين الملطختين بالزيت واللتن تعالجان شعرها، لا تلبثان أن تحذراها، فتغفوا قليلاً، تحت يدي الحلاق. وكثيراً ما كان الرجل يقدم لها - وهو ينسق شعرها - تذاكر لحفلات رقص تنكرية!

وكانت تنصرف بعد ذلك، فتجتاز الطرق حتى تبلغ فندق الصليب الأحمر، حيث تكون «العصفورة» في الانتظار، فتحيط حذاً عليها بالوقاءين اللذين دستهما تحت المقعد في الصباح، وتندس في مجلسها بين المسافرين النافذي الصبر. وكان بعضهم يبارح العربية أسفل التل، فتبقى «إيما» وحيدة، وأضواء البلدة تزداد جلاء كلما مضت العربية في طريقها

فوق السفح، فتبعث غلالة كبيرة منيرة فوق البيوت المعتمة وتركع «إيما» فوق الوسائد، وترسل بصرها يحوم فوق الأضواء المتألقة، وتبكي، وتنادي «ليون»، وتبعث إليه مع الريح -بأرق المناجاة وأعذب القبلات. وكان ثمة متسول مخبول يهيم على السفح، ضارباً بعصاه بين عربات البريد، تغطي منكبيه كومة من الأسمال، ويخفي وجهه وراء قبعة من جلد كلب البحر، تبدو كوعاء مقلوب فإذا رفعها، كشف في مكان الجفنتين عن ثقبين غائرين ملطخين بالدم، وقد تمزق لحمهما أرباً حمراء تتدلى وتنزى بسوائل تنساب في خط أخضر على طول الأنف الذي كانت فتحته تختلجان في حركات تشنجية! ولكي يتحدث إليك، كان يطوح رأسه إلى الخلف في ضحكة مخبولة، ثم يدور إنساناً عينيه -الضاربان إلى الزرقة- في حركة مستمرة، مندفعين نحو صدغيه، على حافة الجرح المنكوء، وكان يردد وهو يتبع العربات أغنية قصيرة: «دفع الأيام الجميلة كثيراً ما يوحى إلى العذارى بأحلام الهوى». ويدور باقي الأغنية حول الطيور، والشمس المشرقة، وأوراق الشجر الخضراء.

وكان -في بعض الأوقات- يظهر فجأة وراء «إيما» وهو عاري الرأس فتجفل صارخة، ويسخر منه «هيفير» وينصحه بأن يستأجر خيمة في مهرجان «سان رومان» أو يسأله ضاحكاً عن صحة عشيقته! وكثيراً ما كانت العربة تتحرك، فإذا قبعتها تندفع إلى داخلها بحركة مفاجئة من يده، خلال النافذة الصغيرة، بينما يتعلق بذراعه الأخرى بحافة العربة، بين العجلات التي تنثر الوحل، وينبعث صوته في البداية واهناً، مرتجفاً، ثم يزداد حدة، ويدوى في الليل كأنين غامض ينبعث من شخص محزون، وقد أوتي رنيناً ينطلق إلى مدى بعيد بين دقات الأجراس، وحفيف الأشجار، وقرقعة العربات الفارغة، فيشير الاضطراب في نفس «إيما»، ويتغلغل إلى أعماقتها، كاعصار في هوة سحيقة، ويحملها إلى مفازات من الأسى لا حدود لها! ولكن «هيفير» كان لا يلبث أن يشعر بثقل في مؤخرة العربة، فيلهب الأعشى بسوطه، ويمس طرف السوط جراحه، فيهوى في الوحل صارخاً. ولا يلبث أن ينتهي الأمر بركاب «العصفورة» إلى النوم، فمنهم من يفغر فاه، ومنهم من يحني ذقنه على صدره ويرتكن إلى كتف جاره، أو يدس ذراعيه خلف حزام العربة، ويروح بهتز مع ارتجاجاتها، وضوء المصباح الذي ينعكس متذبذباً على كفل الجواد القريب، ينساب إلى داخل العربة خلال الستائر المصنوعة من خيش بني، فيلقى ظلالاً دموية على أولئك الجامدين في أماكنهم جميعاً. وكانت «إيما» المستغرقة في أساها، ترتجف تحت ثيابها، وتحس بقدميها تزدادان برودة باطراد، وبالموت يجثم على نفسها!



ويكون «شارل» في انتظارها في البيت. وكانت «العصفورة» تتأخر دائماً في أيام الخميس، وتصل السيدة إلى دارها أخيراً، فتقبل طفلتها في أزورار، ولا يكون العشاء معداً، فلا تحفل، بل تلتمس للخادم عذراً، فقد أصبحت الفتاة تتصرف كما يحلو لها..

وكثيراً ما كان زوجها يسألها -إذ يلاحظ شحوبها- عما إذا كانت تحس وعكة، فتقول: «لا». ويرد قائلاً: «ولكن شكلك غريب الليلة!» فتجيب: «آه، لا شيء! لا شيء!» بل كانت في بعض الأيام لا تكاد تلج الدار حتى تصعد إلى مخدعها. وقد يكون «جستان» هناك مصادفة، فيروح ويغدو في هدوء، مبادراً إلى خدمتها خيراً من أفضل وصيفة، فيضع الثقاب والشمع وكتاباً في متناول يدها، ويسوي قميص نومها، ويقلب أغطية السرير. ولا تلبث أن تقول: «كفى! تستطيع أن تنصرف!»، إذ كان يظل واقفاً، ويداه متدلّيتان إلى جانبيه، وعينه مفتوحتان على وسعهما، وكأنهما مشدودتان إلى خيوط لاعداد لها تنبعث من طيف باغته!

وكان اليوم التالي يفد فظيلاً، والأيام التي تعقبه أشد منه وطأة، بسبب الضيق الذي يستبد بإيما لحرمانها من السعادة. وكان الشوق المتأجج، الذي تذكبه صور تجارب الماضي، ينطلق من أساره في اليوم السابع، في أحضان «ليون». أما هو، فكانت وقدة شبقه تتوارى خلف فورات العجب والشعور بالجميل. وكانت «إيما» تتذوق غرامه في رزاة واستغراق واستيعاب، وتستيقظه بكل حيل حنانها وفنون عواطفها، وترتجف خشية أن تفقده فيما بعد وكثيراً ما كانت تقول له بصوتها العذب الشجي: «آه! لسوف تهجرني يوماً! لسوف تتزوج، وتفعل ما يفعله الآخرون!..» فيسألها: «أي آخرين؟» وتجيب: «عجياً، ككل الرجال». ثم تردف وهي تصده بحركة واهنة: «إنكم جميعاً أرذال أنجاس!» وفيما كانا يتحدثان متفلسفين عن ألوان الخيبة التي تصيب الأوهام في الدنيا، إذا بها تنبئه بأنها -فيما مضى- كانت موضع حب شخص آخر، قبله، وكأنما أرادت أن تختبر غيرته، أو لعلها كانت منساقاة وراء قوة لا قبل لها بمقاومتها، تدفعها إلى أن تفضي بدخيلة قلبها. ثم أردفت مسرعة: «لم يكن على شاكلتك». وراحت تقسم برأس ابنتها على أنه لم يجر بينهما شيء! وصدقها الشاب، ولكنه مع ذلك راح يسألها ليعرف شيئاً عنه. فقالت: «لقد كان ريان سفينة يا عزيزي!» أفلم يكن هذا رادعاً عن كل تساؤل، محققاً لها في الوقت ذاته مكانة رفيعة، لكونها استطاعت أن تفرض سحرها على رجل كان ولا بد ذا فطرة محاربة، وكان معتاداً أن يتلقى الاكرام والولاء، لا أن يقدمهما!



إذ ذاك شعر الكاتب بضعة مركزه، وتاق إلى الأشرطة التي تزين اكتاف الضباط، وإلى الصلبان، والألقاب. كل هذا لابد أن يسرها، فهكذا أدرك من عاداتها المبنية على الاسراف! ومع ذلك، فقد كانت تخفي كثيراً من نزواتها المبذرة، كرجبتها في أن تقتني عربة خفيفة زرقاء، تقلها إلى (روان)، ويجرها جواد انجليزى، ويقودها حوذي يلبس هذا من النوع ذي العنق العالي. وكان «جستان» هو الذى أوحى إليها بهذه النزوة، إذ راح يتوسل إليها أن تلحقه بخدمتها كوصيف. وإذا كان الحرمان من هذه الرغبة لم يقو

على أن يقلل من سرورها بوصولها إلى موعد اللقاء في كل مرة، إلا أنه كان يضاعف من أساها في العودة. وكثيراً ما كانت تغمغم حين يتحدثان عن باريس: «آه! شد ما نسعد إذا عشنا هناك!» فيجيبها «ليون» متسائلاً في رفق، وهو يدس يديه في شعرها: «أو لسننا سعيدين؟» فتقول: «بلى، حقاً. أنني مجنونة. ألا قبلني!».

وازدادت تلطفاً إلى زوجها عن ذي قبل، فأصبحت تصنع له «الكريمة بالفسق»، وتعزف له ألحان «الفالس» بعد العشاء، حتى خال نفسه أسعد الناس خطأ، وظلت «أيمّا» تعيش دون ما شيء يثير قلقها، حتى كان ذات مساء، إذ سألتها فجأة: «إن مدموازيل لامبرير هي التي تلقنك الدروس، أليست هي؟» قالت: «بلى!» فأردف قائلاً: «حسناً! لقد قابلتها منذ هنيهة، في منزل مدام «ليبيجار»، وحدثتها عنك، فلم تعرفك!» وكأنما انقضت عليها صاعقة، ولكنها مع ذلك أجابت في هدوء طبيعي: «آه، لاشك أنها نسيت اسمي». قال الطبيب: «أو لعل هناك أكثر من مدموازيل لامبرير واحدة، يدرسن الموسيقى في روان!» فبادرت قائلة: «ربما! ولكنني احتفظ بالايصالات هنا. انظرا!» وسارت إلى المكتب، فتقبت في كل أدراجة، وبعثرت الأوراق، ثم جن جنونها أخيراً حين لم يرجعها شارل -في الحاح- أن لا تزعج نفسها بأمر هذه الاتصالات. وقالت: «آه، سأبحث عنها».

وقد كان، فبينما كان «شارل» يدس قدمه في أحد الأحذية التي كانت في الخزانة المظلمة التي اعتاد أن يحفظ فيها ثيابه، إذا به يشعر بقصاصة ورق بين جوربه وجلد الخذاء، فتناولها، وقرأ فيها: «تسلمت مبلغ ثلاثة وستين فرنكا عن دروس موسيقية لثلاثة أشهر، وعدد من القطع الموسيقية -فيليسى لامبرير، معلمة موسيقى».

- كيف بحق الشيطان، قدر لهذا أن يكون في حذائي؟ فأجابت: «لا بد أنه وقع من الصندوق الورقي القديم الذي تحتفظ فيه بأوراق الحساب، والذي نضعه على حافة الرف».



منذ تلك اللحظة أصبح وجودها مجموعة متصلة من الأكاذيب، التي كانت تلف فيها هواها، كما لو كانت أقتعة تخفيه. كان الكذب ضرورة، بل هواية، بل لذة يحلو المضي فيها إلى درجة أنها إذا قالت إنها سارت في اليوم السابق على الجانب الأيمن من الطريق، وجب على المرء أن يدرك أنها سارت على الجانب الأيسر. وذات يوم خميس، بدأت السماء قطر جليداً على حين غرة، بعد خروجها في ثياب خفيفة كعادتها، وبينما كان «شارل» يرقب الجو خلال النافذة، لمح الأب «بورنيسيان» في عربة السيد توفاش الخفيفة، في الطريق إلى (روان)، فهبط وأعطى القس شالاً سميكاً سأل أن يسلمه إلى زوجته بمجرد وصوله إلى فندق «الصليب الأحمر». فلما بلغ السيد «بورنيسيان» الفندق، سأل عن زوجة طبيب (ايونفيل)، ولكن ربة الفندق ذكرت له أنها نادراً ما تفد على نزلها. ومن ثم فان القس

حين رأى مدام «بوفاري» في «العصفورة» -في ذلك المساء- أنهاها عن ورطته، وإن لم يبد عليه أنه علق على الأمر أهمية كبيرة، إذ لم يلبث أن تحول يطري واعظاً كان يفعل العجائب في الكاتدرائية، وأصبحت السيدات جميعاً يحرصن على سماعه! وإذا كان القس لم يطلب منها أي تفسير، إلا أن غيره قد يكون أقل منه رزانة، فيما بعد. ومن ثم اعتزمت أن تنزل في فندق «الصليب الأحمر» في كل مرة، حتى لا يرتاب أحد من أهل قريتها إذا رآوها على سلمه!

غير أن السيد «لوريه» التقى بها يوماً وهي تغادر فندق «بولوني»، متكنة إلى ذراع «ليون»، فجزعت إذ ظنت أنه لن يلبث أن يشي بها. ولكنه لم يكن حيواناً «مجرداً من العقل»! ومع ذلك فقد زارها في غرفتها بعد ثلاثة أيام، وأغلق الباب، ثم قال: «إنني في حاجة إلى نقود» فصارحته بأنها لا تملك أن تعطيه شيئاً، فانفجر يكيل لها اللوم، ويذكرها بكل ما أبداه لها من مراعاة ومعروف. إذ أن «إيما» لم تكن قد سددت -حتى ذلك الحين- سوى قيمة سند واحد من السندين اللذين وقعهما «شارل»، أما السند الثاني، فقد قبل التاجر -برجاء منها- أن يستبدل به آخر، جدد بدوره إلى أجل بعيد. وما لبث أن أخرج من جيبه قائمة بسلع لم تدفع ثمنها، هي الستائر، والسجادة، وقماش لكسوة المقاعد الوثيرة، وعدة أثواب، ومجموعة من أدوات الزينة.. وكانت أثمانها تبلغ ألفي فرنك! ونكست «إيما» رأسها، وهي تسمع حديثه! «ولكن، إذا لم تكن لديك نقود حاضرة، فانت تملكين عقاراً». وذكرها ببيت صغير متداعٍ تعس في (بارنفيل) -على مقربة من (أومال)- لم يكن ذا قيمة تذكر، وقد كان فيما مضى جزءاً من مزرعة صغيرة باعها السيد «بوفاري» الأدب، لكنه استبقاه لنفسه من دونها، فورثه ابنه عنه، وهكذا، كان «لوريه» يعرف كل شيء، حتى مساحة الأرض بالهكتار، وأسماء الجيران!

وما لبث أن استطرد قائلاً: «لو أنني في مكانك، لخلصت نفسي من الديون، وحصلت فوق ذلك على مبلغ من المال». فأشارت إلى صعوبة العثور على مشتر، ولكنه أوحى إليها بالأمل في أن يعثر على واحد، فاستفسرت منه عما تفعله لتتمكن من البيع. وسألها: «أليس لديك تفويض؟» وهبت عليها الكلمة الأخيرة كنسمة عليلة، فقالت: «دع لي قائمة الحساب». وأجاب لوريه: آه، انها ليست ذات بال! وما لبث أن عاد في الاسبوع التالي، وراح يزهى بأنه -بعد كثير عناء- قد وقع أخيراً على سيد من آل «لانجلوا»، كان يرمق العقار منذ زمن طويل، ولكنه لم يعرض بعد ثمنه. فصاحت: «لست أحفل بثمان معين!» على انهما اضطرا -على العكس- إلى أن يترشا، ليتعرفا مدى استعداد ذلك الرجل. وكان الأمر يستلزم رحلة، ولما لم تكن تملك القيام بها، فقد عرض «لوريه» أن يذهب إلى الموقع ليراه مع «لانجلوا». وحين عاد، ذكر أن المشتري عرض أربعة آلاف فرنك، فأشرق وجه «إيما» للتنبأ، وعقب لوريه قائلاً: «واعتقد صراحة أنه ثمن طيب».

وحصلت على نصف المبلغ فوراً، فلما همت بأن تسدد حسابها، قال لها التاجر: «إنه

ليحزنني -بشرقي- ان أراك تحرمين نفسك من مبلغ كبير كهذا في التوا» ونظرت إذ ذاك إلى الأوراق المالية، وراحت تحلم بالخلوات التي لا حصر لها، والتي يمكن أن تتيحها هذه الفرنكات الألفان وقالت متلعثمة: «كيف؟ كيف؟»، فضحك متظاهراً بالطيبة، وقال: «آه! إن المرء يستطيع أن يضيف إلى قوائم الحساب كل ما يريد! أو لست أعرف كيف تدبر البيوت؟» ورمقها بنظرة لا تحيد، وهو يمسك بورقتين طويلتين راح يعبث فيهما بأظفاره، ثم فتح حافظته في النهاية، ويسط أربعة سندات «تحت الطلب»، قيمة كل منهما ألف فرنك، وقال: «وقعي هذه، واحتفظي بالمبلغ». فشبهت في استنكار. فقال في وقاحة: «إذا أعطيتك كل ما يفيض عن الدين، أفلا أكون قد أدت خدمة؟» وتناول قلماً، فكتب تحت قائمة الحساب: «تسلمت من مدام بوفاري أربعة آلاف من الفرنكات».

- الآن، من يملك أن يزعجك، ما دمت ستتقاضين خلال ستة أشهر ما تبقى من ثمن كوخك، وما دمت سأرجئ موعد استحقاق السند الأخير حتى تتسلمي المبلغ؟

وازداد ارتباك «إيما» بالعمليات الحسابية، وسمعت طنيناً في أذنيها كأنه رنين العملة الذهبية التي تنساب من أكياسها متناثرة حولها عل الأرض. وأخيراً، أنبأها «لوريد» بأن له صديقاً حميماً يدعى «فانكار» -صرافاً في (روان)- على استعداد لأن يدفع قيمة السندات الأربعة مقدماً، وإذ ذاك سيسلمها ما يزيد على قيمة الحساب.

ولكنه بدلا من احضار الألفى فرنك، لم يحضر سوى ألف وثمانمائة، لأن صديقه «فانكار» -وكانما كان صادقا في زعمه- قد اقتطع مائتي فرنك كعمولة وفائدة عن الخصم. ثم طلب منها -في تظاهر الاكتراث- أن تكتب له ابصلا، وهو يقول: «انك تدركين، انه في المسائل التجارية... أحيانا...». ثم استدرك: «...اكتبي التاريخ من فضلك، التاريخ».



تفتح أمام «إيما» أفق من الأهواء التي يمكن تحقيقها! على أنها كانت من الحكمة بحيث استبقت -من قبيل الحيلة- ألف دينار^(١)، استطاعت أن تدفع منها السندات الثلاثة الأولى.. على أن الرابع استحق الدفع في أحد أيام الخميس -مصادفة- فراح «شارل» ينتظر بصبر نافذ، واستياء بالغ، عودة زوجته ليسألها أيضاها للأمر. وقالت له -حين عادت- إنها إذا لم تك أنباته بأمر هذا السند، فانما لتجنبه الشواغل المنزلية.. وجلست على ريكتيه تعانقه، وتداعبه، وتعدد له - في قائمة طويلة- كافة الأشياء التي

(١) تكرر ذكر «الدينار» في الكتابين الأول والثاني من ترجمة الرواية، حيث غدا من حق القاريء أن يعرف شيئا عن أصل هذا التعبير. فالدينار ترجمة لكلمة écu، وكانت تطلق على عملة فرنسية قديمة تعادل ثلاثة فرنكات، فالألف دينار قيمتها ٣٠٠٠ فرنك.

لا غنى عنها، والتي اضطرت إلى أن تحصل عليها بالنسيئة. وقالت: «خليق بك أن تعترف أنها - بالنسبة للكمية - لم تكن جد باهظة!.. ولم يجد «شارل» حيلة، سوى أن يسرع إلى الاستنجاد بلوربه الخالد، الذي تعهد بأن يسوى الأمور، إذا وقع «الدكتور» سندان لأمره، أحدهما بسبعمئة فرنك تستحق الدفع بعد ثلاثة أشهر. ولكي يدبر قيمة هذا السند، كتب «شارل» إلى أمه خطاباً مؤثراً، ولكنها بدلا من أن ترسل له رداً، حضرت بنفسها.

وعندما أرادت «إيما» أن تعلم ما إذا كان قد حصل على شيء منها، قال: «أجل، ولكنها تريد أن ترى الحساب». وما إن طلع الصباح التالي، حتى هرعت «إيما» إلى «لوربه» تتوسل إليه إن يكتب قائمة أخرى للحساب، لا تزيد قيمتها على ألف فرنك، إذ كان لا بد - إذا أطلعتهما على القائمة ذات الأربعة آلاف فرنك - أن تذكر أنها سددت ثلثيها، وأن تعترف - إذ ذاك - ببيع العقار، وبأن المفاوضات في هذا الصدد قد تولاهما ببراعة. ولم تظهر قيمة جهوده فيها إلا أخيراً (حين خرج من الصفقة بنصيب الأسد).

وجاءت الساعة المحتومة التي تعين أن تناقش فيها الحماة زوجة ابنها الحساب وعلى الرغم من السعر الزهيد الذي كتب أمام كل سلعة، فإن الحماة كانت خليقة بأن ترى إسرافاً في الإنفاق: «أو لم يكن من الممكن أن تستغني عن السجادة؟ ولماذا أعددت كسوة المقاعد؟ لقد كانوا يكتفون - في أيامي - بمقعد وثير واحد في البيت، للمسنين. أو هكذا كان الأمر في بيت أمي، وأؤكد أنها كانت امرأة صالحة، ليس في وسع الناس جميعاً أن يكونوا أغنياً! فليس لثروة من بقاء أزاء التبديد! انني كنت خليقة بأن أخجل، لو انني ذلت نفسي كما تفعلين، مع أنني مسنة، وفي حاجة إلى عناية! ثم، ما هذا؟ عجباً! إصلاح أثواب! تبذيراً عجباً! حرير للبطانة، في حين أن بوسعك الاكتفاء بقماش من «الشيت» بعشرة سنتيمات، بل بثمانية!» وكانت «إيما» تجيب في هدوء، وهي مضطجعة على أريكة: «آه! كفى يا سيدتي! كفى!» ولكن الأخرى مضت تلقي عليها محاضرة، متنبئة بأنهما سينتهيان إلى ملجأ! واستطردت قائلة إن الذنب - مع ذلك - كان ذنب «بوفاري»، وأنه وعد لحسن الحظ بأن يلغي التوكيل الرسمي. فهتفت إيما: «كيف؟» وقالت الحماة: «آه! لقد أقسم لي أن يفعل!» ففتحت «إيما» النافذة، ونادت «شارل». واضطر الابن المسكين إلى أن يعترف بأن أمه انتزعت منه الوعد. فغابت «إيما»، ثم عادت مسرعة، وهي تقدم لها في شمع صفحة من ورق سميك، فقالت العجوز: «شكراً لك». وألقت بعقد التوكيل الرسمي إلى النار!

وانطلقت «إيما» تضحك، ضحكة حادة، منكرة، متواصلة، إذ تولتها نوبة انفعال عصبي، وصاح شارل بأمره: «أواه، يا الهي! آه! انك لعمر الحق قد أخطأت! اقتأتين إلى هنا لكي تتشاجري معها؟! فهزت أمه كتفيها قائلة إن هذا كله لم يكن سوى تمثيل، ولكن شارل تمرد على أمه - للمرة الأولى - وطلق يداق عن «إيما» حتى اضطرت مدام «بوفاري»

الأم إلى أن تعلن عزمها على الرحيل. وبالفعل سافرت في اليوم التالي مباشرة. وقالت عند الباب، إذ حاول أن يثنيها: «لا، لا! أنك تحبها أكثر مما تحبني، ولك الحق، فهذا طبيعي! أما فيما عدا هذا، فأنت وشأنك، وسوف ترى. أتمنى لكما العافية! إنني غير مستعدة لأن آتي فآثير معها شقاً، كما قلت!» وعلى الرغم من ذلك، بقى «شارل» في خجل شديد من «إيما»، التي لم تخف ما كانت تكنه من ضغينة لضعف ثقته فيها. وكان لابد من توسلات طويلة، قبل أن توافق على تولي الوكالة عنه مرة أخرى، بل لقد صحبها إلي السيد «جيومان» لتوثيق عقد آخر، يشبه الأول تماماً!

وقال موثق العقود: «إنني أدرك أن رجل العلم لا يملك أن يشغل نفسه بدقائق الحياة العادية» وشعر «شارل» بارتياح ازاء هذه الفكرة المريحة، التي خلعت على ضعفه مظهر الانشغال بجلال الأمور، مما أثار غروره!

وباللفورة التي اشتعلت يوم الخميس التالي، في حجرتهما بالفندق، حين اجتمعت «إيما» بليون! ضحكت وبكت، وغنت، ورقصت، وطلبت شرباً، ورغبت في أن تدخن السجائر، ولاحت له مسرفة، ولكنها رائعة، متألفة البهاء. ولم يدر أية انفعالات -في كل كيانها- كانت تدفعها لتتردى في ملذات الحياة، أصبحت محموعة، نعمة، داعرة، ومضت تجوس الطرقات معه رافعة الرأس، دون ما خوف من أن تعرض نفسها لأية فضيحة، كما قالت. على أنها كانت في بعض الأوقات ترتجف حين يخطر بباليها فجأة أنها قد تلتقي برودولف، إذ كانت ترى أنهما وإن افترقا إلى الأبد، إلا أنها لم تتحرر تماماً من خضوعها له!



وفي إحدى ليالي الخميس، لم تعد إلى (ايونفيل)، فجن «شارل» لقوط القلق، وأبت «بيرت» الصغيرة أن تأوى إلى فراشها دون أن ترى أمها، وبكت حتى كاد صدرها ينشق، وانطلق «جوسان» في الطريق على غير هدى، بل لقد ترك السيد «هوميد» صيدليته، وأخيراً، لم يعد «شارل» يقوى على الاحتمال، فشد -في الساعة الحادية عشرة- جواده إلى عربته الصغيرة، وقفز إليها، وساط الجواد، فبلغ فندق «الصليب الأحمر» في نحو الساعة الثانية صباحاً. لكنه لم يجد أثراً! وخطر له أن «ليون» ربما رآها، ولكن أين يقيم؟ واغتبط إذ تذكر عنوان رئيسه، فهرع إليه لسأله. وكان النهار قد انبثق، فاستطاع أن يتبين اسمه على أحد الأبواب، وطرق الباب، فصاح شخص من الداخل يجيبه إلى طلبه -دون أن يفتح- مضيئاً بضع اهانات لأولئك الذين يقضون مضاجع الناس في منتصف الليل!

ولم يكن للبيت الذي كان «ليون» يقطنه جرس، ولا مقرعة، ولا بواب، وراح

«شارل» يدق مصاريع النوافذ بكلتا يديه، إلى أن قدر لأحد رجال الشرطة أن يمر، فخاف وانصرف، محدثاً نفسه: «إنني غبي! لابد أنها تأخرت في العشاء لدى السيد لورمو» ثم تذكر أن لورمو لم يعد يقيم في (روان) فقال لنفسه: «لعلها مكثت لتعني بدمام دوبروي.. ولكن، كيف؟ لقد ماتت مدام دوبروي منذ عشرة شهور. اذن فأين تكون؟» وخطرت له فكرة، فولج مقهى وطلب الدليل، وأسرع يبحث عن اسم مدموازيل «لامبرير»، فإذا بها تقيم في رقم ٧٤ شارع (دولارنيل ديه ماروكانيير)، وإذا بلغ الشارع، ظهرت «إيما» بنفسها في الطرف الآخر منه، فألقى بنفسه عليها في تهالك أكثر منه عناق، وصاح: «ما الذى أخرجك بالأمس؟».

- كنت مريضة.

- بماذا؟ كيف؟ أين؟

فضغطت جبينها بيدها وقالت: «لدى مدموازيل لامبرير».

- كنت متأكد من ذلك! كنت ذاهباً إليها.

فقالت إيما: «آه، لا داعي. لقد خرجت منذ لحظات، ولكن لا ينبغي في المستقبل أن تقلق، فلن أحس بأني حرة إذا علمت أن أقل تأخر يزعجك بهذا الشكل، كما ترى!» كانت هذه إحدى الحيل التي تتدرج بها لتحظى بحرية تامة في انطلاقاتها، وكانت تستغل هذه العلل بكل بساطة، وإلى أقصى مدى، فإذا استبدت بها الرغبة في مقابلة «ليون»، انتحلت أية حجة، وإذا لم يكن «ليون» يتوقعها في ذلك اليوم، سمعت إليه في مكتبه، وكان يغتبط بهذا في البداية، ولكنه لم يعد -بعد قليل- يقوى على كتمان الحقيقة. فلقد شكاً رئيسه كثيراً من هذه الزيارات التي تصرفه عن عمله، وكانت تقوله له: «آه، ياه! هيا!» ولكنه كان يتملص. ولقد طلبت إليه أن يكون كل ما يرتديه أسود، وأن يطلق لحية مدبية ليبدو كصور الملك لويس الثالث عشر. ورغبت في أن ترى مسكنه، فلم يرقها ووصفته بالفقر، وتضرج وجهه، ولكنها لم تلاحظ ذلك، ثم أشارت عليه بأن يتناع ستائر حمراء، كستائر مخدعها، فلما اعترض بأنها تبهظه، قالت ضاحكة: «آه! آه! أنت شيت بدنانيرك؟» وكانت تضطره في كل مرة إلى أن يروي لها كل شيء فعله منذ لقائهما الأخير. وسألته أن ينظم بعض الأشعار، أشعاراً عنها، «قصيدة غرام» تكريماً لها. ولكنه لم يفلح قط في الوصول إلى كلمة للبيت الثانى تنسجم مع القافية، وانتهى به الأمر إلى أن نقل قصيدة من أحد الكتب، لا ليرضى غروره، وإنما رغبة في إرضائها. ولم يكن يناقش آراءها، كما كان يرضى بكل أذواقها، حتى أنه أصبح «عشيقها» أكثر مما هي عشيقته! كانت لها كلمات ناعمة وقبلات تبهز روحه وتثير نفسه. ترى، أين تعلمت هذا الفساد الذي كان يصل في دنسه وفجوره إلى درجة غير عادية!

الفصل السادس

وكان «ليون» -كلما حضر إلى (ايونفيل) خصيصاً ليراها- يتناول العشاء في بيت الصيدلي في أكثر الأحيان، فلم يلبث أن أحس بأنه مضطر إلى أن يدعو بدوره، رداً لجميله وقد أجاب السيد هوميه: «بكل سرور! إذ لابد لي من أن انعش ذاكرتي، التي أخذت تصدأ هنا. سنذهب إلى المسرح، وإلى المطعم، ونلهو! فغمغمت مدام «هوميه» في رقق وقد خشيت عليه من الأخطار المبهمة التي قد يعرض لها نفسه: «آه، يا صديقي الطيب!».

- آه! ماذا؟ أو تظنين أنني لا أقضي على صحتي بالاقامة هنا وسط الروائح التي تتصاعد من الصيدلية باستمرار! ولكن هكذا النساء دائماً! انهن يغرن علينا من العلم، ويغرن علينا في الوقت نفسه من أبرأ ألوان اللهب! لا يهمك الأمر، بل اطمئني إلى! لسوف أهبط في أحد الأيام على (روان)، فننطلق معاً على هوانا!

وكان الصيدلي يحرص -فيما مضى- على أن لا يستعمل مثل هذه التعبيرات، ولكنه أصبح ينهج نهجاً مرحاً و«باريسياً»، إذ خال أن هذا هو خير ذوق. وأخذ -كجارتة، مدام بوفاري- يسأل الكاتب في فضول عن عادات العاصمة، بل لقد أخذ يتكلم باللهجة العامية الباريسية، ليبهر أنظار أهل القرية! وهكذا دهشت «إيما» إذ قابلت -في أحد أيام الخميس- السيد «هوميه» في مطبخ «الأسد الذهبي»، وقد ارتدى ثياب السفر -أو بالأحرى قد التفت في معطف قديم لم يدر أحد أنه كان يمتلكه- وحمل في إحدى يديه حقيبة، وفي اليد الأخرى صندوقاً من حانوته ليدس فيه قدميه يدفئهما، ولم يكن قد أفصح عن نواياه لأحد، خشية أن يثير قلقاً عاماً بغيابه!

وليس من شك في أن التفكير في رؤية المكان الذي قضى فيه صباه، أثار انفعاله، إذ لم يكف طيلة الرحلة عن الكلام. وما أن وصل حتى قفز من العربة مسرعاً، وانطلق يسعى إلى «ليون». وعبثاً حاول الكاتب أن يتخلص منه، فقد جره السيد «هوميه» إلى مقهى «لانورماندى» الكبير، فدخله في تعاطم، دون أن يرفع قبعته، ظناً منه أن تعريه الرأس في مكان عام، عادة ريفية!

وظلت إيما تنتظر ليون ثلاثة أرباع الساعة، ثم أسرعت أخيراً إلى مكتبه، وحين لم تجده تملكته الهواجس: إنه لا يكثرث بها! ولامت نفسها على ضعفها.. وقضت ما بعد ظهر ذلك اليوم وهي ملصقة وجهها بزجاج النافذة (في غرفتهما بالفندق). أما هوميه وليون، فكانا حتى الساعة الثانية جالسين إلى إحدى الموائد، وكانت القاعة الكبيرة قد بدأت تخلو، كما كانت ثمة مدفأة على شكل نخلة، تنشر أوراقها -المصنوعة من المعدن البراق- بعرض السقف الأبيض، وخارج النافذة القريبة منهما قامت -تحت أشعة الشمس

الساطعة- نافورة تنفث الماء في حوض أبيض، حيث كانت ثلاث من جراد البحر (الجمبري) الكبير تتمطي بين نباتات الرشاد والهليون، محاولة أن تصل إلى بعض طيور السماء المتجمعة في أحد الأركان. وكان «هوميه» مغتبطاً، وإن كانت نشوته قد انبعثت عن الترف أكثر منها عن النفقات الباهظة، ومع ذلك فإن نبيذ التفاح شحذ كل براعته وذكائه، فلما ظهر البيض المطهو بالروم على المائدة، شرع يعرض نظرياته غير الخلقية عن النساء. كان الشيء الذي يستهويه أكثر مما عداة في المرأة هو: «الأناقة» كان يعجب بالزينة المتقنة الأنيقة، في مسكن حسن الرياش، أما من الناحية البدنية، فلم يكن يكره الفتيات اللاتي في صدر الشباب! وأخذ «ليون» يرقب الساعة في قنوط، والصيدلي ماض في الشرب، والأكل، والحديث.

وفجأة، قال هوميه: «لابد أنك تعاني وحدة قاسية في (روان) .. ولو أن عشيقتك لا تقيم على بعد كبير» فتضرج وجه الآخر.

- هيا، كن صريحا. هل تنكر أن في (ايونفيل)

وقتم الشاب متلعثماً، بينما استطرد الصيدلي:

- في منزل مدام يوفاري، كنت تغازل

- من؟

- الخادم!

ولم يكن مازحاً، ولكن الغرور يغلب كل حكمة، لذلك راح «ليون» يحتج على الرغم منه، زاعماً أنه لم يكن يحب سوى السمراوات. فقال الصيدلي: «إنني أقرك على هذا، فهن أشد شهوة!» وهمس في أذن صديقه، مشيراً إلى بعض الأعراض التي يستطيع بها المرء أن يعرف ما إذا كانت المرأة شهوانية، بل انه أوغل في الحديث عن بعض الصفات الشاذة لدى الأجناس: فالألمانية هوائية، والفرنسية متطرفة في الخلاعة، والإيطالية متقدمة العاطفة. وتساءل الكاتب: «والزنجية؟» فقال هوميه: «إنها مزاج الفنان! أيها الساقى، إلينا بقدهي قهوة!» فتساءل «ليون» أخيراً، وهو نافذ الصبر: «هل ننصرف؟» فأجابه بالإنجليزية: «أجل!».

على أنه رغب -قبل الانصراف- في أن يقابل صاحب المكان وأن يقدم إليه بعض التحيات. وإذ ذاك زعم الشاب - كي يخلو إلى نفس- أن لديه بعض أعمال، فقال هوميه: «آه، سأصحبك». وظل طيلة سيرهما في الشوارع، يتحدث إليه عن زوجته، وأطفاله، ومستقبلهم، وأعماله، وبين له كيف كانت تلك الأعمال في أسوأ حال في الماضي، وإلى أية درجة من الكمال ارتقى بها. وإذ بلغا فندق «بولوني»، تركه «ليون» فجأة، وركض طائراً درجات السلم، فألفى عشيقته في انفعال بالغ، وما إن ذكر اسم الصيدلي، حتى انفجر غضبها. على أنه راح يسرد لها مبررات مقنعة، فلم يكن الذنب ذنبه، أو ليست تعرف

«هوميه»، فهل تصدق أنه يؤثر صحبته؟ بيد أنها أشاحت عنه، فاجتذبتها إليه، وركع على ركبتيه مطوقاً خصرها بذراعيه، في تهالك مفعم بالشبق والضراعة.

وكانت واقفة، وعيناها الواسعتان المتوقدتان ترقبانه في عبوس، بل في قسوة. ثم غامت عليهما الدموع، وهبط جفناهما الورديان، وأسلمته يديها. وفيما كان «ليون» يلصقهما بشفتيه، أقبل خادم ينبيء السيد بأنه ثمة من يسأل عنه، فسألت «إيما» صديقها وهو بهم بالخروج، «أعاند أنت؟».

- أجل.

- ولكن، متى؟

- في الحال!



قال الصيدلي حين رأى ليون: «لقد أرسلت إليك الخادم لأقطع جبل الزبارة، التي لاح لي أنها تضايقتك، لنذهب فنتناول زجاجة من «الجارو»^(١) عند بريدو». فأقسم «ليون» أن لا بد له من العودة إلى مكتبه، وإذا ذاك راح الصيدلي يمازحه معلقاً على مذكرات المحامين التي تقلب الباطل حقاً، وعلى الدعاوي، قائلاً: «دع كوجا ويارتول»^(٢) وشأنهما برهة، يا للشيطان! من الذي يمنحك؟ كن جريئاً! هيا إلى جانة بريدو! ستري هناك كلبه، إنه عجيب جداً» ولكن الكاتب ظل يصصر على الانصراف، فقال له: «سأذهب معك، فأطالع الصحيفة في انتظارك، أو أقلب صفحات مجموعة القوانين» واحتار ليون بين غضب إيما، وثرثرة هوميه. ولعل الغداء اتخمه، فلم يقو على أن يبيت، لا سيما وقد راح الصيدلي يغريه قائلاً: «لنذهب إلى بريدو، إنه قريب من هنا، في شارع مالبالو» وما لبث الشاب -تحت تأثير الجبن أو الغباء، أو تأثير ذلك الشعور الذي يعز وصفه والذي يجرنا إلى أدعى التصرفات للاستهجان- ما لبث أن ترك نفسه يقاد إلى حانة «بريدو»، الذي الفياه في الساحة الصغيرة يشرف عليه ثلاثة من العمال راوحاً يلهثون، وهم يديرون عجلة ضخمة في آلة من آلات تحضير ماء سلتزر (كماء الصودا). وألقى اليهم «هوميه» ببعض الارشادات، ثم احتضن «بريدو»، وتناولوا بعض «الجارو». وحاول «ليون» عشرين مرة أن يفلت، ولكن صاحبه كان يمسك بذراعه قائلاً: «سأنصرف حالاً! سنذهب إلى صحيفة «فنال دو روان» لنرى الزملاء، سأعرفك بتوماسان».

على أن ليون ما لبث أن وفق إلى التخلص منه، فانطلق مسرعاً إلى الفندق. ولم تكن «إيما» هناك، كانت قد انصرفت لتوها ساخطة، لقد أصبحت تكرهه، وبدا لها هذا الاخفاق منه في الوفاء بموعدهما الغرامي اهانة، فراحت تحاول أن تنقب عن أسباب أخرى

(١) «الجارو» شراب هو مزيج من القرقة والزعفران وجوز الطيب. (٢) اثنان من فقهاء القانون.

لتنفصل عنه. كان عاجزاً عن الاتيان بابة بطولة، كما كان ضعيفاً، مبتدلاً، يفوق المرأة في الاستخذاء! فضلاً عن أنه كان بخيلاً، جباناً! ثم هدأت ثورتها، فتبينت أنها ولا ريب قد افترت عليه في غيبته. بيد أن اقدامنا على النيل ممن نحب، لا بد أن يباعد بيننا وبينهم بعض الشيء، فينبغي أن لا نمس أصنامنا المعبودة، لأن طلاها لا بد أن يعلق بأصابعنا!



ومضي الأيام، أخذ حديثهما يزداد اتجاهاً إلى الموضوعات الخارجة عن نطاق غرامهما، وأصبحت «إيما» تتحدث -في الخطابات التي ترسلها إليه- عن الأزهار، والأشعار، والقمر، والنجوم، موارد ساذجة لوجد منطقي يناضل للبقاء مشتتلاً، مستعيناً بكافة الأسباب الخارجية! وكانت لا تفتأ تمني نفسها بهناء غامرة في رحلتها التالية، ثم لا تلبث أن تعترف لنفسها بعد الرحلة بأنها لم تشعر بشيء غير عادي. ولكن سرعان ما أدت خيبة الرجاء إلى أمل جديد! فعاتت «إيما» إلى فتاها أشد وقدة، وأعتى لهفة مما كانت في أي يوم! صارت تخلع ثيابها في عنف، ممزقة أربطة مشدها (الكورسية) الرفيعة، التي كانت تحيط بردفيها كنعابين متسللة! وكانت تسير على أطراف أصابع قدميها، حافية، لتستوثق مرة أخرى من أن الباب مغلق، ثم تنطرح على صدره في رجة طويلة، وهي شاحبة، واجمة، لا تتكلم، ولا تحير حراكاً. مع ذلك، فقد ظل «ليون» يرى في ذلك الجبين المتفصد عرقاً بارداً، وفي تلكما الشفتين المرتعشتين، وفي العينين الضاربتين، وفي توتر هاتين الذراعين، شيئاً غريباً، غامضاً، رهيباً، يقوم جامداً بينه وبينها، وكأنه يفصل كلا عن صاحبه!

ولم يجز على أن يسألها، ولكنه كان -إذ يرى فنونها البارعة- لا يملك إلا أن يشعر بأنها ولا بد قد خاضت كل تجربة من تجارب الألم واللذة! وما كان يفتنه من قبل، بات يخيفه الآن بعض الشيء! فضلاً عن أنه بدأ يتمرد على ما كان يزداد كل يوم ظهوراً، من انطوائه في شخصيتها أصبح ينقم على «إيما» بسبب هذه الغلبة المستمرة عليه، بل إنه راح يجاهد ليكف عن حبها، ولكنه كان لا يلبث -إذا سمع صريف حذاءها- أن يتحول إلى جبان هيب، كمدمني الخمر إذا ما رآوا شراباً قوياً! وألحق أنها لم تهن في اضاء كافة ألوان الاهتمام عليه، من أطايب الغذاء، إلى خلعة الرداء، إلى النظرات المستضعفة المتذلة. وكانت تدس وروداً من (ايونفيل) بين ثدييها، لتلقيها في وجهه، وكانت قلقة بصدد صحتها، تنصحه دائماً بما ينبغي أن يفعل. ثم عمدت -لكي تزداد اطمئناناً إلى احتفاظها بسلطانها عليه، وأملاً منها في أن تنحاز السماء لصفها- عمدت إلى إحاطة عنقه بصورة للعدراء!! وكانت تسائله -كأم تقيه- عن أقرانه، وتقول له: «لا تلقهم! لا تخرج! لا تفكر إلا في كلينا فقط! أحبني!» وكم ودت لو أنها استطاعت أن تراقب حياته كلها، بل لقد

خطر لها أن ترسل وراءه من يتتبع خطاه في الطرقات، فقد كان بجوار الفندق دائماً شريد متسكع يتمسح في المسافرين، وما كان ليرفض القيام بمثل هذه المهمة، ولكن كبرياءها تمردت، فقالت لنفسها: «باه! وما أهمية هذا الأمر! فلينصرف عني! ما الذي يهمني؟ كأنما أنا مبقية عليه!»



وفي ذات يوم، افترقا في ساعة مبكرة. وفيما كانت تسير وحدها في الطريق، لمحت جدران الدير الذي تعلمت فيه، فسارعت تجلس على مقعد عام تحت إحدى شجرات الدردار. ما كان أهدأ الفترة التي قضتها في الدير، وما كان أنعمها! كم كانت تتوق إلى تلك العواطف الجياشة التي كانت تحاول أن تتصورها على ضوء الكتب! ثم تذكرت أول عهدها بالزواج، وتلك النزاهات في الغابة، والفيكونت الذي راقصها على أنغام «الفالس»، و«لاجاردى» وهو يغني. كل هذه الرؤى تتابعت أمام ناظرها، ثم رأت «ليون» فجأة بعيداً، وهتفت لنفسها: «ومع ذلك فأنا أحبه!» لا بأس! لم تكن سعيدة، وما كانت أبداً سعيدة! فمن أين هذا الإجذاب الذي يشيع في حياتها؟ هذا ألا نهيار العاجل لكل شيء تستند إليه؟

ولكن، إذا كان يوجد -في مكان ما- ذلك الكائن القوي، الجميل، كائن ذو فطرة جسورة، زاخرة بالسمو والطهر معاً، قلب شاعر في جسد ملاك، قيثارة ذات أوتار رنانة ترفع إلى السماء قصائد مشجية، فلماذا لا يسوقها القدر إلى هذا الكائن؟ أواه! يا له من مستحيل! فضلاً عن أن شيئاً ما لا يستحق عناء البحث عنه، فكل شيء ليس سوى زيف كاذب! كل ابتسامة إنما تخفي ثأراً ملولاً، وكل غبطة ليست سوى لعنة، وكل لذة تنطوي على الشبح منها، وأشهى القبلات لا تخلف على شفتيك سوى شوق إلى غبطة أعظم، لا سبيل إليها!

وانبعثت في الجورنات ثقيلة، وسمعت أربع دقائق من ساعة الدير، الساعة الرابعة! ومع ذلك فقد خيل إليها أنها مكثت في مكانها، على هذا الوضع، دهرًا، فإن المشاعر الفياضة التي تبدو كأن لا نهاية لها، قد تضغط في دقيقة، كما يحشد جمع في فضاء صغير!



وعاشت «إيما» بعد ذلك منطوية على نفسها، وأصبحت -كالأرشيذوقات- لا تحفل بشئون المال مطلقاً، على أنه لم يلبث أن جاء إلى البيت - في أحد الأيام - رجل زري الهيئة، محمر الوجه، أصلع الرأس، قال أنه موفد من لدن السيد «فانكار» من (روان).

وانتزع الدبابيس التي كانت تحكم الجيوب الداخلية في سترته، وبعد أن ثبتها في كفه، قدم إليها ورقة، فإذا بها سند بسبعمائة فرنك، يحمل توقيعها، وقد حوله «لوريه» إلى «فانكار» رغم عهده. وأوقدت خادمها إلى «لوريه»، ولكنه لم يكن قادراً على المجيء. وإذا ذلك، قال الغرب -الذي ظل واقفاً، يوزع نظرات فضولية ذات اليمين وذات الشمال- من تحت حاجبيه الكثيفين: «أي رد أحمله إلى السيد فانكار؟» فأجاب «إيما»: «آه، قل له إنني لا أملك المبلغ، سأدفعه في الأسبوع القادم، فلينتظرا أجلاً، إلى الأسبوع المقبل! وانصرف الرجل دون أن ينيس بكلمة، بيد أنها تلقت في الساعة الثانية عشرة من النهار التالي، إنذاراً، وازعجها منظر الورق الذي كان يحمل عدة أختام كتب عليها بحروف كبيرة: «الأستاذ هارنج، محضر محكمة بوشي» فهرعت مندفعة إلى بائع الأقمشة، فوجدته في متجره يعد طرداً.

قال: «خادمك! أنا تحت أمرك!» ومع ذلك فقد استأنف «لوريه» عمله، تعاونه فتاة في نحو الثالثة عشرة من العمر، محدودة الظهر قليلاً، كانت تساعد في عمله وفي تدبير منزله في آن واحد. وأخيراً تقدم مدام «بوفاري» -وقبها يقرقعان على الأرض الخشبية- صاعداً إلى الطابق الأول، وأدخلها حجرة ضيقة، حيث قام مكتب ضخم من خشب صلب، يحمل بعض سجلات، يحتجزها قضيب عريض من حديد، أمتد في وضع أفقي، وثبت بقفل. وإلى جوار الحائط -تحت بعض «فضلات» من القماش الخشن- لمحت «إيما» خزانة حديدية، ذات حجم يوحى بأنها تضم -إلى جانب المستندات والنقود- شيئاً آخر، فقد كان السيد «لوريه» يمارس الاقتراض مقابل رهون، وفي هذه الخزانة أودع سلسلة مدام «بوفاري» الذهبية، مع أقراط «تيلييه»، الكهل المسكين، الذي اضطر في النهاية إلى بيعها له، واشترى متجرّاً هزلياً للبدالة في (كنكامبو)، حيث كان يحتضر -تحت وطأة الربو- بين الشموع التي كانت أقل صفرة من وجهه وجلس «لوريه» في مقعد كبير من الخيزران وهو يقول: «هل من جديد؟» فهتفت: «اليك!» وأطلعت على الورقة، فقال: «حسناً، وكيف أستطيع أن أساعدك؟» فاشتد غضبها، وراحت تذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه بأن لا يحول سنداتهما، واعترف بذلك قائلاً: «ولكنني كنت مضطراً، كانت السكين على عنقي». فقالت: «وما الذي سيجري الآن؟».

- آه، أمر سهل جداً. حكم من المحكمة، ثم توقيع الحجز.

وقاومت «إيما» نفسها حتى لا تصفعه، وتساءلت في لطف عما إذا كانت ثمة وسيلة لاستمهال السيد «فانكار».

- آه! بديع! استمهال فانكار! انك لا تعرفه، فهو أكثر شراسة من أي وحش كاسرا

ومع ذلك، كان لابد للوريه من أن يتدخل. «أذن، اسمعني! يبدو لي أنني كنت مفروط الطيبة معك، حتى الآن» وفتح أحد هذه السجلات، قائلاً: «أنظري!» وأجرى أصبعه في الصفحة قائلاً: «لتر. لتر الثالث من أغسطس مائتا فرنك، السابع عشر من يونيه: مائة

وخمسون، الثالث والعشرون من مارس: أربعة وستون في أبريل...». وأمسك، وكأنه خشى أن يخطئ، ثم قال: «ولست اذكر السندين اللذين وقعهما السيد «بوفاري»، أحدهما بسبعمائة فرنك، والآخر بثلاثمائة، أما حساباتك البسيطة، مع الفوائد، فلا نهاية لها. إن الإنسان ليتوه فيها، ومن ثم لن أتورط أكثر من هذا!» وبكت إيما، بل راحت تلقيه بعزيمها السيد لوريه الطبيب! ولكنه كان دائماً يلقي المسؤولية عليّ «ذلك الوغد فانكار»، فضلاً عن أنه لم يكن يملك سنتيماً واحداً، فان أحداً لم يعد يدفع له نقوداً، بل كانوا، «ياكلون الصوف على ظهره»! وما كان لتاجر فقير مثله أن يقرض الناس. وصمتت «إيما»، ولا ريب أن السيد لوريه -الذي كان بعض زغب ريشة الكتابة- أحس بقلق لصمتها، إذ استأنف كلامه قائلاً: «وما لم أحصل في يوم من هذه الأيام على إيراد، فقد...».

وقاطعته إيما قائلة: «ثم أن بقية ثمن عقار (بارنفيل)».. فهتفت: «ماذا؟» وما إن سمع أن «لائجلوا» لم يدفع بعد، حتى اشتدت دهشته، ثم قال في لهجة معسولة: «أذن، اتفقنا، أليس كذلك؟».

- آه! على أي شيء تريد أن نتفق؟!

فأغمض عينيه مستغرقاً في التفكير، وكتب بضعة أرقام، ثم أعلن أن المسألة ستكون جد عسيرة، لأنها محفوفة بالشك، وهو قد مني بخسائر فادحة. ثم كتب أربعة سندات، قيمة كل منها مائتان وخمسون فرنكاً، وتستحق في أربعة أشهر متوالية، وقال: «هذه هي سببيل التسوية، لو أن «فانكار» قبل وساطتي. ومع ذلك، فاعتبرها قد سويت، فأنا لا أراوغ، أننى صريح للغاية!» ثم عرض عليها -في غير اكتراث- عدداً من السلع الجديدة، ولكن أيا منها لم تكن في رأيه يليق بالسيدة.

- كلما فكرت في أن قماشاً -كهذا- يباع المتر منه بسبعة سنتيمات، وألوانه ثابتة! ومع ذلك فهم يقبلون على شرائه بنهم! أنك بالطبع تدريكين أن المرء لا يصارحهم حقيقة. وكان يرجو بهذا الاعتراف بعدم أمانته مع الآخرين، أن يقنعها بوفائه لها. ثم ناداها -إذ انصرفت- ليربها ثلاث يارردات من قماش التقطه في «أوكازيون» منذ عهد قريب، وقال: «أو ليس جميلاً؟ إنه الآن رائج الاستعمال لصون ظهور المقاعد، أنه النوع الشائع!» وبأسرع من «الحاوي» لف القماش في ورق أزرق، ودفعه إلى يدي إيما، فقالت «ولكنني أريد أن أعرف على الأقل...» فأجاب وهو يولي عنها: «آه! في وقت آخر».



في ذلك المساء، استحثت «إيما» زوجها على الكتابة لأمه يسألها أن ترسل إليه بأسرع ما يمكن بقية ميراثه. وأجابت الحماة بأنه لم يعد لديها باق، وأن التصفية قد انتهت، ولم يبق له -بعد (بارنفيل)- سوى دخل قدره ستمائة فرنك، سترسله إليه في موعده.

فسارعت مدام «بوفاري» إلى الكتابة لاثنتين أو ثلاثة من المرضى تذكرهم بحسابهم - قبل مواعده - وتوسعت في استغلال هذه الطريقة التي كانت دائماً موفقة. وكانت تحرص دائماً على أن تردف المطالبة بهذه العبارة: «أرجو أن لا تذكر الأمر لزوجي، فأنت تعرف مدى اعتداده بكرامته. ولا تؤاخذني. المطيعة.» وتسلمت بعض احتجاجات متذمرة، فأخفتها عن زوجها، وشرعت - كي تحصل على نقود - في بيع قفازاتها وقبعاتها القديمة، وكثير من الأشياء المهملة. وكانت تساوّم في براعة، وقد أسعفها أصلها الرفي. وكانت - خلال رحلاتها إلى المدينة - تبتاع بأزهد الأسعار، الأشياء المستعملة التي كانت واثقة من أن السيد «لوريه» سيشتريها منها ليغش بها الغير ابتاعت ريش نعام، وخزفاً صينياً، وحقائب للسفر. وأخذت تقترض من «فيليسيتيه»، ومن مدام «لوفرانسوا»، ومن صاحبة فندق «الصليب الأحمر»، ومن كل شخص، أينما كانت. ودفعت - من النقود التي تسلمتها من (بارنفيل) أخيراً - قيمة سندانين، ثم حل موعد الألف وخمسمائة فرنك الأخرى، فجددت السندانين. وهكذا ظلت السندات مستمرة.

وكانت تحاول - في الحق - أن تقوم بعمليات حسابية في بعض الاحايين، ولكنها كانت تتبين أن النتائج باهظة إلى حد لم تكن تصدق أنه ممكن، فكانت تشرع في الحساب من جديد، فسرعان ما ترتبك، ثم تنفض يديها من الأمر، فلا تعود تشغل بالها به وأصبح البيت كثيباً جداً، فكان الباعة يشاهدون - وهم يبرحونه - وعلى وجوههم امارات الغضب، والمناديل ملقاة حول المدفأة، و«بيرت» الصغيرة ترتدى جوارب مثقوبة، الأمر الذي كانت مدام «هوميه» تستنكره، وكانت «إيما» - إذا نبهها «شارل» في تخرج وخجل - تجيب في جفاء بأن الذنب ليس ذنبها، فلم كانت هذه الثورات والفورات؟ كان «شارل» يعزو كل شيء إلى مرضها العصبي القديم، ويتوق إلى أن يحتويها بين ذراعيه، ولكنه كان يقول لنفسه: «آه، لا إني قد أضايقتها!» ويمسك عن ابداء عاطفته. وكان بعد الغداء يتمشى في الحديقة وحيداً، ثم يجلس «بيرت» على ركبتيه، ويبسط صحيفته الطبية، محاولاً أن يعلمها القراءة، ولكن الطفلة التي لم تتلق قط أي درس، كانت لا تلبث أن ترفع إليه عينين واسعتين، حزنتين، ثم تنخرط في البكاء، وإذا ذاك كان يسري عنها، ويبادر فيحمل إليها ماء في دلوها لتنشئ به أنهاراً في الدرب الرملى بالحديقة، أو يقطع بعض فروع من النباتات النامية على السياج، لتغرسها في الأحواض، وما كان هذا ليلحق كثير ضرر بالحديقة التي انتشرت فيها - إذ ذاك - الأعشاب الفطرية، إذ كانا مدينين لليستيبودو بأجر أيام كثيرة!

ولا تلبث الطفلة أن تشعر بالبرد، فتطلب أمها. وكان «شارل» يقول لها: «نادي مريبتك يا صغيرتي، فأنت تعلمين أن أمك لا تحب إزعاجاً»

وكان الخريف قد أقبل، وتساقطت أوراق الشجر. ها قد انقضى عامان منذ مرضت «إيما»! ترى متى سينتهي كل هذا؟.. وكان «شارل» يذرع الحديقة مفكراً، ويداه

معمودتان خلف ظهره، والسيدة في مخدعها، الذي لم يكن يدخله أحد، كانت تمكث فيه طيلة النهار، فاترة الهممة، تكاد تكون عارية، تحرق من وقت لآخر بعض البخور المعطر، الذي ابتاعته من متجر عربى باحدى جزائر (روان). وكانت قد نجحت أخيراً -بحيل بارعة- في إقضاء «شارل» إلى الطابق الثاني، حتى لا ترى «هذا الرجل» مستلقياً إلى جوارها بالليل. وأخذت تصرف -حتى الصباح- إلى قراءة كتب إباحية، مليئة بالرسوم الخليعة والمواقف المثيرة، وكثيراً ما كان الخوف يستولى عليها، فتصرخ، ويهرع إليها «شارل»، فتقول له: «آه! انصرف» أو يشتد اكتواؤها بذلك اللهب الداخلي الذي كان الفسق يذكّيه، فتسرع إلى النافذة تفتحها وهى تلهث، وترجف، وقد استبدت بها الشهوة! وتروح تستنشق الهواء البارد، وتطلق خصلات شعرها الغزير للريح، وتتأمل النجوم، وهى تصبو إلى أن يعشقها أمير! وكانت تفكر في «ليون»، فتود إذ ذاك لو تنزل عن أي شيء في سبيل لقاء من تلك اللقاءات التي كانت تروى ظمأها!

وأقبلت أيام المهرجانات، فشاءت أن تنعم بها على أروع وجه. ولما كان «ليون» لا يملك أن يضطلع وحده بالنفقات، فقد أخذت تسد النقص بسخاء، في كل مرة على وجه التقريب. وحاول أن يقنعها بأن في وسعها أن ينعم بصحبتها في مكان آخر، في فندق أكثر تواضعاً من فندقهما، ولكنها كانت تجدد دائماً حججاً للمعارضة. وفي ذات يوم، أخرجت من حقيبتها ست ملاعق فضية -كانت هدية «روو» الأب بمناسبة زفافها- وسألته أن يبادر برهنها بالنيابة عنها، فأطاع «ليون»، وإن ساءت هذه المهمة، إذ كان يخشى أن يورط نفسه. وما لبث أن هداه التفكير إلى أن تصرفات عشيقته كانت تزاد غرابة، وأن من المحتمل أن أصدقاءه لم يكونوا مخطئين حين أرادوا أن يفرقوا بينه وبينها. إذ حدث أن أرسل بعضهم إلى أمه خطاباً طويلاً -لا يحمل توقيعاً- ينذرها بأنه «يدمر حياته مع امرأة متزوجة!» فأسرعت السيدة الصالحة -إذ لمحت لفورها ذلك انشيج الذي يؤرق الأسرات، ذلك الجنني، الوحش الذي يسكن في أعماق أغوار الحب! وكتبت إلى الأستاذ «ديبوكاج» -رئيسه- الذي تصرف خير تصرف، إذ استبقاه ثلاثة أرباع الساعة يحاول أن يبصره، وأن يحذره من الهوج التي يتردى فيها، فإن مثل هذه العلاقة غير المشروعة قد تلحق به أبلغ الضرر فيما بعد، حين ينشئ لنفسه مكتباً. وأخذ يروجوه أن يقطع صلاته بعشيقته، وإذا لم يشأ أن يقدم على هذه التضحية لمصلحته الخاصة، فليفعلها على الأقل من أجله هو، من أجل «ديبوكاج»!



أقسم «ليون» في النهاية بأن لا يعود إلى لقاء «إيما»، وكان لا يفتأ يلوم نفسه لأنه لم يف بوعده، ويقدر مدى المتاعب والأقاويل التي تعرضه لها هذه المرأة، فضلاً عن الدعايات التي كان زملاؤه يتفكحون بها حين يجتمعون حول المدفأة في الصباح! ثم إنه كان

موشكاً أن يغدو على رأس الكتبة عما قريب، ومن ثم رأى أن الوقت قد حان ليستقر،
وانه يتعين عليه أن يبنذ موسيقاه، وعواطفه المشبوبة، والخيال. فكل رجل من أبناء الطبقة
المتوسطة، يؤمن في فورة صباه - ولو ليوم واحد أو دقيقة واحدة - بأنه قادر على العواطف
العارمة، وعلى جلائل الأعمال، وأكثر العابثين اعتدالاً، يحلم بالسلطانات و(الحریم)، وكل
موثق للعقود يحمل في أعماق شخصيته اطلال شاعراً وأصبح «ليون» يضيق بإيما، حين
تبكي فجأة - وهي منطرحة على صدره - وغدا قلبه شبيهاً بأولئك الذين لا يحتملون من
الموسيقى إلا قدراً معيناً، ثم يغالبهم النعاس. غدا قلبه يغفو على صوت حب لم يعد
يستمرىء لذاذاته! فلقد أصبح كل منهما يعرف الآخر تماماً، ومن ثم لم يهتز لتلك النشوة
التي تترتب على المضاجعة فتضاعف بهجتها مائة مرة. وكانت «إيما» من ناحيتها قد
سئمته بقدر ما ملها، فقد عادت تجدد في الفسق كل ما في الزواج من استرسال رتيب!
ولكن، ترى كيف تتخلص منه؟!

وكانت لا تلبث، رغم شعورها بالخسة لوضاعة هذه الغبطة، أن تتشبث بها، نزولاً
على حكم العادة، أو بدافع الفساد. وأخذت تزداد استنزافاً لها في كل يوم، مرهقة كل
متعة في الرغبة، إلى أقصى الحدود. وأخذت تلقى على «ليون» ذنب آمالها الخائبة
- وكأنه كان يخونها - بل لقد راحت تتمنى كارثة تعجل بفراقهما، مدام قد عز عليها أن
تجد الجراءة للبت في الأمر. ومع ذلك، فقد ظلت تكتب له رسائل الهوى، وفقاً للرأي الذي
يوجب على المرأة أن تكتب لعشيقها باستمرار، ولكنها كانت - حين تكتب - تتمثل رجلاً
آخر، طيفاً تصوغه من أكثر ذكرياتها استعاراً، ومن أرق ما قرأت، ومن أقوى شهواتها،
وما لبث هذا الطيف أن أصبح يبدو لها حقيقة أليفة سهلة المنال، بدرجة كانت تجعلها ترجف
مبهورة، وإن لم تستطع أن تتصور هذا الطيف في صورة واضحة، إذ كان أشبه بإله
يتوارى خلف صفاته الجلييلة! كان يعيش في عالم لا زوردي - تتدلى من شرفاته سلال
حريرية - بين أنفاس الزهو، وفي ضياء القمر. كانت تحسه قريباً منها، ولن يلبث أن
يوافيها، فيحملها بعيداً في قبلة! وكانت لا تلبث أن تنهالك منهوكة القوى، فإن هذه
النوبات من الهوى المبهم كانت أشد إرهاقاً لها من الفسق السافر!

وأصبحت تشعر بآلام دائمة تشعل كل جسمها، وكثيراً ما كانت تتسلم إنذارات،
وأوراقاً تحمل اختتاماً رسمياً، فلا تكاد تنظر إليها. وباتت تتمنى أن لا تكون على قيد
الحياة، أو أن تروح في سبات دائم! وفي مساء اليوم الذي انتصف فيه الصوم الكبير، لم
تعد إلى (ايونفيل)، بل ذهبت إلى حفلة راقصة تنكرية، وقد ارتدت سروالاً (بنلطونا)
من المخمل، وجوربين أحمرين، وشعراً مستعاراً، وقبعة ثلاثية الجوانب، مائلة على إحدى
أذنيها، وظلت ترقص طيلة الليل، على أنغام الأبواق الصاخبة، وقد التف حولها القوم.
وألفت نفسها - في الساعات الأولى من الصباح - على درجات سلم المسرح، مع خمسة أو
سنة من الراقصين المتنكرين في ثياب حمالي الميناء، والملاحين، كانوا زملاء «ليون».
وأعربوا عن رغبتهم في طعام، وكانت المقاهي القريبة ممتلئة بالرواد، ولكنهم عشروا في

الميناء على مطعم متواضع، قادهم صاحبه إلى غرفة صغيرة في الطابق الرابع، وأخذ الرجال يتهايمسون في أحد الأركان، وكانوا ولا ريب يتشاورون في أمر النفقات، وكانوا: كاتباً، واثنين من طلبة الطب، ومستخدماً في أحد المتاجر، يا له من وسط تأنس إليه! أما النساء، فإن «إيما» سرعان ما أدركت من لهجتهن أنهن ولايد ينتمين إلى أدنى طبقة في الغالب، وإذا ذاك جزعت، ودفعت بمقعدها إلى الورا، وغضت بصرها.

وشرع الآخرون يأكلون، أما هي فلم تصب من الطعام شيئاً. كان جبينها متقدماً، وجفناها ملتهبين، وبشرتها في برودة الثلج، وخيل إليها أنها تحس بأرض المرقص تهتز تحت الضجيج المنتظم الناشيء عن آلاف الأقدام الراقصة، وما لبثت الرائحة المنبعثة من الجماعة، ودخان السجائر، أن أصابها بدوار، ثم أغمى عليها، فحملوها إلى النافذة. وكان النهار ينبثق، وقد أخذت بقعة كبيرة من اللون الأرجواني تنتشر منبعثة من الأفق الشاحب فوق تلال «سانت كاترين»، وكان النهر يرتعش بفعل الريح، وليس على الجسور عابر واحد، ومصابيح الشوارع تخبو. واستردت «إيما» رشدها، فشرعت تفكر في «بيرت» النائمة بعيداً، في غرفة الخادم. ثم مرت عربة محملة بقضبان من الحديد، محدثة صوتاً معدنياً يصم الأذان. وتسلفت «إيما» فجأة إلى الخارج، فخلعت ثياب التنكر، وانبأت «ليون» بأنها يجب أن تنصرف.

وخلت إلى نفسها أخيراً في فندق «بولون». لقد أصبح كل شيء -حتى نفسها- لا يطاق. وتمنت لو كان لها جناحان كالطيور، فتنتقل طائرة إلى مكان ما، إلى اصقاع بعيدة، طاهرة، ترتد فيها إلى الشباب ثانية!



وخرجت، فاجتازت الطريق، وميدان (كوشواز)، والضاحية، حتى بلغت أخيراً طريقاً واسعة تفضي إلى بعض الحدائق. وكانت تمشي مسرعة، وقد سرى عنها الهواء المنعش، وأخذت وجوه الحشد، والأقنعة، والراقصون، والأضواء، والمائدة، وتلك النسوة، أخذت كل هذه تتلاشى رويداً كضباب يتشتت حتى إذا بلغت فندق «الصليب الأحمر»، ألفت بنفسها على السرير في غرفتها بالطابق الثاني، حيث كانت ثمة صور تمثل مناظر (توردونك).

وابتظها «هيفير» -سائق العصفورة- في الساعة الرابعة. فلما بلغت دارها، أطلعتها «فيليسيتيه» على ورقة سمراء، كانت خلف الساعة. وقرأت فيها: «إنذار بالحجز تنفيذاً لحكم قضائي». أي حكم؟ الواقع أن ورقة أخرى حملت إليها في الليلة السابقة، فلم تكن قد أطلعت عليها بعد. وبهتت لهذه الكلمات: «باسم الملك، والقانون، والعدالة... إلى مدام بوفاري». ثم أغفلت بضعة أسطر وقرأت: «في خلال أربع وعشرين ساعة، لا غير...» ماذا! «أن تدفع ثمانية آلاف فرنك». ثم في النهاية: «... وإلا أجبرت بكافة الطرق

القانونية، وأخصها توقيع الحجز على اثائها وممتلكاتها « ترى ما الذي يمكن عمله؟ في أربع وعشرين ساعة. أي غداً، وخطر لها أن «لوريه» ربما أراد أن يرهبها، فقد خبرت كل حيلة، وأدركت الغاية التي كان يسعى إليها بما كان يبيده من إكرام! وكان أكثر ما أكد لها ذلك، ضخامة المبلغ. على أنها بالاعتصار على الشراء دون الدفع، وعلى الاقتراض، وتوقيع السندات، وتجديد هذه السندات التي كانت تزداد في كل مرة، قد انتهت إلى تكوين رأس المال الذي كان السيد «لوريه» يرتقبه بصبر نافذ لتحقيق مشروعاته!

وولجت داره، وقد كظمت غيظها، وبادرت قائلة: «لعلك تعرف بما جرى لي؟ أنها ولاشك حيلة!».

- لا.

- وكيف ذلك؟

فأشاح عنها ببطء، وبسط ذراعيه قائلاً لها: «أظننت يا سيدتي الشابة أنني سأظل إلى الأبد اقرضك وأقوم بمهمة الصراف لك، لوجه الله؟ من حقي أن استرد الآن ما قدمت، ألا كوني عادلة، منصفة!» فعارضت في قيمة الدين، ولكنه قال: «آه! على رسلك! لقد اقرته المحكمة! هناك حكم قضائي! وقد أخطرت به! ثم أن هذا ليس ذنبي، وإنما ذنب فانكار».

- أو ليس في وسعك ...

- آه!... ليس بوسعي شيء على الإطلاق.

- ولكن هذا لا يمنع أن تتدبر.

وشرعت تجس نبضه، قائلة أنها لم تكن تعرف شيئاً عن الأمر، بل فوجئت به. فقال «لوريه» منحنياً في سخرية: «وذنب من هذا؟ أنك تستمتعين بأطيب الأوقات، بينما أعمل أنا كالعبد المسخر!».

- آه! لا داعي للمواعظ.

- أنها لا تضر أبداً.

وأخذت تتذلل، وتضرعت إليه، بل إنها ربت بيدها الجميلة، الغضة، البهضاء ركة التاجر.

- لا دعيني! إن من يرانا يقول أنك تسعين إلى اغوائي!

فصاحت: «أنك لتعسا!» فأجاب ضاحكاً: «آه، آه! هات ما عندك!».

- سأفضح أمرك. سأقول لزوجي.

- لا بأس! وسأريه من ناحيتي شيئاً ما.

ثم أخرج «لوريه» من خزائنه أيضاً بالآلف وثمانمائة فرنك التي أعطاها إياها عندما

خضم «فانكار» السندات، وعقب قائلاً: «أو تظنين أنه لن يفهم سرقتك البسيطة هذه؟ يا لهذا الرجل العزيز المسكين!».

وانهارت، أكثر تداعياً مما لو كانت قد ضربت بفأس! بينما راح هو يسير بين المكتب والنافذة، مردداً طيلة الوقت: «آه! سأريه!» ثم اقترب منها قائلاً في صوت متلطف: «أعرف أنه ليس بالأمر السار، ولكن المعركة بغير قتلى، على أية حال، وبما أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي بقيت لك كي تدفعني مالي...» فصاحت وهي تشد ذراعيها: «ولكن، أين أجد لك مالا؟».. قال: «آه! باه! عندما يكون لامرئ، مثلك أصدقاء!» وأخذ يتفرس فيها بنظرات حادة، مزعجة، أرسلت رجفة سرت إلى أعماقها. وعادت تقول: «أعدك بأن أوقع».

- عندي ما يكفيني من توقيعاتك.

- ولسوف أبيع أيضاً.

قال وهو يهز كتفيه: «دعك من هذا، فليس لديك ما يباع».

ثم صاح خلال الكوة المطلة على المتجر! «آنيث، لا تنسي الفضلات الثلاث المتبقية من القماش رقم ١٤». وأقبلت الخادم، فأدركت «إيما» اشارته، وسألته عن المبلغ الذي يطلبه لوقف الاجراءات. فقال: «لقد فات الأوان!».

- ولكن، إذا أحضرت لك عدة آلاف من الفرنكات، ربع المبلغ، ثلثه، ربما كله؟

- آه! لا، لا جدوى.

ودفعها برفق صوب السلم، فقالت باكية: «اتوسل إليك يا سيد «لوريه»، أمهلني بضعة أيام أخرى!»

- آه! جميل، دموع!

- انك تدفعني إلى اليأس.

فقال وهو يفلق الباب: «ليس هذا من شأني!»

الفصل السابع

تجلدت «إيما» في اليوم التالي، حين أقبل على دارها الأستاذ «هارنج» -المحضر- واثنان من الشهود، لتوقيع الحجز. وبدأوا بحجرة عيادة «بوفاري»، ولكنهم لم يشبتوا في سجلاتهم الجمجمة التي اعتبرت من «أدوات المهنة». أما في المطبخ فقد أحصوا الصحاف وأوعية الطهو، والمقاعد والشمعدانات، كما أحصوا في غرفة النوم كل التحف التي كانت علي الرف، وعابنوا أثوابها، والملابس الداخلية، وحجرة الزينة -الملحقة بالمخدع- بل وكان ما كان على جسمها -إلى أدق الثياب الداخلية- وكأنها جثة تحت التشريح، أمام عيون الرجال الثلاثة. وكان الأستاذ «هارنج» -في سترته السوداء المحكمة حول جذعه، ورباط عنقه الأبيض، وحذاءيه بسيورهما المحكمة حول قدميه- يردد بين آن وآخر: «أتسمحين يا سيدتي؟ أتسمحين؟» وكان يهتف أحياناً: «ما أبدع هذا! ما أجمله!» ثم يعاود الكتابة غامساً ريشته في محبرة حملها في يده اليسرى. حتى إذا فرغوا من الحجرات، صعدوا إلى غرفة المخزن (التي تحت السقف المحدود). كانت «إيما» تحتفظ فيها بمكتب أودعته خطابات «رودولف» وكان لابد من فتحه، وقال الأستاذ «هارنج» في ابتسامة وقحة: «آه! مراسلات! ولكن، اسمحي لي! إذ لابد أن أتأكد من أن الصندوق لا يحتوي على شيء آخر!» وطرق الأوراق بخفة، وكأنه كان يرجو أن تسقط من بينها دنائير نابليونية. وإذا ذلك، اشتد غضبها إذ رأت تلك اليد الغليظة، ذات الأصابع الحمراء، الرخوة، تمس تلك الصفحات التي خفق لها قلبها!

وانصرفوا أخيراً، وعادت «فيليسيتيه»، التي كانت «إيما» قد أرسلتها لتعوق «بوفاري» عن المجيء. وبادرتا إلى حمل الرجل -الذي ترك للحراسة- على الصعود إلى المخزن العلوي، حيث أقسم أن يبقى.



بدا «شارل» في تلك الليلة لإيما مهموماً، فراحت ترمقه بنظرة خائفة، متوجسة، وهي تخال في كل خط من تجاعيد وجهه اتهاماً. وكانت إذا طاف بصرها بالمدخنة المزدانة بحاجز صيني منقوش، وبالسائر العربية، والمقاعد الوثيرة، كل تلك الأشياء التي خفتت من مرارة حياتها، لا تلبث أن تشعر بالندم أو بالأحرى، بأسف بالغ، يهيج عواطفها، بدلاً من أن يسحقها! وراح «شارل» يحرك النار في فتور ويعقل شارد، مسنداً قدميه إلى حافتي المدفأة.

وحدث أن صدرت عن الرجل -المختبيء في المخزن- حركة طفيفة، إذ ضاق ولا شك

بحبسه، فقال «شارل»: «هل هناك من يسير في الطابق العلوي؟» فأجابت: «لا، أنها نافذة تركت مفتوحة، فأخذ الهواء يعيث بها!»

وكان اليوم التالي من أيام الأحد، فسعت إلى (روان) لتطوف ببعض الصيارف الذين كانت تعرف اسماءهم، فاذا بهم في نزوات أو رحلات خارج المدينة. ولم يثبط هذا من عزيمتها، فاستطاعت أن تقابل عدداً منهم، وتطلب منهم المبلغ، قائلة أنها في حاجة إليه، وانها لن تلبث أن تسده، وضحك بعضهم منها دون حياة، ورفضوا جميعاً، حتى إذا كانت الساعة الثانية، هربت الى منزل «ليون» وطرقت بابه، فلم يفتح لها، وما لبث أن ظهر في النافذة!

- ماذا أتى بك؟

- أفهكذا أزعجك؟

- لا، ولكن.

وصارحها بأن صاحب البيت لم يكن يحب استقبال «نساء» في داره. فقالت له: «لا بد لي من أن أتحدث إليك». وإذا هم بأن يدلي بالمفتاح إليها، استوقفته قائلة: «آه، لا، هناك في حجرتنا». ومن ثم ذهبا إلى «حجرتها» في فندق «بولوني». وما إن وصلا، حتى شربت كوباً كبيراً من الماء، وكانت شديدة الشحوب، وقالت له: «ليون، هل تسدي لي خدمة؟» وأمسكت به في قوة، وهزته قائلة: «اسمع، أنني بحاجة إلى ثمانية آلاف فرنك».

- ولكنك مجنونة!

- لا، لم أجن بعداً

وروت له قصة الحجز، مبينة له محنتها، فقد كان «شارل» يجهل كل شيء وحمايتها تكرهها، والأب «روو» لا يملك لها عوناً، ولكنه هو -ليون- يستطيع أن ينطلق بحثاً لها عن هذا المبلغ الذي لم يكن عنه غنى.

- كيف تريدین...؟

فصاحت: «ما أنذلك!»



وما لبث ليون أن قال مهوئاً: «انك تبالغين في تصوير الشر، فربما أمكن بألف دينار استمهال صاحبك». وكان هذا ادعى لأن يحاول أن يفعل شيئاً، فمن المستحيل أن يعجزا عن العثور على ثلاثة آلاف فرنك، فضلاً عن أن «ليون» قد يستطيع ابرام الصفقة لأنه «أضمن» منها.

- أمض! حاول! يجب عليك! أجز. آه، ألا أسرع، أسرع! سوف ازداد لك حياءً!

وانصرف، ثم عاد بعد ساعة، فقال بوجه مكتئب: «ذهبت إلى ثلاثة أشخاص، دون أن أوفق». وظلا بعد ذلك جالسين متقابلين، إلى جانبي المدفأة، لا يحيران حراكاً، ولا ينيسان بكلمة. وما لبثت «إيما» أن هزت كتفها، ودقت الأرض بقدمها، وسمعتها تغمغم: «لو كنت في مكانك لاستطعت أن أجد المبلغ سريعاً»

- ولكن من أين؟

- من المكتب الذي تعمل فيه!

وحدجته بنظرة، فإذا بجرأة متهورة تطل من مقلتيها المتقدتين، بينما استرخى جفناها في اغراء داعر، وتشجيع، حتى أحس الشاب بنفسه يزداد عجزاً أمام أرادة هذه المرأة التي كانت تستحثة على ارتكاب جريمة. على أنه خاف. ولكي يتفادى أي حوار في هذا الصدد، ضرب جبينه براحته صائحاً: «من المقرر أن يعود موريل الليلة وهو لن يرفض لي طلباً على ما أرجوا» (وكان هذا من أصدقائه، ابناً لتاجر عظيم الثراء) واستطرد قائلاً: «وسأحضر لك المبلغ هناك غداً».

ولم يبد على «إيما» أي استعداد لأن ترحب بهذا الأمل الذي صورته لها. افتراها تحس أنه يكذب؟ وعاد يقول متضرج الوجه: «وفي الوقت ذاته، إذا لم تريني خلال ساعات، فلا تمكثي في انتظاري يا حبيبي، إذ لا بد لي من الانصراف، فاسمحي لي، وداعاً».

وضغط يدها، فأحس بها فاترة، إذ لم تبق لايما قدرة على أية عاطفة أو احساس، وظلت حتى دقت الساعة مؤذنة بالرابعة، فنهضت لتعود إلى (ايونفيل) في انصياع، كجهاز آلي يعمل بدافع العادة.



كان الجو بديعاً، إذ كان اليوم من أيام مارس الصافية، الصحو، التي تتألق فيها الشمس في سماء بيضاء. وكان فريق من أهالي (روان) يتنزهون مغتبطين، وبلغت «إيما» ميدان «بارفي»، فإذا الناس منصرفون بعد صلاة الغروب، وقد تدفقت جموعهم خلال أبواب الكاتدرائية الثلاثة، كفيض يتساب تحت ثلاثة عيون لأحد الجسور. ووقف الحارس السويسري في الوسط لا يريم حراكاً، كأنه الجندي! إذ ذاك، تذكرت اليوم الذي أقبلت فيه مضطربة، وأمل يملأ نفسها، فولجت هذا الفناء الفسيح الذي بدأ أمامها أقل اتساعاً من حبه.

وواصلت سيرها وهي تبكي تحت قناعها، مترنحة، تحس بالأرض تميد تحت قدميها، وتوشك أن تقع مغشياً عليها. وصاح صوت انبعث من بوابة قصر فتحت لتنتطلق خلالها عربة: «انتباه!» فوقفت لتخلي الطريق لجواد أسود، راح يصك الأرض، بين ذراعي عربة خفيفة يقودها رجل في فراء أسمر، ترى من هو؟ إنها تعرفه، ومرقت العربة كالسهم،

واختفت ولكن، إنه بعينه، الفيكونتا! وانحرفت إلى شارع مقفر، واشتدت بها الحيرة البائسة، والحزن، حتى اضطرت إلى أن تستند إلى جدار، لتتلافى السقوط على الأرض! وخيل إليها أنها ضلت طريقها، وإلا، فهي لم تكن تعرف شيئاً! كل ما فيها، وكل من حولها، كان يهجرها، وأحست بأنها مضیعة، تائهة، تتخبط على غير هدى، في مفاوز لا نهاية لها. وداخلها الفرح إذ لمحت - عند وصولها إلى «الصلیب الأحمر» - هذا الرجل الطيب «هوميه»، يرقب رفع صندوق مليء بالمواد الكيماوية والأدوية إلى «العصفورة»، وقد أمسك في يده منديلاً أودعه ستة أرغفة من النوع المستدير كالعجلة، ابتاعها لزوجته - فقد كانت مدام «هوميه» جد مشغوفة بهذه الأرغفة الصغيرة، الثقيلة، الشبيهة بالعمامة، التي تؤكل في الصوم الكبير مع الزبد المملح، آخر شكل لنوع من الوجبات القوطية التي قد يرجع العهد بها إلى عصر الصليبيين، والتي كان المتعصبون من أهل نورمانديا يستعيدون بها الماضي، ويوهمون أنفسهم بأنهم يرون على المائدة - تحت ضوء الشموع الصفراء، وبين دنان «الهيبيوكرا»^(١) وكتل اللحوم الكبيرة الحجم - رؤوس الصرب معدة ليلتهموها. وكانت زوجة الصيدلي تقضم هذا الخبز الجاف، كما اعتاد القدامى أن يفعلوا، رغم أسنانها المتداعية. ولهذا لم يكن «هوميه» لينسى قط - كلما ذهب إلى المدينة - أن يحضر لها عدداً من هذه الأرغفة يبتاعها من المخبز الكبير في شارع «ماساكر».

وقال الصيدلي: «يسعدني أن أراك!». ومد لإيما يداً يساعدها على الصعود إلى «العصفورة»، ثم علق أرغفته في حبال الشبكة، واستقر عاري الرأس، معقود الذراعين، في وضع يوحي بالتفكير والعظمة! ولكنه هتف، حين ظهر الرجل الأعمى عند بداية التل كالمعتاد: «لست أدري لماذا تتساهل السلطات إزاء هذه الشعوذة الاجرامية؟ يجب حبس المنكودين الذين على هذه الشاكلة، واجبارهم على العمل. لعمرى، أن التقدم ليجبو بخطى سلحفائية! أننا نخوض حمأة من البربرية والتأخر» فبسط الرجل الأعمى قبعته التي راحت تهتز على حافة باب العربة، كأنها جيب في كسوة الباب الداخلية سقطت المسامير التي تثبته إليه، وقال الصيدلي: «هذه عاطفة خنزيرية».

ومع انه كان يعرف الشريد المسكين، إلا أنه تظاهر بأنه كان يراه للمرة الأولى، وراح يتمتم ذاكراً شيئاً عن «قرنية العين»، و«القرنية المعتمة»، و«تبيس العين»، ثم سأله في لهجة أبوية: «هل أصبت بهذا المرض الفظيع من زمن طويل يا صاحبي؟ خليك بك أن تعنى بتغذية نفسك بدلاً من أن تسكر في الحانة» وراح ينصحه بأن يتناول النبيذ الطيب، والجة الجيدة، واللحم المشوي، والأعمى سادر في أغنيته. وكان فوق هذا يبدو معتوهاً. وأخيراً، فتح السيد «هوميه» كيس نقوده قائلاً: «هاك (سو)^(٢) خذ نصفه، وأعد لي

(١) «الهيبيوكرا» صنف من المشراب يتألف من العسل المخمر والماء (٢) السو جزء على عشرين من الفرنكات، أى أقل من مليمين بسعر العملة في ذلك الوقت!

النصف.. ولا تنس نصائحى، فلن تلبث أن تشعر بتحسن» فجهر السائق ببعض الشك في جدواها، ولكن الصيدلي قال إنه على استعداد لأن يعالجه بنفسه، ببلسم مسكن للالتهابات من تركيبه، وأعطى الرجل عنوانه قائلاً: «السيد هوميه، بالقرب من السوق، ستجده معروفاً». فهبط الأعمى على رذقيه، ملقياً رأسه إلى الخلف، وهو يحرك عينيه الضاربتين للخضرة، ويهز لسانه خارج فمه، ويفرك بطنه بيديه، مرسلأ نوعاً من الصراخ الاجوف كعواء كلب جائع. وفاض بايما التقزز، فألقت إليه من فوق كتفها بقطعة من العملة ذات الخمسة الفرنكات، وكانت كل ثروتها، فعن لها أن من المستحسن أن ترميها هي الأخرى.



كانت العربة قد استأنفت سيرها، حين أطل السيد «هوميه» فجأة من النافذة وصاح: «لا تتناول أغذية تصنع من الدقيق أو الألبان، والبس صوفاً على الجلد مباشرة، وعرض الاجزاء المريضة لدخان حبوب العرعر!»

وما لبث منظار الأشياء المألوفة التي تتابعت أمام عيني «إيما» أن شغلته رويداً عن همومها الراهنة. واستبد بها تعب لا قبل لها به، وبلغت دارها مشتتة، خائرة، تكاد أن تكون نائمة. فقالت لنفسها: «ليحدث ما لا بد من حدوثه!» ثم، من يدري؟ لم لا تتوقع أن يحدث بين لحظة وأخرى حدث غير عادي؟ بل ربما مات «لوريه»!

واستيقظت في الساعة التاسعة من الصباح التالي، على ضجيج أصوات في الميدان. كان ثمة حشد تجمع أمام السوق لقراءة إعلان كبير ملصق على أحد الأعمدة، ورات «جويستان» يتسلق على حجر، ويجذب هذا الاعلان فيمزقه ولكن الحارس الريفي أمسك بتلابيبه في تلك اللحظة. وخرج السيد «هوميه» من الصيدلية، وبدت الأم «لوفرانسوا» وسط الزحام وكأنها تخطب في القوم.

وأقبلت «فيليسيتيه» صائحة: «سيدتي! سيدتي! هذا شنيع!» وأسلمتها الفتاة المسكينة -وهي في أبلغ حالات التأثر- ورقة صفراء انتزعتها لتوها من علي باب الدار. وقرأت «إيما» بنظرة واحدة إن كل متاعها سيباع، ثم رمقت كل منهما الأخرى في صمت. لم يعد بين الخادم والسيدة سر تكتمه إحداهما عن الآخر، وقالت «فيليسيتيه» أخيراً، وهي تتنهد: «لو كنت مكانك يا سيدتي، لذهبت إلى السيد جيومان»، فقالت: «هل تظنين...؟»

وودت بهذا السؤال أن تقول: «انك لتعرفين أسرار بيته عن طريق خادمه، فهل تكلم السيد عني أحياناً؟»

«أجل، اذهبي إليه. لسوف تحسنين صنعاً!»

فتهيأت للخروج، مرتدية ثوبها الأسود، وقلنسوتها المزركشة بالخرز. ولكي لا يراها أحد -إذ كان الميدان يعج بالناس دائماً- سلكت الطريق المحاذية للنهر، خارج القرية، وبلغت باب دار موثق العقود، وقد تقطعت أنفاسها. وكانت السماء مكفهرة، والجليد يتساقط رذاذاً. وظهر «تيودور» -على رنين الجرس- عند السلم في «صديري» أحمر، ثم أقبل وفتح الباب في غير ما دهشة أو كلفة، وكأنه يفتحه لزائرة مألوفة. وقادها إلى قاعة المائدة، وكانت ثمة مدفأة من القيشاني تتلظى النار فيها، تحت فروع الصبار التي ملأت فجوة في الحائط كالمحراب، وفي إطارين أسودين على الجدار المكسو بورق مموه بلون شجر البلوط، كانت لوحتا ستيويان: «أزميرالدا»، وشويان: «بوتيفار». وكانت المائدة المعدة، وصفحتان فضيتان للمصطفى، ومقابض الأبواب البلورية، والأرضية الخشبية المصقولة، وقطع الأثاث، كانت كلها تلمع في نظافة المجليزية أنيقة. وكان زجاج النافذة مزداناً بقطع من الزجاج الملون في الأركان، فقالت «إيما» لنفسها: «ها هي ذي قاعة طعام من النوع الذي يليق بي»



دخل الموثق الحجر، يضم «ثوب الغرفة» -الروب دو شامبر- الموشى برسوم النخيل، إلى صدره بذراعه اليسرى، بينما أخذ بيده اليمنى يرفع -ثم يخفض بسرعة- قلنسوة بنية من المخمل، كان يميلها، من قبيل الأناقة، إلى الجانب الأيمن من رأسه، حيث كانت تنسدل ثلاث خصلات من الشعر شدت في مؤخر رأسه، لتكسو حافة جمجمته الصلعاء. وبعد أن قدم لها مقعداً، جلس يتناول فطوره، معتذراً عما في هذا من مجافاة للذوق.. فقالت: «إنني أناشدك يا سيد جيومان....» وبادر مجيباً. «ماذا يا سيدتي؟ إنني مصغاً» فراحت تصارحه بالموقف وكان السيد «جيومان» على علم به، إذ كان يستتر وراء تاجر الأقمشة الذي كان يجد عنده المال للقروض التي كان يطلب إليه عقدها بضمان مرهونات، ومن ثم كان يعرف -بل كان أكثر منها معرفة- قصة السندات التي بدأت صغيرة، تحمل أسماء مختلفة لأشخاص كانت تحول إليهم، وتوارىخ طويلة الأجل، ثم كانت تجدد باستمرار حتى جمعها التاجر كلها يوماً، وسأل صديقه «فانكار» أن يتخذ عنه الاجراءات اللازمة، رغبة منه في أن لا يبدو كوحش ينهش لحوم بني بلده.

وكانت «إيما» تخلط قصتها بالشتائم تهيلها على «لوريه». شتائم كان الموثق يجيب عنها -بين وقت وآخر- بكلمات لا معنى لها، وهو يعضغ قطعة من لحم الضأن «الكوستليتة»، ويحتسي الشاي، مخفضاً ذقنه حتى تستقر على ربطة عنقه ذات الزرقة السماوية، التي كان يرصعها دبوسان ماسيان متصل بينهما سلسلة ذهبية صغيرة. وكانت شفتاه تنفرجان عن ابتسامة غريبة، ابتسامة معسولة، ومبهمة. وإذا لمح أن قدميها كانتا مبتلتين، هتف: «ألا اقتربي من المدفأة. ارفعي قدميك إلى حافة القيشاني». ولكنها

خشيت أن تلطخه، فصاح الموثق في لباقة: «إن الأشياء الجميلة لا تتلف شيئاً». وإذا ذلك، حاولت أن تؤثر على أوتار قلبه، وقد جاشت أشجانها، فشرعت يتحدث عن فقر دارها، وعن همومها، وحاجاتها. وقال إنه يدرك ذلك، ورثى لها! وبدون أن يكف عن الأكل، استدار نحوها تماماً، حتى مست ركبته هذا بها اللذين تقلص نعلهما فانشيا بفعل حرارة الموقد. ولكنه زم شفتيه حين سألته أن يقرضها ألف دينار، وما ليث أن صارحها بأنه جد آسف لأنه لم يتول أمر ثروتها من قبل، وقد كانت هناك مئات الطرق الملائمة -حتى للسيدات- لاستثمار الأموال، وكان في الوسع المساهمة بها في مناجم (جروسفل)، أو في أراضي (الهافر)، دون ما مجازفة، بل ربما كانا قد استطاعا أن يقدموا على بعض المضاربات الرائعة. وتركها تتحرق أسفاً وحسرة على المبالغ الخيالية التي كان بوسعها أن تحصل عليها. واستطرد قائلاً: «كيف حدث أنك لم تأتي إلي؟» فقالت: «لم أكن أعرف».

- لماذا بالله؟ أفكنت أخيفك إلى هذا الحد؟ على النقيض، أنا الذي كان ينبغي أن يشكو. إننا لا نكاد نكون متعارفين، ومع ذلك فأنا شديد الوفاء لك. أأمل أن لا ترتابي في هذا؟

ومد يده فتناول راحتها، وغمرها بقبلات منهومة، ثم استبقاها على ركبته، وراح يعيث بأصابعها في رفق، وهو يغمغم بألف نجوى ناعمة. وكان صوته الخافت ينساب كخبر جداول، وقد راحت عيناه تومضان خلال عدستي نظارته اللامعتين، وزحفت يده على كم «إيما» لتضغط ذراعها، وشعرت بأنفاسه المتهدجة تلمح خدها. كان هذا الرجل يثقل عليها بدرجة فظيعة! فقفزت عن مقعدها وقالت له: «سيدى، إنني انتظرا»، فقال الموثق الذي اشتد شحوبه فجأة: «وماذا تنتظرين؟»

- هذا المبلغ.

- ولكن!

ثم أنصاع لجيشان شهوة عارمة، فقال: «حسناً. أجل!» وجر نفسه نحوها على ركبته غير عابئ بشوّه، واستطرد: «ألا امكثي بحق الرحمة، انني أحبك!» وأمسك بخصرها، فاحتقن وجهه مدام «بوفاري»، وتراجعت وهي ترمقه بنظرة قاسية، وصاحت: «أنك تنتهز فرصة ضائقتي فتستغلها أشنع استغلال. سيدى، انني جديرة بأن يرثى لى، لا بأن أباع!» وانصرفت! وظل الموثق مشدوها، وقد علق بصره بخفيه البديعين الموشيين بأشغال الابرة، كانا هدية غرام، وقد وجد في رؤيتهما عزاء، فضلاً عن أنه فطن إلى أن المغامرة التي كان مقدماً عليها، كانت خليقة بأن تورطه إلى حد بعيد.

وراحت تقول لنفسها وهى تطوي درجات السلم في خطى منفعة وتنطلق في الطريق تحت أشجار الحور: «يا له من نذل!» وأدى الاستياء المترتب على إخفاقها، إلى مضاعفة اعتزازها بعفتها المهانة، وخيل إليها أن العناية الإلهية كانت تلاحقها بما يثيرها، فالتصمت من كرامتها وكبريائها تقوية، أبداً لم تشعر من قبل بمثل هذا التقدير لنفسها، ولا بمثل هذا

السخط على الغير. وأحست بروح الصراع تتملكها، فودت لو أنها صفعت جميع الرجال، وبصقت في وجوههم، وسحقتهم جميعاً. ومضت في طريقها مسرعة لا تلوي على شيء، شاحية، مرتجفة، ثائرة، تتطلع إلى الأفق بعينين مفرورتين بالدموع، وكأنها وجدت في ذلك الحقد الذي كان يخنقها، نوعاً من التسرية. وما أن لمحت بيتها حتى غشيها خور، فأحست بأن ليس في وسعها أن تمضي إليه، ومع ذلك كان من المحتوم أن تمضي، فإلى أين المفر؟

بادرتها «فيليسيتيه» التي كانت في انتظارها لدى الباب: «حسناً؟» فأجابت «إيما»: «لا». وظلت كلتاها ربع ساعة تستعرضان أسماء مختلف الأشخاص الذين قد يستطيعون أن يمدوا يد العون، من أهل (ابونفيل). ولكن «إيما» كانت تعقب على كل اسم تذكره «فيليسيتيه»: «أمن الممكن؟ لن يقبل!»

- والسيد الذي لن يلبث أن يعود!

- أعرف هذا جيداً. فدعيني أدخلو إلى نفسي!

وكانت قد بذلت كل محاولة، فلم يبق ما تفعله. وإذا ما عاد «شارل» فعليها أن تقول له: «عدا إن البساط الذي تطأه لم يعد لنا. أنك لا تملك في بيتك قطعة أثاث، ولا إبره، ولا قشة! وأنا السبب في خرابك أيها الرجل البائس!» وتعقب ذلك دمعة كبيرة، فيبكي في غزارة، ثم، تنقشع المفاجأة، ويغفر لها! وتتمت وهي تصر على أسنانها: «أجل، سيصفح عني، وهو الذي لو قدم لي مليوناً لأغفر له كونه عرفني، لما غفرت! ابداً ابداً!» وغازتها هذه الفكرة الموحية بسمو «بوفاري» عليها، انه لن يلبث أن يعرف بالنكبة، عما قريب، أو في الحال، أو غداً، وسواء اعترفت له أو لم تعترف، ومن ثم فعليها أن تنتظر هذا الموقف الرهيب، وأن تتحمل وطأة مروته ونخوته (حين يدرك ما فعلت به ثم يصفح عنها). وتقلكنها الرغبة في أن تعود إلى «لوريه»، ولكن ما الجدوى؟ هل تكتب لأبيها؟ لقد تأخر الوقت كثيراً. ولعلها كانت قد بدأت تندم على أنها لم تستسلم لذلك الرجل - «جيومان» - حين سمعت وقع سنايك جواد في الحارة التي تقع خلف دارها. كان هو: «شارل»، كان يفتح البوابة، وجهه أشد بياضاً من الجبس، واندفعت تهبط السلم، وهرعت إلى الميدان، ولحقتها زوجة العمدة - التي كانت تتحدث إلى «ليستيبودا» أمام الكنيسة - وهي تدخل عند محصل الضرائب، فأسرعت لتنبئ مدام «كارون»، وصعدت السيدتان إلى المخزن الذي يقع تحت سقف المبنى، فكمنتا وراء قماش نشر على «المور»، وتهيأتا لتطلا على غرفة «بينييه» في وضع يريانهما فيه بأسرها.



كان «بينييه» وحيداً، وقد انهكم في صنع تحفة من تلك التحف الخشبية التي لا وصف لها، والمؤلفة من أهله (جمع هلال) ذات محيطات مجوة يتداخل كل منها في

الآخر، بحيث تستقيم القطع فى مجموعها كالمسلة، وإن لم يكن لها أي نفع! وكان قد شرع فى آخر قطعة! أوشك أن ينتهي إلى هدفه. وفى الضوء الخافت الذي كان فى الورشة، كان الغبار الأبيض يتطاير من الآلات كرهاذ من الشرر ينبعث من تحت سنايك جواد يخب فى جريده، وكانت عجلتا المخرطة تدوران، وتبعثان زئيراً، و«بينيه» يبتسم، وقد نكس ذقنه، وتفتحت طاقتا أنفه، وبدأ -بإيجاز- مستغرقاً فى إحدى تلك المتع الكاملة التي لا تتأني إلا من الأعمال العادية، والتي تجعل العقل يستعذب المصاعب البسيطة؛ وتشبع سعادة أخرى، فوق كل ما يمكن للعقول أن تحلم به!

وهتفت مدام توفاش: «آه، ها هي ذي!». ولكن، كان من المتعذر أن تسمعا ما كانت تقول «إيما»، وسط ضجيج المخرطة. وحدثت السيدتان فى النهاية أنهما سمعتا كلمة «فرنكات»، فهمست مدام «توفاش» بصوت خفيض: «إنها ترجوه أن يمهلهما فى دفع ضرائيهما»، فأجابت الأخرى: «هكذا يبدو!» وأبصرتاها تروح وتغدو، متفحصة مشاجب المنشقات، والشمعدانات، والأسجية (الدرازينات) الخشبية التي كانت مسندة إلى الجدران، بينما كان «بينيه» يتحسس لحيته فى رضى. وقالت مدام توفاش: «أترينها تريد أن تكلفه بصنع شيء لها؟»، فقالت الأخرى: «كيف؟ انه لا يبيع شيئاً».

ولاح أن محصل الضرائب كان يستمع وقد فتح عينيه، كمن لا يفقه، و«إيما» ماضية فى ضراعة ناعمة، واقتربت منه وصدرها يتهدج، ولم يعودا يتكلمان وقالت مدام توفاش: «أترينها تعرض عليه بعض الأجر مقدماً؟» وكان الدم قد تصاعد فى وجه «بينيه» حتى أذنيه، فأمسكت بيده.

- آه، هذا كثير جداً!

ولابد أنها كانت تعرض عليه أمراً بشعاً منكرأ، فإن محصل الضرائب كان رغم كل شيء، عفيفاً، لقد حارب فى (بوزان) و(لوتزان)، وخاض الحملة الفرنسية بأسرها، وشرح للفرز بوسام «اللجيون دونير»، ومن ثم، فانه لم يلبث فجأة أن تراجع إلى أبعد ما استطاع، وكأنه رأى أمامه حية، وصاح: «سيدتي، ماذا تعنين؟» وهمست مدام «توفاش» لصاحبتها: «إن أمثال هذه المرأة يجب أن يضربن بالسياط». فقالت مدام «كارون»: «ولكن أين هي؟» إذ كانت «إيما» قد اختفت أثناء هذه الهمسات ثم لمحتاها تمضي فى الشارع الرئيسي، وتخرج إلى اليمين وكأنها متجهة إلى المقبرة. وشغلنا عنها بالحدس والتخمين!

وقالت «إيما» إذ بلغت دار المربية: «دادة روليه.. انني اختنق افتحي صدر ثوبى». وارقت على السرير منتحبة، وغطتها المربية «روليه» بـ «جونلة» وظلت واقفة إلى جوارها. ثم انسحبت المرأة الطيبة إذ لم تتلق من الأخرى جواباً، وتناولت مغزلها وراحت تغزل كتاناً. وغمغمت «إيما» إذ خالت أنها تسمع صوت مخرطة «بينيه»: «يآه! هلا انتهيت!» فقالت المربية لنفسها: «ترى ما الذي يزعجها؟ لماذا جاءت هنا؟» كانت «إيما» قد اندفعت إلى

هناك، مسوقة بنوع من الخوف كان يدفعها بعيداً عن دارها، وفيما كانت مستلقية على ظهرها، بلا حراك، وقد جمدت مقلتها، أخذت ترى الأشياء في غير وضوح، وإن حاولت أن تستبينها في إصرار أبله، وحدقت في طلاء الحائط المتساقط، وفي قطعتي الخشب اللتين كان طرفاهما المتقاربان يبعثان دخاناً في المدفأة، وفي عنكبوت يزحف فوق رأسها، في شق خلال الخشب. وأخيراً، شرعت تجمع شتات أفكارها، تذكرت يوماً كانت فيه مع «ليون»، أواه، ما أبعد ذاك اليوم! وكانت الشمس تسطع متألفة على صفحة النهر، ونبات «الداليا» يزرج الهواء... وما لبثت أن شرعت تتذكر اليوم السابق -الأمس- وكأنما جرفها سيل طاع. فتساءلت: «كم الساعة؟» وخرجت الأم «روليه»، فرفعت أصابع يدها اليمنى في وضع عمودي على ذلك الجانب من السماء الذي كان أكثر ضياء من سواه، ثم عادت في تودة، قائلة: «حوالى الثالثة».

- آه! شكراً! شكراً!

إن «ليون» ولا بد قد أتى، إنه لابد آت طبعاً، ولا بد أنه وفق إلى بعض المال، بل لعله هناك الآن فعلاً، فما كان ليحدث أنها هنا. ومن ثم أمرت المربية بأن تسرع إلى دارها وتحضره، وأهابت بها: «أسرعي!» فقالت: «ها أنذي ذاهبة يا سيدتي العزيزة، ذاهبة»



وعجبت «إيما» من نفسها، كيف لم يخطر ببالها أن تفكر فيه من البداية؟ لقد وعدّها بالأمس، وما كان ليحدث بوعده، وراحت تتمثل نفسها وقد ذهبت إلى «لوريه»، فبسّطت ثلاث ورقات مالية على مكتبه. ثم تعمل على ابتكار قصة تشرح بها الأمور لپرفاري، ترى أية قصة؟ وطال غياب المربية. ولما لم تكن في الكوخ ساعة، فقد خشيت «إيما» أن تكون قد بالغت في تقدير طول الزمن الذي انقضى وأخذت تجوس خلال الحديقة في تودة، ويمت شطر الدرب المجاور للسياح، ثم عادت مسرعة، أملاً منها في أن تكون المربية قد عادت من طريق أخرى. وأخيراً، أثقلها الانتظار، وأخذت تراودها المخاوف -التي جهدت في أن تصدها عن نفسها- ولم تعد تدري ما إذا كانت قد مكثت في المكان قرناً أو لحظة، فجلست في أحد الأركان، وأغضت عينيها، وسدت أذنيها. وما لبث أن انبعث من الباب صرير، فقفزت واقفة، وقبل أن تتكلم، قالت لها الأم «روليه»: «ليس في دارك أحداً» فهتفت: «كيف؟»

- آه! لا أحداً! والسيد ييكى، ويناديك، إنهم يبحثون عنك!

ولم تجب «إيما»، بل شهقت وهي تجيل بصرها حولها، بينما ارتدت الفلاحة إلى الخلف بحركة غريزية، وهي خائفة، إذ توهمت أنها جنت. وفجأة، دقت «إيما» جبينها، وصرخت. فقد أومضت في أعماقها ذكرى «رودولف»، كلمح البرق في ليلة مظلمة، لقد كان مفرط

الطيبة، والركة، والكرم! وبجانب ذلك، فإنها خليفة بأن تعرف -إذا تردد في أداء هذه الخدمة- كيف توقظ في لحظة واحدة غرامهما الضائع! ومن ثم انطلقت صوب مزرعة (لاهوشت)، غير مدركة أنها إنما كانت تسرع لتقدم نفسها إلى ذلك الذي خيب آمالها من قبل، وغير مرتابة أشفه ريبة في تأثير خلاعتها!

الفصل الثامن

وساءلت نفسها وهي منطلقة: «ماذا تراني قائلة؟... من أين أبدأ؟» وأخذت في طريقها تتذكر الأحرار، والأشجار، وأعواد الخيزران البحري النامية على السفح، ثم القصر. وألفت نفسها تعود إلى أحاسيس حبها الأول فتفتح قلبها المسكين، النابض بالألم، لهذا الحب، ولفتحها نسمة دافئة، وبدا الجليد يذوب ويتساقط قطرة فقطرة من البراعم إلى الأعشاب. ودخلت، كما اعتادت في الماضي، خلال باب اليستان الصغير، وسعت إلى الطريق المحفوفة بصفين من أشجار الزيزفون الوارفة، التي كانت تهز أغصانها الطويلة في حفيف، وتبحت الكلاب في حظيرتها نباحاً متواصلاً، فترددت ضوضاء نباحها، دون أن يظهر أحد. وصعدت «إيما» السلم الأيمن، ذا «الدارابزين» الخشبي، المفضي إلى ردهة مرصوفة ببلاط مغبر، يمتد فيها صف من الأبواب المفتوحة، وكأنها تقوم في دير، أو في فندق، وكانت غرفته في النهاية، في الطرف الأقصى، إلى اليسار.

وإذ وضعت أصابعها على مقبض الباب، زابلتها قواها فجأة، وغشيها خوف أو شكت معه أن تتمنى لو أنها لم تكن هناك، رغم أن هذا كان أملها الأوحد، فرصتها الأخيرة للنجاة واستجمعت شتات فكرها لحظة، وتذرعت بالشعور بحاجتها الملحة، ثم ولجت الغرفة، فإذا به أمام المدفأة، وقد رفع قدميه إلى حافتها، وأخذ يدخن غليونته، وما إن رآها حتى نهض في عجلة قائلاً: «عجبا! أهذه أنت؟»

- أجل، هذه أنا يا رودولف. أحببت أن استعين برأيك.

وعلى الرغم من كل جهودها، فقد استحال عليها أن تفتح قمها. وقال: «انك لم تتغيري، مازلت فاتنة كالعهد بك!» فأجابت بمرارة: «آه، أنها مفاتن حزينه يا صديقي، مذ نبذتها!» وعندئذ، شرع في شرح طويل لمسلكه، مبرراً تصرفه بعبارات مبهمه، إذ عجز عن أن يبتكر مبررات أفضل. وتقبلت كلماته، متأثرة بصوته وشكله، فتظاهرت بأنها صدقته، أو لعلها فعلاً صدقت الحجة التي قالها معللاً قطيعتهما، إذ زعم في الأمر سراً يتوقف عليه شرف - بل حياة - شخص ثالثا

وقالت متطلعة إليه في أسى: «لا بأس! لكم تأملت!» فأجاب متفلسفاً: «هكذا هي الحياة!» فعبقت قائلة: «أفترها كانت مواتية لك - أنت على الأقل - منذ فراقنا؟».

- لم تكن بالطيبة، ولا بالريثة.

- لعله كان من الأفضل لو أننا لم نفترقا

- أجل، ربما.

- أو تظن ذلك؟

وازدادت منه اقتراباً، وزفرت قائلة: «أواه يا رودولف! ليتك كنت تعرف، كم أحببتك!» وإذا ذلك، تناولت يده، ومكثا برهة وقد اشتبكت أصابعهما، كما كانت في أول يوم، حين زارا المعرض. وأخذ يقاوم في كبرياء جيشان عواطفه، ولكنها تهالكت على صدره قائلة: «كيف أردتني على أن أحيا بدونك؟ إن المرء لا يستطيع أن يسلو السعادة التي تعودها! لقد كنت يائسة، بل ظننت أنني لا بد ميتة! لسوف أروى لك كل شيء، وسوف ترى بنفسك، أما أنت أنت، فقد هربت مني!»

كان قد تفادها طيلة السنوات الثلاث في حرص، بسبب ذلك الخور الغريزي الذي يمتاز به الجنس الأقوى. واستطردت «إيما» في حركات مغربة من رأسها، وفي معايشة تفوق معايشات القطة العاشقة: «انك ولا بد تحب أخريات.. اعترف! أواه! أنني لأدرك ذلك حقاً! ولكنني أعذرهن، فأنت ولا بد أغويتهم كما أغويتني! انك رجل، فيك كل ما يجعل الأنثى تحبك! ولكننا سنبدأ من جديد، أليس كذلك؟ سيحب كل منا الآخر، ألا انظروا أنني أضحك، أنني سعيدة! كلمني!»

وكانت متعة للرائي، بعينيها اللتين كانت الدموع ترتعش فيهما، كماء مزن يسقط في كأس زرقاء! وأجلسها على ركبتيه، وراح يمسح بظهر يده، في تدليل، شعرها الناعم الذي انعكس عليه - في العتمة الخفيفة التي شملت الغرفة - شعاع من فلول أشعة الشمس الغاربة، فبدأ كما لو كان سهماً ذهبياً وأحنت رأسها، وما لبث أخيراً أن قبل في لطف جفنيها بأطراف شفتيه، وتساءل: «ولكنك كنت تيكين، لماذا؟» وانثبق دمعها مدراراً، فخيّل لرودولف أنها فورة من فورات الحب، فلما لم تنبس ببنت شفة، فسر هذا الصمت بأنه آخر مظاهر التمتع والدلال، فهتف: «أواه! ألا اغفري لي! أنت الوحيدة التي تروق لي، لقد كنت غيبياً وقاسياً، أنني أحبك، وسأظل أحبك على الدوام، فماذا بك؟ ألا قول لي!» وركع في تلك الأثناء إلى جوارها.

- آه، لقد قضى على بالخراب يا رودولف! هلا اقرضتني ثلاثة آلاف فرنك؟

قال وهو ينهض في تودة، وقد استولى على أساريه وجوم: «ولكن، ولكن...» فبادرت قائلة بسرعة: «إنك تعلم أن زوجي عهد إلى موثق للعقود بكل ثروته ليستثمرها، فهرب، ومن ثم اضطررنا للاقتراض، والمرضى لا يدفعون، كما أن تصفيه الميراث لم تتم بعد، ولم نلبث أن نحصل على نصيبنا، على أننا اليوم محجوز على متاعنا لعجزنا عن دفع ثلاثة آلاف فرنك، لا بد من دفعها فوراً، في هذه اللحظة، فجئت لاثثة بصداقتك!»

قال «رودولف» لنفسه وقد شحب وجهه: «آه! إذن فهذا جاءت! وقال أخيراً في هدوء: «لست أملكها يا سيدتي العزيرة!» ومضى يقول إنه لم يكن يكذب، لو أنه أوتي المبلغ لما تردد في أن يعطيه لها، وإن كان من غير المستحب - عادة - التورط في مثل هذه الأمور الدقيقة، فإن المطالبة بالمال هي أبعد الرياح التي تهب على الحب وأشدّها قضاء عليه! وظلت «إيما» تتطلع إليه لحظات، وهي تردد: «الست تملكها؟» ألسنت تملكها؟ كان خليقاً

بي أن أجنب نفسي هذا الخزي الأخير، إنك ما أحببتني أبداً، أنك لست بأفضل من الآخرين». كانت تفضض عن نفسها، وقد فقدت اتزانها، وقاطعها «رودولف» قائلاً إنه هو الآخر في «ضائقة»، فقالت «إيما»: «آءا أننى أرثي لك، أجل، أرثي لك جداً» وراحت ترمق طينجة موشاة بالفضة، وقد أخذت مؤخرتها تلمع خارج قرابها. واستطردت: «ولكن المرء إذا كان فقيراً إلى هذا الحد، لا يبدد نقوده في كسوة كعب طينجته بالفضة، ولا يشتري ساعة مرصعة بالصدف» وأشارت إلى ساعة مطعمه بالنقوش الصدفية، واستطردت: «ولا مقابض مطلية بالفضة لأسواطه» ومست هذه المقابض «ولا تحفاً يعلقها إلى سلسلة ساعته، أوأا أنه لا يحرم نفسه شيئاً ولا رف الخمر في حجرته انك تحب نفسك، ولذا تعيش منعماً، لك قصر، ومزارع، وغابات، وتخرج للصيد، وتسافر إلى باريس، عجباً، أي شيء من هذه...» وصاحت وهي تتناول زرين من أزرار الأقمصة الذهبية المرصعة من فوق رف المدفأة: «إن أتفه هذه الصغائر تكبد المرء مالا أوأا لست أريدكما، احتفظ بهما» وألقت بالزرين بعيداً، فتفككت السلسلة الذهبية التي تتوسطهما، إذ ارتطما بالجدار، ثم أردفت «إيما» تقول:

— أما أنا، فقد كنت قميئة بأن أعطيك كل شيء. ما كنت أتردد في أن أبيع كل ما أملك، وأن أعمل بيدي من أجلك، كنت استجدي على قارعات الطرق ابتسامة، نظرة، كي أسمعك تقول: «أشكركا» أما أنت فتجلس هنا ناعماً في مقعدك الوثير، كأنك لم تسبب لي ما يكفيني من العذاب! لولاك - وإنك لتعلم هذا جيداً - لعشت سعيدة. ما الذي حملك على أن تدخل حياتي! أكان رهاناً؟ ومع ذلك فقد أحببتني، ولقد اعترفت بذلك، بل قلتها منذ لحظة. آءا كان من الخير لو انك طردتني، إن يدي لا تزالان ساختين. من قبلاتك، ولا يزال على البساط آثار ركبتيك وأنت تقسم على خلود حبك! جعلتني أصدقك، استبقيتني عامين في أبهى وأحلى الأحلام! آءا أتذكر الخطط التي رسمناها لرحلتنا؟ أوأا وخطابك! خطابك! لقد مزق قلبي! وبعد ذلك، عندما أعود إليه -إليه، وهو الغني، السعيد، الطليق- أناشده معونة لا يحجم أى غريب عن تقديمها. الآن إذ أضرع إليه، وأعيد إليه كل حبي وحناني، يردني، لأن كل هذا لا يساوي عنده ثلاثة آلاف فرنك!.

قال «رودولف»، بتلك الرزاة التامة التي يتوارى خلفها الغضب المكظوم، كما لو كانت درعاً: «لست أملك المبلغ» فخرجت «إيما»، كأنما كانت الجدران تترنج، والسقف ينقض عليها، ورجعت ادراجها سالكة الدرب الطويل، متعثرة في أكوام ورق الشجر الجاف الذي كانت الريح تذرره، وبلغت أخيراً السياج النباتي الذي يقوم قبل الباب الخارجي، واتلفت أظافرها وهي تعالج قفل الباب ملهوفة على فتحه، ثم وقفت بعد مائة خطوة، وقد تعثرت أنفاسها، وأوشكت أن تنهار. وما لبثت أن تلفت خلفها، وتطلعت مرة أخرى، إلى القصر المنيع، مع البستان، والحداثق، والأفنية الثلاثة، ونوافذ الواجهة.

ومكثت حائرة، مذهولة، لا تشعر بنفسها إلا خلال نبض عروقها الذي خالته منبعثاً

في قوة، كموسيقى تصم الآذان، وتنتشر في الحقول جميعاً. وكانت الأرض تحت قدميها أكثر تداعياً من البحر، وشقوق الحرث تلوح لها كأمواج تتكسر مزبدة. وانطلق كل شيء في رأسها - من ذكريات، وآراء - كصواريخ نارية تتفتت في الفضاء إلى ألف قطعة: ثقلت أباها، وحجرة المكتب الضيقة بدار «لوريه»، وحجرة نومها وزوجها في البيت، ومناظر أخرى، كان الجنون يطبق عليها، واشتد بها الخوف، وجاهدت لتتمالك نفسها، ولكنها في الواقع كانت مرتبكة؛ فما كانت لتذكر شيئاً عن السبب الحقيقي في حالها الرهيبة هذه، وهو طلب المال! إذ لم تعد تتعذب إذ ذاك إلا من غرامها، وأحست بأن روحها تفارقها في هذه الذكرى، كالجرحى إذ يشعرون - وهم يحتضرون - بحياتهم تتسلل خلال جراحهم. وكان الليل يرخي سدوله، والغربان تحوم، وفجأة خيل إليها أن ثمة كرات ملونة من لهب تنفجر في الهواء - كالصواريخ حين تنطلق - ثم تلف، وتلف، تذوب في النهاية في الصقيع، بين أفنان الشجر، وفي وسط كل كرة، كان وجه «رودولف» يلوح، وتكاثر الكرات وأخذت تقترب منها، وتنفذ خلالها، ثم تلاشت كلها، إذ تبينت أنها إنما كانت تحملق في أضواء البيوت المتألقة خلال الضباب!

إذ ذاك، عاد موقفها يتجلى لها كهوة سحيقة، وكانت تلهث وكأنما قلبها يوشك أن ينفجر. ثم، وفي نوبة من نوبات البطولة - جعلتها في شبه غبطة - اندفعت تهبط السفح، وتجتاز معبرة البقر فوق النهر، وتنطلق مجتازة الشارع، والحارة، والميدان، حتى وصلت إلى الصيدلية، وكانت خالية، وهمت بالدخول، ثم خشيت أن يرن الجرس فيخف إلى الخانوت أحد، وتسلفت خلال الباب الجانبي للحديقة، وهي تمسك أنفاسها، ثم تلمست سبيلها بجوار الجدار إلى باب المطبخ، حيث كانت ثمة شمعة مشتعلة فوق الموقد، وكان «جورستان» هناك بدون سترته، وقد حمل إحدى الصحف، فقالت: «آه! انهم يتناولون عشاءهم، لنتنظرا»



ورأته يعود إلى المطبخ، فطرقت النافذة في رفق، وخرج إليها، فهمست له: «المفتاح، مفتاح الحجرة العليا، حيث توجد...»، فتساءل: «ماذا؟» ورمقها مشدوها لفرط شحوب وجهها، الذي بدا بياضه جلياً وسط ظلمة الليل، وبدت له في جمال وبهاء غير عاديين، وكأنها طيف. وأحس بنذير مرعب، وإن لم يفهم ما كانت تبغى، ولكنها عادت تقول بسرعة، في صوت خافت، عذب، يذب القلوب: «انني أريده. اعطنيده» وإذا كان الجدار الذي يفصل المطبخ عن بقية البيت رفيعاً، فقد كانت جلبة الشوكات على صحاف الطعام - في غرفة المائدة - مسموعة. وزعمت «إيما» أنها بحاجة إلى قتل بعض الجرذان التي تحرمها النوم.

- يجب ان استأذن السيد.

- لا انتظرا!

ثم اردفت في غير اكتراث: «آه! الأمر لا يستحق لن ألبث أن أقول له! هيا! أنر لي السلم!» ودلفت في الردهة المفضية إلى باب المعمل. وكان ثمة مفتاح معلقاً على الجدار، يحمل بطاقة كتب عليها «كفر ناحوم». وفي تلك اللحظة صاح الصيدلي بصبر نافذ: «جورستان!». فهتفت «إيما»: «لنصعدا» وتبعها، ودار المفتاح في القفل، وسارت فوراً نحو الرف الثالث، مهتدية بذاكرتها، فتناولت القنينة الزرقاء، وانتزعت سدادتها عنها، ودست فيها يدها، ثم أخرجتها ممتلئة بمسحوق أبيض، شرعت تلتهمه! وصاح الفتى وهو ينقض عليها: «توقفي!»

- صداً وإلا جاء أحد.

وتولاه اليأس، فود لو يصرخ، ولكنها قالت له: «لا تقل شيئاً، والا وقعت المستولية على مخدومك!» ثم عادت إلى دارها وقد غشيتها سكينه مفاجئة، وداخلتها طمأنينة من أدى واجبه.



عندما عاد «شارل» إلى بيته مهموماً لأتباء الحجز وإعلان البيع، كانت «إيما» قد خرجت، فطفق يبكي مجهشاً، وأغمى عليه. ولكنها لم تعد! ترى أين يحتمل أن تكون؟ أوفد «فيليسيتيه» إلى دار آل «هوميه»، وإلى دار السيد «توفاش»، ودار «لوريه»، و«الفندق الذهبي»، وكل مكان. وفي فترات الهدوء التي تخللت أحزانه، كان يتمثل سمعته المضيعه، وثروتها المبددة، ومستقبل «بيرت» المضضع، بأي سبب؟ لم تكن ثمة كلمة واحدة تهديه! وظل ينتظر حتى الساعة السادسة مساءً، وأخيراً لم يعد يطيق صبراً. خيل إليه أنها ذهبت إلى (روان)، فانطلق في الطريق المفضية إليها، وقطع ميلاً، دون أن يلتقي بأحد ومرة أخرى، أخذ ينتظر، ثم عاد إلى البيت، وكانت قد عادت وجلست إلى مكتبها فكتبت رسالة، ثم أحكمت إغلاقها في بطاء، واثبتت عليها التاريخ والساعة، ثم قالت في صوت ينذر بالجلل: «لك أن تقرأ هذه غداً. حتى ذاك الوقت، أرجو أن لا تسألني، ولا سؤال واحداً»

- ولكن.

- أواه. دعني!

واستلقت «إيما» على فراشها، وانتابتها غفوة استيقظت منها على طعم مرير في فمها، ورأت «شارل»، فعادت تغمض غينيتها، وأخذت تدرس نفسها في فضول، لتستبين ما إذا كانت بمنجى من الألم. ولكن لا! لم يكن ثمة ألم بعد، وسمعت دقات بندول الساعة، وأزيز النار في المدفأة، وأنفاس «شارل» وهو واقف إلى جوار السرير معتدل القامة، وقالت

لنفسها: «آه! ما أهون الموت! لن ألبث أن استغرق في النعاس، ثم ينتهي كل شيء!» وتناولت جرعة من الماء ثم ادارت وجهها نحو الحائط وعاردها الطعم البغيض، كأنه طعم المداد! وتنهدت قائلة: «أنني ظامئة. آه! لشد ما أنا عطشانة!» فقال «شارل» وهو يناولها كوباً من الماء: «ماذا بك؟» فقالت: «لا شيء! افتح النافذة. إنني أختنق!» ودهمها غثيان مفاجئ حتى أنها لم تكد تجرد وقتاً لتسحب المنديل من تحت الوسادة. وقالت في عجلة: «خذه بعيداً. لقد بعيداً». وراح يحدثها، ولكنها لم تحب، وظلت راقدة بلا حراك، تخشى أن تؤدي أتفه حركة إلى التقيؤ من جديد. ولكنها ما لبثت أن أحست ببرودة جليدية تزحف من قدميها نحو قلبها وغمغمت: «آه! هذه هي البداية!» فقال: «ماذا قلت؟» فأخذت رأسها من جانب إلى آخر في حركة خفيفة مفعمة بالألم، وهي لا تنى تفتح فمها، وكأن شيئاً ثقيلاً يجثم على لسانها. وفي الساعة الثامنة، عاردها القيء، ولاحظ «شارل» في قاع الحوض قطعاً من مادة بيضاء، لاصقة بجوانب القيشاني، فأخذ يردد: «هذا غريب. جد غريب!» ولكنها قالت في صوت حازم: «لا. انك تخطئ». وما لبث أن مد يده في رفق، بل وفي تظلف، متحسناً بطنها، فأرسلت صرخة حادة، وتراجع مذعوراً!

وما لبثت أن أخذت في الأثين، بصوت خافت في البداية، وتولتها رجفة شديدة كانت كتفاها تهتزان لها، وأخذت تزداد شحوباً حتى فاقت في البياض تلك الأغشية التي كانت أصابعها تشبث بها وتغوص فيها. وما لبث نبضها غير المنتظم أن وهن حتى أوشك أن لا يكون محسوساً، وتفصدت قطرات العرق من وجهها الذي غدا أزرق اللون، والذي بدا كما لو كان جامداً تحف به غلالة من أبخرة معدنية. وأخذت أسنانها تصطك، وعينها الواسعتان تجولان فيما حولها بنظرات مبهمه، ولم تكن تحجب عن أى سؤال إلا بهزة من رأسها، بل انها ابتسمت مرة أو اثنتين، وأخذ أنينها يشتد ارتفاعاً شيئاً فشيئاً، ثم انبعثت منها صرخة جوفاء، وتظاهرت بأنها أحسن حالاً، وأنها لن تلبث أن تنهض. بيد أنها ما لبثت أن أخذت تختلج في تشنج وصرخت: «آه! يا الهي! هذا فظيع!»

وهبط راکعاً إلى جوار سريرها قائلاً: «نبتينى! ماذا أكلت؟ أجيبى بحق السماء!» وأخذ يتأملها وعيناه تفيضان بحنان لم تر مثله قط، فقالت بصوت واهن: «حسناً هناك!» وانقض على المكتب، وقض الرسالة، وقرأ بصوت مرتفع: «لا تنهوا أحداً... وأمسك، وفرك عينيه، ثم عاد يقرأ من جديد، وما لبث أن صاح: «ماذا؟ النجدة! النجدة!» ولم يتمالك أن راح يردد كلمة «مسمومة! مسمومة!» وهرعت «فيليسيتيه» إلى «هوميه» الذي أعلن النبأ بصياحه في الميدان، حتى سمعته مدام «لوفرانسوا» في «الفندق الذهبي»، وقام البعض من أماكنهم ليحملوه إلى جيرانهم، وظلت الغرية مستيقظة طيلة الليل.

وكان «شارل» يطوف بالحجرة مخبولاً، مضطرباً، مترنحاً، يتخبط في قطع الأثاث، ويشد شعره، وما كان الصيدلي ليصدق قط أن سيقدّر له أن يرى مثل هذا المنظر الرهيب،

فعاد إلى داره ليكتب إلى السيد «كانيفيه» وإلى الدكتور «لاريفيير». وكان مشتت الفكر، حتى أنه كتب أكثر من خمس عشرة مسودة، وذهب «هيبوليت» إلى (نيوشاتل)، وراح «جوستان» يلكر جواد «بوفاري»، حتى تركه متقطع الأنفاس، بل شبه ميت، بجوار غابة (جيوم). وحاول «شارل» أن يستشير قاموسه الطبي، ولكنه لم ير شيئاً، إذ كانت السطور تتراقص. وقال الصيدلي: «أهدأ.. ليس أمامنا سوى أن تعطيها جرعة قوية مضادة للسم. أى سم كان؟» فأراه «شارل» الخطاب. كان زرنixa. وقال هوميه: «حسناً. لابد من أن تجري تحليلاً». فقد كان يعلم أن لابد من إجراء تحليل فى حالات التسمم. وأجاب الآخر وهو لا يفقه شيئاً: «آه، فليكن! ليكن! انقذها!».

ثم عاد إليها فتهالك على البساط، وظل مستلقيا هناك مسندا رأسه إلى حافة السرير، وهو يبكي. فقالت له: «لا تبك! لن أعود أزعجك عما قريب!».

— لماذا؟ من الذي دفعك إلى هذا؟

فأجابت: «كان لابد منه يا عزيزي».

— أفلم تكوني سعيدة؟ أكان هذا ذنبى؟ لقد بذلت كل ما في وسعي!

— أجل، هذا صحيح. انك طيب!

ومسحت بيدها على شعره ببطء. وضاعف عذوبة هذا الشعور من حزنه. أحس بكل كيانه يذوب في القنوط إذ خطر له أنه سيفقدها ولابد، في الوقت الذي كشفت فيه عن حب له يفوق كل ما أبدت من قبل. ولم يجد في رأسه فكرة. كأنما لم يكن يعرف شيئاً، أو يملك شيئاً. كانت الحاجة الماسة إلى قرار عاجل، ضربة قاضية أكملت اضطراب فكره.

وفكرت «إيما» في نفسها: إذن فقد قضت على كل الخيانة، والخسة، والشهوات التي لا حصر لها، والتي كانت تعذبها. لم تعد تكره أحداً. وبدأت تخيم على أفكارها عتمة مضطربة. ولم تعد «إيما» تميز من كل ضجيج الحياة شيئاً سوى التحيب المتقطع المنبعث من ذلك المسكين الطيب، والذي بدا لها كأصدقاء لحن يموت في الفضاء. فقالت وهي ترفع جسمها مستندة إلى مرفقها: «أحضر لي بيرت:» فسألها «شارل»: «انك لم تعودى مريضة. ليس كذلك؟» فقالت: «لا، لا».

وجاءت الطفلة على ذراع الخادم، وقدامها العاريتان تبرزان من تحت ذيل ثوب النوم الطويل. واجمة المحيا، ولا تزال شبه نائمة! وتأملت الحجرة المرتبكة في دهشة، وطرفت أهدابها إذ بهرها ضوء الشموع التي كانت مشتعلة على المنضدة، ولابد أن هذا ذكرها بأيام رأس السنة، أو منتصف الصيام الكبير عندما كانت تستيقظ من نومها مبكرة على ضوء الشمعة، وقد اعتادت إذ ذاك أن تسعى إلى سرير أمها لتتلقى هداياها ومن ثم هتفت فجأة! «أين ماما إذن؟» وإذ وجم الجميع، قالت: «ولكنني لا أرى جوربي الصغير!» وحملتها «فيليسيتيه» إلى السرير، وهي لا تزال تنظر إلى رف المدفأة، وتساءلت: «هل أخذته المربعة؟».

وكأنما أثار ذكر «المرضعة» في نفس مدام «بوفاري» ذكرى فسقتها ومصائبها، فأشاحت وكأنما غثيت نفسها بفعول سم أقوى من ذلك الذي أخذته. وكانت «بيرت» في تلك الأثناء قد جلست على السرير، فهتفت: «آه! ما أكبر عينيك يا ماما! وما أشد اصفرارك! يا لحرارتك!» ونظرت إليها أمها، فإذا بها تنكمش قائلة: «انتي خائفة؟» وتناولت «إيما» يد الصغيرة لتقبلها، فتملصت. وعندئذ صاح «شارل» الذي كان يبكي عند رأس السرير: «كفى! انصرفوا بها!»

وما لبثت الأعراض أن توقفت قليلاً، وبدت «إيما» أقل قلملاً من ذي قبل، وأخذت تبدو أهدأ حالاً عند كل كلمة غير ذات قيمة، أو كل نفس يتهدج به صدرها، فعاود الأمل «شارل». وما إن وصل «كانيفيه» أخيراً، حتى ارتقى على صدره باكية، وهو يقول «آه! أهذا أنت! شكراً! ما أطيبك! على أن كل شيء يسير نحو التحسن، ألا أنظر إليها» على أن الزميل لم ير رأيه، ولم يشأ - كما عبر بنفسه - أن «يسير على غير هدى»، بل وصف دواء مقبلاً، ليفرغ المعدة تماماً. وما عتمت، أن أخذت تتقيأ دماً. واشتد التصاق شفتيها، وراحت أطرافها تتلوى متشعبة، وامتلاً جسمها كله ببقع سمراء، وتوتر وريدها تحت أصابعها كخيوط مشدود، أو كوتر قيثارة يوشك أن ينقطع، ثم شرعت في صراخ منكر. وراحت تلعن السم وتسبه، ثم تتوسل إليه أن يعجل بقضائه، وتدفع عنها بذراعيين متصلبتين كل ما كان «شارل» يحاول أن يحملها على تناوله، وهو أكثر منها توجعاً وعذاباً. وكان يقف، ضاغطاً منديله إلى شفتيه، باكية، ينشج في بكائه بدرجة تهز كل جسمه، وقد تحشرج صوت أجش في حلقه. وكانت «فيليسيتيه» تجري في الغرفة، هنا وهناك، و«هوميه» لا يحير حراكاً، ويرسل زفرات ثقيلة، وظل السيد «كانيفيه» متمالكا جأشه، ثم بدا يشعر بقلق.

- يا للشيطان! لقد تقيأت كل ما في بطنها، ومن اللحظة التي يكف فيها

السبب...

فأكمل «هوميه»: «يجب أن يكف المفعول. هذا جلي».

وهتف بوفاري: «الانقذوها!»

وهم «كانيفيه» بأن يعطيها ترياقاً، غير منصت للصيدلى الذي كان لا يزال يقترح افتراضات: «لعل الأزمة تشتد لتزول»، وإذا بهم يسمعون فرقعة سوط، واهتزت كل النوافذ، وأقبلت من خلف السوق عربة خفيفة تجرها ثلاثة جياد لطخت بالوحل حتى آذاذ ووصل الدكتور «لاريفيير»، ولو أن إلها تجلى، لما أحدث مثل الأثر الذي حدث إذ ذاك، رفع «بوفاري» يديه، وأمسك «كانيفيه» عما كان يهيم به، وخلع «هوميه» قلنسوته الاغريقية قبل أن يصل الطبيب بفترة طويلة.

كان «لاريفيير» ينتمى إلى المدرسة العظيمة للجراحة، التي أخذت عن «بيشا»، إلى ذلك الجيل الذي لم يعد له وجود، جيل الأطباء المتفلسفين، الذين أحبوا فنهم في

شغف متهوس، ومارسوه في تحمس وحكمة. كان كل شخص في مستشفى يرتجف فرقا إذا غضب، وكان تلاميذه يكبرونه إلى درجة أنهم كانوا -بمجرد أن يشربوا في ممارسة مهنتهم- يحاولون أن يقلدوه ما وسعهم، حتى أنهم كانوا يشاهدون -في كل المدن- مرتدين، على شاكلته، معاطف طويلة من صوف «المارينوس» الخفيف، مبطنة، وسترات «فراك» سوداء، تستطيل أكمالها ذات الأزرار حتى تمس الأكف. وكانت يدها بديعتين، لم تعرفا القفازات قط، وكأنما كانت متأهبة دائما لتغوص في الآلام. وكان يزدري الأوسمة، والألقاب، والدرجات العلمية، كواحد من أولئك الفرسان الأطباء الذين كانوا يقفون حياتهم في الماضي على تخفيف آلام المجرى، كما كان كريماً، يعطف كالأب على الفقراء، ويفعل الخير دون ما رجاء. حتى لقد كان من الممكن أن يعتبر قديساً، لو لم يكن أرهاف روحه قد جعله مهيباً وكأنه طاغية! وكانت نظراته أكثر نفاذاً من مبضعه، فهي تنفذ في نفسك مباشرة إلى الأعماق، وتشرح كل أكذوبة تتوارى وراء المزاعم والأسرار التي يكتبها الحياء. وهكذا مضى في حياته، مفعماً بتلك الهناءة الجليلة التي تنبعث من الشعور بعظمة مواهبه، وبمكائنته، وبحياة دامت أربعين عاماً حافلة بالدأب والجد، خالية من كل شائبة.

وعيس بمجرد أن اجتاز الباب، إذ رأى وجه «إيما» في شحوب الموتى، وهي مستلقية على ظهرها، فاغرة الفم، وبينما كان ينصت إلى «كانيفيه» في اصغاء، وراح ير بسبابته تحت طاقتي أنفه، مردداً: «هذا حسن. حسن!» على أنه هز كتفيه في حركة بطيئة، لمحها «بوفاري».. ونظر كل منهما إلى الآخر، فإذا هذا الرجل -الذي ألف رؤية الألم- لا يملك أن يحبس دمعة سقطت على ياقة قميصه. وحاول أن يصحب كانيفيه إلى الغرفة المجاورة، ولكن «شارل» تبعه قائلاً: أنها جد مريضة، أليست كذلك؟ لو وضعت «لنزقة خردل»؟ أي شيء! ألا فكر لها في شيء، فكم أنقذت من نفوس!

وطوقه «شارل» بذراعيه، وراح يحلق فيه في حيرة وتوسل، حتى ليكاد يرتقي على صدره مغمى عليه، فقال له الدكتور «لاريفيير»: «تجلى يا زميلي المسكين. تشجع! لم يعد هناك شيء فوق الذي عمل من قبل». وتحول، فهتف شارل: «أمنصرف أنت؟» قال: «سأعود». وخرج ليلقي أمراً إلى حوزيه، ومعه السيد «كانيفيه» الذي لم يعد يحفل إذا ما ماتت «إيما» تحت يديه؛ ولحق بهما الصيدلي في الميدان، فما كان بطبعه ليقوى على أن يكون بمنأى عن العظماء، ومن ثم رجا السيد «لاريفيير» أن يوليه الشرف فيقبل تناول الفطور على مائدته. وبادر فأرسل إلى «الفندق الذهبي» في طلب بعض الحمام، وإلى القصاب في طلب كل ما كان عنده من لحم افخاذ الضأن، وإلى «توفاش» يطلب قشدة، وإلى «ليستيبودوا» يطلب بيضاً، وتولى بنفسه المساهمة في اعداد المائدة، بينما كانت مدام «هوميه» تقول وهي تشد رباط سترتها: «ألا اعذرنا يا سيدي، ففي بلدتنا التبعة، إذا لم يخطر المرء في الليلة السابقة...».

وهمس «هوميه»: «أقداح النبذا».

- لو اننا كنا في المدينة، لوجدنا على الأقل مورداً لدى الباعة المتجولين.

- اسكتي! إلى المائدة يا دكتور!

ورأى -بعد اللقمة الأولى- أن من المناسب أن يدلي ببعض تفصيلات الفاجعة.

فقال: «لقد ظننا في البداية أنه تصلب في الحلق، ثم آلام لا تطاق في أعلى المعدة، ثم قيء وإسهال، ثم غيبوبة...».

- ولكن، كيف سمحت نفسها؟

- لست أدري يا دكتور، بل إنني لا أعرف كيف استطاعت أن تحصل على حامض الأرسنيك (الزرنيخ).



وكان «جويستان» قد أقبل إذ ذاك يحمل صفاً من الأطباق، فانتابته رعشة، وقال له الصيدلي: «ماذا بك؟» وترك الفتى -عند هذا السؤال- الأطباق تهوي إلى الأرض، متهشمة في ضجيج، فصاح «هوميه»: «غبي! شرباً مغفلاً حماراً» ولكنه قال نفسه تواً، واستأنف حديثه الأول: «لقد اردت يا دكتور أن أجرى تحليلاً، فبدأت بإيلاج أنبوية...» فقال الجراح: «كان من الأفضل أن تدك أصابعك في الحلق». وكان زميله مغلداً إلى الصمت، إذ تلقى قبل ذلك -على حدة- درساً قاسياً عن دوائه المضاد للسم. وبقدر ما كان «كانيفيه» مهتماً، لاذع النقد يوم جراحة قدم الأعرج، بدا اليوم متواضعاً للغاية، وراح يتسهم دون انقطاع، معلناً موافقته على طول الخط.

واستغرق «هوميه» في نشوة الشعور بأنه صاحب الوليمة، كما ساعدت صورة «بوفاري» المحزون على سروره، بطريقة مبهمة، بتأثير أناني، وما لبث وجود «الدكتور» أن رده إلى الواقع، وراح يعرض مدى علمه، متحدثاً -في غير ما تناسق- عن الذباب الهندي، والأشجار السامة، والأفاعي. ثم استطرده قائلاً: «يل انني قرأت أن أشخاصاً عديدين وجدوا أنفسهم يعانون من أعراض التسمم، وظهر للدهشة البالغة، أن ذلك نشأ عن خبز تعرض لدخان شديد. لقد ورد هذا على الأقل في تقرير جديد بديع، وضعه واحد من أقطابنا في الصيدلة، واحد من أساتذتنا: «كادييه دو جاسيكر الميرز...».

وظهرت مدام «هوميه» مرة أخرى، تحمل موقداً يشعل بالحكول الأحمر، إذ كان «هوميه» يحب أن يعد قهوته على المائدة، فيحمص البن، ويصحنه، ويمزجه بنفسه. وقال مقدما السكر: «سكر يا دكتور؟» وتعمد أن ينطق اسم السكر باللاتينية! ثم دعا كل أبنائه إلى الهبوط، تواقاً إلى أن يعرف رأي الطبيب في تكوينهم البدني. وإذا هم السيد «لايفيير» بالانصراف -أخيراً- طلبت مدام «هوميه» رأيها في حال زوجها، إذ كان يحرص في كل مساء على أن ينام بعد العشاء، مما يجعل دمه كثيفاً. فقال الطبيب: «آه ليس

الكثيف هو دمه» وفتح الباب وهو يبتسم ابتسامة خفيفة للنكتة التي لم ينتبه إليها أحد. على أن حانوت الصيدلي كان قد ازدحم بالناس، وعانى كثيراً حتى تخلص من السيد «توفاش» الذي كان يخشى أن تصاب زوجته بالتهاب الرئتين، إذ اعتادت أن تقعد على رماد نيران المدفأة، ثم من السيد «بيني» الذي يشعر أحياناً بنوبات جوع شديد، ومن مدام «كارون» التي شكت من التهاب في الجلد، و«لوري» المصاب الدوار، و«ليستيبودا» الذي يعاني من روماتيزم، ومام «لوفرانسوا» التي شكت من حموضة في المعدة وأخيراً، انطلقت الجياد الثلاثة تجر «لاريغير»، وأجمع القوم بعد رحيله على أنه لم يكن لطيفاً! واسترعى انتباه الجمع ظهور الأب «بورنيسان» الذي كان يجتاز الميدان حاملاً الزيت المقدس. وشبه «هوميه» القساوسة -وفقاً لمبادئه- بالصقور التي تجتذبها رائحة الموت. كان منظر أي واحد من رجال الدين من الأمور التي لا تروقه، إذ كان المسوخ يذكره بالكفن، وكان يكره الواحد منهما خشية أن يجلب له الآخرة مع ذلك، فانه لم يحجم عما أسماه «رسالته»، فعاد إلى دار «بوفاري» بصحبة «كانيفيه» الذي عنى السيد «لاريغير» -قبل رحيله- بحثه على أداء هذه الزيارة، ولولا معارضة زوجته، لاصطحب «هوميه» ولديه الصغيرين، ليألفا المناسبات الكبيرة، وحتى يكون هذا لهما درساً، مثلاً، صورة الحدث يبقى في ذهنهما طويلاً!

وكانت الغرفة -حين ولجأها- مفعمة بوجوم حزين. وعلى نضد التطريز -الذي غطى بمفرش أبيض- كانت ثمة خمس أو ست كرات صغيرة من القطن، في طبق فضي، مقربة من صليب كبير بين شمعتين موقدتين. وكانت ذقن «أيا» ملصقة بصدرها، وعيناها مفتوحتين في اتساع غير عادي، وبداها الكليلتان تتحركان على الأغطية تلك الحركات الرهيبة، الخفيفة التي تصدر عن المحتضرين، وكأنهم يودون أن يعجلوا بسحب الأكفان على أجسادهم. وكانت في شحوب التمثال، وعيناها في حمرة اللهب، ووقف «شارل» عند مؤخرة السرير، في مواجهتها، وقد كف عن البكاء، بينما ركع القس على ركبة واحدة، وأخذ يتمتم بكلمات خافتة.



وأدارت وجهها في بطاء، وبدا أن فرحاً تولاها حين رأت فجأة الجلباب الكهنوتي (البطرشيل) البنفسجي، إذ وجدت من جديد ولاشك - في غمرة السكينة غير العادية التي غشيتها - البهجة التي افتقدتها، والتي تولدت من نزواتها التصوفية الروحية الأولى، مع رؤي التطويب الأبدي الذي ابتداء، فقد نهض القس ليتناول الصليب، وإذ ذاك، اشرأبت بعنقها كشخص برح به العطش، والصقت شفيتها بتمثال المسيح -على الصليب- وبكل قواها المضمحلة، طبعت أعظم قبلة غرامية صدرت عنها في حياتها. ثم أخذ القس يتلو مزموار الرحمة، وغمس إبهام يده اليمنى في الزيت، وشرع يقوم بعمليات الدهان. فبدأ

بالمسح على العينين اللتين غرب عنهما كل زهو دنيوي، ثم على طاقتي الأنف، اللتين كانتا تنشقان في نهم النسائم الحارة، وأريج الهوى، ثم على الفم الذي كان ينطق بالكاذب، والذي كان يقلب شفثيه في غرور، ويصرخ في شبق، ثم على اليدين اللتين كانتا تستمتعان باللمسات الشهوانية. ثم -أخيراً- على باطني القديمين اللتين كانتا فيما مضى سريعتين إذا ما هرعتا لارضاء شهواتها، واللتين لم تعودا تسيران.

ومسح القس أصابعه -ثم ألقى بقطعة القطن المبللة بالزيت إلى النار، وتحول فجلس إلي جوار المرأة المحتضرة، ليوصيها بأن تخلط آلامها بآلام يسوع المسيح، وأن تسلم نفسها إلى رحمة الرب. وإذا فرغ من وصاياه، ومواعظه، حاول أن يضع في يدها شمعة مباركة، رمزاً إلى المجد السماوي الذي لن تليث أن تحاط به، ولكن «إيما» في ضعفها البالغ، لم تستطع أن تطبق أصابعها، فكادت الشمعة أن تقع على الأرض لولا أن تداركها الأب «بورنيسيان». على أنها لم تعد شديدة الشحوب، واكتسب وجهها بسكينة مطمئنة، وكان المسح بالزيت قد شفاها، ولم يغفل القس أن يشير إلى ذلك، بل أنه راح يذكر لبوفاري أن الرب أحياناً يطيل أعمار الأشخاص إذا رأى ذلك ملائماً لخلاصهم. وتذكر «شارل» اليوم الذي تناولت فيه القربان المقدس حين كانت قد أوشكت على الموت، فعلم نفسه قائلاً: «لا داعي لليأس».

والواقع أن «إيما» أخذت تجول ببصرها فيما حولها ببطء، كمن يستيقظ من حلم، ثم طلبت بصوت واضح مرآتها، فظلت برهة منحنية عليها، إلى أن تساقطت من عينيها دموع غزيرة، فتحولت عنها، متنهدة، وتهالكت على الوسائد. وسرعان ما أخذ صدرها يتهدج بسرعة، وبرز لسانها بأكمله من فمها، وراحت عيناها تزدادان شحوباً، وهما تجولان في محجريهما، كلهب مصباح يحترق، حتى لقد كان يخيل للمرء أنها ماتت، لولا الحركة العنيفة التي انتابت ضلوعها بتأثير نفسها الشاق المتعسر، كأنما كانت الروح تناضل كي تتحرر.

وركعت «فيليسيتيه» أمام الصليب، وتطلع السيد «كانيفيه» بنظرات شاردة إلى الميدان، وشرع «بورنيسيان» في الصلاة من جديد، وقد اتحنى وجهه على السرير، وانتشر مسوحه الأسود خلفه في الحجرة. وكان «شارل» جاثياً في الجانب الآخر من السرير، باسطاً ذراعيه نحو «إيما»، وقد تناول يديها وأخذ يضغطهما، مرتجفاً لكل خفقة من قلبها، وكأنه يرتعش لخراب منقوض. وإذا اشتدت حشجة الموت، ازداد اسراع القس في صلاته، وأخذت دعواته تترج بشهقات «بوفاري» المكتومة. وكان كل شيء يغيب أحياناً في التمتعة المختنقة بالمقاطع اللاتينية التي بدت كأصداً متلاشية لجرس.. وفجأة، سمعت على رصيف الشارع جلبة نعلين خشبيين، ودقات عصا. وانبعث صوت، صوت مبجوح يغني: «العداوى في قيظ أيام الصيف يحلمن بالحب، والحب دائماً». ورفعت «إيما» جسمها وكأنها جثة سرت فيها نسمة عابرة من الحياة، وقد تهدل شعرها، وجمدت عيناها محمقتين، بينما

واصل صوت المغني الذي يتسكع في الشارع غناءه المبحوح: «لكي تجمع سريعاً، السنابل التي حصدها المنجل، سارت حبيبتني نانيت، منحنية نحو الأرض التي منحتنا أياها». وصاحت «إيما»: «الأعمى!» ثم انطلقت في ضحكات نابية، متهوسة، قانطة، وهي تتمثل الوجه البشع الذي أوتيه ذلك التعس المسكين، وقد انتصب في الظلمات الأبدية كنذير بالشؤم، بينما كان الرجل ماضياً في أغنيته: «كانت الريح تهب قوية في ذلك اليوم، فطارت «الجونلة» القصيرة!» وتهالكت «إيما» على الفراش، واختلج جسمها، واقتربوا جميعاً منها، ولكنها كانت قد فارقت الحياة!

الفصل التاسع

يعقب وفاة أي أمريء -عادة- نوع من الذهول، يتعذر معه ادراك هذا العدم الواقد، وحمل النفس على تصديقه. على أن «شارل» لم يكذب تبين أن «إيما» لم تعد تتحرك، حتى ألقى بنفسه عليها صائحاً: «وداعاً! استودعك الله! وجهه «هوميه» و«كانيفيه» إلى خارج الغرفة قائلين: «تجلبدا» فقال: «نعم، سأكون هادئاً، ولن أفعل شيئاً. إلا أتركاني! أريد أن أراها! انها زوجتي!» وأخذ يبكي، فقال الصيدلي: «أبك. دع نفسك على فطرتها، فإن هذا يسري عنك!» وتركهما يقودانه إلى قاعة الجلوس وقد غدا أضعف من طفل. وما لبث السيد «هوميه» أن انصرف. والتقى في الميدان بالأعمى الذي تلمس طريقه إلى (ايونفيل) أملاً في الحصول على البلمس الذي يقضى على الالتهاب، وراح يسأل كل مار عن مسكن الصيدلي، فقال هذا له: «ألا أغرب الآن! كأنني لا أجد مشاغل سواك! إلا دعني الآن، وعد فيما بعد!» ثم ولج الصيدلية على عجل. كان عليه أن يكتب رسالتين، وأن يعد جرعة مهدئة لبوفاري، وأن ينسج اكذوبة للتستر على التسمم، ويصوغ النبأ في مقال لصحيفة «الفانال»، غير حافل بالأشخاص الذين كانوا في انتظاره ليتلقوا منه النبأ. وعندما استوثق من أن أهل (ايونفيل) جميعاً سمعوا قصته عن الزرنينخ الذي ظننته «إيما» سكرأ، وهي تصنع «كريمة بالغانيليا» عاد مرة أخرى إلى «بوفاري»، فالفاه وحيداً -إذ كان السيد كانيفيه قد انصرف- جالساً في مقعد مريح إلى جوار النافذة، محملاً بذهول في بلاط الحجرة. فقال الصيدلي: «يجب أن تحدد الآن، وبفسك، موعد الطقوس». فتساءل: «ماذا؟ أية طقوس؟»، ثم استدرك في لهجة متلعثمة، جزعة: «أواه! لا ليس هذا، لا! انني أحب أن أراها هنا».

ولكي يتمالك «هوميه» نفسه، تناول أبريقاً من الرف ليروى زهور «الجيرانيوم» فقال «شارل»: «آه! شكراً، ما أطيبك!».. ولكنه لم يقو على اتمام عبارته، إذ اختنق صوته تحت فيض الذكريات التي أحيهاها في ذهنه تصرف الصيدلي. وإذ ذاك رأى «هوميه» -ليشغله عن هذه الذكريات- أن يتحدث قليلاً عن فلاحه البساتين، فأنواع النبات تحتاج إلى بعض الرطوبة.. ونكس «شارل» رأسه في موافقة صامتة. وما لبث الصيدلي أن قال: «إن الأيام البديعة لن تلبث أن تأتي!» فقال «بوفاري»: «آه!» إذ غضب معين الصيدلي، عمد إلى ازاحة الستائر الصغيرة في لطف عن ألواح الزجاج، ثم قال: «ها هو ذا السيد توفاش في الطريق»، فردد «شارل» كالآلة: «السيد توفاش في الطريق».

ولم يجرؤ «هوميه» على أن يحدثه ثانية عن اجراءات الجنازة. وكان رجل الدين هو الذي هباً لتقبلها، فاحتبس نفسه في غرفة العيادة، وتناول ريشة الكتابة، وبعد أن بكى فترة، كتب: «أرغب في أن تدفن في ثوب عرسها، وحذاءين ابيضين، وطاقة ورد، وأن

ينشر شعرها على كتفيها، وفي ثلاثة توأبيت: أحدها من خشب البلوط، والثاني من المهوجني، والثالث من القصدير. ولا يقولن أحد لي شيئاً، فلن ألبث أن استرد قواي، ولتوضع -قبل كل شيء- على قطعة كبيرة من المخمل الأخضر. هذه رغبتى، فلتنفذاً!.

وذهل السيدان للأفكار الشاعرية التي ابداهما «بوفاري»، فبادر الصيدلي إليه قائلاً: «يبدو لي أن المخمل زيادة لا داعي لها.. ثم إن النفقات..» فصاح «شارل»: «وهل يعنيك هذا؟ دعني! انك لم تكن تحبها. اخرج!». وتأبط القس ذراع شارل وخرج به إلى الحديقة يتمشيان. وراح يحدثه عما في المظاهر الدنيوية من لغو باطل، وعن أن الله كبير، ورحيم، فخلق بالإنسان أن يتقبل قضاءه دون ما تدمر، لا بل بالشكر والحمد. فانفجر «شارل» مجدداً: «انني اكره الهك!» وتهد رجل الدين قائلاً: «لا تزال روح التمرد مسيطرة عليك!» وكان «بوفاري» قد ابتعد، وراح يسير بخطى واسعة، في محاذاة الجدار، على مقربة من الخميلة، وهو يصر على أسنانه، ويرفع بصره إلى السماء بنظرات ساخطة، ولكنها لم تحرك ورقة واحدة في شجرة وتساقط المطر رذاذاً، فلم يلبث «شارل» -الذي كان عاري الصدر- أن أخذ يرتجف، ودخل الدار، فجلس في المطبخ، حتى إذا كانت الساعة السادسة، سمعت ضوضاء. كقطع من حديد. تصطك، كانت «العصفورة» عائدة. وظل واقفاً أمام زجاج النافذة، يشهد نزول الركاب واحداً بعد آخر، ثم فرشت له «فيليسيتيه» حشية في قاعة الجلوس، فارقى عليها، ونام.



كان «هوميه» يحترم الموتى، رغم فلسفته، ومن ثم لم يحقد على «شارل»، بل عاد ثانية في المساء، ليسهر إلى جوار الجثة، حاملاً معه ثلاث كتب، ومفكرة ليدون فيها ما يعن له. وكان الأب «بورنيسيان» هناك، وقد أقام عند رأس السرير شمعتين كبيرتين موقدتين، استجلبتا من مخزن الدار. ولم يلبث الصيدلي -الذي لم يكن ليحتمل الصمت- أن شرع يصوغ بعض عبارات الرثاء لتلك «الشابة المنكودة»، فأجاب القس بأنه لم يبق ما يفعل من أجلها سوى الصلاة! فقال «هوميه»: «أحد أمرين: إما أنها ماتت وهي مستمتعة بالعفو الرباني -كما تقول الكنيسة- وفي هذه الحال لا حاجة بها إلى صلواتنا، وإما أنها رحلت حاملة خطاياها -وأظن أن هذا أيضاً هو التعبير الديني- وفي هذه الحال...» فقاطعه «بورنيسيان» قائلاً في جفاء إن هذا لا يحول البتة دون الصلاة. ومضى الصيدلي في معارضته! «ولكن، مادام الله يعلم كل حاجتنا، فما جدوى الصلاة والدعاء؟» فصاح رجل الدين: «كيف! الصلاة! أو لست إذن مسيحياً؟»

قال هوميه: «عفو! انني أكبر المسيحية، فهي أولاً قد حررت الرقيق، وادخلت على الدنيا قانوناً خلقياً...»

- ليس هذا موضوع النقاش. كل الكتب الدينية... .

- آه! آه! أما عن كتب الدين، فارجع إلى التاريخ. من المعروف انها زيفت على أيدي الجزويت.

ودخل «شارل»، فتقدم صوب السرير، وازاح الستائر في ببطء. كان رأس «إيما» مائلاً صوب كتفها اليمنى، وقد بدأ ركن فمها -الذي كان مفتوحاً- كثغرة سوداء في القسم السفلى من وجهها. وكانت اصبعها السبابتان مطويتين في راحتيها، وقد تناثرت على أهدابها شيء من غبار أبيض، وبدأت عينها تغيبان في تلك الطبقة الشاحبة اللزجة المائعة التي رانت عليهما، وكأنها نسيج العنكبوت. وكان الغطاء ينخسف فيما بين صدرها وركبتيها، ثم يعلو فوق أصابع قدميها. وخيل لشارل أن كتلاً لا نهاية لها، أن حملاً ثقيلاً كان يجثم عليها.

ودقت ساعة الكنيسة معلنة الثانية، وكان بوسعهم أن يسمعوا خريف النهر المنساب في الظلام، عند أقصى الحديقة، وأخذ الأب «بورنيسيان» يخطط بين آن وآخر، بصوت مسموع، وصرير قلم «هوميه» على الرق ينبعث، وقال أخيراً: «هيا يا صديقي الطبيب! انصرف فان هذا المنظر يفتت كبداك!». وما إن انصرف «شارل»، حتى استأنف الصيدلي والقس نقاشهما. قال أحدهما: «اقرأ فولتير. اقرأ دولياش. اقرأ دائرة المعارف»، فقال الآخر: «بل اقرأ رسائل بعض اليهود البرتغاليين». اقرأ «معاني المسيحية» بقلم نيكولا، المأمور القضائي السابق». واشتد الجدل حرارة واحتداماً، وأخذ يتكلمان معا، دون أن ينصت أحدهما للآخر. وكان «بورنيسيان» يستنكر هذه المجازة، و«هوميه» في دهشة من هذا الغباء، وأوشكا أن يسب كل منهما الآخر، وإذا بشارل يظهر فجأة، كأنما كان ثمة سحر يجتذبه، فكان كلما غادر المخدع لا يلبث أن يعود إليه.



وقف «شارل» في الطرف المقابل لها، ليراها بجلاء، واستغرق في أفكار نسي في عمقها الألم، تذكر قصص داء التصلب، ومعجزات الاستهواء المغناطيسي، فخيّل إليه أنه ربما وفق إلى إحيائها من جديد، لو أنه ركز كل قواه في هذه الرغبة، بل لقد انحنى مرة نحوها، وناداه بصوت خافت: «إيما! إيما!» وكانت أنفاسه القوية تدفع لهب الشمعتين نحو الحائط.

ووصلت مدام «بوفاري» الأم مع مطلع النهار، وما إن احتضنها «شارل» حتى انفجر بسبيل جديد من الدموع.. وحاولت -كما حاول الصيدلي من قبل- أن تعلق على نفقات الجنائز، فإذا به يغضب إلى درجة جعلتها تصمت. بل أنه أوفدها إلى المدينة فوراً لتبتاع ما كان لازماً، وبقي وحيداً طيلة عصر ذلك اليوم، إذ كانت «بيرت» قد حملت إلى دار «هوميه»، بينما لاذت «فيلدسييتيه» -مع الأم «لوفرنسوا»- بالحجرة في الطابق العلوي.

وفي المساء، وقد إليه بعض الزوار، فنهض وصافحهم وهو عاجز عن الكلام. ثم جلسوا متقاربين مؤلفين نصف دائرة أمام المدفأة، بوجوه منكسة، وقد راح كل منهم يؤرجح إحدى ساقيه على ركة الساق الأخرى، وهو يرسل الزفرات الحرى على فترات. كان كل منهم يشعر بسأم غير معهود، ومع ذلك فلم يشأ أي منهم أن يكون الأول في الانصراف.

وعندما عاد «هوميه» في الساعة التاسعة - ولم يكن يشاهد سواه في الميدان منذ يومين - كان مثقلاً بكميات من الكافور، والبنزين، والأعشاب العطرية.. كما كان يحمل جرة مليئة بماء الكلور، للتخلص من أية رائحة عفنة. وكانت الخادم، ومدام «لوفرانسوا»، والأم «بوفاري» يتحركن حول «إيما» وهن يلبسنها آخر ثيابها. ثم نشرن عليها خماراً من قماش متبيس، غطاها من رأسها حتى آخر حذاءيها الحريري.. وكانت «فيليسيتيه» تردد منهنتة: «أواه، يا سيدتي المسكينة! يا سيدتي المسكينة!» فتنهدت ربة الفندق قائلة: «ألا أنظر إليها. انها لا تزال جميلة! من ذا الذي لا يقسم على أنها لن تلبث أن تهب ناهضة بعد دقيقة!» ثم انحنين عليها ليضعن اكليل الزهور، واضطربن إلى أن يرفعن رأسها قليلاً، وإذا بسائل أسود ينساب من فمها، وكأنها تتقيأ. وصاحت مدام «لوفرنسوا»: «آه يا الهي! حذار أن يتسخ الثوب!» وقالت للصيدلي: «تعال لتساعدنا! أم تراك خائفاً؟» فهز كتفيه قائلاً: «أنا أخاف؟ آه صحيح! لقد شهدت الكثير في المستشفى حين كنت ادرس الصيدلة! لقد كنا نصنع شراباً مسكراً في قاعة التشريح، إن العدم لا يخيف فيلسوفاً، بل انني - كما اعتدت أن أقول - اعتزم أو أوصى بجثتي للمستشفيات، لتكون - فيما بعد - في خدمة العلم!»

وإذا وصل القس سأل عن صحة السيد، وما إن أجابه الصيدلي حتى قال: «لعلك تدرك أن الصدمة لا تزال قريبة العهد». إذ ذاك غبطه الصيدلي على أنه ليس معرضاً كسواه لفقد شريكة الحياة الحبيبة، وتبع ذلك نقاش حول عزوبة القساوسة. فقال الصيدلي: «الواقع أن من المجافاة للطبيعة أن يعيش القس بدون امرأة! كم من جرائم...» فصاح رجل الدين: «ولكن، كيف بالله تتوقع من قس متزوج أن يصور أسرار الاعتراف مثلاً؟» فهاجم «هوميه» الاعتراف، وانبرى «بورنيسيان» للدفاع عنه، متوسعاً في سرد آثار الإصلاح والارشاد التي تترتب على الاعتراف. وذكر قصصاً مختلفة عن لصوص انقلبوا فجأة رجلاً أمناء، وعن رجال عسكريين انقلبت القيم والمقاييس في نظرهم منذ مثلوا أمام محكمة التوبة. «ففي (فريبور) مثلاً، كان ثمة وزير... وتبين القس فجأة أن زميله قد نام، ثم لم يلبث أن أحس أنه يوشك أن يختنق في جو الحجرة الراكدة، ففتح النافذة، وإذا ذاك استيقظ الصيدلي فقال له: «إليك قبضة من السعوط.. خذها فانها تعشك!».. وسمع تباح متواصل عن بعد، فقال الصيدلي: «أسمع كلباً يعوي؟» فقال القس: «يقال إن الكلاب تشم رائحة الموتى. إنها كالنحل تترك خلاياها عند وفاة الأشخاص».



لم يعلق «هوميه» على هذه الترهات، إذ كان قد عاد للنعاس. أما السيد «بورنيسيان» فكان أقوى منه احتمالاً، ومن ثم ظل بعض الوقت يحرك شفتيه في قمتة خفيفة، وما لبث -دون ما شعور منه- أن خفض ذقنه، وأفلت كتابه الأسود الضخم، وشرع يغط. وكان يجلسان متقابلين، وقد برز بطناهما، وانتفخ وجهاهما، وعبست أساريهما، وقد وحد بينهما -بعد كل هذه الخلافات- نوع واحد من أنواع الضعف البشري، ولم يعودا يتحركان، تماماً كالجثة التي كانت إلى جوارهما، والتي لاحت هي الأخرى نائمة، ولم يوقظهما دخول «شارل». وكانت هذه آخر مرة، فأقبل يودعها. وكانت الأعشاب العطرية لا تزال تحترق، ودخانها المائل إلى الزرقة، والمتصاعد في خيوط حلزونية، يمتزج عند حافة النافذة بالضباب الوافد. وكانت ثمة نجوم قلائل، والليل لطيف الجو، والشمع الذائب يسيل من الشمعتين متساقطاً على أغشية الفراش في قطرات كبيرة. وتأملهما «شارل» وهما تحترقان، حتى غشى بصره لطول تحديقه في لهما الأصف.

وكانت قموجات الثوب الحريري تلمع ببيضاء كضوء القمر، وقد اختفت «إيما» في وميضها، فلاح له أنها إذ تحررت من كيائها، قد امتزجت بكل شيء حولها، بالسكون، وبالليل، وبالهواء العابر، وبعبير الرطوبة المتصاعدة من الأرض. ثم راح يتمثلها بفتة في حديقة دراهما في (توست)، على مقعد خلف السياج الشوكي، أو في (روان)، في الطرقات أو على عتبة دارهما في الفناء في (برتو). وخيل إليه أنه يسمع ضحكات الأولاد السعداء يرقصون تحت أشجار التفاح فرحين، وقد امتلأت الغرفة بأريج شعرها، واحتك ثوبها بذراعيه في حفيف بعث في كيانه مساً كهربائياً (كما حدث ليلة الزفاف) إنه عين الثوب الذي ترتديه الآن! وهكذا ظل فترة طويلة يستعرض أفراده الضائعة، وتصرفاتها، وحركاتها، وجرس صوتها، وكل أسى يعقبه آخر، متتابعة، لا تكف ولا تهن، كأنها أمواج بحر مزبد، وتولته رغبة قاسية، فرفع الوشاح في بطاء، بأطراف أصابعه، وهو يلهث. ولكنه سرعان ما أطلق صرخة ايقظت الآخرين، وجرى إلى قاعة الجلوس، وسرعان ما جاءت «فيليسيتيه» تقول إنه يريد بعضاً من شعرها. فقال لها الصيدلي: «قصي بعضه!»

ولما لم تجرؤ، تقدم بنفسه والمقص في يده، وكان يرتجف حتى أنه شق جلد الجبهة في دة أماكن. وأخيراً، قاوم «هوميه» مشاعره، واقتطع خصلتين أو ثلاثاً على غير هدى، نرکت رقعاً بيضاء خلال هذا الشعر الفاحم الجميل.



وعاد الصيدلي والقس يستغرقان في حوارهما، وأن لم يحل هذا دون أن ينعسا بين آن وآخر، وكل منهما يتهم الآخر بالنعاس كلما استيقظ هو، علي التوالي! ثم نشر السيد «بورنيسيان» الماء المقدس في الحجرة، فنثر «هوميه» بعض من ماء الكلور على الأرض!

وكانت «فيلسيتيه» قد عنيت بأن تضع كل منهما على صوان الملابس الداخلية زجاجة «براندي»، وبعض الجبن، ورغيفاً كبيراً، فتنهّد الصيدلي -الذي لم يعد يحتمل الجوع- في حوالي الساعة الرابعة من الصباح، وقال: «لعمري! انني لأسر بتناول (تصبيرة)» ولم يحتج القس إلى الحاح. ولكنه خرج لصلاة الصباح، ثم عاد، وإذا ذاك أكلاً، وشرباً، وهما يضحكان قليلاً، دون أن يدريا لذلك سبباً، وإنما حملتهما على الضحك تلك الغبطة المبهمة التي تتولانا بعد فترات الحزن. وعند الكأس الأخيرة، قال القس للصيدلي وهو يضربه على كتفه: «لسوف ننتهي إلى تفاهم!».

وفي ردهة الطابق السفلي، التقيا بأعوان ناقل الموتى، الذين وصلوا إذ ذاك. وما لبث شارل أن قضى ساعتين يعاني العذاب وهو يسمع المطرقة تدق الخشب. وفي النهار الذي تلا ذلك، وضعوا الجثة في التابوت البلوطي، الذي هيئ ليوضع في التابوتين الآخرين. وإذا كان التابوت الخارجي واسعاً، فقد اضطروا إلى أن يملأوا الفراغ بصوف من حشو إحدى الحشيات، وإذا سحجت الأغشية الثلاث بالمساج (الفارة)، ووضعت فوق التوابيت، وثبتت بالمسامير، ولحمت بالقصدير، حملت التوابيت إلى خارج الغرفة، ثم فتح البيت، فبدأ أهل (ايونفيل) يتدفقون.

وما لبث الأب «روو» - ولد «إيما» - أن وصل، فأغمر عليه في الميدان حين رأى إشارة الحداد السوداء.

الفصل العاشر

لم يكن قد تسلم رسالة الصيدلي إلا بعد انقضاء ست وثلاثين ساعة على الوفاة، وكان السيد «هوميه» -ترفقاً بمشاعره- قد صاغها بحيث يتعذر عليه أن يدرك حقيقة الأمر، ومع ذلك، فإن الشيخ المسن وقع في بداية الأمر. وكأنما أصيب بالسكتة القلبية، وعندما قرأ الرسالة ثانية، فهم أن ابنته لم تمت، ولكنها ربما كانت موشكة، وأخيراً، استطاع أن يرتدى قميصه، وأن يتناول قبعته، ويثبت المهمازين إلى حذائيه، ثم انطلق على جواده في أقصى سرعة. وكان الأب «روو» طيلة الطريق نهبة للهواجس، يلهث، بل لقد اضطر مرة إلى أن يترجل إذ غشيه دوار، وخيل إليه أنه سمع أصواتاً حوله، فخشى أن يكون موشكاً على الاختبال.

وإذ طلع النهار، رأى ثلاث دجاجات سوداء نائمة فوق إحدى الأشجار، فارتجف منزعاً من هذا النذير المشثوم. ثم نذر للعذراء المباركة ثلاث حلل من ثياب الكهنة للكنيسة، وأن يسير حافياً من مقبرة (برتو) إلى كنيسة (فاسونفيل). وإذا دخل قرية (ماروم) راح يصيح في أهل فندقها، ودفع الباب بكتفه فانفتح، ثم انقض على كيس من الشوفان لجواده، وأفرغ له زجاجة من شراب التفاح الحلو في المذود. وما لبث أن عاد يمتطي الحصان الذي أخذ الشرر يتطاير تحت سنايكه. وراح يعلل نفسه بأنهم ولا بد سينقذون ابنته، وأن الأطباء سيهتدون إلى دائها بالتأكيد، وتذكر كل المعجزات العلاجية التي كانت تحكى له. ثم تمثلها أمامه ميتة. كانت موجودة، تحت عينيه، مستلقية على ظهرها في عرض الطريق، فشد عنان جواده، وإذا اللطيف يختفي!

واحتسى في «كينكامبوا» ثلاثة أقذاح من القهوة تباعاً، كي يشدد عزمه، وصور له الوهم أنهم أخطأوا في الاسم الذي كتبوه، فبحث عن الرسالة في جيبه، وتحسسها، ولكنه لم يجرؤ على فتحها، وأخذ يفكر -أخيراً- في أن الأمر كله مزاح، وسيلة من شخص ما للانتقام، أو دعابة من سمج، ولو أنها كانت قد ماتت، لعرف. ولكن، لا! لم يكن في الريف شيء غير عادي، فالسما زرقاء، والأشجار تتمايل، ومر بقطيع من الغنم، ثم لمح البلدة، وشوهد مقبلاً وقد انحنى على جواده، يكيل له الضربات بعصاه، والدّم يقطر من سيور ركابه.



وإذا عاد إلى وعيه، سقط بين ذراعي «بوفاري» باكياً، وهو يردد: «يا ابنتي. إيها! يا طفلي! أرو لي ما حدث.» فأجابه الآخر منهنها بالكاء: «لست أدري! لست أدري! أنها

نقمة! « وفرق بينهما الصيدلي قائلاً: « هذه التفصيلات المؤلمة لا تجدي. سأطلع السيد على كل شيء. أما الآن، فما هم أولاء القوم مقبلون، شيئاً من الوقار! هيا! شيئاً من الفلسفة! « فحاول «شارل» المسكين أن يتجلد، وراح يكرر مراراً: «أجل! الجلد! الشجاعة! « أما الشيخ فصاح: «آه! سأتجلداً ساراقتها حتى النهاية! ».

وبدا جرس الكنيسة يدوي، وتأهب الجميع، إذ آن لهم أن يشيعوها. وفي الكنيسة، جلسوا جنباً إلى جنب في إحدى المقصورات، ورأوا المرتلين الثلاثة -الذين أخذوا يرددون المزامير- يمرّون أمامهم جيئةً وذهاباً باستمرار، وراح الأرغن يرسل أنغامه بأقصى قوته. وكان الأب «بورنيسيان» في كامل زيه يرتل بصوت حاد، ويحيي بيت القربان المقدس، ويرفع يديه، ويبسط ذراحيه. وراح «ليستيبودوا» يطوف بالكنيسة حاملاً عصاه المصنوعة من عظام الخوت. وكان التابوت قد وضع على مقربة من منبر قراءة الكتاب المقدس، بين أربعة صفوف من الشموع. وأحس «شارل» برغبة تحفزه على أن ينهض فيطفئها. وحاول أن يشغل نفسه في تلك الأثناء، بإذكاء الشعور بالتقوى في نفسه، وأن يستغرق في الأمل في حياة مقبلة يجتمع فيها بايما ثانية، وأخذ يصور لنفسه أنها سافرت في رحلة طويلة، بعيدة، لأمد طويل، ولكنه كان إذا ما تذكر أنها موجودة هناك، وإن كل شيء قد انقضى، ولن يلبثوا أن يغيبوها في الأرض، تولاه سخط مهتاج، حزين، يائس، وكان أحياناً يخال أنه لا يشعر بشيء على الإطلاق، فيستمرى فتور ضناه هذا، ويروح -في الوقت ذاته- يلوم نفسه!

وسمع على البلاط وقع عصا ذات نهاية حديدية، تدق الأرض في فترات متساوية، مناسبة من الطرف الأقصى للكنيسة، وما لبثت أن توقفت عند نهاية مقاعد المصلين، وركع في عناء، رجل في سترة بنية خشنة، كان «هيبوليت» سائس «الفندق الذهبي»، وقد استخدم ساقه الجديدة.

ودار أحد الشمامسة يجمع التبرعات، فأخذت قطع العملة النحاسية يرتطم بعضها ببعض على الصفحة الفضية. وصاح «بوفاري» مغضباً وهو يلقي إليه بقطعة من فئة الفرنكات الخمسة: «ألا اسرع، فإنني اتعذب!» فشكره رجل الكنيسة بانحناء طويلة، وانشدوا، وركعوا، ثم وقفوا، كأنما هذه الطقوس لا تنتهي! وتذكر أنه و«إيما» حضرا الصلاة في الكنيسة مرة -في باكورة استقرارهما في القرية- وانهما جلسا في الجانب الآخر، إلى اليمين، بجوار الحائط. وشرع الجرس يدوي من جديد، وانبعث جلبة من المقاعد، ودفع حاملو التابوت عصيهم الثلاث تحتهم، وغادر كل امرئ الكنيسة.

وظهر «جوستان» إذ ذلك لدى باب الحاتوت، ثم دخل ثانية، فجأة، وهو يترنح، وقد شحب وجهه. وكان الناس في التواقد يشهدون الجنائز، وقد سار «شارل» في المقدمة منتصب القامة، متظاهراً بالجلد، محيياً بهزة من رأسه أولئك الذين كانوا يخرجون من الحواري، ويقفون وسط الجمع. وإلى جانبي التابوت، سار ستة رجال -ثلاثة إلى كل

جانب- في خطى وثيدة، لاهئين قليلاً، وكان القساوسة، والمرتلون، واثنان من الشمامسة يرددون الكلمات الأولى من مزمور الرحمة (المزمور ١٣٠)، فتتردد أصواتهم فوق الحقل، مرتفعة ومنخفضة في قماوج. وكانوا أحياناً يتوارون في منعرجات الطريق، ولكن الصليب الفضي الكبير كان يظهر دائماً بين الأشجار.

وكانت النساء يسرن بعد هؤلاء، في معاطف سوداء، ذات قلنسوات مقلوبة، وقد حملت كل منهن في يديها شمعة كبيرة موقدة. وأحس «شارل» بقواه تزداد وهذا لاستمراره في ترديد الصلوات، ويسبب اللهب، ورائحة الشمع الطاغية، ومسوح الرهبان. وأخذت نسمة عليلية في الهبوب، وكانت نباتات الجويدار واللفت مخضوضرة، وعلى الأسبيجة الشوكية -على حافة الطريق- كانت قطرات الندى المحمرة ترنحجف. وكانت كافة الأصوات المرحية تملأ الهواء، قعقعة عربة تجري بعيداً، في الأخاديد، وصياح ديك أخذ يتردد مراراً، وصهيل فرس صغيرة ترتع تحت أشجار التفاح. وكانت السماء الصافية موشاة بسحب وردية، وعلى الأكواخ المغطاة بالسوسن، رأت ضباب ضارب للزرقة. وكان «شارل» وهو مار بأقنية الدور يتعرف على كل منها، وتذكر أياماً كان يعود فيها من زيارة أحد مرضاه في صباح كهذا، فيمر بهذه الدور في طريقه، إليها!

وكان الغطاء الأسود، الموشى بالخرز الأبيض، يطير من مكانه -بين وقت لآخر- فيكشف التابوت، وتباطأ حاملوا التابوت وقد تعبوا، فكان التابوت يتقدم في هزات مستمرة كسفينة ترتج على كل موجة، ووصلوا إلى المقبرة، فيمم الرجال مباشرة إلى مكان بين الحشائش حفر فيه قبر واصطفوا حوله، وبينما كان القس يتكلم، كانت التربة الحمراء المكومة على جوانب القبر تنهار عند الأركان، حتى إذا أعدت الحبال الأربعة، وضع التابوت عليها وراقبه وهو يهبط، وخيل إليه أنه سيظل يهبط إلى الأبد، ثم سمع صوت ارتطام، وأزيز انبعث عن احتكاك الحبال وهي تشد إلى أعلى، وما لبث «بورنيسيان» أن تناول المعول الذي أسلمه له «ليستيبيدوا»، وبينما كانت يده اليسرى لا تكف عن نثر الماء، أهالت اليد اليمنى كومة كبيرة من التراب بقوة، فلما ارتطم الحصى بخشب التابوت، سمع ذلك الصوت الرهيب الذي يلوح لنا كنبرات الأبدية!

وناول القس نائرة الماء المقدس إلى جاره، وكان السيد هوميه، فهزها في وجوم، ثم ناولها إلى «شارل» الذي جثا على ركبتيه في التراب، وملأ يده بالماء يلقيه صائحاً: «استودعك الله!» وبعث إليها بقبلات، ثم جر نفسه إلى القبر، ليدفن نفسه معها.. ولكنه حمل بعيداً ولم يطل به الوقت حتى هدأ، ولعله شعر كالأخرين، بارتياح مبهم إذ انتهى كل شيء. أما الأب «روو» فقد مضى -في عودته- يدخن غليونته في هدوء، الأمر الذي جعل «هوميه» يحس -في أعماق نفسه- بأنه لا يناسب المقام، كما لاحظ أن السيد «بينييه» لم يكن حاضراً، وأن «توفاش» قد تهلل بعد القداس، وأن «تيودور» -خادم ميثاق العقود- كان يرتدي سترة زرقاء، «كأنما ليس بوسع المرء أن يحصل على سترة سوداء، مادامت هذه

هي التقاليد، يا للشيطان! ولكي يشرك الآخرين في ملاحظاته، راح ينتقل من جماعة إلى أخرى، كانوا آسفين على موت «إيما»، لا سيما «لوريه» الذي لم يفته حضور جنازة، والذي راح يقول: «يا للشابة المسكينة! ما أشد ألم زوجها!» فقال الصيدلي: «هل تعلم أنه لولاي لأقدم على محاولة خنقة لنفسه؟».

ما كان أطيبها من امرأة! من يصدق أنني رأيتها يوم السبت الماضي، فقط، في متجري؟
قال الصيدلي: «لم أجد وقتاً لأنظم كلمة القيهما على قبرها».



ما أن ولج «شارل» داره حتى بادر إلى خلع ثيابه. أما الأب «روو»، فقد عاد إلى ارتداء قميصه الأزرق، وكان جديداً. ولما كان قد جفف دموعه به مرات كثيرات أثناء الرحلة، فقد تركت الصبغة أثراً على وجهه، كما تركت الدموع خطوطاً بين طبقات التراب التي تراكمت عليه.

وكانت مدام «بوفاري» الأم معهما. وساد الصمت ثلاثتهم. وأخيراً، تنهد الشيخ قائلاً: «اتذكر يا صديقي أنني زرتك مرة في (توست) عقب فقدك زوجتك الأولى؟ لقد واسيتك إذ ذاك. وجدت ما أقوله! أما الآن...» وفي أنين عال هز صدره، قائلاً: «آه! هذه نهايتي. أترى؟ لقد شهدت رحيل زوجتي، وابني بعدها، وها هي ذي ابنتي اليوم!» ورغب في أن يعود تواً إلى (برتو) قائلاً أنه لا يقوى على المبيت في هذا البيت، كما رفض أن يرى حفيدته، قائلاً: «لا، لا، أن هذا يسبب لي حزناً بالغاً، سأكتفى بأن تقبلها كثيراً عني! وداعاً! انك ولد طيب! ثم انني لن أنس قط هذا» وريت فخذه، وقال: «لا تبتئس! ستتلقني دائماً لديك الرومي!».

ولكن ما إن بلغ قمة التل، حتى التفت وراءه، كما التفت مرة من قبل، في طريق (سان فيكتور) حين ودعها وهي ترحل مع زوجها، وكانت نوافذ القرية تعكس أشعة الشمس الغارية وراء الحقول، فتلوح وكأن النار شبت فيها، ووضع يديه على عينيه، فرأى عند الأفق سداً من الجدران، وقد قامت الأشجار هنا وهناك، وكأنها عناقيد سوداء بين الأحجار البيضاء، وما لبث أن واصل سيره في خطوة معتدلة، إذ كانت دابته قد أصيبت بعرج.



ظل «شارل» وأمه ساهرين طويلاً يتكلمان، في تلك الليلة، رغم تعبهما، يتحدثان عن

أيام الماضي، وعن المستقبل. لقد عولت على أن تأتي فتقيم في (ايونفيل)، تعنى بيته، ولا يضرب بينهما فراق قط. كانت لبقّة، لطيفة، وقد ابتهجت في قرارة نفسها إذ استردت ثانية ذلك الحب الذي ضل عنها سنوات عديدة، ودقت الساعة معلنة انتصاف الليل، والقرية ساكنة كالعهد بها، أما «شارل» فكان مستيقظاً، لا يكف عن التفكير فيها، في «إيما».

وكان «رودولف» نائماً بسلام في قصره، بعد أن قضى اليوم كله يضرب في الغابة ليشغل باله عنها. أما «ليون»، فكان كعادته، في المدينة! على أن ثمة شخصاً آخر، لم يكن نائماً في تلك الساعة. فعلى القبر، بين شجرتي الصنوبر، كان ثمة فتى جاثياً ييكى، وقلبه الذي أضناه البكاء، يخفق في الظلام تحت عبء حزن هائل، ولكنه أعذب من القمر، ومن الليل الذي لا قرار له! وفجأة، سمع صرير باب المقبرة، كان «لستيبدو» قادماً ليبحث عن معوله الذي نسيه، فلمح «جويستان» يتسلق السياج منصرفاً، وعرف أخيراً من هو الشرير الذي كان يسرق بطاطسه!

الفصل الحادي عشر

استرد «شارل» في اليوم التالي طفله. وراحت تسأل عن أمها، فكان يقال لها إنها سافرت، وأنها ستجلب لها في عودتها بعض اللعب. وعادت «بيرت» تتكلم عنها عدة مرات، ثم لم تعد -في النهاية- تفكر فيها، وكان مرح هذه الصغيرة يفتت قلب «بوفاري». وكان عليه بجانب ذلك، أن يتحمل مواساة الصيدلي الملحاح التي لم تكن تطاق.

وسرعان ما عادت المتاعب المالية تثار، إذ عاد السيد «لوريه» يحرض صديقه «فانكار»، وتورط «شارل» في سندات مبالغ متزايدة، إذ ما كان ليرضى أبداً بأن يباع أثفه متاع كان لا يما يوماً. وانتقدت أمه حاله، فغضب كما لم يغضب من قبل -إذ كان قد تغير تغيراً تاماً- ولم تلبث أمه أن هجرت البيت.

وإذ ذاك، بدأ كل امريء يستغله. فطالبتة مدموازيل «لامبرير» بحساب دروس لمدة ستة شهور، مع أن «إيما» لم تتلق عليها درساً واحداً (رغم ذلك الايصال الزائف الذي أطلعتة «إيما» عليه). كان ثمة اتفاق بين المرأتين وطالب صاحب المكتبة -الذي اعتاد أن يعير الناس كتبه- باشتراكات السنوات الثلاث الأخيرة، وطالبتة الأم «روليه» بأجور البريد عن عشرين خطاباً، فلما استفسرها «شارل»، الهمتها لباقتها أن تجيب «أه! لست أردى! كان ذلك من أجل شئونها!»

وكان «شارل» كلما دفع ديناً، ظن أنه الأخير، ثم لا يلبث أن يفاجأ بديون أخرى لا تنقطع. وأرسل لمرضاه يسألهم اتعابه، فعرضت عليه الخطابات التي كانت زوجته قد كتبتها لهم، فكان يضطر إلى أن يعتذراً وأصبحت «فيليسيتيه» ترتدي ثياب السيدة، أكثرها على الأقل، فقد احتفظ هو بالبقية، كان يذهب ليتأملها في مخدعها، بعد أن يغلق الباب خلفه، وكانت الخادم في مثل طولها، فكثيراً ما كان «شارل» -حين يراها مدبرة- يتولاه الوهم بأنها هي، فيصيح: «أواه! الا امكثي. امكثي». ولكنها في عيد العنصرة هربت من (ايونفيل) مع «تيودور» بعد أن سرقت من صوان الملابس كل ما كان قد تبقى. وفي حوالي ذلك الوقت، تلقى من الأرملة «ديبوى» رسالة تتشرف فيها باخطاره: «بزواج ابنها السيد «ليون» -موثق العقود في (ايفيتو)- إلى الأنسة ليوكاديه ليبوف من بوندفيل» وقد جاء فيما كتبه «شارل» ليهنته: «ما كان أخرى زوجتي المسكينة بأن تسعد بهذا!».



وإذا كان يهيم يوماً في البيت على غير هدى، صعد إلى غرفة المخزن، فأحس تحت

نعله بكرة من ورق رقيق، بسطها فاذا فيها: «تشجعي يا «إيما» تشجعي! ما كنت لأحيل حياتك إلى شقاء» كانت رسالة «رودولف» وقد وقعت على الأرض بين الصناديق، حيث بقيت، حتى طوح بها الهواء الوافد من الكوة نحو الباب. ووقف «شارل» جامداً، محملاً في نفس المكان الذي وقفت فيه «إيما» من أمد طويل، يائسة -أشد شجوباً مما هو الآن- وقد أخذت فكرة الموت تراودها. واكتشف أخيراً حرف «ر» صغير في نهاية الصفحة الثانية. ما هذا! وتذكر ما كان يبيده «رودولف» من اهتمام بزواجه، ثم اختفاؤه المفاجئ، وما كان يلوح عليه من ضيق وحرَج حين التقيا مرتين أو ثلاثاً بعد ذلك، ولكن اللهجة الوقور التي سادت الخطاب خدعته، فقال لنفسه: «لعل كلا منهما أحب الآخر حباً عذرياً»! ثم أن «شارل» لم يكن ممن يتعمقون وراء الأشياء، بل إنه أجفل من أن يعثر على أدلة، وتبددت غيرته المبهمة في حزنه الهائل. وراح يعلل نفسه بأن كل امرئ لا بد كان يعيها! بل من المؤكد أن كل الرجال كانوا يشتهونها! وزادها هذا جمالاً لديه! واستولت عليه شهوة باقية هوجاء نحوها، أذكت من قنوطه الذي لم يكن له حد، إذ لم يعد من سبيل إليها. ولكي يرضيها -وكانها كانت لاتزال على قيد الحياة- اعتنق ميولها، وآراءها، وابتاع أحذية من الجلد الطرى، وأغرم بارتداء ربطات العنق البيضاء، واستعمل الدهون في تنسيق شاربيه، وأصبح يوقع -مثلها- سندات تحت الطلب. كانت «إيما» تقوده إلى الخراب، من أعماق قبرها!

اضطر إلى أن يبيع التحف الفضية قطعة بعد أخرى، ثم باع أثاث حجرة الجلوس، وتعرّت كل الغرف، عدا غرفة النوم، غرفتها، فقد بقيت كما كانت من قبل. وكان «شارل» يصعد إليها بعد عشاءه، فيدفع المنضدة المستديرة أمام المدفأة، ويجذب مقعدها -ذا المسندين- ثم يجلس أمامه، وفي أحد الشمعدانات المذهبة شمعة تحترق، و«بيرت» إلى جواره تطيع بعض الصور باستخدام اختام محفورة. وكان الرجل البائس يتعذب إذ يراها سيئة الملبس، فحذاءها بغير رباطين، والثقوب التي تخللت ذراع قميصها امتدت في تمزق وصل إلى ردفها، فان المرأة التي كانت تفد للعناية بالبيت، لم تشغل نفسها بها. على أن الصغيرة كانت لطيفة جداً، رقيقة للغاية، وكان رأسها الصغير ينحني إلى الأمام في رشاقة، تاركا شعرها الأشقر الغزير ينسدل على خديها، فيحس «شارل» بغبطة لا نهاية لها تغمره، وسعادة ممزوجة بمرارة، كتلك الخمور الرديئة الصنع التي يكون لها طعم زيت الخروع. وكان يصلح لها لعبها، أو يصنع لها أشكالاً من الورق المقوى، أو يخطط لها الدمى الممزقة، وكان إذا وقعت عيناه -إذ ذاك- على صندوق الحياكة، أو على شريط ملقى، أو حتى ابرة مستترية في أحد شقوق المنضدة، يستغرق في الأحلام، ويتجلى عليه الحزن، حتى تبدو الصغيرة بدورها حزينه مثله.

ولم يعد يفد لزيارتها أحد، فقد هرب «جوستان» إلى (روان) حيث أصبح صبياً لدى بقال، وأخذت زيارات أطفال الصيدلي للصغيرة تقل شيئاً فشيئاً، إذ لم يعد السيد «هوميه» يعنى باستمرار الود، وهو يرى الفارق في المكانة الاجتماعية بينهما.

وكان الأعمى -الذي أخفق علاجه بذلك البلسم- قد عاد إلى تل غابة (جيوم) حيث راح يخبر المسافرين بمحاولة الصيدلى الفاشلة، حتى أصبح «هوميه» -إذا ذهب إلى المدينة- يتوارى خلف ستائر «العصفورة» ليتفادى الالتقاء به، بل أنه أصبح يكرهه، ويتمنى -من أجل سمعته- أن يتخلص منه بأى ثمن، فشن عليه حملة مستترة، كشفت عن عمق ذكائه، وعن خسة غروره، فكان المرء يقرأ في «الفانال دى روان» -طيلة ستة شهور متتابة- نبذاً، راح يردد فيها:

«كل قاصد إلى سهول بيكاردي الخصيبة، لاحظ ولابد على مقربة من تل غابة (جيوم) متسولاً مصاباً بجرح فظيع في وجهه. وهو يزغجك في لجاجة، ويطاردك، ويفرض على المسافرين جميعاً جزية حقيقية. فهل مازلنا نعيش في العصور الوسطى البشعة، حين كان يباح للأفاكين أن يعرضوا في المحال العامة ما عادوا به من الحملات الصليبية من جذام وداء الخنازير!» أو «على الرغم من القوانين المكافحة للتشرد، فإن مشارف مدننا الكبرى لاتزال موبوءة بعصابات من التسولين. وشاهد من هؤلاء من يطوفون فرادى، ومن يحتمل أن لا يكونوا أقل خطراً من سواهم. فما رأي أعضاء مجالسنا البلدية؟».

ثم أخذ «هوميه» يبتكر الأقاصيص: «جمع بالأمس جواد عند تل غابة (جيوم) ...» ثم يردف هذا بقصة حادث نشأ عن وجود الرجل الأعمى. وقد أحكم حملته، حتى حبس الرجل، ولكنه ما لبث أن سرح، وعاد من جديد، فعاد «هوميه» إلى حملته! كانت معركة، قدر لهوميه أن يكسبها، إذ قضى على غريمه بالبقاء في ملجأ طوال عمره.



وجراء هذا النجاح! ومنذ ذلك اليوم لم يعد كلب يدهس، أو مخزن للغلال يحترق، أو امرأة في الأبرشية تضرب، إلا وكان يبادر للتو إلى نشر النبأ للرأي العام، يحذوه دائماً حب الرقي وكراهية القساوسة! وكان لا يفتأ يقارن بين المدارس الأولية والمدارس الكنسية ليوقع الضرر بهذه، وأعاد إلى الأذهان مذبحة «سان بارتليمى»، من أجل منحة قدرها مائة فرنك قدمت للكنيسة، وحمل على المساوي، وكشف عن آراء جديدة، كما كان يقول! كان «هوميه» يحفر ويهدم، ومن ثم أصبح خطيراً! على أنه أحس بأنه يختلق في حدود الصحافة الضيقة، ولم يلبث أن وجد أن لابد له من كتاب يؤلفه. وإذ ذاك وضع مؤلفاً في «إحصاءات عامة لمنطقة (ايونفيل)، تتبعها ملاحظات عن المناخ». ودفعته الإحصاءات إلى الفلسفة، فشغل بمسائل كبيرة: المشكلة الاجتماعية، والتهديب الخلقي للطبقات الفقيرة، وتربية الأسماك والمطاط، والسكك الحديدية، الخ. بل أنه أخذ يخجل من انتمائه إلى الطبقة المتوسطة، فاتخذ لنفسه مظهر أهل الفن، وأقبل على التدخين! وابتاع ثمالين بديعين، من طراز «بومبادور» ليزين بهما غرفة جلوسه، بيد أنه لم يهجر الصيدلية على

الاطلاق، بل أنه -على النقيض- ظل مواظباً على متابعة الاكتشافات، فتتبع الحركة الكبرى التي أثّرت بصدد أنواع «الشيكولاته». وكان أول من أدخل «الكاكاو» و«الريفالنسيا» إلى حوض (السين) الأدنى، وتحمس لأطواق «بولفرماشيه» الكهربائية وارتدى بنفسه منها، فكان إذا خلع قميصه الداخلي (الفلاتيلا)، ذهلت زوجته لرؤية الوهج الذهبي الحلزوني الذي كان يختفي وراءه، وشعرت بشوقها يتضاعف لهذا الرجل، الملتف في الأطواق كأنه ساحر مجوسى.

وكانت له آراء طريفة بصدد قبر «إيما»، فاقترح في البداية أن يقام عليه عمود أوتر مكسو بالجوخ، ثم اقترح هرمًا، ثم معبدًا، ثم صرحاً ذا قبة، أو «ركاماً من الأطلال». وكان «هوميه» في جميع هذه المشروعات، لا يتحول عن إضافة نبات الصفصاف الباكي، الذي كان يعتبره رمزاً لأبد منه للحزن.

ورحل «شارل» معه إلى (روان) لشاهدة بعض القبور. لدى أحد صانعي التوابيت، وصحبهما فنان يدعى «فوفريلار» -من أصدقاء «بريدو»- ظل طيلة الوقت يتكلم بالألغاز. وأخيراً، وبعد أن فحصوا حوالى مائة رسم، طلبوا تقديراً للنقش. ثم قام الصيدلي مع «شارل» برحلة أخرى إلى (روان)، قرر فيها الأخير أنه يؤثر الاكتفاء بضرب مزخرف، يقام على كل من جانبيه الرئيسيين «قثال لجنى يحمل مشعلًا لا يخدم». أما الكتابة التي تنقش عليه، فلم ير «هوميه» أجمل من «استريحي أيتها المسافرة» باللاتينية، ولم يزد وأخذ يعصر ذهنه، ويردد باستمرار «استريحي أيتها المسافرة». ثم خطرت له عبارة «خفف الرطاً إنها زوجة محبة» باللاتينية، فاستقر الرأي عليها.

وكانت ثمة ظاهرة غريبة، فبينما كان «بوفاري» يفكر باستمرار في «إيما»، أخذ ينساها، واشتد به الأسى إذ شعر أن هذا الطيف يغيب عن ذاكرته رغم كل الجهود التي كان يبذلها للاحتفاظ به، ومع ذلك فإنه كان يحلم بها في كل ليلة، نفس الحلم. كان يقترب منها، حتى إذا هم باحتضانها، هوت متعفنة بين ذراعيه وشوهد يتردد على الكنيسة كل مساء، لمدة اسبوع، كما أن الأب «بورنيسيان» زاره مرتين أو ثلاثاً ثم أهمله، لا سيما وأن القس المسكين أصبح لا يطاق، وازداد تهوساً، كما قال «هوميه». كان يرغبى ويزيد ضد روح العصر، ولم يكف عن أن يذكر في مواظبه -مرة كل اسبوعين- الآلام التي عاناها «فولتير» عند احتضاره، ثم موته بعد عذاب مرير -نتيجة لإلحاده- كما يعرف كل امرئ!



وعلى الرغم من الاقتصاد الذي انتهجه «بوفاري» فإنه كان أعجز من أن يسد ديونه القديمة، ورفض «لوريه» أن يجدد السندات بعد ذلك، وأصبح الحجز على داره متوقفاً. فتوسل إلى أمه، التي وافقت على أن ترهن عقارها من أجله، ولكن، بعد أن أبدت كثيراً

من اللوم البالغ لما فعلته «إيما»، وسألته في مقابل هذه التضحية، شالا كان لا يما وافلت من عدوان خادمتهما، فأباه عليها «شارل»، ومن ثم تخاصما، على أنها كانت البادئة بالسعي إلى الصلح، فعرضت أن تكفل البنت الصغيرة، لتساعددها في البيت وتعيش معها. ووافق «شارل» على هذا، ولكن شجاعته خائته عندما حان الفراق، وإذ ذاك حدثت قطيعة نهائية، كاملة.

وكان كلما تبدد وجده لا يما، ازداد تعلقاً بحب ابنته، على أنها كانت تسبب له قلقاً، إذ كانت تسعل في بعض الأحيان، وظهرت بقعتان حمراوان على خديها. وفي البيت المقابل، كانت أسرة الصيدلي مزدهرة، مرحة، كل شيء لديها في غناء، فأصبح «نابليون» يساعد أباه في العمل، ونسجت له «أتالي» قلنسوة، وكانت «إيرما» تقص له أقراصاً من الورق لتغطية المواد التي يخزنونها، وأصبح «فرانكلين» يقرأ جدول «فيثا غورس» عن ظهر قلب، في نفس واحد. كان «هوميه» أسعد الآباء وأكثر الرجال حظاً!

ولكن، لا! كان يقض مضجعه مطمع تكتمه! كان يتوق إلى وسام صليب الشرف (اللجيون دونير). ولم تكن المبررات تعوزه، فأولاً: برز في أيام الكوليرا بما كان يديه من تفان لآحد له، وثانياً: نشر -على حسابه الخاص- عدة مؤلفات ذات نفع عام (وكان يذكر كأمثلة عليها: كتيباً أصدره بعنوان «شراب التفاح: صناعته ومفعوله»، وكذلك ملاحظات عن الحشرة الوبية أرسلها إلى «الأكاديمية»، ومؤلفه الاحصائي، ويمضي في سرد مؤلفاته حتى يذكر الرسالة التي قدمها للحصول على شهادته في الصيدلة)، ثم يضيف: «هذا عدا أنني عضو في جمعيات عديدة للعلماء» -وما كان عضواً إلا في واحدة! وكان يصيح وهو يدور على رجل واحدة: بالايجاز، أنني أهل للوسام، ولو لبلاتي في الحرائق فحسب!«.

وما لبث «هوميه» أن مال إلى صف الحكومة، فأسدى لمدير الأقاليم -في السر- خدمات كبيرة في الانتخابات، باع نفسه في النهاية، بغى وفجراً بل انه رفع ملتصاً إلى العاهل يناشده فيه أن «ينصفه»، وخاطبه فيه بـ «مليكننا الصالح»، وقارن بينه وبين هنري الرابع. وأخذ الصيدلي ينقض على الصحيفة في كل صباح، ليرى نبأ الأنعام، ولكنه لم ينشر قطاً وأخيراً، عجز عن المضي في الاحتمال، وكانت في حديقته بقعة معشوشبة صممت على شكل نجمة الوسام ويتصل بأعلاها شريطان من الحشائش يمثلان شريط الوسام، فأخذ يسير حولها عاكداً ذراعيه، مفكراً في غباء الحكومة، وعدم اعتراف البشر بالفضل لأهله.

ولم يكن «شارل» قد فتح بعد الدرج السري في المكتب المصنوع من خشب الورد -الذي كانت «إيما» تستخدمه عادة- بوازع من الاحترام لذكراها، أو بدافع من لون من اللذة كان يحمله على أن يبطيء في أبحاثه. على أنه جلس ذات يوم أمام المكتب، فأدار المفتاح، وضغط الزر، وكانت كل رسائل «ليون» هناك، ولم يعد ثمة مجال للشك في هذه

المرّة، وأخذ يلتهم الرسائل حتي آخرها، ثم مضى ينقب في كل ركن، بل في قطع الأثاث جميعاً، وفي كل الأدراج، وخلف الجدران وهو منهمل الدمع، يجهش بالبكاء، مختبلاً، مجنوناً وعثر على صندوق، ففتحه بركلة من قدمه، وإذا بصورة «رودولف» تقفز في وجهه، وسط خطابات عاطفية مكدسة.

وعجب الناس لانطوائه، فلم يعد يخرج، ولم يعد يقابل احداً، بل إنه أصبح يرفض أن يعود مرضاه، وما ليث أن تردد زعم بانه «يحبس نفسه ليعكف على الشراب»! على أن بعض الفضوليين كانوا -أحياناً- يتسلقون سياج الحديقة، فكانوا يرون -مذهولين- ذلك الرجل الشارد الفكر، الطويل اللحية، الزرى الملبس، الذي كان يجهش بالبكاء بصوت عال وهو يمشي.

وكان في المساء المبكر -في الصيف- يصطحب ابنته ويقودها إلى المقبرة، ثم يعودان حين يرخى الليل سدوله، ولا يبقى في الميدان من ضوء سوى الضوء المنبعث من كوة «بينييه» غير أن لذة حزنه لم تكن كاملة، إذ لم يكن بجواره من يشاطره آياها، فأخذ يزور الأم «لوفرانسا» راجياً أن يتحدث إليها، ولكن ربة الفندق لم تكن تصغى إليه الا بنصف اذن، إذ كانت لديها متاعبها الخاصة، فقد أنشأ «لوريه» أخيراً عربات لنقل الركاب -تنافس عربتها «العصفورة»- باسم «المفضلة للتجارة»، وأصر سائق «العصفورة» المدعو «هيفير»-الذي اكتسب شهرة كبيرة في اداء عمله- على أن يرفع أجره، وأخذ يهدد بأن يذهب إلى «المنافس»!



وفي ذات يوم ذهب «شارل» إلى سوق (أرجوى) لبيع حصانه -آخر مورد لديه- فالتقى برودولف. وشحب كل منهما إذ لمح الآخر، وتتم رودولف -الذي كان قد اكتفى بأن يرسل إليه بطاقة للتعزية- ببضعة أعذار، وهو متلعثم، ثم وافته الجرة، حتى أنه مضى في طمأنينته إلى حد دعوته إلى تناول زجاجة من الجعة في الحانة، وكان الجو قائظاً، إذ كان الشهر أغسطس.

ومال على المنضدة أمامه، وأخذ يمضغ سيجاره وهو يتكلم، بينما كان «شارل» غارقاً في تأمل ذاك الوجه الذي أحبته، هي! وخيل إليه أنه يرى في هذا الوجه شيئاً منها، كان يثير عجبه، حتى لقد ود لو كان هو هذا الرجل!

ومضى «رودولف» يتحدث عن الزراعة، والماشية، والمرعى، وهو يملأ -بعبارات مبتذلة- الثغرات التي كان يعوزه فيها الايضاح. ولم يكن «شارل» مصغياً إليه، ولاحظ «رودولف» ذلك، فتتبع مجرى الذكريات التي كانت تنعكس على وجهه، إذ أخذ هذا الوجه يزداد احتقاناً، وراحت طاقتا أنفه تختلجان بسرعة، وشفته تترجفان، وحانت لحظة أفعم

فيها «شارل» بغضب قاتم، فثبت عينيه على «رودولف»، الذي كف عن الحديث في شيء من الخوف، ولكن، سرعان ما عاد إلى وجه «شارل» ذلك الطابع المضني الحزين، وقال: «لست أحقد عليك!» وبهت «رودولف»، ومضى «شارل» يقول -ورأسه بين راحتيه- في صوت متهدج، وفي لحظة مثقلة بحزن لا حد له: «لا، لست أحقد عليك!» بل إنه أضاف عبارة رقيقة، العبارة الوحيدة من نوعها: «إنها غلطة القدر».

ورأى «رودولف» -وهو الذي وجه هذا القدر- أن العبارة دمثة، لاسيما من رجل في مثل مركز «شارل» بل ومضحكة، وخسيصة إلى حد ما!



في اليوم التالي، ذهب «شارل» فجلس على المقعد الطويل الذي كان في الحميلة، وكانت أشعة الشمس تنساب خلال الأفنان، وأوراق الكرمة تطبع ظلالها على الرمل، والياسمين يضوع الهواء بعبيره، والسماء زرقاء، والذهب الهندي يطن محمواً حول الزنبق المزهري، وأحس «شارل» بأنه يختنق، كما يفعل الشاب المراهق حين تفيض به تيارات الحب المبهمة التي يفعم بها قلبه.

وفي الساعة السابعة، أقبلت «بيرت» الصغيرة -لم تكن قد رأت قط طيلة ما بعد الظهر- تبحث عنه للعشاء، فاذا رأسه مسند إلى الحائط خلفه، والعينان مغمضتان، والفم مفتوح، وفي يده خصلة طويلة من شعر أسود، وهتفت: «هيا يا أبت، تعال!». وإذا ظنته راغباً في مداعبتها، دفعته في رفق، فهوى إلى الأرض. كان قد مات!

وبعد ست وثلاثين ساعة، أقبل السيد «كانيغه» -برجاء من الصيدلي- فقام بتشريح الجثة، ولم يجد شيئاً.

وعندما بيع كل شيء، تبقى أثنا عشر فرنكا وخمسة وسبعون سنتيماً، استخدمت في دفع نفقات سفر الأنسة «بوفاري» إلى جدتها.

ثم ماتت الجدة العجوز في نفس السنة. وكان الأب «روو» -والد إيما- قد أصيب بالشلل، فكفلت الفتاة عمه لأمرها، كانت امرأة فقيرة، فأرسلتها لتكسب عيشها في مصنع لنسيج القطن.

ومنذ وفاة «بوفاري» تتابع على (ايونفيل) ثلاثة أطباء، واحداً بعد واحد، دون أن يرفقوا، فقد كان «هوميه» يحمل عليهم في عنف، كان عدد عمالاته قد تضخم، وأغضت السلطات أعينها عنه، وتكفل الرأي العام بحمايته.

وقد حصل لتوه عل صليب الشرف، «اللجيون دونير»!

المحتويات

٧	القسم الأول
٩	الفصل الأول
١٧	الفصل الثاني
٢٥	الفصل الثالث
٣١	الفصل الرابع
٣٧	الفصل الخامس
٤١	الفصل السادس
٤٧	الفصل السابع
٥٣	الفصل الثامن
٦٣	الفصل التاسع

٧٣	القسم الثاني
٧٥	الفصل الأول
٨٣	الفصل الثاني
٨٩	الفصل الثالث
٩٩	الفصل الرابع
١٠٣	الفصل الخامس
١١١	الفصل السادس
١٢١	الفصل السابع
١٢٧	الفصل الثامن
١٤٣	الفصل التاسع
١٥١	الفصل العاشر
١٥٧	الفصل الحادي عشر
١٦٧	الفصل الثاني عشر
١٧٧	الفصل الثالث عشر

[١٨٥	-----	الفصل الرابع عشر
[١٩٣	-----	الفصل الخامس عشر

[١٩٩	-----	القسم الثالث ♦♦♦
[٢٠١	-----	الفصل الأول
[٢١١	-----	الفصل الثاني
[٢١٩	-----	الفصل الثالث
[٢٢١	-----	الفصل الرابع
[٢٢٥	-----	الفصل الخامس
[٢٣٧	-----	الفصل السادس
[٢٥١	-----	الفصل السابع
[٢٦٣	-----	الفصل الثامن
[٢٧٧	-----	الفصل التاسع
[٢٨٣	-----	الفصل العاشر
[٢٨٩	-----	الفصل الحادي عشر

إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز



روايات

اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية / خيرى شلبي
رائحة البرتقال / محمود الورداني
ورديّة ليل / إبراهيم أصلان
حجارة يوبيللو / إدوار الخراط
عبدة الصفر / ألان نادو (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
مدام بوثاري / جوستاف فلوير (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)



قصص

السراثر / منتصر القفاش
الديوان الأخير / عيد الحكيم قاسم
أصوات الليالي / إدوار الخراط
ضوء ضعيف لا يكشف شيئاً / محمد البساطي
القمر في اكتمال / نبيل نعموم



شعر

فاصلة ابتاعات التمثل / محمد عفيفي مطر
فقه اللذة / حلمي سالم
لا نيل إلا النيل / حسن طلب
مطر خفيف في الخارج / إبراهيم دارود



دراسات

من أوراق الرفض والقبول / فاروق عبد القادر
مسح الشعب / د. علي الراعي
البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث / د. سيد البحراوي



كاريكاتير

ناجي العلي في القاهرة / ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)



عيون الأدب الأجنبي

يصدر منها

◆ عبدة الصفر

ألان نادو

ترجمة: البستاني و البطرأوي

◆ مدام بوفاري

جوستاف فلوبيير

ترجمة: محمد مندور

◆ الكلمات

جان بول سارتر

ترجمة: خليل صابات

◆ الأحمر والأسود

ستاندال

ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

◆ المكان

آني إرنو

ترجمة: أمينة رشيد

وسيد البحرأوي

◆ كبش القداء

رينيه چيرار

ترجمة: هدى جمال الدين



دار شرقيات للنشر والتوزيع

